

مكتبة الأديبات

مكتبة

الكتاب 3

مكتبة تونس

الكتاب

مكتبة الفنون

المكتبة العلمية

الطرق الصوفية

و

الإستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية
(1881 - 1939)

مكتبة

الإستعمار



Bibliotheca Alexandrina



0030304

جامعة تونس I
كلية الآداب بمنوبة

مجلد : 2

سلسلة : التاريخ

التليلي العجيلي

الطرق الصوفيّة والإستعمار الفرنسي
بالبلاد التونسية
(1881 - 1939)

منشورات كلية الآداب بمنوبة
1992

هذا الكتاب هو النص الكامل للرسالة التي اعدتها تحت اشراف الدكتور
رشاد الإمام لنيل دكتوراه المرحلة الثالثة، وقد نوقشت بكلية العلوم الانسانية
والاجتماعية بتونس يوم 23 جوان 1987.

إلى زوجتي وأبنائي
الذين أخذوا هذا العمل الكثير من وقتي
على حسابهم

فهرس المحتويات

13	تقديم
19	مقدمة
23	الفصل الأول: الطرق الصوفية في البلاد التونسية
25	I التصوف في الاسلام:
25	1. نشأته
27	2. تطوره
30	3. مميزاتة
30	أ - ولاية الشيخ
32	ب - طاعة المرید
34	4. مؤسساته:
34	أ - أنواعها:
37	ب - هيكلتها:
39	II لمحة تاريخية عن الطرق الصوفية في البلاد التونسية:
40	1. تاريخها:
40	أ - الطرق الأصلية:
40	— الطريقة القادرية
43	— الطريقة التيجانية
45	ب - الطرق الفرعية:
45	* الطرق المتفرعة عن القادرية
45	— الطريقة الشاذلية
47	— الطريقة المدنية
48	— الطريقة الشايبية

49 * الطرق المتفرّعة عن غير القادرية

55 2. خصائصها ومواردها

55 أ - خصائصها

57 ب - مواردها

57 - الممتلكات العقارية

59 - الممتلكات المنقولة

75 الفصل الثاني : السّياسة الاستعماريّة تجاه الطّرق الصّوفيّة

77 I أسس السّياسة الاستعمارية ووسائلها

77 1. أسسها

77 أ - تجرّية الجزائر

78 ب - الفكرة المسبّقة

79 2. وسائلها

79 أ - الدّراسات والاحصائيات

83 ب - تقييمها

85 II ملامحها ومميّزاتها

85 1. مراقبة السّلط الاستعمارية لمشائخ الطرق

85 أ - تدخّل السّلط الاستعمارية في تسمية مشائخ الطرق

89 ب - مراقبة السّلط الاستعمارية لتنقّلات مشائخ الطرق

93 2. احتواء السّلط الاستعمارية لبعض مشائخ الطرق

93 أ - الاعفاءات

94 ب - التّسهيلات

ج - التّوظيف 96

3. تفقيير السلط الاستعمارية للطرق ومشائخها 99

أ - منع الزيارات 100

ب - ضرب الأحباس 101

الفصل الثالث: علاقات الطرق الصوفية بالاستعمار

الفرنسي 111

I - الطرق الصوفية والمسألة الاستعمارية 113

1. مواقف الطرق الصوفية من دخول الاستعمار الفرنسي للآلالة

التونسية 115

أ - بعض المشائخ المتواطئين مع المستعمر 115

ب - بعض مشائخ الطرق الذين قاوموا دخول الاستعمار 120

ج - المقاومة الوطنية لدخول الاستعمار ودور الطرق فيها 123

- في الشمال 123

- في الشمال الغربي 125

- في الوسط والوسط الغربي 128

- في صفاقس 136

- في الجنوب 141

د - أسباب سلبية بعض الطرق في مقاومة الحماية 149

2. مواقف الطرق الصوفية من الاستعمار الفرنسي بعد استقراره

بالبلاد 152

أ - الطرق الموالية للمستعمر 152

ب - الطرق المناهضة له 154

- ثورة الفراشيش 155

163	— أحداث الجنوب
166	ج — أسباب مهادنة بعض الطرق للإستعمار
	3. مواقف الطرق الصوفية من اندلاع الحرب العالمية الأولى ودخول
168	تركيا فيها الى جانب ألمانيا
169	أ — مميزات الوضع الداخلي
175	ب — ردود فعل الطرق الصوفية في الايالة
187	II الطرّيق الصّوفية والسياسة الاستعمارية
187	1. مواقف الطرق الصوفية من السياسة الاستعمارية بالايالة
	أ — مواقفها من السياسة الاستعمارية في المجالين الاقتصادي
187	والاجتماعي
188	مميزات الوضع الاقتصادي والاجتماعي للايالة سنة 1930
191	الاجراءات المتعلقة بالجانب الاقتصادي والاجتماعي
193	ردود فعل الطرق الصوفيّة
197	ب. مواقف الطرق الصوفية من السياسة الاستعمارية سياسيا
203	2. مواقفها من بعض الأحداث التي جدّت بالايالة
203	أ — أحداث طرابلس الغرب
207	ب — أحداث الزلاّج
214	ج — أحداث مقاطعة الترامواي
228	د — أحداث التّجنيس
227	3 — مواقف الطرق الصوفية من الحركة الوطنية
	أ — مواقف بعض الطرق من النضال الوطني
227	بين 1920 و1930

233	ب - تدعّم النشاط الوطني وإجراءات 1934 التعسّفية وموقف الطرق من كل ذلك
243	الفصل الرابع : ضعف الطرق الصوفية
245	I مظاهر ضعف الطرق الصوفية
245	1. تقلّص نفوذ الطرق الصوفية
245	أ - الرّكيز الاقتصادية
246	ب - القاعدة الشّعبية
246	2. تكثّف النّشاط الوطني
251	II - أسباب ضعف الطرق الصوفية
251	1. الأسباب الخارجية
251	أ - التّعليم وتبدّل العقليات
256	ب - السياسة الاستعمارية
257	2. الأسباب الدّاخلية
257	أ - الصّراعات الدّاخلية
259	ب - ممارسات بعض مشائخ الطّرق
260	ج - مواقف مشائخ بعض الطرق من الاستعمار وعلاقتهم به
262	* الخاتمة
	* * *
267	* الملاحق
295	* المصادر والمراجع

- فهرس الاعمال 327
- فهرس الأمم والقبائل والجماعات 337
- فهرس الوظائف الدينية والإدارية والسياسية وغيرها 350
- فهرس المؤسسات والتنظيمات والجمعيات الدينية والسياسية والاجتماعية وغيرها 356
- فهرس الطرق الصوفية 362
- فهرس الأماكن 363
- فهرس الجداول والخرائط 378

تقديم

يسعدني أن أستجيب إلى طلب الأستاذ التّليلي العجيلي بتقديم كتابه: الطرق الصّوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التّونسية (1881 – 1939)، وهو التأليف الذي يكفي وحده أن يكشف لقارئه أمرين هامّين:

الأوّل مدى قدرة المؤلّف على الإحاطة بموضوع هام والثاني مدى صعوبة هذا الموضوع: فهو هام باعتبار تفرّد الكاتب بالاهتمام بقضايا بقيت بمنأى عن اهتمامات معظم المؤرّخين وذلك رغم صلتها الوثيقة بمقوّمات حياة المجتمعات المغاربية خاصّة، والمجتمعات العربية الاسلاميّة عامّة.

فلقد تصدّى الأستاذ العجيلي بكلّ شجاعة لأحد هذه المجالات الهامّة والمعقّدة، ولم يكتف بحلّ معظم رموزها وخفاياها، بل أضاف اكتشافات هامّة وقيّمة في حلّ إشكاليّات عديدة لم تحظ بالدّرس والتدقيق المتعمّقين سابقا.

أمّا الأمر الثاني الذي وضّحه المؤلّف للقارئ فهو صعوبة تناول مثل هذا الموضوع بالدّرس والتحليل المعمّقين خاصّة لصبغته الدّينية الحسّاسة، وذلك لما تستوّجه مثل هذه المواضيع ليس فقط من جرأة على مستوى الطّرح، وإنّما خاصّة لما تتطلّبه من سعة اطلاع وقدرة على فهم مختلف جوانبها.

ذلك أنّ الأمر يتعلّق بسير وممارسات ومواقف أشخاص نافذين لما يتمتعون به من صبغة دينيّة، وما يحضنون به من تقدير واحترام في الذّاكرة الجماعية لمجتمعاتنا.

لذلك فإنّه لا تخفى على أحد صعوبة التّصديّ لكتابة تاريخ مثل هذه الفئات الدّينية وخاصّة فيما يتعلّق بعلاقاتها ومواقفها من الاستعمار الفرنسي سواء

عند انتصاب الحماية الفرنسية على البلاد التونسية، أو خلال الثلث الأول من القرن العشرين، وهو أمر بلقي مسؤولية جسيمة على المؤرخ فيما يخص تحاليله واستنتاجاته وأحكامه.

غير أننا لا نحيد عن الصواب إذا قرّرنا أن الأستاذ التليلي العجيلي تناول الموضوع من موقع العارف المتبصر، المتجرد من الأفكار المسبقة، والأحكام الجاهزة، عمدته في جمع معلومات هذه الدراسة - بالدرجة الأولى - المصادر الأصلية المخطوطة، وعلى رأسها وثائق الأرشيف الوطني التونسي حيث بالخصوص السلسلة د - المتعلقة بالمسائل الدينية عموماً وبالطرق الصوفية خصوصاً - والتي تتضمن معلومات هامة جداً تستغل بصفة كلية وشاملة لأول مرة من طرف الباحثين.

هذا إلى جانب الإطلاع على مختلف الوثائق الأصلية والمخطوطة الموجودة في خزائن الوثائق بالبلاد الفرنسية وخاصة بباريس في أرشيفات كل من وزارتي الحرب بفانسان والخارجية بالكي دورساي، وهي وثائق تستغل - بدورها لأول مرة من طرف الدارسين.

هذا بالإضافة - طبعا - إلى العديد من المصادر الأصلية الأخرى المخطوطة والمنشورة باللغتين العربية والفرنسية، وكذلك المراجع الثانوية من دراسات وبحوث وغيرها.

لقد أمكن للأستاذ العجيلي بفضل الموضوعية التي التزم بها، والمنهجية التي توخاها وكذلك احاطته بمختلف جوانب الموضوع أن يفي هذه الدراسة حقها في مختلف فصولها ومحاورها

إنّ صدور مثل هذا العمل عن مختصّ في التاريخ بالذات أمر يستحق التّويه، خاصة وأنّه فتح مجالات اهتمام متميّزة تتجاوز إطار التاريخ السياسي والاقتصادي اللّذين تمحورت حولهما أغلب البحوث التاريخية في السّابق.

وما يدعّم ما ذهبنا إليه ظهور توجّه جديد لبعض الباحثين الجامعيين الشّبان إلى مثل هذه المواضيع التي كان لي كأستاذ مشرف على هذه الأطروحة، ولأستاذ

العجيلي الفضل في أسبقية إثارته والتركيز على ضرورة التأليف فيها، وقد أمكن للأستاذ العجيلي نشر العديد من البحوث والمقالات في مثل هذه المواضيع الهامة منذ نيّله سنة 1987 لشهادة التعمّق في البحث بملاحظة حسن جداً، وانتدابه في نفس السنة للتدريس - في مجال اختصاصه - بقسم التاريخ بكلية الآداب بمنوبة.

كلّ ذلك يبرهن على قدرات الأستاذ العجيلي الممتازة في البحث والتقصّي، وهي خصال تجعلنا نعلّق عليه الآمال في إضاءة العديد من جوانب تاريخ بلادنا في الفترتين الحديثة والمعاصرة.

تونس في 8 جويلية 1992

الدكتور رشاد الإمام

أستاذ بكلية العلوم الانسانية والاجتماعية

جامعة تونس الأولى

مفتاح الرّموز العربية

- خزينة الوثائق التونسية : وهي الوثائق المحفوظة في الوزارة الأولى بالقصبة .
المرجع السابق : الذي ذكر سابقا .
نفس المصدر : المصدر الذي ذكر قبل ذلك مباشرة .
[] الكلمات الواردة ضمن حاصرتين أضفتهاما رِبْطًا للمعنى أو توضيحا
وتعريفا ببعض المصطلحات الواردة في النص .
(كذا) : بمعنى هكذا وردت اللفظة في الأصل ويقيت بدون إصلاح لما قد تدلّ
عليه من معاني بصورتها تلك .
(لاط) : مكان الطبع غير معروف .
(لات) : تاريخ الطبع غير معروف .
ط : طبعة
س : سلسلة ، ترجمت بها الكلمة الفرنسية Série
ت : توفي
صد : صندوق ، ترجمت بها الكلمة الفرنسية Carton
مل : ملف ، ترجمت بها الكلمة الفرنسية Dossier
* ملاحظة : جميع التواريخ المذكورة في هذه الدراسة ميلادية

مفتاح الرّموز الفرنسية

A.G.T	: Archives du Gouvernement Tunisien.
A.M.G	: Archives du Ministère de la Guerre, Château de Vincennes (Paris).
A.M.A.E.F	: Archives du Ministère des Affaires Etrangères Françaises (Quai d'Orsay; Paris).
R.G	: Résident Général de la République Française en Tunisie.
C.C	: Contrôleur Civil.
C	: Carton.
d	: Dossier.
f	: folio.
l	: tome.
C.p	: Série correspondances politiques
C.N.U.D.S.T	: Centre National Universitaire de Documentation Scientifique et Technique (Tunis)
C.D.N	: Centre de Documentation Nationale

مقدمة

تستمد مواضيع بعض البحوث قيمتها من جمعها بين الأهمية والتجديد، فالأهمية تكون من حيث معالجة تلك المواضيع لقضايا تمسّ اهتمام العديد من الناس وطرحها لمسائل تشدّ انتباههم.

وأما التجديد فيتمثل في كونها حاولت سبق غيرها من المواضيع في إثارة تلك القضايا، وتسليط الأضواء عليها، ومحاولة إعطائها الحجم الذي تستحقه، فيكون لها - بذلك - الفضل في طرق مجالات ظلت في معظمها بكرا، ولعل هذه بعض مميزات بحثنا هذا:

الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية: 1881 - 1939.
لماذا اخترنا هذا العنوان بالتحديد؟

ان ذلك يعود أساسا الى أسباب موضوعية من أهمها:
* ان المتأمل في تاريخ البلاد التونسية المعاصر عامة، وتاريخ الحركة الوطنية خاصة يلاحظ ان جلّ الكتابات والتأليف غلب عليها الاهتمام بالناحية السياسية، في حين ظلت التجمّعات الاجتماعية والمهنية والمؤسسات الدينية في حاجة أكيدة الى المزيد من الأضواء.

* ان الطرق الصوفية - من حيث وجودها وتنظيمها - سابقة لظهور الأحزاب السياسية في بلادنا في الفترة التي ندرسها، لذلك كان لابدّ من معرفة دورها في حركة التحرير التونسية واعطائها حجمها الحقيقي في المقاومة الوطنية للمستعمر.

* ان الدين - وهو أهمّ مقومات مجتمعاتنا العربية الاسلامية - من المسائل الحيوية والحساسة في حياة أمّتنا وبلادنا فكان لابدّ من تسليط الأضواء على الصور والأشكال التي ظهر بها في عصور انحطاط أمّتنا، لذلك حاولت معرفة الأساليب والمجالات والأوجه التي عملت السّلط الاستعمارية على توظيفه فيها، والمواقف والممارسات الرسمية التي كرستها باسمه.

لهذه الاعتبارات وغيرها، كان هذا البحث محاولة للكشف على وجه من

أوجه النشاطات والممارسات في تلك المجالات في فترة هامة من تاريخ تونس والتنبه لمسائل لا تزال في حاجة الى الاضاءة والتّصحيح .

وقد حدّد هذا البحث — زمنيا — بسنة 1881 تاريخ دخول الاستعمار الفرنسي الى البلاد التونسية وانتصاب الحماية، وتحول الباي وحاشيته الى سلطة شكلية . أما سنة 1939 فهي — على مستوى الطرق الصوفية في بلادنا — تاريخ انعقاد المؤتمر الطرقي الذي — كما سنرى — جاء كمحاولة لعرقلة النشاط الوطني بعد أن أخذت الأحزاب السياسية زمام المبادرة العملية على مستوى أوسع الجماهير، منافسة بذلك الطرق الصوفية، وساحبة من تحتها بساط نفوذها على معظم اتباعها، ومسجلة بالتالي — بداية تقلص شأنها .

كما مثّلت تلك السنة انتهاء دورة من تاريخ بلادنا وانطلاق أخرى ثانية بعد الحرب العالمية الثانية، وهذه الدورة الثانية تميّزت ببداية تقلص القوى التقليدية كالطرق الصوفية التي كانت مهيمنة طيلة القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الأولى، وقابل تلك الوضعية تجذّر القوى السياسية الجديدة واتّساع نفوذها على أغلب فئات المجتمع التّونسي .

لقد تطلّب منا انجاز هذا البحث الاعتماد بالدرجة الأولى على الوثائق الموجودة في خزانة البلاد التونسية بالوزارة الأولى، وكذلك مركز التوثيق القومي والمركز القومي الجامعي للتوثيق العلمي والتقني .

كما تمّ إثراء البحث والتوسّع فيه باطلاعنا على وثائق أرشيف كل من وزارة الخارجية الفرنسية (الكي دورسي) ووزارة الحرب (قصر فانسان) بباريس . هذا الى جانب الاعتماد على مراجع متنوعة وتكميلية كالكتب المطبوعة والبحوث وأطروحات منشورة وغير منشورة وكذلك المقالات الواردة في العديد من الدّوريات، بالاضافة الى مسح شمل العديد من الصحف المحلية والأجنبية باللغتين العربية والفرنسية في فترات مختلفة لها علاقة مباشرة بأحداث هامة جدّت بالبلاد التّونسية في الفترة التي شملها البحث .

لقد وقّرت لنا هذه المصادر المختلفة معلومات غطّت معظم جوانب هذا الموضوع، ومكّنتنا من صياغتها في أربعة فصول خصّصت أولها لتقديم لمحة موجزة حول نشأة التّصوّف في الاسلام وذلك بالتعرّض الى أهمّ مراحل تطوّره، ومميّزاته ومؤسّساته، وأنهيته بالتّعريف بأهمّ الطرق الصوفية بالآيالة التّونسية

والتي لها علاقة بالبحث ابتداءً من دخولها وحلولها بتونس، وانتهاءً بتوضيح أنواعها ومختلف مواردها مبرزاً بذلك قيمتها وشأنها اقتصادياً واجتماعياً.

أمّا الفصل الثاني فقد خصّصته للحديث عن الأسس التي بنت عليها السلّط الاستعمارية سياستها تجاه الطرق الصوفية فوضّحت تلك الأسس والوسائل التي اعتمدتها في كل ذلك للوصول إلى الأهداف التي رسمتها مسبقاً.

أمّا الفصل الثالث فقد ركّزت الاهتمام فيه على علاقات بعض الطرق الصوفية بالسلّط الاستعمارية في الآيالة: فبيّنت مواقفها من دخول الاستعمار، ومن تواجده بالبلاد بعد استقراره فيها، ثم مواقفها من السياسة التي توخاها المستعمر في المجالين الاجتماعي والاقتصادي، وكذلك من عدة أحداث مختلفة عرفتھا البلاد طيلة الفترة التي شملها البحث

أمّا الفصل الرابع والأخير فقد خصّصته للحديث عن أهم المظاهر والعلامات الدالة على بداية ضعف الطّرق الصّوفية، محاولاً تحديد الأسباب المفسّرة لذلك سواء منها تلك التي تعود بالنظر إلى الطرق نفسها أو تلك التي تخرج على نطاقها، وأنهيت البحث بتسجيل أهم الاستنتاجات التي أمكنني الخروج بها من دراستي لهذا الموضوع.

أرجو أن أكون قد وفّقت في الامام والإحاطة بمعظم جوانب هذا البحث الهام وأعطيها ما تستحقّه من الاهتمام والتّوضيح، وأن أكون قد أسهمت — بهذه المساهمة المتواضعة — في إضاءة جوانب ومساائل ظلّت في أغلبها غير محلّ اهتمام من طرف العديد من الباحثين.

الفصل الأول

الطّرق الصّوفية في البلاد التّونسيّة

ان الحديث عن الطرق الصوفية وما قامت به سلبا أو إيجابا طيلة الثماني والخمسين سنة الأولى من دخول الاستعمار الفرنسي للبلاد التونسية، يتطلب تقديم لمحة عن تاريخ التصوف في الاسلام، باعتبار أن هذه الطرق الصوفية التي شتمها هذا البحث هي امتداد له.

I - التصوف في الاسلام:

(1) نشأته:

التصوف ظاهرة دينية، ومفهوم معين للاسلام، عرفه التاريخ الاسلامي، قوامه فلسفة روحية تركز على الذكر، والاعتكاف وفق أساليب تربوية مرهقة للنفس لحملها على الطاعة حتى تزكو وترتقي الى مراتب عليا من الايمان.

ولئن ذهب بعض المتصوفة الى أن كبار الصحابة وحتى التابعين كانوا من أهل التصوف - ليثبتوا أنه ليس دخيلا على الاسلام - فإن الرأجح أنه نشأ في مطلع عصر الدولة العباسية، ليس فقط لاتساع الفتوحات، وركون المسلمين الى حياة الترف والبذخ مما ولد نفورا من تلك الحياة المادية والاتجاه نحو الزهد والانقطاع للعبادة (1) وإنما كذلك لأسباب أخرى أهمها:

* امتزاج المسلمين بأجناس ممن أسلم من البلاد الشرقية، وهم أناس حديثو العهد بالاسلام، مع ما يحملونه من رواسب حضارية - هندية وفارسية - جعلت الناحية السلوكية وحتى العقائدية - لديهم غير منطبعة كلياً بطابع الاسلام، في فترة تقلص فيها عدد ذلك النمط الرائع من الصحابة، وحتى من التابعين الذين نكلت بالبعض منهم الدولة العباسية.

ان الاستبداد السياسي وعجز الكثيرين عن التصدي له، دفع البعض الى مؤامرة السلامة باللجوء الى العزلة والانزواء، والتفرغ لاصلاح النفس وهجرة المجتمع الفاسد، والتركيز على التأمل والملاحظة، حتى تشفى النفس وتصل درجة الاشراق.

(1) الأزهر بن أحمد الكسراوي، الطرق الصوفية بصفاقس، مواردها الاقتصادية ومعالمها الأثرية خلال القرنين الثاني عشر هجري - الثامن والتاسع عشر ميلادي، شهادة التعمق في البحث، مخطوطة، ج2، كلية الآداب والعلوم الانسانية بتونس، 1984، ج 1، ص 16.

الا أنّ التفكير الصوفي - رغم هذه الأسباب الداخلية للعالم الاسلامي - يجد
— على ما يبدو — أسسه في عقائد واردة من اليونان والهند أساساً، لها فلسفة في
الحياة، تقوم على قهر النفس وكبتها، وتحقير الدنيا وذمها والزهد فيها، بما جعل
البعض يرجع أصل كلمة «صوفية» الى الصوف الذي كان لباس العباد والزهاد،
ولكنهم «لم يختصوا بلبس الصوف، [وهناك] من قال... أنه من الصفا،
[ولكن] اشتقاق الصوفي من الصفا بعيد في مقتضى اللغة» (2) على حدّ قول
القشيري.

وبقطع النظر عن أصل كلمة «صوفي»، فإن التصوف سلوك في الحياة ذو
مضامين فكرية تغلب الجانب الروحي على الجانب المادي، وقد ظهر في المشرق
الاسلامي في المائة الأولى والثانية للهجرة، أين لقي معارضة كبيرة من طرف أهل
السنة لغلو معتنقيه في الدين، وهذا أدّى الى العديد من المقاضاة.

لقد كان لكلّ ذلك صدهاء في المغرب، وخاصة في تونس — محور بحثنا —
والتي «ترتبط بغيرها من الأقاليم ارتباطاً عضوياً، يلحقها فيه ما يلحق غيرها من
تطورات، ويهبّ عليها ما يهبّ على بعض تلك الأقاليم من تيارات، يساعدها
على ذلك ويهيئها له توسط موقعها بين الأقاليم الاسلامية، فكانت ممراً لمختلف
التيارات الدينية والمذهبية...، فما ظهر على ساحة الوجود تيار... في المشرق
أو في المغرب أو بالأندلس، إلا كان له صدهاء وتأثيره في تونس...» (3).

لقد كانت تونس معبراً للعائدين من المشرق والذاهبين إليه: من ججيج وتجار
وطلبة علم، تونسيين كانوا أو جزائريين أو مغاربة أو أندلسيين، ممّا أهلها لأن
تواكب الحركة الدينية في مختلف مراحل تطورها.

من هذا المنطلق، عرفت بلادنا التصوف وهو لا يزال في مرحلته الأولى المتمثلة
في الزهد والورع، وقد تجلّى ذلك في العديد من الرجال أمثال عبدالحق
القتات الذي عاش في القيروان في القرن الثاني للهجرة زمن الدولة الأغلبية،
والبهلول بن راشد الذي رحل الى المشرق، وأخذ الموطأ عن مالك، ورجع الى

(2) أبو القاسم عبدالكريم هوارن القشيري، الرسالة القشيرية في علم التصوف، القاهرة، مطبعة محمد علي
صبيح، 1972/1392، ص 217.

(3) عبدالحلّيل المساوي، «زوايا الوسط الغربي ودورها الاجتماعي»، مجلة الحياة الثقافية، تونس، وزارة
الشؤون الثقافية والأخبار، السنة 7، العدد 21، (ماي جوان 1982)، ص 55 — 69، ص 56.

«القيروان، فعلم الناس العلم والزهد، فكان القنات من تلامذته» (4). كما نلمس آثارا - كذلك - للزهد بجهة نابل حيث يوجد «قوم متعبدون، تخلّوا عن الدنيا، وسكنوا [جبل آدار (5)] مع الوحوش، لباسهم البردي، وعيشهم من نبات الأرض، ومن صيد البحر، والدعوة من أكثرهم مستجابة، وهذا الجبل معروف بالتزام هؤلاء فيه منذ فتحت افريقية...» (6)، ويبدو أن هؤلاء الزهاد هم الذين كانوا يعمّرون الرباطات ويحرسون الثغور، باعتبار أن المراقبة ضرب من الجهاد، علما وأن أول رباط أسس بالبلاد التونسية هو رباط المنستير سنة 796.

كما تعدّد بناء القصور، وهي رباطات مزوّدة بمنارات للاستكشاف والتي لا تزال بعض بقاياها قائمة لحدّ الآن على السواحل الافريقية، وكلّها من التّحصينات التي قامت بها دولة بني الأغلب حماية للسواحل الاسلامية. لقد كانت تلك المؤسسات عامرة بالعلماء والصالحين الذين يقومون فيها بكل أنواع العبادات ويحرسون - في نفس الوقت - حدود البلاد من الغارات الخارجية.

إلا أن الدولة الفاطمية - الشيعية المذهب - أهملت تلك الرباطات، وأفرغتها من محتواها بأن جرّدت المرابطين (المقيمين بالرباطات) من السلاح وكل وسائل القوة، خشية منهم، اذ كانوا ينكرون عليها عقيدتها، ويقاومون دعوتها، وبذلك وقع تحوّل كامل في مفهوم المراقبة التي يفقدانها لمؤسساتها وأمكنتها صارت تعني إهمال الجهاد، والركون الى الذكر والاعتزال، مما يوضّح الانتقال من الزهد الى التصوّف.

(2) تطوُّره

لئن بدأ التصوّف في المائة الأولى والثانية للهجرة في شكل زهد وورع تمثّل في أفراد معينين، فإنّه لم يلبث أن صار مذهباً قائماً على أركان، مدعّمة بنصوص مؤوَّلة من القرآن والحديث يسمّى «علم الباطن»، وقد تجسّد في أبي الفيز

(4) محمد البهلي النّبال، الحقيقة التاريخية للتصوّف الإسلامي، تونس، التّجّاح، 1965، ص 43

(5) حول بعض الأماكن المذكورة في هذه الدّراسة، أنظر الخريطة بالملحق رقم 1، ص 269.

(6) النّبال، المرجع السابق، ص 43.

ثوبان بن ابراهيم المشهور بذي التّون المصري (ت. 958)، ورابعة العدويّة (ت. 801) وغيرهما، وهو منحى لقي مناهضة شديدة أدّت الى اتّهام أبي الغيث بن حسين المنصور الحلاج بالزندقة، والى قتله سنة 922.

الا أن ذلك لم يحد من تطور التّصوّف وانتشاره في المائة الثالثة للهجرة، حيث أخذ البعض يدوّن أقوال أولئك المشائخ، ويسجّل مناقبهم، ويعدّد كراماتهم، ممّا مهّد - أساسا - لتدوين علم التّصوّف، فظهرت العديد من المصنّفات ككتاب اللّمع للسّراج الطّوسي، وقوت القلوب لأبي طالب المكي، كما دوّن السّلمي تراجمهم في الطبقات، و«انتهى التّأليف الأصل برسالة القشيري... وما جاء بعد هؤلاء ليس إلا شرحا... أما الغزالي فلم يظهر في التّصوّف بكتابه الإحياء إلا بعد ما نضج التّصوّف واستكمل، فتناوله سهلا ميسرا...» (7).

ولم يكن المغرب العربي وخاصة تونس، بعيدة عن هذا التّحوّل في تاريخ التّصوّف، إذ يبدو أنّه كان معروفا بهذا الاسم في القيروان زمن الإمام سحنون (ت. 858) وتولّيه قضاء افريقية (847 - 854)، حيث استعان «بالصّوفية» في ردّ بعض المظالم (8). كما يظهر أيضا في مسجد الدّمسنة (9) الذي أسّسه في أوّل القرن الثالث للهجرة أبو محمد الانصاري، وقد سمّي كذلك بمسجد السّبت، لأنّه كان له ميعاد «يجتمع فيه العبّاد كلّ سبت أسوة بزيارته صلّى الله عليه وسلم لمسجد قبا كل ست» (10)، وهو اجتماع أنكره عليهم البعض كبحي بن عمر (ت. 903) «الذي كان يرى هذه المسجّد أنفع من وجوده، وألّف كتابا في بدعة مسجد السّبت، فتصدّى له الصّوفية لإذائته، ومشاغبتة في حلقات دروسه» (11).

لكن رغم ردود الفعل هذه، فإنّ الصّوفيّة في المغرب، وبالاخصّوص في البلاد التونسية لم تلق نفس المعارضة التي لقيتها في المشرق، وقد يعود ذلك الى اعتدالها، وخاصة الى تمكينها من نشاطها من قبل السّلط السياسية الحاكمة في

(7) النّيال، نفس المرجع، ص 109.

(8) أنظر دور الصّوفية في تحرير ما سباه أحد قوّاد بني الأعلب في النّيال، نفس المرجع، ص 143.

(9) حول مسجد الدّمسنة أنظر حسن حسني عبدالوهاب، «الطبّ العربي في افريقية»، مجلة الفكر، تونس، الشركة التونسية لفنون الرّسم، السنة 3، العدد 1 (جويلية 1958)، ص 7 - 16.

(10) النّيال، المرجع السّابق، ص 8.

(11) نفس المرجع، ص 153.

العهدين الموحد والحفصي، مما جعل المغرب يشهد انتشاراً سريعاً للتصوف الذي مهد له بإبطال دور الرباطات، فتحول المرباطون شيئاً فشيئاً من الزهد الى التصوف، همّهم الذكر والعبادة في عزلة وانزواء. من ذلك أن رباط المنستير تحول الى «أول زاوية بعد مسجد السبت، قامت فيه حلقات الذكر الجماعي، مع الضرب على الصدر حتى الاغماء، وصار كمدرسة لتخريج الشيوخ وتأسيس الزوايا في عدة جهات» (12). من خلال هذا نتبين أن التصوف ازدهر في شمال افريقيا عامة، وتونس خاصة منذ القرن الحادي عشر للميلاد، حيث ظهر العديد من رجاله كأبي مدين شعيب (13)، وأبي الحسن الشاذلي (14)، ومنهما تكاثرت الطرق وتفرعت عن بعضها البعض.

إن هذا التمكين للتصوفية يعود الى حد كبير الى السط السلطانية كالدولة الحفصية التي شجعت على انتشارها لما قامت به من تحفيظ للقرآن الكريم، والحث على القيام بالفروض الدينية، الى جانب إعانة الفقراء والمحتاجين، وهي مهام اجتماعية كانت حكومات ذلك العهد عاجزة على القيام بها. وتواصل دعم السط السياسية للطرق الصوفية خشية نفوذها - وخاصة احتواء لها - مع الوجود العثماني، حيث كثر بناء الزوايا، وتأسيس العقارات، واستمر الأمر كذلك مع الحسينيين «الذين اعترفوا بالطرق الصوفية قانونياً، وتم وضعها ادارياً تحت اشراف رئيس عام يسمى شيخ مشايخ» (15) طريقة ما.

(12) نفس المرجع، ص 166 - 167

(13) أبو مدين شعيب، أصله من اشبيلية، ولد سنة 1116، غادرها الى طنجة، فسبته فمراكش ثم فاس. أخذ الطريقة عن عبدالقادر الجيلاني (ت. 1164)، وعند رجوعه استقرّ بهجاية حيث ذاع ذكره، وتعرف طريقته بالطريقة المدنية، توفي سنة 1197، حول ترجمته أنظر محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، القاهرة، المطبعة السلفية، 1929، ص 164

(14) أبو الحسن الشاذلي. أصله من المغرب الأقصى، بعد ادائه لفريضة الحج بالصوفية وعندهم أخذ الطريقة، ورجوعه التقى - قرب تطوان - بالشيخ محمد عبدالسلام بن مشيش الذي أشار عليه بالتوجه الى تونس فاستقرّ بشاذلة وهي قرية كانت جوار زاوية سيدي علي الخطّاب ومنها تردّد على مدينة تونس حيث رابط بالمقارة الموجودة بحبل الزلاج، له تصانيف عديدة في الفقه وغيره، أنظر ترجمته في مخلوف، المرجع السابق، ص 272.

(15) الكسراوي، المرجع السابق، ج 1، ص 19.

ومن مظاهر اعتراف الحسينيين بالطرق، وتقديرهم لمشائخها، أنّ حمودة باشا (ت. 1814) كان من أتباع الطريقة القادرية والمساهمين في بناء زاويتها بمنزل بوزلفة (16).

كما أنه في حربه مع الجزائر وبالتحديد في واقعة سراط التي انتصرت فيها جيوشه، كان ضمن الحملة «جماعة من المشهورين بالفضل والصلاح، كالشيخ أبي الحسن علي بن صالح أحد أعيان الصالحين بالكاف، وزاويته مشهورة به، وأبي المحاسن علي المازغني (ت. 1841)، والشيخ... يوسف بوحجر...، والشيخ عبد الملك الحمادي (ت. 1840)، وغيرهم...» (17)، ولبلاء هذا الأخير في تلك المعركة طلب له الوزير يوسف صاحب الطابع (ت. 1815) أرضاً من هنشير سليانة أقيمت عليها زاوية له.

إنّ هذه التسهيلات التي لقيتها الطرق من قبل السلط السياسية في تونس، دفعت المشائخ الى تجميع الأتباع وتأسيس مراكز عرفت بالزوايا لتربية المريدين تربية خاصة.

(3) مميزات:

لم يلبث التصوّف - الذي بدأ في مرحلته الأولى كسلوك فردي - أن أصبح متمثلاً في جماعات تربط بينها علاقات وطيدة، تنظّم الحياة بين مختلف الأطراف المكوّنة لها، وفق خصائص تميّزها عن بقية التجمّعات البشرية الأخرى وتتمثّل في:

أ - ولاية الشيخ:

تنبع أهميّة هذا المنصب في بحثنا - من المنزلة التي يحتلّها في التفكير الصوّفي، ومن مكانته المرموقة لدى الأتباع، حيث عمل الاستعمار على احتوائه وتوظيفه طبقاً لمصالحه.

(16) أنظر اللوحة التاريخية عن الطريقة القادرية، ص 39-42.

(17) أحمد ابن أبي الصياف، انحاف أهل الزّمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تحقيق لجنة من كتانة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار، تونس، المطبعة الرسمية للبلاد التونسية، 1964، ج 8، ج 3، ص 45.

ذلك أن قول الصوفية بوجود مراتب ومقامات يوجب على السالك تزكية نفسه وتطهيرها باتباع وسائل معينة كالأوراد والأذكار والتسابيح تحت نظر الشيخ الذي هو قدوة المريد ومرشده في كل مراحل ترقيه، لأن «المريد يحتاج الى شيخ أو أستاذ يقتدي به لا محالة...، إذ أن سبيل الدين غامض، وسبيل الشيطان كثيرة ظاهرة، فمن لم يكن له شيخ يهديه قادة الشيطان الى طريقه...»! (18).

إن الشيخ الذي له هذه المنزلة يستمد نفوذه - حسب الصوفية - من علمه ومعرفته بالله، والبركة التي أصبح مالكا لها والتي أهلته للاستمداد منه، إذ أن «الاستمداد من الشيخ هو استمداد من النبي صلى الله عليه وسلم، لأن الشيخ الصادق نائب عنه!» (19).

وبهذه الهالة القدسية التي أضفاها المشايخ على أنفسهم، أصبحت لهم سلطة ونفوذ على الناس الذين اعتقدوا فيهم الصلاح والتميز بخصوصيات روحية ليست موجودة عند غيرهم، فحاكوا حولهم الأساطير، ونسجوا القصص التي لعب فيها الخيال دوراً كبيراً، فغدت ضرباً من الخوارق و«الفتوحات الربانية».

غير أن نفوذ بعض مشايخ الطرق الصوفية لم يكن دائماً مستمداً من وسائل مشروعة، وأتوا يحصلون عليه - أحياناً - بالترهيب وتهديد الناس في «صحة أبدانهم، أو ضد عائلاتهم وثرواتهم، كعقم النساء، واتلاف المحاصيل، مما يجبر السجذ والبسطاء على الانصياع اليهم» (20) خوفاً من بطشهم، خاصة وأن من المشايخ من «يدعي أن له بركة يقدر بها على قتل الأنفس إن شاء، وهبة الرزق أو استرجاعه، وشفاء المرضى، واستسقاء المطر، بل فيهم من يدعي استحالة الجنين الذكر أنثى، والأثنى ذكراً...»! (21).

إن هذه الوسائل وغيرها، مكنت مشايخ الطرق من السيطرة على عامة الناس

(18) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، (لا ط.)، دار إحياء الكتب العربية، 4 ج، (لات)، ج 3، ص 73.

(19) محمود عبد الحليم، المدرسة الشاذلية الحديثة وإمامها أبو الحسن الشاذلي، القاهرة، دار النصر للطباعة، (لات)، ص 387.

(20) MERAD (A.), Le Réformisme Musulman en Algérie, 1925-1940, essai d'histoire religieuse et sociale, France, Mouton, 1967, p 70.

(21) خزينة الوثائق التونسية، رسالة من أهالي الهمامة الى الوزير الأكبر خليل يوحاجب، بتاريخ 1928/4/4، من د، ص 106، مل. 2.

وحتى خاصتهم سيطرة وصلت أحيانا حد الطاعة العمياء والتي تجسّمت بالخصوص في علاقة هؤلاء المشايخ بمريديهم.

ب - طاعة المريد:

تعتبر الطاعة أهم ركن في علاقة المريد بشيخه، وهو المستوى الذي راهنت عليه السلط الاستعمارية في تعاملها من المشايخ لاحتوائهم وتوظيفهم، حتى تكسب من ورائهم - كما سنرى في هذا البحث - الأتباع الذين لا يعصون لهم أمراً. وانطلاقاً من المهمة التي يضطلع بها الشيخ في التفكير الصوفي كانت له سلطة مطلقة على المريدين تملئها عليهم التعاليم والمبادئ الصوفية، وتكرسها على مستوى الفرد بتربية خاصة تقوم أساساً على:

* إجلال الشيخ وتقديسه والمبالغة في محبته، إذ «أن عمدة الأدب مع الشيخ هو المحبة له، فمن لم يبالغ في محبة شيخه - بحيث يؤثره على جميع شهوراته - لا يفلح في الطريق» (22)، وهي محبة تقتضي أن «يحب الأشياء من أجله، ويكرهها من أجله، كما هو الشأن في محبة ربنا عز وجل...»! (23).

* طاعته المطلقة باعتباره أعرف الناس وأعلمهم بسواء السبيل، لذلك كان على المريد أن يتمسك بشيخه «تمسك الأعمى على شاطئ النهر بالقائد، بحيث يفوض أمره إليه بالكلية، ولا يخالفه في ورده ولا صدره...، وليعلم أن نفعه في خطأ شيخه لو أخطأ أكثر من نفعه في صواب نفسه لو أصاب...»! (24)، فصارت - بذلك - طاعة الشيخ مقياساً ودليلاً على الترقى إذ «مادام المريد تحت حكم أستاذ، فترقيه دائم...»! (25).

كما أن من مقتضيات تلك الطاعة التصديق الكامل للشيخ فيما يصدر عنه، لأن «من شرط المحب لشيخه أن يصمّ أذنيه عن سماع كلام أحد في الطريق غير

(22) عبد الوهاب الشعراني، الأنوار القلبية في معرفة قواعد الصوفية، حققه وقدم له طه عبد الباقي سرور، القاهرة، المكتبة العلمية، ط 1، 1962، ص 167.

(23) نفس المصدر، ص 169.

(24) الغرالي، المصدر السابق، ج 3، ص 73.

(25) الشعراني، المصدر السابق، ص 191.

شيخه، فلا يقبل عذل عاذل حتى لو قام أهل مصر كلهم في صعيد واحد لم يقدروا أن ينفّروه من شيخه...» (26) !

وبهذه المفاهيم، جُبل الأتباع على أحادية المتلقي، والتسليم المطلق بصحة ما يصدر عن شيخهم الذي هو - دائما - في نظرهم على صواب وغيره على خطأ، فتج عن ذلك رفض لكل حوار، وإقصاء لكل رأي مخالف، وتمكّن المشايخ من الاستحواذ الكامل على شخصية المريد الذي جعلته «الآداب الصوفية» - بين يدي شيخه «كالميت بين يدي مغسّله، لا كلام ولا حركة ولا يقدر أن ينطق بين يديه من هيبته، ولا يدخل ولا يخرج، ولا يخالط أحدا، ولا يشتغل بعلم، ولا قرآن، ولا ذكر إلا بإذنه...»! (27).

وبهذه الوسائل أصبح المريد رهين أوامر الشيخ الذي لا يرفض له قولا، ولا يعترض له على أمر، فاستغلّ المشايخ نفوذهم ذلك في التحكم والتصرف في أتباعهم - كما سنرى في هذا البحث - ليس وفق هواهم فحسب، بل وفق ما تُمليه عليهم السلط الاستعمارية.

لقد زاد المشايخ في إحكام سيطرتهم على الأتباع بحملهم على ملازمتهم في حلقات الذكر المطالبين باستدامته «حتى تسقط حركة اللسان، وتكون الكلمة كأنها جارية على اللسان من غير تحريك، ثم لا يزال يواظب عليه حتى يسقط الأثر عن اللسان وتبقى صورة اللفظ في القلب، ثم لا يزال كذلك حتى تمحى عن القلب حروف اللفظ وصورته وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب، حاضرة معه، غالبية عليه...»! (28).

كلّ ذلك حسب آداب وشروط محدّدة ومفصّلة كالوضوء، واستقبال القبلة، واغماض العينين، والانقطاع عن الدنيا! (29).

إنّ تلك التربية الصوفية فضلا عما تسبّبت فيه من ذوبان شخصية المريد أمام شيخه، قد عمّقت في الأتباع التواكل والانصراف الكلّي عما يحدث في حياتهم

(26) نفس المصدر، ص 168.

(27) نفس المصدر، ص 189.

(28) الغزالي، المصدر السابق، ج 3، ص 75.

(29) أنظر تلك الآداب في الشّعرائي، المصدر السابق، ص 34 وما بعدها.

العامّة، ويمسّهم مباشرة، وهو اتجاه يخدم السّلط الاستعمارية التي باركت ذلك التوجّه علما وإنّ تلك العقلية قد تمّت صياغتها في مؤسسات عملت على ترسيخها في الأتباع الذين غدوا مجسّمين لها خاصة في الفترة التي ندرسها.

(4) مؤسّساته:

لم يعرف المجتمع الاسلامي في فترته الأولى سوى مؤسّسة المسجد الذي لم يكن فقط مكانا للعبادة، بل كذلك للتعلّم والتشاور وأخذ القرارات، ورغم وجود الزهد في تلك الفترة، فإنّ الصحابة اعتكفوا في المساجد أو في منازلهم.

ويظهر الرّباطات وانتشارها على الحدود الاسلامية، انتدب المسلمون لأداء فريضة الجهاد بالمساهمة في حراسة الثغور، فصارت الرّباطات عبارة عن ثكنات حدودية يتفقه فيها الم رابط الى جانب دوره العسكري.

ويتعطيل دور الرّباطات زمن الفاطميين تشتّت المعتصمون بها، واتّجهوا داخل البلاد «يبحثون لأنفسهم عن أماكن للخلوة، والعبادة في المدن والقرى، والبوادي، ممّا اضطرّ — في مرحلة لاحقة — من اشتهر منهم بعلمه وصلاحه — أن يقيم لنفسه مركزا في المدينة أو القرية... لاستقبال المريدين وتعليمهم العلوم الدينية...» (30)، ويدخول العالم الإسلامي مرحلة جديدة ظهرت مؤسّسات لا عهد للمسلمين بها من قبل.

أ — أنواعها : وتتمثل أساسا في :

— الزاوية (31) :

تعتبر مؤسّسة محدثة في المجتمع الاسلامي، وتعني مكان العزلة والانعزالية للعباد والصالحين، وقد لعبت — في المرحلة الأولى من حياتها — دورا اجتماعيا هامّا تمثل بالخصوص في تحفيظ القرآن، وإيواء طلبة العلم، وتوفير المبيت لعابري

(30) الميساوي، المقال السابق، ص 56.

(31) حول مفهوم الزاوية ودورها في التاريخ الاسلامي أنظر LEVI-PROVENÇAL (E.), "Zawiya" L'Encyclopédie de l'Islam, Paris, Leyde, E.J. Brill, t. IV-2, 1934, p. 1289, 1290.

السبيل، ولما مات مؤسسوها دفنوا فيها، وأقيمت قباب على قبورهم التي أصبحت محل تقديس واعتقاد وزيارات من قبل السكان.

لقد أدى موت المؤسسين الى انحراف تلك الزوايا عن دورها الأصلي، فصارت مقصدا لالتماس البركة وطلب المنفعة، بتقديم العطايا والهدايا، وإقامة الحضرات مع ما يصاحب ذلك من أعمال الشعوذة والخوارق. فقدت بذلك دورها الاجتماعي خاصة بعد أن صارت — عن طريق الوراثة — تحت مسؤولية أفراد لا نصيب لهم من الصلاح الا اسمه حوكونها الى مقر طرق صوفية يمارسون فيها نشاطاتهم ويتمعشون من مداخيلها.

— الطريقة (32) :

تجد مبرر وجودها في الفلسفة الصوفية التي تقسم العقيدة الاسلامية الى ظاهر وباطن أي شريعة وحقيقة: فالشريعة هي «الباب الذي يدخل منه الجميع، والحقيقة هي التي لا يصل إليها إلا المصطفون الأخيار...»، وكثيرا ما يشبهون الشريعة والحقيقة... بالدائرة ومركزها...، فالطريقة إذا هي الخطّ الذاهب من محيط الدائرة الى المركز، وكل نقطة على محيط الدائرة هي مبدأ الخطّ، وهذه الخطوط - التي لا تُحصى وتنتهي كلّها الى المركز - هي طرق مختلفة...، فمهما اختلفت فالهدف واحد، لأنه لا وجود إلا لمركز واحد... وحقيقة واحدة...» (33).

فالطريقة بهذا المفهوم هي طريق خاص بنوع من الناس، يتميزون عن غيرهم برؤية معينة في المنهج اللازم اتباعه للوصول للحقيقة المطلقة عبر مراحل ومقامات محدّدة، تجتهد كل طريقة في استقائها من منابع ومصادر تعتقد أنها يقينية.

وانطلاقا من هذا المفهوم، كانت كل طريقة صوفية تعتمد — للتدليل على صحتها وشرعيتها — على سلسلة من الصالحين والأعلام تتصل دائما بالرسول صلى الله عليه وسلم، الذي بدوره — حسب الطرق — تلقى أوراد الطريقة

(32) حول مفهوم الطريقة أنظر: MASSIGNON (L.), "Tanka", l'Encyclopédie de l'Islam, t. IV-2, pp. 700 - 750.

(33) محمود عبدالحليم، المرجع السابق، ص 324 — 325.

وأذكارها وتعاليمها عن جبريل عليه السلام عن ربّ العزة جلّ جلاله، والرسول صلى الله عليه وسلم بدوره لقّنها لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعلي لقّنها لعمر بن الخطاب فأبي بكر الصديق، وهو ما تذهب إليه سلسلة الطريقة القادرية (34).

أما الطريقة الشاذلية فتتصل بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه لا عن طريق عمر وأبي بكر، وإنما عن طريق الحسن البصري (35)، شأنها في ذلك شأن الطريقة التيجانية مع ما في ذلك من اختلاف (36)، في حين تتصل الطريقة الخلوتية بعلي بن أبي طالب عن طريق ابنه الحسن والحسين (37). فواضح أن الطرق الصوفية — وإن اختلفت في ترتيب أفراد سلسلتها — تنتهي كلّها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم باعتباره مصدرا من مصادر التشريع الإسلامي.

على أن ما تجدر الإشارة إليه، هو أنه ليست كلّ زاوية حتما مقراً لطريقة صوفية، إذ هناك زوايا ظلّ دورها مقتصر على إشاعة تحقيق القرآن وتقديم خدمات اجتماعية متنوعة، وهذه الزوايا وإن كانت كثيرة وموجودة في مختلف أنحاء الأيالة (38) فإنها لا تعنينا في هذا البحث الذي مداره الزوايا التي صارت مقراً ومحلاً لطرق صوفية تقيم فيها نشاطاتها وفق أساليب معينة، وتحت إمرة هيكلية وتنظيم محددين.

ب — هيكلتها:

خضعت المؤسسات الطرقية إلى نظام هرمي يتكوّن من إطارات مختلفة المراتب، وتتكوّن أساساً — حسب وظيفتها — من:

— **الشيخ**: يعتبر أهم إطار في الطريقة الصوفية له صلة وثيقة بهذا البحث، ويستمد نفوذه من مكانته الدينية، باعتباره العارف بالله، والقادر على تربية النفوس بتشخيص عللها، وتحديد علاجها، فهو بتلك الصفات الحاوي لكل أصناف العلوم، والمالك للكرامات، وكلّ مقومات الولاية والصّلاح.

RINN (L.), *Marabouts et Khouans, étude sur l'Islam en Algérie*, Alger, (34) Imprimerie Adolphe Jourdan, 1899; p 180.

Ibid; p 216 (35)

(36) أنظر الطرق الأصلية، ص 39 - 45

RINN; op. Cit., p. 293 (37)

(38) أنظر قائمتها في خزانة الوثائق التونسية، س. د. ، صد. 97، مل. 3

وحتى يكسب بعض مشائخ الطرق مزيداً من الشرعية والتفوذ الروحي على الناس، استمدوا نفوذهم من النسب الشريف: من ذلك أن أفراد عائلة الزاوية القادرية بالفصور - بجهة الكاف - ينسبون أنفسهم الى آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم (39).

كما أن الحوسين بن ابراهيم - شيخ القادرية بفقصة - «يرتدي العمامة الخضراء التي عرف بها المنحدرون من سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم» (40) - الذي يذهب البشير ابن حمده شمام الشريف شيخ الطريقة العيساوية بسيدي الصوردو - الى أن نسبه يتصل به (41).

ولكن رغم الصلاح والتقوى، والانتساب الى الرسول صلى الله عليه وسلم، وغيرها من الصفات التي من المفروض أن تجعل من مشائخ الطرق قدوة تتبع، ومثالا يحتذى، فإن البعض منهم قد ارتكب عدة أمور مخلة بدورهم الديني، ومتنافية ومكانتهم: من ذلك أن شيخ طريقة سيدي أبي علي النقطي بزاوية سيدي بومنارة بالكاف - العدل علالة بن الطاهر - نسب اليه «سوء السيرة، وتعاطي الفجور والمسكرات...»، وهي أمور أكدها عامل الكاف بعد مكاتبته في الأمر...، وقد تعلقّت به نازلة لدى المجلس العدلي بالكاف، وصدر عليه الحكم فيها بالسجن لمدة شهر» (42)، في حين ملك محمد الكبير - شيخ القادرية بنقطة - نساء سودانيات تصرف فيهن «كما يتصرف الشاري في الثياب، وقد أضرب [يهن] بالضرب هو وزوجته وأبناؤه...، وكل يوم يزيد في ضربهن بالصباط، وإذا تكلمت احدهن يقولون لها أنك مشربة بالدراهم، حكمتك كحكم الحسيوان...» (43).

أما مصطفى حفيد شيخ القادرية بالكاف فقد «ارتكب أموراً مستهجنة ومخلة بالكرامة، مما حمل أرباب السلطة على التحرج من أعماله، وإنهاء أمره إلى المحاكم ذات النظر، كما أن والده، تبرأ منه، وأبعده عنه» (44).

(39) نفس المصدر، محمد العربي الأزهر الشريف الى الوير الأكبر، س. د، صد. 102، مل. 2.

(40) A.G.T, Le chef du bureau des Affaires indigenes au R.G. le 10/2/1932, D 111 - 11

(41) خريفة الوثائق التونسية، البشير بن حمدة شمام الى الوير الأكبر، س. د، صد. 126، مل. 17

(42) نفس المصدر، معروض، مؤرخ في 1930/1/27، س. د، صد. 155، مل. 7.

(43) نفس المصدر، مبروكة ومباركة وعافية وخديجة السودانيات من بر العبيد الى المراقب المدني بتورر، تاريخ 22 ذي القعدة 1325/1907، س. د، صد. 106، مل. 4.

(44) نفس المصدر، مكتوب وزيري تاريخ 1933/2/2، س. د، صد. 102، مل. 3

وبقطع النظر عن مدى صحة هذه الممارسات - التي قد يكون البعض منها مجرد تهمة لا أساس لها من الصحة - فإنه قد ثبت استغلال بعضهم لنفوذهم الروحي والأدبي في غير ما جعل له، مما تسبب لهم في عقوبات مختلفة شملت الحاج محمد بن عثمان الكوكي - شيخ القادرية بعبدة (الكاف) الذي استعمل إجازته في الطريقة للتجول قصد ابتزاز أموال بسطاء العقول، فاستدعاه عامل الكاف وتسلمها منه (45).

كما صدر الإذن العلي بتأخير العدل علالة - السابق الذكر - عن خطة العدالة عام 1927، وتأخيرته [أيضا] عن خطة مشيخة الزاوية (46)، في حين وقع عزل مصطفى فدور - السابق الذكر - عن خطة النيابة عن والده في مشيخة زاويتي⁷ القادرية بالكاف وتونس (47).

إن هذه الأمثلة - فضلا على أنها تهمة بعض المشايخ - ليس المقصود من الاستشهاد بها الخط من قيمتهم وتشويههم، وإنما توضيح خطر وصول بعض الأفراد الى رتبة المشيخة - دون أن يكونوا أهلا لها، وهو أمر عملت السلطة الإستعمارية - كما سنرى في هذا البحث - على الإستفادة منه.

- المقدم: هو ممثل شيخ الطريقة في إحدى زواياه، ويتولى هذه الخطة عادة بأمر علي بعد حصوله على «إجازة» وهي عبارة عن تفويض له من الشيخ في ممارسة مهامه لدى أتباع الطريقة بالزاوية التي التحق بها، حيث تعرف بالمقدم، وتحدد سلسلة الطريقة وذكرها، وأسلوب تلقيته للأتباع.

ويتهي نص الإجازة - عادة - بنصح الأتباع بالتقوى، وبطاعة المقدم في مهمته، وهي معاني نجدها - على سبيل المثال لا الحصر - في إجازة أحمد العزوزي بن عبد الملك - شيخ الطريقة الرحمانية بسليانة - للمقدم محمد العوني الخلصي (48)، وكذلك في إجازة علي بن عيسى - شيخ نفس الطريقة بالكاف للمقدم عثمان الجندوبي النغموشي (49).

(45) نفس المصدر، عامل الكاف الى الوزير الأكبر، بتاريخ 1919/3/11، ص د، ص 102، مل 9.

(46) نفس المصدر، معروض وزير مؤرخ في 1930/1/27، ص د، ص 155، مل 7.

(47) نفس المصدر مكتوب وزير بتاريخ 1933/2/2، ص د، ص 102، مل 3.

(48) نفس المصدر، ص د، ص 97، مل 3.

(49) نفس المصدر.

من خلال كل ما سبق، نتبين أن الطرق الصوفية أصبحت تمثل تجمعاً بشرياً له مقوماته الفكرية، والإدارية، وقوة بشرية واقتصادية لها أهميتها في حياة المسلمين عامتهم وحتى خاصتهم، وهي لئن نشأت خارج البلاد التونسية، فإنها لم تلبث أن وصلت إليها، شأنها في ذلك شأن بقية بلدان العالم الإسلامي.

II- لمحة تاريخية عن الطرق الصوفية بالبلاد التونسية

إن الطرق الصوفية بالبلاد التونسية — في الفترة التي ندرسها — كثيرة غير أن ما يهمنا منها — في هذا البحث — تلك التي تعاملت مع الاستعمار الفرنسي سلماً أو إيجاباً، وهي وإن كانت قليلة العدد — نسبياً — فسنركز عليها الحديث في هذه اللوحة التاريخية، مع إشارات موجزة إلى الطرق الأقل أهمية.

1) تاريخها:

إن المتأمل في هذه الطرق الصوفية يدرك أنها مقسمة — من حيث نشأتها إلى نوعين:

أ — الطرق الأصلية ونقصد بها تلك التي تولدت عنها طرق جديدة وهي:

* الطريقة القادرية: تعتبر من أهم الطرق بالنسبة إلى بحثنا، لما لها من المواقف والممارسات التي سنتناولها بالدرس المعمق في الفصول القادمة، وقد سميت بالقادرية نسبة إلى مؤسسها الأول عبدالقادر الجيلاني (50)، والبارز في تاريخها دخولها البلاد التونسية مبكراً.

ذلك أن أبا مدين شُعَيْب بعد أخذها عن مؤسسها مرّ — عند رجوعه — بتونس حيث التقى ببعض مشائخها، فتمتنت العلاقة بينهم حتى صار بعضهم يزوره في بجاية، وهذا يجعلنا نذهب إلى «أن الطريقة القادرية من أقدم الطرق الصوفية بالبلاد التونسية» (51).

لكن رغم ذلك ظلت بدون زاوية حتى ظهور الشيخ محمد الإمام المنزلي

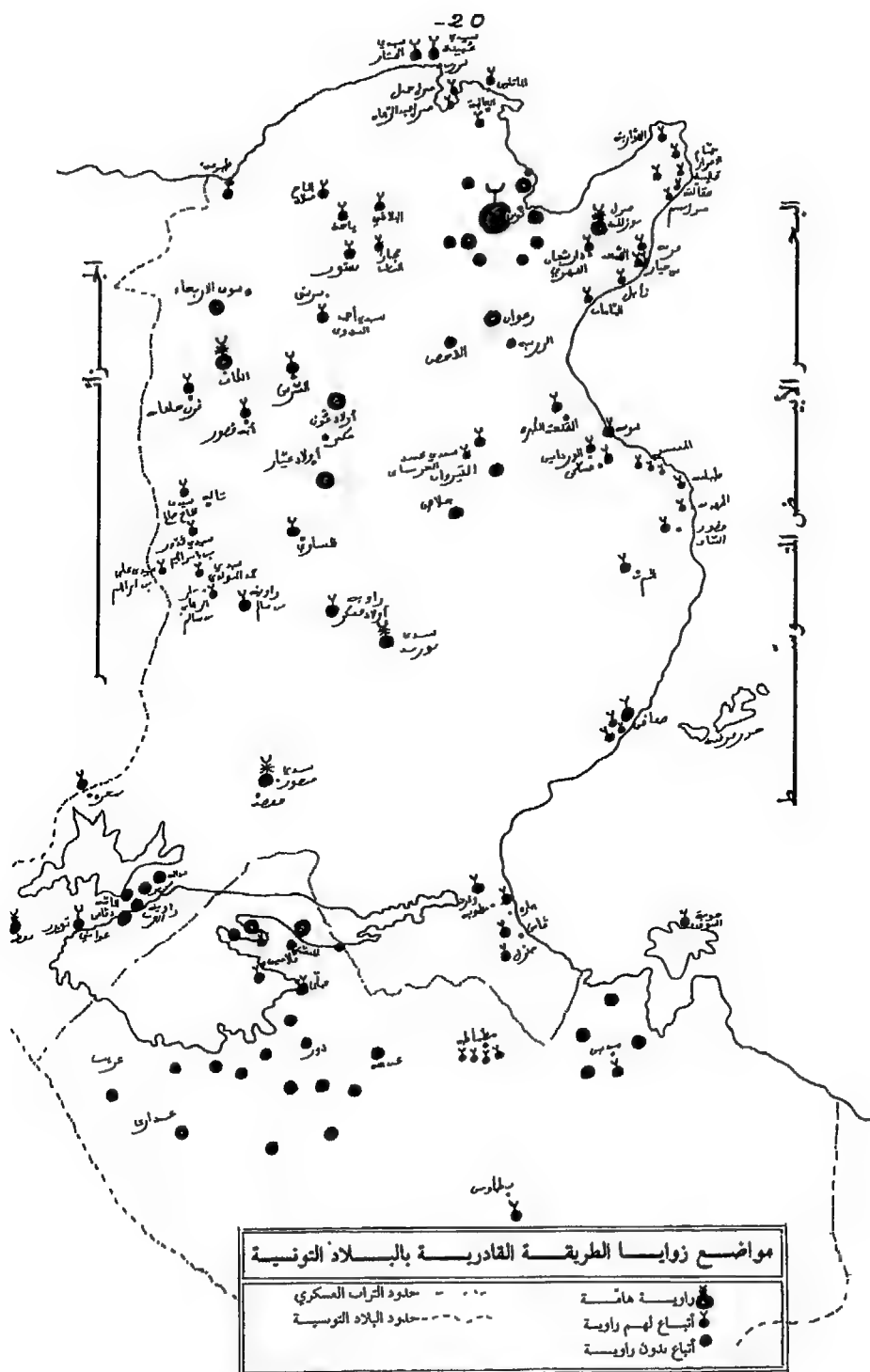
(50) عبدالقادر الجيلاني: ولد سنة 1097 ميلان بالعراق. قدم بغداد حيث تفقه وسمع الحديث من عدة علماء. تصدّر للتدريس والفتوى، ثم صار يُقصد بالزيارة حيث أخذ عنه العديدون الطريقة. صنّف عدة مؤلفات في الأصول والفروع، وله عدة أرواد وأدعية في التوسّل. حول ترجمته أنظر: مخلوف، المرجع السابق، ص 164، محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، بيروت، دار المعرفة، ط 3، مجلد 3، ص 281.

(51) النّيال، المرجع السابق، ص 321.

ت. 1832) الذي أتمّ أول زاوية لها بمنزل بوزلفة بمعونة حمّودة باشا الذي اعتُبر من أوائل أتباعها.

على أنّ هذه الطريقة لم تلبث أن انتشرت في الإيالة، فشملت معظم أنحائها (أنظر الخريطة)، حيث كان لها أتباع عديدون وصل عددهم سنة 1925 إلى 117.681 كما يبيّنه الجدول التالي (52).

المراقبة	عدد الزوايا	العدد الجملي للأتباع
بنزرت	6	663
تونس	38	1 821
زغوان	2	172
فرنالية	14	1 154
طبرقة	1	6.001
سوق الأربعاء	-	1.012
تبرسق	1	26 001
باجة	2	5000
الكاف	4	5.911
سوسة	11	484
مكثّر	-	729
القيروان	2	12 508
تالة	7	42.036
صفافس	5	120
قفصة	2	5000
توزر	3	1 593
فابس	4	408
جربة	1	61
مطماطة	4	74
مدين	1	983
تطاوين	1	4 505
قبلي	-	1 435
المجموع	109	117.681



إن هذه الأرقام تبرز أهمية القاعدة الشعبية التي تتمتع بها هذه الطريقة في البلاد، مما يوضح وزنها ونفوذها الذي عمل الاستعمار الفرنسي - كما سنرى - على توظيفه لخدمة أغراضه، علماً وأن نفوذها المادي والروحي تنقسمه ثلاثة مراكز أساسية وهي:

* زاويتها بمنزل بوزلفة: تمارس نفوذها خاصة على مناطق الشمال الشرقي من البلاد إلى الحدود الطرابلسية، حتى أن زوايا القادرية بجربة وقابس، وصفاقس كانت تعود إليها بالنظر (53).

* زاويتها بالكاف: يشع نفوذها على كامل الشمال الغربي من البلاد التونسية إلى مقاطعة قسنطينة، وجزء كبير من مقاطعة الجزائر (54)، حيث تمارس نفوذها على أولاد بوغانم (55) وشارن، والزغامة، وماجر، والفراشيش، وأولاد مومن والتماشية (56)، وصولاً إلى سوق الأربعاء، وطبرقة وبنزرت في الشمال.

* زاويتها بتوزر: رغم أن قادرية الجريد وليدة قادرية منزل بوزلفة، فإنها انفصلت عنها، وأصبح لها نفوذ على أقصى الجنوب التونسي والجزائري، وصولاً إلى غدامس وعين صالح (57)، هذا إلى جانب زوايا قادرية أخرى مستقلة عن المراكز الثلاثة توجد كلها بالحاضرة (58).

DEPONT (O.) et COPPOLANI (S.), *Les Confréries religieuses musulmanes en* (53 *Algerie*; Alger, Adolphe Jourdan, 1897, p. 305.

Ibid., (54

(55 حول القبائل والعروش الوارد ذكرها في هذه الدراسة، أنظر الخريطة بالملاحق رقم 2، ص 271 .

A.G.T., *Confrérie mère des Kadria*, p. 4, D 97 - 3. (56

DEPONT et COPPOLANI; *Op. cit.*, p. 307. (57

Ibid., p. 310. (58

— الطريقة التيجانية (59)

تنسب إلى مؤسسها سيدي أحمد التيجاني (60)، الذي تنقل في الصحراء لنشر طريقته ثم التجأ إلى فاس حيث اجتمع به الشيخ إبراهيم الرياحي (61) أثناء سفرته إلى المغرب الأقصى سنة 1803 – 1804 لجلب الميرة (62) فتأثر به، وكان «بذلك أول من تلقى الطريقة التيجانية بحاضرة تونس، وتعلّق بها، ونشرها،

(59) اعتبرنا الطريقة التيجانية طريقة أصلية، باعتبار أن أحمد التيجاني تلقى أسرارها مباشرة من الرسول صلى الله عليه وسلم يقظة لا مناماً على حدّ قول بعضهم (النيل، المرجع السابق، ص 327)، حتى أن البعض سمّاها بالطريقة «المحمدية» (أنظر هيفاء الامام، «مقارنة بين مؤسسي الطرق الصوفية التالية: التيجانية، السنوسية، والمهلبية» المجلة التاريخية المغربية، تونس مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل، عدد 4 (جويلية 1975)، ص 122 – 123). لذلك أجمع أتباعها «على أنّه ليس لها سند مثل بقية الطرق الصوفية، كما أنها ليست متأثرة بلّية طريقة من الطرق التي كانت سائدة في عصرها» (الكسراوي، المرجع السابق، ص 311). لكن يذهب البعض إلى أنّ مؤسسها أحمد التيجاني كان معجباً بمحمد الكردي (ت. 1780) – شيخ الطريقة الحفناوية بمصر – والذي التقى به عند سفره للحجّ، حيث يعتبر الأب الروحي له، وقد أمره بتأسيس طريقة، ولعلّ هذا ما دفع البعض إلى القول بأنّها متفرّعة عن الطريقة الحفناوية، أنظر: DEPONT et COPPOLANI, op. Cit, p 421, de même MARTIN (B G.), "Les Tijanis et leurs adversaires" développements récents de l'Islam au Ghana et au Togo" in · Les Ordres mystiques dans l'Islam; cheminements et situation actuelle, Belgique, l'Imprimerie Orientaliste, Leuven, (Décembre 1985), p. 283.

(60) أحمد التيجاني، ولد سنة 1737 – 1738، رحل سنة 1758 إلى فاس، ثم تلمّسان حيث درس الحديث والتفسير وغيرهما حجّ سنة 1773 حيث التقى بالعديد من رجالات التصوّف. لطريقته أتباع كثيرون يتغالون فيه إلى حدّ يفوق الوصف. توفي سنة 1814 ودفن بفاس، حول ترجمته أنظر مخلوف، المرجع السابق، ص 178 و379، وكذلك MARGOLIOUTH "Tidjaniya", l'Encyclopédie de l'Islam, t. IV-2, p 784-785.

(61) إبراهيم الرياحي، ولد تستور سنة 1756. التحق بالحاضرة للتعلم. تولى عدّة مناصب، كما أرسل في عدّة مهام دبلوماسية. له العديد من المصنّفات. توفي سنة 1850. حول ترجمته أنظر: عمر بن علي الرياحي، تعطير النواحي بترجمة سيدي إبراهيم الرياحي، تونس مطبعة بكار، 1904، ج 2، ابن أبي الضياف المصدر السابق، ج 7. ص 73 – 82، مخلوف، المرجع السابق، 386 – 389، محمد التيفر، عنوان الأريب عمّا نشأ بالمملكة التونسية من عالم أدب، تونس، المطبعة التونسية، ط 1، 1936، ج 2، ح 2، ص 67 – 69، محمود إلياس، إبراهيم الرياحي مفكراً وأديباً، شهادة الكفاءة في البحث، مخطوطة، تونس، الجامعة التونسية، 1978، ص 18.

(62) ابن أبي الضياف، المصدر السابق، ج 3، ص 39.

وأقام أورادها ووظائفها» (63)، وكانت زاويته — قرب حوانيت عاشور — أول زاوية للطريقة بالبلاد التونسية (64). ورغم انطلاق هذه الطريقة من الحاضرة، فإنها سرعان ما انتشرت في معظم أنحاء البلاد، حتى بلغ عدد أتباعها — كما يوضح الجدول التالي — 16.094 سنة 1925 (65).

المراقبة	عدد الزوايا	العدد الجملي للأتباع
بنزرت	2	293
تونس	6	501
قرنبالية	1	51
مجاز الباب	1	201
سوق الأريعاء	1	22
باجة	-	400
الكاف	1	1.015
سوسة	3	123
تالة	-	5 350
القيروان	2	1.578
قفصة	-	500
توزر	3	555
قابس	3	406
مدنين	1	68
تطاوين	-	5.031
المجموع	24	16 094

لئن يوضح هذا الجدول تواجد الطريقة التيجانية خاصة في الوسط

63 محمد السنوسي، مسامرات الظريف بحسن التعريف، تاريخ فقهاء الدولة الحسينية بتونس المحمية، تونس، (لات)، ج 1، ص 160.

64 A.G.T. , Confrérie mère des Tidjania, p 5, D 97 - 3

Ibid (65)

والجنوب، فيبدو أن عدد أتباعها شهد تراجعاً كبيراً، إذ تقلّص من 40.000 سنة 1891 (66) إلى 16.094 سنة 1925.

لكنّها تبقى — رغم ذلك — طريقة هامة بالنسبة إلى بحثنا هذا وخاصة زاويتها ببوعرادة المعروفة بزاوية سيدي صالح التيجاني، والتي تأسست فيما بين 1856 و1964 (67).

ب — الطرق الفرعية:

لئن قصرنا الحديث — في الطرق الأصلية — على طريقتين فقط لعلاقتيهما المباشرة بموضوع البحث، وغضضنا الطرف عن البقية رغم كثرتها، فإنّ القليل منها (الطرق الأصلية) تفرّعت عنه طرق ثانوية تجد اختلافها — عن الطريقة الأم — في الاسم تبعاً لمؤسّسها، في حين أنّ المبادئ تكاد تكون واحدة. ومن هذا المنطلق يمكن تقسيم الطرق الفرعية إلى قسمين:

* الطرق المتفرّعة عن القادرية:

ليست القادرية من أقدم الطرق الصوفية بالبلاد التونسية فحسب، بل إنّها تعتبر — على الأقل عددياً — الطريقة التي تفرّعت عنها جلّ الطرق الفرعية بالبلاد التونسية كما يوضّح ذلك الرسم الموالي، وتتمثّل تلك الطرق في:

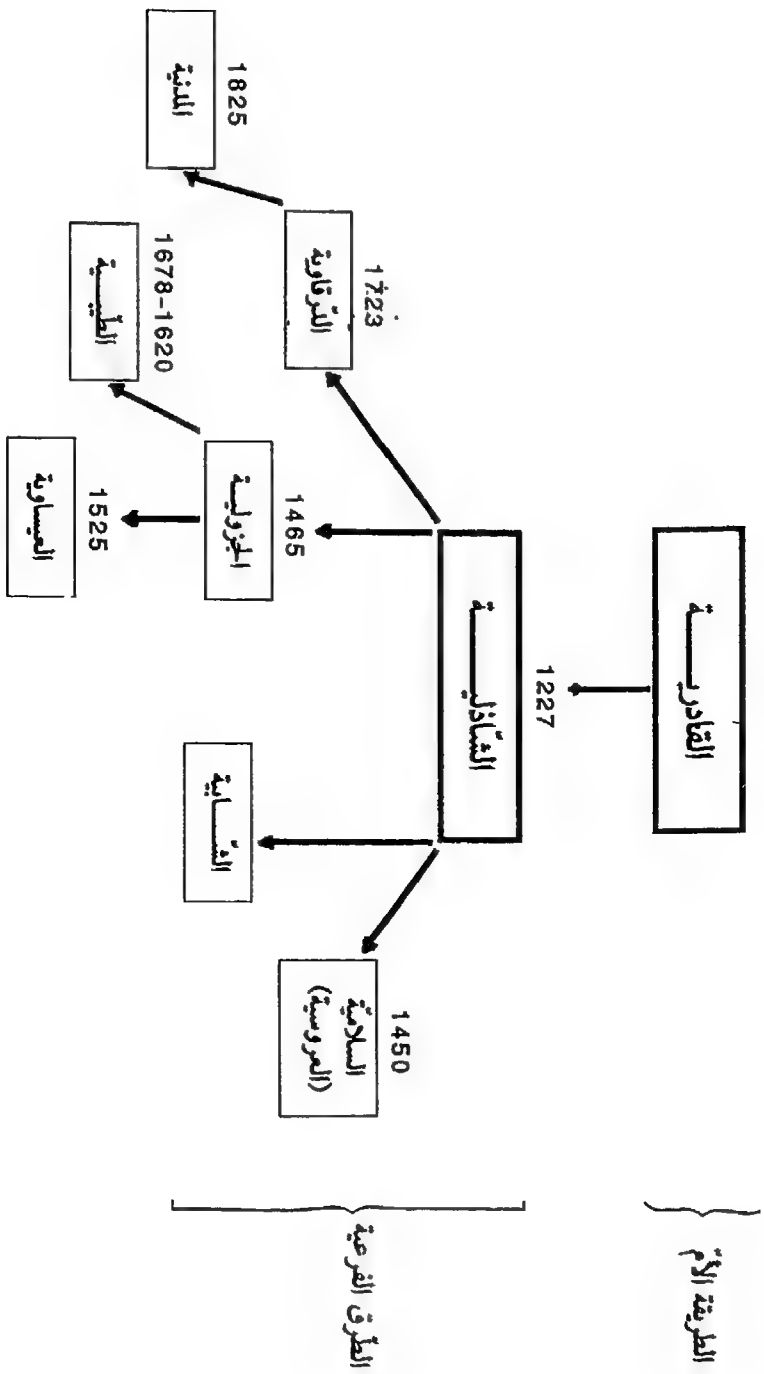
— الطريقة الشاذلية:

لئن حافظ أبو الحسن علي بن عمّار الشايب المنزلي — الذي أدخل الطريقة القادرية إلى الأيالة من المشرق — على اسم الطريقة الأم، حيث أنشأ زاويتها الأولى بمعية الشيخ محمد الامام المنزلي، فإنّ أبا الحسن الشاذلي — الذي أدخل الطريقة القادرية إلى الأيالة من الغرب — قد أعطاه اسمها، علماً وأن ذلك لم يمنع القادرية من الانتشار، إذ تعتبر الطريقة الشاذلية — المتولّدة عن القادرية — الطريقة الأم الثانية لجلّ الطرق الفرعية التي وجدت بالأيالة، والتي رغم تعددها، سنقتصر على تلك التي لها علاقة مباشرة بموضوع بحثنا وهي:

A. M. A. E. F., Note datée de Mars 1891, Protectorat Tunisie, 1er versement C 1218, (66)

Ordres religieux musulmans, 1888 - 1911

A.G.T, Confrère mère des Tidjania, p. 8, D 97 - 3. (67)



* ملاحظة: هذه التواريخ مأخوذة من كتاب Depont ويبدو أنها تمثل سنة وفاة مؤسسي هذه الفروع، أو سنوات تأسيسها.

— الطريقة المدنية :

تولدت عن الدرقاوية (68) المتفرعة بدورها عن الشاذلية، وقد سميت بالمدنية نسبة الى مؤسسها ظافر المدني (69) الذي خلفه ابنه محمد ظافر المدني (70)، فأسس عدة زوايا خاصة بطرابلس الغرب، كما زار تونس وأسس زاوية الشيخ أبي عبدالله بصفاقس.

وقد توطدت علاقته بالسلطان عبد الحميد (حكم 1876 — 1909) الذي قرّبه منه بعد أن أصبح من أتباع الطريقة، وبني له زاوية بالآستانة من ما له الخاص. على أن الطريقة المدنية لم يكن لها بالآيالة أتباع عديدون كما يوضح ذلك الجدول التالي لسنة 1925 (71).

المراقبة	عدد الزوايا	العدد الجملي للأتباع
بنزرت	-	41
تونس	2	52
زغوان	1	7
مكثّر	1	12
القيروان	1	201
صفاقس	1	150
فابس	-	22
المجموع	6	485

(68) الدرقاوية، فرع من فروع القادرية، تنسب الى مؤسسها العربي بن أحمد الدرقاوي من قبيلة زردل بالمغرب الأقصى، والذي أخذ على عاتقه إتمام ما شرع فيه شيخه أبي الحسن علي بن عبدالرحمان من تصحيح للطريقة الشاذلية. توفي سنة 1723. أنظر: DEPONT et COPPOLANI, op. cit., p.170.

(69) ظافر المدني، درس بالمدينة، ثم ساح في الأرض حتى انتهى الى المغرب الأقصى أين التقى بالشيخ الدرقاوي، فأخذ عنه الطريقة وتوجه لنشرها بالشرق. توفي سنة 1852 تقريبا حول ترجمته أنظر مخلوف، المرجع السابق، ص 383.

(70) محمد ظافر المدني أخذ عن والده، وخلفه في الطريقة. تجول في عدة أقطار، ثم سافر الى الآستانة أين كانت له حُضوة عند السلطان عبد الحميد. له عدة مؤلفات وأثراد. توفي سنة 1909. أنظر مخلوف، المرجع السابق، ص 411.

(71) A.G.T., Confrérie des Madania, D 97 - 3.

يوضّح الجدول ضعف عدد أتباع الطريقة بالبلاد التونسية، وقد يعود ذلك إلى علاقة شيخها بالسُلطان عبد الحميد، الأمر الذي جعل السلط الاستعمارية تتوجّس منها خيفة للدور الذي يمكن لها أن تلعبه في نشر فكرة الجامعة الإسلامية (72)، فضيّقت الخناق على تحركات أتباعها في إطار سياستها الرامية إلى تطوير الطرق المناوئة لها (73).

الا أنه رغم قلّة أهميّة هذه الطريقة بالآيالة فإنها تعتبر هامة بالنسبة إلى موضوع بحثنا، للمواقف التي كانت لها من بعض القضايا.

— الطريقة الشاذليّة:
لئن ذهب كل من ديون Depont وكوبولاني Coppolani إلى أنّ الطريقة الشاذليّة متفرّعة عن الطريقة الناصريّة (74) — التي انحدر منها أحمد بن مخلوف (ت. 1492) الذي كلّف بنشرها بتونس حيث استقرّ بالشاذليّة (75) —، فإن السيد علي الشاذلي اعتبر أن ما كتبه — «جاء — متّسماً — بالخلط والاضطراب، لأنهما لم يعتمدا فيه على مصادر موثوقة...» — باعتبار أن الشّيخ محمد بن ناصر توفّي... سنة 1669، ومعنى هذا أنه توفّي بعد وفاة ابن مخلوف بما لا يقل عن 182 سنة...» (76) وهو ما لا يمكن القول به.

72) الجامعة الإسلامية: تهدف إلى تحقيق رابطة سيامية تجمع المسلمين على صعيد العقيدة الموحّدة، أساسها تعاليم القرآن والسنة، يقطع النظر عن لغاتهم، وأجناسهم ومواطنهم، حتى يبقوا صفا واحدا في وجه الأطماع الأوروبية، حول تاريخها وأهدافها أنظر:

STODDARD (L.) *Le nouveau monde de l'Islam*, traduit de l'anglais, Paris, Payot, 1923, pp. 47 - 86, SANHOURY, *Le Califat: son évolution vers une société des Nations Orientales*, Paris, Geuthner, 1926, pp. 504 - 513.

73) أنظر العوامل المفسّرة لاختلاف عدد الأتباع بين الطرق في حديثنا عن ممتلكاتها المنقولة، ص 62 وما بعدها

74) الطريقة الناصريّة، طريقة صوفيّة متفرّعة عن الشاذليّة، أسسها محمد ابن أحمد بن ناصر الدرعي أحد المجتهدين للطريقة الأمّ. حصل العلوم في فاس ومصر، ثم عاد إلى مسقط رأسه حيث أسّس زاوية بوادي درعه لشر العلم والطريقة. توفّي سنة 1669 تقريبا، أنظر: DEPONT et COPPOLANI, op. cit., p. 278.

Ibid., p. 481 (75)

76) علي الشاذلي، العارف بالله أحمد بن مخلوف الشاذلي وفلسفته الصوفيّة، تونس، الدار التونسية للنشر، 1979، ص 17 و28.

وبقطع النظر عن أن الطريقة الشايبية انحدرت من الطريقة الناصرية أو لم تنحدر، فإنها «متفرعة عن الشاذلية، شأنها في ذلك شأن كثير من الطرق...» (77)، وقد شتتها الأتراك لوقوفها ضد التدخل العثماني، ولم تبرز للوجود من جديد إلا بعد مدة في الجريد تحت اسم «بيت الشريعة» (78)، حيث لم يكن لها أتباع إلا في نقطة، وتوزر خاصة، لكن رغم ذلك كانت لهذه الطريقة عدة مواقف من بعض القضايا التي لها علاقة بموضوع بحثنا هذا.

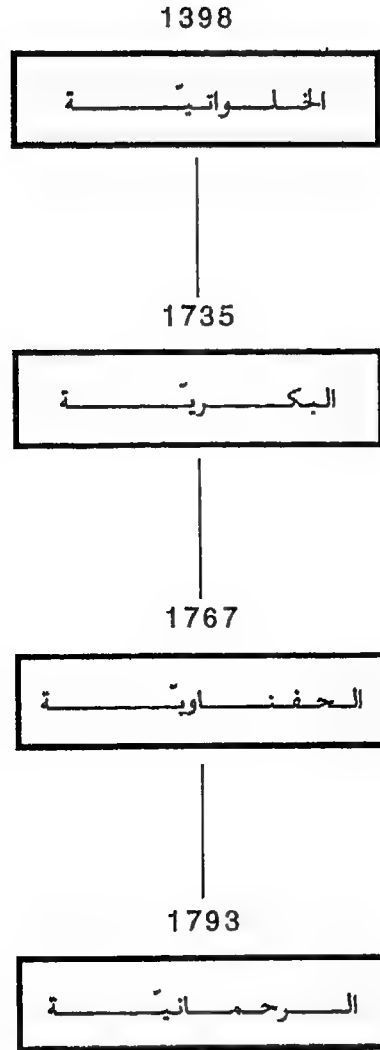
* الطرق المتفرعة عن غير القادرية:

ونقصد بها تلك التي تفرعت عن طريقة أمّ غير القادرية. ذلك أن هناك طرق أخرى أصلية أوجدت لها طرقاً فرعية بالآلة كالطريقة الخلواتية (79) التي تولدت عنها الطرق التالية:

(77) نفس المرجع، ص 82، هامش 4

(78) بيت الشريعة: أسست في عهد الشيخ علي بن محمد المسعودي الشاذلي (ت. 1663)، حيث رتب فيها دروساً قارة في مختلف الفنون. وقد استمرت في إشعاعها حتى المتصف الثاني من القرن التاسع عشر ميلادي، أنظر الشاذلي، المقال السابق، ص 9 و 113، وكذلك، الشاذلي، «مصادر جديدة لدراسة تاريخ الشاذلية»، المجلة التاريخية المغربية، عدد 14/13 (جانفي 1979)، ص 55 — 81، ص 78.

(79) الطريقة الخلواتية، تستمد تسميتها من مؤسسها الفعلي عمر الخلواتي أحد الصالحين، الذي عاش في عزلة تامة وفي خلوة فردية، توفي سنة 1398 بقبصرية بسوريا، أنظر: A.G.T., Confrérie des Khelouatya Hafnaouia, D 97-3; de même RINN; op.cit., p. 290-291; DEPONT et COPPOLANI, op. cit. p. 162.



* ملاحظة . هذه التساويخ تمثل تاريخ وفاة مؤسسي هذه الطرق

إن هذه الطرق المتفرعة عن الخلواتية لا نجد ضمنها إلا طريقة واحدة تتعلق أساساً بموضوع هذا البحث، وهي الطريقة الرحمانية آخر ما تفرع عن الطريقة الأم.

إن انحدار الطريقة الرحمانية عن الخلواتية يبدو واضحاً في إجازات بعض مقدّميها والتي أشارت إلى سلسلة الطريقة.

تستمدّ هذه الطريقة اسمها من مؤسسها محمد بن عبدالرحمان (80)، الذي تعلّم قليلاً بالجزائر، ثم ذهب للحجّ حيث التقى - في مصر - بالشيخ محمد سالم الحفناوي (ت. 1767)، وبعد إتمام لدراسته هجّاد إلى الجزائر حوالي سنة 1770 لنشر الطريقة التي دخلت الأيالة التونسية من منفذين:

- أولهما الكاف: حيث أسّس يوسف بوحجر - أحد أتباع سيدي عبدالرحمان السابق الذكر - زاوية رحمانية لم تلبث أن صارت بمثابة الزاوية الأم للطريقة بالبلاد فيما بين 1821 و 1843، تشعّ وتمارس نفوذها على أغلب جهات الشمال الغربي أين كانت تعدّ حوالي 3000 من الأتباع سنة 1896 (81).

إن زاوية الطريقة الرحمانية بالكاف تعتبر بالنسبة إلى هذا البحث من أهمّ زوايا الطريقة نظراً لما كان لها من مواقف سنركّز عليها الحديث في الفصول القادمة، وكذلك الشان بالنسبة لبعض زواياها بالشمال الغربي كزاوية سيدي عبدالملك بسليانة، وزاوية سيدي صالح بعين الصّابون التي تأسست سنة 1845.

- ثانيهما نفطة: ذلك أنه بعد احتلال الفرنسيين لجهة بسكرة بالجزائر سنة 1843، غادرها الشيخ محمد بن عزّوز شيخ الطريقة الرحمانية بها واستقرّ بنفطة أين أسّس زاوية رحمانية لم تلبث أن صار لها نفوذ على الوسط والوسط الغربي، ممّا حدّ من نفوذ زاوية الكاف، علماً وإنّ إشعاع زاوية الرحمانية بالجريرد

DEPONT et COPPOLANI, op.cit., p 382 (80)

A.G.T., Confrérie Rahmānya au Kef, renseignements fournis par le C.C. du Kef, Le 81 13/5/1896, D 97 - 3.

وصل أوجه زمن شيخها مصطفى ابن عزّوز (82).
لقد تعدّدت في عهده الزوايا التابعة له، وأهمّ ما يتعلّق منها بموضوع بحثنا
زاوية سيدي أحمد الزاير التي تأسّست سنة 1847 في كدية الحلفاء، وزاوية
الشيخ مبارك (ت. 1865) التي تأسّست بتالة سنة 1860، وزاوية سيدي
عبدالمكّ بهنشير الشطّ (سليانة) التي أسّسها ابنه حسونة - شيخ الرحمانية بأولاد
عون - وذلك في أفريل من سنة 1911.
وبالتالي فإن الطريقة الرحمانية - إحدى الطرق التي لها علاقة بهذا البحث -
كانت تعدّ سنة 1925 حوالي 114.761 تابعا موزعين على أغلب الجهات (أنظر
الخريطة) كما يوضّح الجدول التّالسي (83) :

(82) مصطفى بن عزّوز، دخل القطر التّونسي حيث ستّ الطريقة الرحمانية وأسس زاوية له في نفطة
وكان أحمد باي يعظم شأنه، ويجلّه، واجتمع به غير مرّة وقد لعب دورا أساسيا في إخماد ثورة
علي بن غداهم لاغتراره بالأمان الذي أعطاه له الباي ووزيره خزندار. توفي سنة 1866، أنظر
ترجمته في، مخلوف، المرجع السّابق، ص 391، ابن أبي الصياف، المصدر السّابق، ح 8،
ص 142 - 143.

A.G.T., Confrérie des Rahmánya, D 97 - 3. (83)

المراقبة	عدد الزوايا	العدد الجملي للأتباع
بنزرت	4	2.562
تونس	6	5.251
زغوان	1	1 002
مجاز الباب	3	1 661
طبرقة	-	4.500
سوق الأربعاء	-	3 711
ترسق	1	11.001
باجة	1	3.201
الكاف	2	6 567
سوسة	4	177
تالة	8	53 063
مكثر	5	3 934
صفاقس	1	20
القيروان	5	4 016
قفصة	1	2 105
توزر	7	2 112
فابس	1	21
جهة جرجيس	1	61
جهة مطماطة	3	234
جهة مدين	-	4.172
جهة تطاوين	-	3.514
جهة فلي	1	1 267
قيادة تاجروين	1	609
المجموع	56	114 761

(2) خصائصها ومواردها:

للطرق الصوفية خصائص تربية وموارد اقتصادية جعلت منها قوة هامة في البلاد عمل الاستعمار الفرنسي - كما سيأتي في هذا البحث - على الاستفادة منها واستغلالها.

(أ) خصائصها:

سعيها منها لتربية أتباعها وتهذيبهم روحيا بتركية أنفسهم، والسمو بها نحو مثل عليا، وضعت الطرق الصوفية أورادا وأذكارا وأدعية رتبها حسب أوقات معينة في شكل دورات روحية جماعية أو فردية، يتولى المريد خلالها تكرار عدد معين من الهيلكة (هي قول لا اله الا الله) والاستغفار، والتسبيح والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في فترات مختلفة من اليوم والليلة. ولئن حجرت بعض الطرق الصوفية كالسنوسية (84) استعمال أي نوع من آلات الطرب أثناء الذكر، فإن طرقا أخرى أباحتها، مما ساهم في إيجاد حالة من الوجد تخرج بأصحابها عن الاحساس بواقعهم.

ذلك أن الترتم بتلك الأذكار والأوراد، وفق نغمة موسيقية معينة، مصحوبة بالضرب على آلات الطار والبندير، والتغرات حسب نسق يتزايد أحيانا وينقص أخرى، يؤدي إلى حالة من الاهتزاز، والوجد عند أفراد الحضرة الذين يصلون

(84) السنوسية: طريقة صوفية تُنسب إلى مؤسسها محمد بن علي السنوسي الحرايري الأصل رار المغرب وتونس، وطرابلس، ومصر والحجاز، حيث أقام له راوية في جبل أبي قبيس، ثم رجع إلى برقة وأسس راوية البيضاء بالجبل الأخضر التي لم يلبث أن عادها إلى واحة حَقْبُوب أين توفي سنة 1855. وتتميز طريقته خاصة بعدائها للاستعمار، وسعيها إلى توحيد المسلمين للوقوف في وجهه، كما كانت خالية من بعض الممارسات التي تقع في حضرات بعض الطرق الأخرى أنظر «السنوسي»، حريدة الصواب، تونس، المطبعة التونسية بهج سوق البلاط، السنة 2، ليوم 1911/10/27، ص 3، هيفاء، المرجع السابق، ص 123، وكذلك،

A. G.T., Note sur les Snoussia en Tunisie, D 97-3; de meme RINN, op.cit., p 502, ANDRE (F); Contribution a l'étude des Confréries religieuses musulmanes; Alger, Maison des Livres, 1956, p. 71 - 72

الى درجة لا يتمالكون فيها عن الإتيان بأعمال تبدو مستحيلة على الانسان العادي .

من ذلك أن أتباع طريقة سيدي أبي علي النفطي (85) «يُبهرّون المتفرّجين بوصفهم لأنسة النار في مواضع مختلفة من أجسامهم دون أن يحترقوا» (86).
أما أتباع الطريقة السّلامية (87) فإنهم يمسّون المناجل المحاماة (88)، ويشعلون «بقايا من الحلفاء يضعونها ملتهبة تحت ملابسهم، ثم يخرجونها دون أن تحترق ثيابهم أو جلودهم»! (89).

وتصل هذه الأعمال قمّتها مع أتباع الطّريقة العيساوية (90) الذين يضربون «أنفسهم بالمُدي في حالة الغيبوبة، ويأكلون الزجاج، ويقبضون على الحديد المحمّي ويزدردون الأفاعي» (91).

كلّ ذلك تأسيساً بمؤسّس طريقتهم الذي — كما تقول الأسطورة — لما اشتدّ الجوع بأتباعه — بعد أن طلب منه سلطان مكناس مغادرة المدينة — أمرهم بأن يقتاتوا بما يجدونه أمامهم كالحجارة والأفاعي، التي ما أن يضعوها في أفواههم حتى تستحيل الى طعام لذيد (92) على ما يقولون.

85 أبو علي النّفطي . ولد بفطة، وكان من المتحمّسين لمذهب أهل السنة المتكبرين على غيرهم من الفرق كالحوارج الذين أُلّف في الرّدّ عليهم توفّي سنة 1213، أنظر: النّيال، المرجع السابق، ص 213، وكذلك RINN, op. cit., p 120.

86 DEPONT et COPPOLANI, op. cit P 160

87 السّلامية. تنسب الى مؤسّسها سيدي عبدالسلام الأسمر، من مواليد فاس ساح في البلاد الافريقية أسّس زاوية له بزليطن بطرابلس سنة 1537، أنظر مخلوف، المرجع السابق، ص 318.

88 A.G.T, Sellamyà à Souk - el - arbaâ, p 2, D 97 - 3

89 Ibid, Sellamyà à Kairouan, p. 2, D 97 - 3

90 العيساوية. طريقة صوفية أسّسها محمد بن عيسى أصيل مكناس، والذي بعد حجّه انتمى الى الطريقة الشاذلية، الا أنّه بعد رجوعه أسّس طريقة حملت اسمه. دخلت البلاد التّونسية منذ القرن السّادس عشر للميلاد، حيث لم تلبث ان انتشرت بسرعة، فصارت لها سنة 1925، 144 زاوية و534 37 من الأتباع. أنظر: RINN, op. Cit, p. 269

91 النّيال، المرجع السابق، ص 336

92 A.G.T, Confrérie mère des Aissaoua, p 1; D 97 - 3

إنّ هذه الأعمال - فضلاً على أنها تصعب على الانسان العادي - قد ساهمت في فقدان الأتباع لوعيهم والشّعور بواقعهم، وهي ممارسات شجّعها الإستعمار الفرنسي لصرف اهتمامات المريدين عنه، وتوجيهها إلى مجالات أخرى، حتّى يتفرّغ هو لتنفيذ مخططاته دون أن يجد من يقف في سبيله، الأمر الذي يكشف عن الدور السلبي الذي لعبته بعض الطّرق تجاه أتباعها، وتجاه ما يتطلبه واقع البلاد آنذاك.

ب - موارد هــ:

تنبع أهمية وعلاقة موارد الطرق الصوفيّة بموضوع هذا البحث من ضرورة توضيح القوّة الاقتصادية التي كانت تتمتع بها، والتي كانت وراء نفوذها على أتباعها، وهو نفوذ عمل الإستعمار الفرنسي على الإستفادة منه كما سيأتي في هذا البحث. على أنّ التأمّل في هذه الموارد لا يتبيّن تنوعها فحسب، بل يفاجأ بضخامتها، وتمثّل أساساً في:

* الممتلكات العقارية: تتكوّن من البساتين، والأجنّة والأراضي الزراعية المتأثية في أغلبها من الوقف.

والوقف تحييس عقارات على أطراف معيّنّة بمقتضى عقد التّحييس الذي ينصّ على الأوجه التي تنفق فيها موارد العقارات المحبّسة.

ولئن كان هذا النّظام قديماً، فإنّه قد بلغ أوجه خاصة في القرن الثامن عشر للميلاد، حيث «عمّت الأحباس الخاصّة والعامة جهات الشمال، والسّاحل، والوسط والجريد، خاصّة وأنّ السّلطة السياسيّة آنذاك قد شجّعت على ذلك...» (93).

ومن هذا المنطلق حبّست عدّة عقارات على الرّوايا التي أصبحت لها أملاك هامة تدرّ عليها مداخيل ضخمة، وتمثّل في:

- الأشجار المثمرة: وتبرز بصفة خاصة في الجنوب مثلاً حيث تحتلّ زاوية القادريّة بتوزر صدارة «الصّنف الثّاني من كبار الملاكين هناك...»، إذ كانت تملك

(93) فتحي المرزوقي، بعض المؤسسات الدينيّة ومكانتها الاقتصادية بتونس في القرن الثامن عشر، شهادة الكفاءة في البحث، مخطوطة، كلية الآداب والعلوم الانسانيّة، تونس، 1984، ص 6

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ميلادي 1127 نخلة» (94)
إن هذه الملكيات تنأت أيضا للزوايا عن طريق السلطة التي تشتري لها البعض
منها تقريبا وكسبا لشيوعها.

من ذلك «شراء سانية ابن عثمان التوزري للفضل البركة مصطفى بن
عزوز» (95)، كما أن الإمكانيات المالية الهامة لبعض الطرق مكنت مشائخها من
شراء العديد من الأجنحة بها أعداد كبيرة من النخيل كانت بالنسبة للبعض منهم
— في النصف الثاني من القرن التاسع عشر — على النحو التالي (96) :

أصحاب النخيل	دئلة	مطلق
أحمد التيجاني ومحمد العيد	327	7.151
بو علي النفطي بتوزر	—	1 307
مصطفى بن عزوز بتوزر	675	4 289

أما بالنسبة إلى الطريقة القادرية بالجريد فإنها كانت تملك أربعة أجنحة بنقطة،
واثنين بتوزر، وجميع سواني الحامة التي لها مدخول سنوي يقدر بـ 10.300
فرنك بالإضافة إلى أجنحة محبسة على زاويتها هناك بنقطة (97).

(94) محمد الطيب ابن التوري، الوضع الاقتصادي والاجتماعي في توزر خلال النصف الثاني من القرن
التاسع عشر، 1856-1880، شهادة الكفاءة، مخطوطة، كلية الآداب والعلوم
الانسانية، تونس، سبتمبر 1977، ص 29-30.

(95) نفس المرجع، ص 45

(96) نفس المرجع والصحة.

(97) أنظر الملحق رقم 3، ص 273

إنّ هذه الأمثلة توضّح بجلاء القوة الاقتصادية التي كانت لبعض الطرق في البلاد التونسية.

— الأراضي الزراعية —

تبدو موزّعة على مختلف أنحاء البلاد، وخاصة الشمال والوسط الغربيين منها، حيث كانت بعض الطرق تملك مساحات شاسعة غالباً ما تستغلّها بصفة مباشرة عن طريق الخماسة، أو ما يسمّون بالخدّام (Les domestiques) الذين يمثلون يداً عاملة قارة فوق ممتلكاتها، حيث يقومون بأغلب الأعمال الفلاحية.

لقد تفاوتت مساحة هذا النوع من الممتلكات باختلاف أهمية الطريقة :

من ذلك أنّ زاويتي القادرية بأولاد عسكر لهما مساحة سقوية تتراوح بين 300 و 400 هكتار مسقية بمياه وادي الخطب، كما تملكان أراضي بالفصرين (98). أما زاوية سيدي صالح التيجانية ببوعرادة فلها هنشير قدرت مساحته بـ 500 هكتار، في حين يعتبر شيخ زاوية القادرية بالكاف — التي لها علاقة هامة بموضوع البحث — من أكبر الملاكين العقاريين بالجهة، إذ تتكوّن «ثروته من ستة هنشير جعلته من أصحاب الملايين» (99).

* الممتلكات المنقولة :

تتمثّل في رؤوس الأموال المتجمّعة لدى مشائخ الطرق والمتأثية لهم من عدة أوجه أهمّها :

— الزيارات : وهي تحوّل الناس الى الزوايا مرتّين في السنة — بصفة رسمية — ، أولى في الربيع وثانية في الخريف، حاملين معهم أعطيات نقدًا وعيّنًا، فكانت بذلك مناسبة مكّنت العديد من مشائخ الطرق من جمع أموال طائلة زادت في نفوذهم على أتباعهم، مما دفع بالسلط الاستعمارية الى تحجيرها إضعافًا للطرق (100).

A.G.T., Confrerie mère des Kadria, p. 10; D 97 - 3 (98)

Ibid; p. 7 (99)

(100) أنظر الأسباب الداخلية لضعف الطرق الصوفية في الفصل الرابع، ص 251-261

— الإعانات: وتتمثل في مبالغ مالية تدفع في شكل جرايات دورية تخص بعض الزوايا، ويعود تاريخ سنّها إلى الدولة الحسينية، وترمي هذه الإعانات — التي أقرتها السلّط الاستعمارية — إلى احتواء بعض الطرق وتوظيفها.

وبالتالي فإنّ مختلف هذه الموارد جعلت الطرق الصوفية تحصل — سنوياً — على مداخيل هامة ومتنوعة ومختلفة كما يبيّن ذلك الجدول التالي (101).

إسم الطريقة	قيمة العقارات التي تملكها الطرق بحساب الفرنك	الدخل السنوي لعقارات الطرق بحساب الفرنك	الدخل السنوي المتأتّي من الزيارات بحساب الفرنك	مجموع الدخل السنوي بحساب الفرنك
القادرية	2 000.000	44 000	120.000	164 000
الرحمانية	3 875.000	93 000	97 000	190.000
الغيساوية	840 000	16 800	56 310	73.110
التيجانية	1 191.500	23 830	24.000	47 830
السلامية	556 400	39.626	62.445	102.071
سيدي بو	380 000	7.600	24 570	32.170
الشاذلية	455 000	9.100	31 270	40 370
المدنية	-	-	5.000	5 000

رغم إقرارنا بأنّ هذه الأرقام ليست الاّ تقريبية، ولا تعكس بالضرورة القاعدة المادية الصحيحة للطرق في الايّالة (102)، فإنها تعطينا فكرة — ولو نسبية — عن أهميتها الاقتصادية، كما توضّح التفاوت في الثروة بين مختلف الطرق الصوفية: ذلك أن الطريقة الرحمانية تحتلّ — من حيث مجموع الدخل السنوي —

(101) A.G.T., Tableau récapitulatif, ressources des confréries religieuses musulmanes en Tunisie d'après les renseignements officiels fournis en 1924-25 par les C.C. et les bureaux militaires des affaires indigènes, D 97-3.

انظر الملحق رقم 4، ص 275.

(102) أنظر تقييمنا للدراسات والاحصائيات التي قامت بها السلّط الاستعمارية لمعرفة الواقع الطرقي، ص 83 - 85.

المرتبة الأولى، تليها الطريقة القادرية، ثم الطريقة السلاّمية.

فإلى أيّ شيء يعود هذا التّفاوت في الثروة بين الطرق الصّوفيّة في الأيالة؟ هل يفسّر بكثرة عدد الأتباع بالنسبة لكلّ طريقة، أم بنوعيّة هؤلاء الأتباع ووضعيتهم الاجتماعيّة؟ أو أنّ ذلك التّفاوت يعود إلى اختلاف موارد الطّرق وتنوّعها، وخاصّة توزّعها الجغرافي في البلاد التونسيّة؟

إنّ اختلاف الموارد وتنوّعها له أهميّة في تفاوت ثروات الطرق، وهو ما يبدو واضحاً بالنسبة للطريقة الرّحمانيّة التي تحتلّ المرتبة الأولى من حيث الثروة تبعاً لتعدد عقاراتها والتي يقدر دخلها السنوي بـ 93.000 فرنك، بالإضافة إلى 97.000 فرنك تتأتّى لها من الزيّارات.

الأ أنّ حجم العقارات التي تملكها مختلف الطرق ليس العامل المحدّد والمفسّر للتفاوت بينها في الثروة: من ذلك أنّ قيمة عقارات الطريقة السلاّمية – مثلاً – والتي تقدر بنصف قيمة عقارات التيجانيّة – لها دخل سنوي يفوق دخل هذه الأخيرة بأكثر من مرّة ونصف، ويفوق الدّخل السنوي للطريقة العيساوية.

فإلى أيّ شيء يعود انعدام التّطابق التّنسبي بين قيمة العقارات التي تملكها الطرق وبين الدخل السنوي المتأتّي منها؟

إنّ ذلك قد يفسّر بعاملين :

أولهما: نوعيّة العقار خاصة بالنسبة للأراضي الزراعيّة من حيث الخصوبة، وبالتالي أهميّة الإنتاج كمّاً وكيفاً تبعاً للتوزّع الجغرافي لتلك الأراضي في البلاد التونسيّة.

ذلك أنّ الطرق التي لها أراض في مناطق الوسط والوسط الغربي وحتى بعض جهات الشمال الغربي كالكايف تخضع لعوامل مناخية قاسية كثيراً ما تتسبّب في الحيلولة دون تحقيق إنتاج هام أو حتى اتلافه..

وهو ما يصدق مثلاً على تالة التي عرفت فترات مناخية صعبة جداً تميّزت بنزول الثّلوج وهبوب البرد القارص (103). وكذلك الشّان بالنسبة لجهة

(103) أنظر ذلك في حديثنا عن أسباب ثورة الفراشيش في الفصل الثالث، ص 158 - 163.

مكثر والكاف وتبرسق، وهي عوامل لا تؤثر سلباً على الانتاج فحسب بل تتلف جانباً هاماً من الثروة الحيوانية.

أما الطرق التي لها عقارات في مناطق تتمتع بمعطيات مناخية ملائمة كالشمال والشمال الشرقي والسواحل الشرقية من البلاد التونسية، فلا شك ان مردودها السنوي سيكون أفضل من الصنف السابق الذكر، ليس تبعاً للظروف المناخية فحسب، بل كذلك تبعاً لنوعية التربة الأكثر فقراً في الوسط والوسط الغربي، وهو ما يؤدي - عادة - الى ترك مساحات شاسعة بوراً.

ثانيهما: الاختلاف في وسائل الإنتاج وطرقه، ليس بين منطقة وأخرى وإنما - كذلك - تبعاً للطريقة التي تعود لها تلك العقارات بالنظر من حيث «الخدّام» الذين يتولّون استغلال واستثمار أراضي الزاوية، وكذلك من حيث وسائل وأدوات العمل المعتمدة في كل مراحل الأعمال الفلاحية.

كما أنّ ذلك التّفاوت في الثروة بين مختلف الطرق قد يعود الى الأتباع من حيث عددهم وتوزّعهم الجغرافي، وكذلك وضعيتهم الاجتماعية.

ذلك أنّ الزيارات تعتبر أهمّ مورد للطرق يفوق مردودها السنوي الدخل السنوي للعقارات، كما يوضّح أهمية الأتباع في التّفاوت في الثروة بين الطرق.

ولئن كان عدد الأتباع - من حيث الكثرة أو القلة - لا يؤثر على المبالغ السنوية المتأتية لمختلف الطرق من الزيارات بالنسبة إلى جلّ الطرق، فإن بعضها - رغم قلة عدد أتباعها بالنسبة إلى غيرها - لها مدخول سنوي متأتي من الزيارات يفوق البعض الآخر: من ذلك - مثلاً - أنّ الطريقة السّلامية - التي يقدر عدد أتباعها (12 489) بثلاث عدد أتباع الطريقة العيساوية (37.534) - لها دخل سنوي متأتي من الزيارات (62.445 فرنكا) يفوق مدخول العيساوية (56.310 فرنكات) والنيجانية (24.000 فرنك).

فما هي الأسباب المفسّرة لهذا التّفاوت في المدخول السنوي للطرق من الزيارات ان لم يكن عدد الأتباع هو المحدّد؟

إنّ الوضعية الاجتماعية للأتباع تفسّر الى حدّ ما ذلك التّفاوت، إذ نجد أن بعض الطرق ممثلة بصفة واضحة في الفئات الميسورة أساساً، كما يوفر لها موارد مالية هامة.

من ذلك أن السّلامية — مثلاً — لها أتباع كثيرون ضمن فئة التجّار في نفاوة والذين يتردّدون سنويّاً على السّودان (104).

أمّا في الوطن القبلي فينتمي كلّهم الى فئة الفلاحين، في حين نجدهم — في القيروان — ضمن التجّار والصّناعيّين، وفي صفاقس ضمن العدول (105).

أمّا بالنسبة الى الطريقة القادرية، فيتكوّن أغلب أتباعها بزواوية نفطة من الأشراف (106)، وكذلك الشأن بالنسبة إلى زواوية سيدي الحسناوي الواقعة في سفح جبل مغيلة — في ماجر — ، والتي تضمّ بين أتباعها مجموعة من الأعيان (107).

هذا في حين يتكوّن أتباع الطريقة الرّحمانية في صفاقس من العائلات الغنيّة كعائلات التّوري، والشّعبوني، والشّرفي، والزّريبي والكرّاي (108)، علماً وأنّ الغنيّة «يشمل كامل فئاتها (صفاقس) لكنّه أكثر عند بعض العائلات كعائلة التّوري والسّلامي والجلّولي» (109).

أمّا الطريقة الشاذلية فينتمي إليها تقريباً ثلاثة أرباع سكان مدينة تونس (110)، علماً وأنّ العائلات الكبيرة بها تنتمي إليها عادة (111).

A.G.T., Renseignements sur les Zaouias et les personnages religieux, fournis par le C.C. (104 de Bizerte le 20/4/1896, D 97 - 3.

Ibid., Confrérie des Sellamya, D 97 - 3 (105

Ibid., Confrérie - mère des Kadna, p. 5. D 97 - 3 (106

Ibid, p. 11 (107

A.M.A.E F., le Vice - Consul de Sfax au R.G, le 14/8/1888, Protectorat Tunisie, 1er (108 versement. ..

ZOUARI (A.) Les relations commerciales entre Sfax et le Levant aux XVIII (109 et XIX siècles,; Thèse de doctorat de 3ème cycle; (dactylographiée) Université de Provence, 1977, p. 316.

MAHJOUBI (A.), Les Origines du Mouvement National en Tunisie 1904 (110 - 1934, Tunisie, publication de l'Université de Tunis, Faculté des lettres, 1982, p 131

A.G.T., Tableau récapitulatif, ressources des Confréries religieuses musulames en (111 Tunisie...

فهذا الاختلاف في نوعية الأتباع يؤثر — لا شك — على حجم المبالغ السنوية المتأتية للطرق من الزيارات، ويفسر بالتالي التفاوت في الثراء بينها:

فالطريقة الشاذلية يفوق دخلها السنوي من الزيارات (31.270 فرنكا) دخل الطريقة التيجانية (24.000 فرنك) رغم أن عدد أتباع هذه الأخيرة يفوق عدد أتباع الأولى بحوالي ثلاثة مرات.

فمن خلال كل هذا نتبين أن الطرق الصوفية في البلاد التونسية كانت تمثل قوة اقتصادية قُدرت المبالغ الجمالية المتأتية إليها من الزيارات بـ 493.740 فرنكا، في حين قُدر دخلها السنوي من العقارات التي تملكها بحوالي 368.466 فرنكا، هذا بالإضافة إلى المداخل السنوية للعقارات التي يملكها المشايخ، وذلك كله سنة 1925.

كما تمثل تلك الطرق أيضا قوة بشرية للنقوذ الذي تمارسه على حوالي 306.937 من الأتباع سنة 1925 (112)، وهو ما يمثل تقريبا سدس سكان البلاد الذين بلغ عددهم — 1.890.000 حسب تعداد 1921 (113)، علما وأن عدد الأتباع يختلف تبعاً للطرق وللمناطق، كما يوضح ذلك الجدول التالي لسنة 1925:

(112) اعتبر الكسراوي ان هذا العدد يعود الى سنة 1890/1308 (المرجع السابق، ح 1، الجدول ص 20)، في حين أنه يعود الى سنة 1925، أنظر الملحق رقم 4، ص 275

KASSAB (A), Histoire de la Tunisie, l'époque contemporaine, Tunis, (113) S T D, 1976, p 200

التوزيع الجهوي لأتباع الطرق في البلاد التونسية سنة 1925 - تمة -

أسماء الطرق	الشمال الغربي								العدد الجملي للأتباع على مستوى كامل البلاد
	سوق الأريعاء	طريقة	باجة	مكتر	الكاف	مع الشمال الغربي	الفيروان	تالة	المجموع
القادرية	1012	-	5000	729	5911	12.652	12 508	42.036	54.544
الرحمانية	3.711	4.500	3.201	3 934	6 567	21 913	4 016	53 063	57 079
العيساوية	-	-	2 000	-	3.031	5.031	-	-	-
التيجانية	22	-	400	-	1015	1 437	1578	5.350	6 928
السلامية	-	-	-	-	-	-	455	3.400	3.855
سيدي بو علي القطي	-	-	-	-	-	-	-	-	-
الشاذلية	131	-	-	20	-	151	102	-	102
المسنية	-	-	-	12	-	12	201	-	201
المجموع						41 184	18860	103 843	122 721
النسبة المئوية (118)						%15			%38

* ملاحظة : أنجز هذا الجدول انطلاقا من الأرقام الواردة في الجداول بالصفحات السابقة بالإضافة إلى المصادر المذكورة بالهوامش 114، 115 و 116

يبرز هذا الجدول أمرين هاميين:

- أولهما: تفاوت عدد الأتباع بين الطرق، حيث تعتبر الطريقة القادرية أهم طريقة في البلاد تليها الطريقة الرحمانية ثم العيساوية، في حين نجد أقل

(118) النسبة لمجموع العدد الجملي للأتباع على مستوى كامل البلاد

عدد للاتباع لدى الطريقة المدنية، بينما الطريقة السنوسية ليست ممثلة — حسب هذا الإحصاء — في الآتالة.

فإلى أي شيء يُعزى هذا التفاوت بين الطرق في عدد الأتباع؟

إنّ ذلك يعود الى عدة عوامل من أهمّها:

* حُظوة الطريقة وقوّة إشعاعها: ذلك أنّ الطرق التي تنتسب الى مؤسّسين مشهورين على مستوى العالم الاسلامي تنتشر بسهولة بين النّاس للرّصيد الدّيني والمعنوي الذي تتمتع به لدى الرّأي العام الاسلامي، كالطريقة القادرية التي طبقت شهرة مؤسّسها الأوّل — سيدي عبدالقادر — الآفاق.

* مساندة السّلطة وتدعيمها لطرق دون أخرى: ذلك أنّ موقف السّلط السياسية من النّشاط الطرقي يعتبر — الى حدّ ما — محدّدًا لمجاله وبالتالي لعدد أتباعه.

فانتفاء حمّودة باشا — مثلاً — الى الطريقة القادرية ومساهمتها في بناء زاويتها الأولى في البلاد بمنزل بوزلفة أكسب تلك الطريقة اعترافًا من السّلطة السياسية وسمح لها — ضمّنياً — بالنّشاط، وبالتالي كسب مزيد من الأتباع.

أمّا في الفترة التي ندرسها فإنّ السياسة الاستعمارية التي تقوم على تطويق الطرق المناهضة لها وفسح المجال أمام الموالية لها قد ساعدت — الى حدّ ما — بعض الطرق على توسيع قاعدتها.

وهو ما يمكن قوله بالنّسبة لسيدي فدّور — شيخ قادرية الكاف الذي كان يشمل نفوذه كامل الشمال الغربي والوسط والوسط الغربي حيث 67.196 من الأتباع، وهو ما يمثّل أكثر من 60٪ من أتباع الطريقة القادرية بالبلاد التّونسية سنة 1925 (117.681، أنظر الجدول).

وفي المقابل، فإنّ الطرق الخطيرة أو التي تبدو كذلك، تخضع لمراقبة دقيقة وتضييقات تحدّ من نشاطها ان لم تعدمه على الاطلاق، وهو ما يصدق على الطريقة المدنية والطريقة السنوسية.

فبالنسبة الى الأولى يعود حذر السلطات الاستعمارية منها الى علاقة شيخها محمد ظافر بالسلطان عبدالحميد كما سبق ذكره، وما يمكن لها أن تلعبه في نشر فكرة الجامعة الاسلاميّة، خاصّة اذا علمنا أن زاويتها الأمّ توجد بطرابلس الغرب المحاذية لتونس.

ولعلّ التوجّس من تلك الطريقة، وتبعيتها للسلطان العثماني هو الذي دفع الوزير الأكبر الى رفض عرض الشيخ ظافر — القاضي بتعيين ابن أخيه شيخاً على أتباع الطريقة المدنية بتونس — على الباي، لا لشيء «إلا لتلقيه الأوامر من الخارج» (119).

أمّا بالنسبة الى الثانية، فإنّ موقفها من الاستعمار، وعلانها للجهاد المقدّس ضدّ الذين استباحوا أرض الاسلام، بالاضافة الى ما اعتقدته فرنسا من دعم السنوسية للمقاومة في الجنوب (120)، فرض على السلط الاستعمارية في تونس انتهاج سياسة خاصة تجاهها تمثّلت في :

* الرقابة الشديدة على تحركات أتباع الطريقة السنوسية، ومطالبة المراقبين المدنيين — باستمرار — بالعمل على كشفهم واحصائهم في مناطقهم (121)، الأمر الذي قد يكون حال دون انتشار الطريقة، بل ودفع أتباعها — ان وجدوا — الى التكتّم والتستر، ممّا جعل من الصعب على السلط التعرف عليهم وضبط عددهم الحقيقي.

* قرار السلط الاستعمارية بعدم السماح ببناء أية زاوية تابعة للطريقة السنوسية، وطرد كل داعي أجني لها يشتبه في أمره (122).

من ذلك أنّه يوم 4 جوان 1869 وصلت قافلة من فزان الى تطاوين، ومنها الى قابس، ومن ضمن الوافدين معها المسمّى حسن علي — أحد الأتباع السنوسيين، والذي توقّف في المطوية والحامة، وبشيمة، وبير الغرب ودوز، حيث أوضح للأهالي الأوضاع المتردية التي يعيشون فيها تحت هيمنة فرنسا بالمقارنة مع وضعيّة أولئك الذين يحيون تحت نفوذ الباب العالي، والذين لا يدفعون إلا

(119) A.G.T., Note (sans date), p. 3, D 97 - 3

(120) أنظر حديثنا — في الفصل الثالث — عن المقاومة الوطنية للاستعمار بالجنوب التونسي ودور الطرق فيها

(121) أنظر ردود بعض المراقبين المدنيين على ذلك، مثلاً:

A.M.A E.F, le CC. et Vice - Consul de France à Maklar au R G, le 20/6/1888.

Protectorat tunisien let versment

Ibid, la direction politique au Ministère des Affaires étrangères à Paris le 16/4/1890, (122)

NS 127, Culte musulman, sectes religieuses, vol 1, (Février 1886 - Juillet 1891), F 84 verso

ضريبة واحدة. . . ، كما قام أيضا - بتحديد مواقع ينابيع المياه بالجهة، فتم إيقافه بدوز يوم 25 جوان (123)، ويوم 28 جويلية سلم الى المراقب المدني بقابس الذي قام بترحيله في نفس اليوم الى طرابلس (124).

إلا أن إجراء طرد دعاة السنوسية قد عرفته البلاد حتى قبل دخول الاستعمار إليها: من ذلك أن أحد المغاربة دخلها سنة 1876 لنشر مبادئ الطريقة السنوسية، «فتمكّن من تكوين مجموعة حوله من ضمنها الشيخ أحمد التبرسقي - المدرّس بجامع الزيتونة - ، الى جانب عدد كبير من الطلبة حيث وقعت الدعوة الى فتح باب الاجتهاد. غير أن سيدي محمد معاوية - شيخ الاسلام [آنذاك] - دُعر من نتائج تلك الدعوة، وحصل من خير الدين (ت. 1889) على الإذن بطرده من الأيالة بعد أن مكّن من مبلغ مالي من حكومة الباي، ومنذ ذلك الحين لم يعد أحد يجرأ على نشر السنوسية بالأيالة» (125).

تلك هي إذاً بعض الأسباب التي تفسّر قلّة أتباع الطريف ، المدنية والسنوسية بالأيالة.

- ثانيهما تفاوت عدد الأتباع بين الطرق حسب الجهات، ذلك أن حوالي 40٪ من أتباع الطرق بالأيالة يوجدون بالوسط والوسط الغربي (122.721) من جملة (306.937)، يضاف اليهم 15٪ (41.184) بالشمال الغربي ، وبذلك تستأثر هذه المناطق بأكثر من ثلثي الأتباع تقريبا.

وفي هذه الجهات من البلاد التونسية تتبوّأ مراقبة تالة المرتبة الأولى من حيث عدد أتباع الطرق، اذ تحتوي على 103.843 منهم، وهو ما يمثل تقريبا ثلث العدد الجملي للأتباع على مستوى البلاد سنة 1925، تليها مراقبة القيروان (18.860)، ثم الكاف (16.524).

وفي المقابل فإن نسبة الأتباع بالسواحل لا تتعدّى 12٪ من العدد الجملي للأتباع في نفس التاريخ، علماً وأن أضعف عدد للأتباع بهذه المناطق سجّل بقابس (1.772) وصفاقس (3.445).

A.G.T., le Commandant de la division d'Occupation de la Tunisie au Délégué à la (123

Résidence générale, le 13/7/1896, D 179 - 2

Ibid., le 4/8/1896. (124

(125) خزينة الوثائق التونسية، س. د، ص 97، مل 3

فما هي الأسباب المفسرة لهذا التوزيع الجغرافي المتفاوت لأتباع الطرق الصوفية بالبلاد التونسية؟.

ان رواج الطرق في مناطق الشمال الغربي والوسط والوسط الغربي من الأيالة، وكسبها للآلاف من الأتباع خلافا للمناطق الساحلية يعود إلى عدة أسباب من أهمها:

* تأثير الوسط الطبيعي: فمناطق الشمال الغربي وخاصة الوسط الغربي تخضع لمناخ شديد القساوة، متميّا بنزول الثلوج طيلة أيام متتالية، وهبوب الرياح الباردة، وانخفاض درجات الحرارة الى ما تحت الصفر، مع ما ينجرّ عن ذلك من اتلاف للمحاصيل وإبادة للثروة الحيوانية.

الى كلّ هذا يضاف فقر التربة وتوالي بعض الكوارث الطبيعية كالبرد وزحف الجراد، وهبوب رياح السموم، علما وأن فلاحه الأرض وتربية الماشية تعتبر المصدر الأساسي لحياة سكان تلك المناطق.

فهذه المعطيات الطبيعية القاسية من شأنها أن تجعل النفس البشرية ذات شفافية دينية قوامها طلب الاحتماء واللجوء — زمن الكوارث والأزمات — الى من يُلاذ إليه طمعا في تفريج الكرب، واحتماء من المكاره.

وبذلك ساهمت المعطيات الطبيعية في صياغة نفسيات وعقليات قابلة للطرق الصوفية التي تشكّل أورادها — بما فيها من تساييح واستغفار وصلوات على النبي صلى الله عليه وسلم وغيرها من المحتويات الروحية — ضربا من الحصانة، واستجابة منطقية لنفسية مهزوزة.

إلى هذا يضاف — بطبيعة الحال — الجهل الذي يسود سكان تلك المناطق، والذي يمثّل حقلا خصبا لتقبل المبادئ الطرقية ظنا أنّها من الدين إن لم نقل هي الدين بالنسبة لهم.

فلا عجب إذاً — في هذا الاطار الطبيعي — أن تجد الطرق الصوفية مجالا فسيحا لانتشارها، وتزايد عدد أتباعها، حتّى أنّ مراقبة تالة — وحدها — كانت تعدّ سنة 1925 — 42.036 من أتباع الطريقة القادرية، وهو ما يفوق العدد الجملي لأتباعها بالسواحل والجنوب والشمال الغربي معاً (أنظر جدول التوزيع الجغرافي لأتباع الطرق)، وكذلك الشأن بالنسبة لعدد أتباع الطريقة الرحمانية بها.

وهو ما يبيّن — بجلاء — التّطابق الواضح بين المعطى المناخي الطبيعي

والمُعْطَى الطُّرُقِي الرَّوْحِي.

هذا مع العلم أن عدد أتباع القادرية وخاصة الرحمانية بثالة قد يكون وقع تضخيمه عن قصد من طرف السُّلْط الاستعمارية لتبرهن عن الخطر الذي يهدد المعمّرين الذين تغلغلوا في تلك المناطق، وخاصة لتحميل تلك الطريقة مسؤولية ثورة تالة التي اندلعت سنة 1906.

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه أن عدد أتباع الطرق الصوفية - التي لها علاقة بهذا البحث والمائلة بالجدول السابق - بمراقبة تالة بلغ 103.843 سنة 1925، في حين أن عدد سكّانها قُدِّرَ بـ 95.900 نسمة سنة 1911 (126) وبـ 108.000 سنة 1931 (127)

وحسبى ان سلّمنا بأنّ «المسلمين كلّهم - بدوًا وحضرًا - يتمون الى طريقة...، وأحيانا الى عدّة طرق في نفس الوقت...» (128)، فإنّ عدد الأتباع يبقى مرتفعًا جدًّا بالنسبة الى عدد السكان علما وأنّ الطريقة التيجانية - مثلاً - لا تسمح لأتباعها أن يكونوا يتمون - في نفس الوقت - الى طرق أخرى، فلا تقبل انتماءهم إليها إلا إذا انسحبوا من التزاماتهم السابقة. أمّا الخروج من الطريقة التيجانية، والانضمام الى أخرى فيُعتبر - بالنسبة إليها - ردة (129)، ولعلّ هذا ما يفسّر قلّة عدد أتباعها بالمقارنة مع الطرق الأخرى.

كما أن ظهور الطريقة السنوسية وانتشارها السريع في وسط افريقيا - المجال التاريخي والحيوي للطريقة التيجانية - ، ومواقفها الصلبة من الاستعمار - عكس التيجانية - ، بالاضافة الى مواقفها الأخيرة من ثورة الجنوب التونسي (130) -

TIMOUMI (H.), Paysannerie tribale et capitalisme Colonial, (l'exemple du Centre - Ouest Tunisien; 1881 - 1930), thèse pour le doctorat du 3ème cycle, (dactylographiée), Université de Nice, 1974 - 1975, p. 93.

Ibid., p. 457. (127)

GANIAGE (J.), Les Origines du protectorat Français en Tunisie (1861- 1881); (128 Paris , P.U.F., 1959, p. 164 - 165.

A.G.T., Congrégation des Tidjanya, p. 11, D 97 - 3. (129)

(130) أنظر ذلك في حديثنا - في الفصل الثالث - عن المقاومة الوطنية بالجنوب التونسي لدخول الاستعمار الفرنسي، ص 141 - 149

قد يكون وراء تقلص عدد أتباعها الذي مرّ من 40.000 سنة 1891 إلى 16.094 سنة 1925.

وما اعلان التيجانية «لعداوتها المفتوحة للسّنوسية، ومحاربتها لها أينما وجدت» (131) إلا اعتراف منها بخطورتها عليها ومنافستها لها.

* الوسط الاجتماعي: وفي المقابل فإن الطرق الصوفية باستثناء البعض منها ليس لها أتباع كثيرون في المناطق الواقعة على السواحل الشرقية للبلاد خاصة بالنسبة للطريقة القادرية التي تعتبر زاويتها بمنزل بوزلفة أول زاوية قادرية بالايالة. ويعود ذلك الى الوضع الاقتصادي والتركيبية الاجتماعية لسكان هذه المناطق: ذلك أن سكان المدن الساحلية لا ترتبط حياتهم أساساً بالعوامل الطبيعية - شأن سكان مناطق الوسط والوسط الغربي - وإنما تعتمد على بعض الحرف وخاصة على التجارة وما تتطلبه من علاقات واتصالات وتفتح على الخارج (132)، وما ينجّر عن ذلك من اختلاط بأجناس مختلفة أثرت على نمط حياة السكان.

هذا بالإضافة الى أن حياة المدينة، وما تفرضه على سكانها من جهد يومي - تتوقف عليه حياتهم - «تجعل هؤلاء غير مستعدين لأن يسهموا مشائخ الطرق من عملياتهم التجارية» (133).

الى هذا يضاف وجود نخبة مثقفة بهذه المناطق تبعا للتنقلات والعلاقات الاجتماعية التي يفرضها نمط الحياة هناك، مما جعل المبادئ الطرقية لا تلقى اقبالا بنفس الحجم الذي نجده في مناطق الوسط والوسط الغربي.

ويمكن الاستشهاد في هذا المجال بموقف المثقفين في مدينة تونس مما يأتيه اتباع الطريقة العيساوية مثلا (134)، مما يكشف أهمية العامل الثقافي ودور التعليم في

(131) A.G.T., Note sur les Senoussia en Tunisie, p 2, D 97 - 3.

(132) CHERIF (M.H.) "Les réactions citadines à l'occupation Française de la Tunisie en 1881 et leurs limites", Réactions à l'Occupation Française de la Tunisie en 1881, Actes du 1er séminaire sur l'histoire du Mouvement National (29,30 et 31 Mai 1981), Sidi Bou-Saïd, Tunisie, Imprimerie Officielle de la République Tunisienne pp 227 - 238; p.228

(133) DEPONT et COPPOLANI, op. Cit., p. 212.

(134) A.G.T., Confrère des Rahmánya, p. 6, D 97 - 3.

الحدّ من نفوذ الطرق (135). لقد قلّلت كل هذه العوامل من رواج الطرق في الأوساط الحضرية، حيث تبدو نفسية الحضر أقلّ تقبّل لها في الفترة التي ندرسها، فضلّ عدد الأتباع ضعيفا - بصفة عامة - بالمقارنة مع الجهات الأخرى رغم كثرة الزوايا التي لا شكّ أنّها تمثل وسيلة استقطاب وتربية طرقية في نفس الوقت. ذلك أنّ سوسة - مثلا - رغم وجود إحدى عشرة زاوية قادريّة بها لا تعدّ سوى 484 من الأتباع.

أما صفاقس فتعدّ خمسة زوايا قادريّة و120 فقط من الأتباع، في حين تحتوي القيروان على زاويتين للطريقة القادريّة فقط، لكن مقابل 12.508 من الأتباع، بينما يصل عددهم في ماجر والفراشيش إلى 42.000 مقابل سبعة زوايا، كل ذلك سنة 1925.

فهذه المعطيات وإن كانت توضّح أنّه لا علاقة بين عدد الزوايا وعدد الأتباع، فإنّها قد تشير إلى صعوبة استقطاب الحضر رغم وفرة المؤسسات الطرقية عكس مناطق الشمال الغربي والوسط الغربي والوسط حيث كثرة الأتباع وقلة الزوايا، وربما انعدامها أحيانا كما هو الشأن بالنسبة لتالة حيث 5.350 من أتباع الطريقة التيجانية بدون زاوية (136)، وهي نفس الحالة بالنسبة إلى 500 من أتباع الطريقة القادريّة بقيادة جلاص (137).

هل يمكن انطلاقا من كلّ هذا القول بأنّ الطرقية ظاهرة ريفية أكثر منها حضرية؟

رغم أن الأرقام المتعلقة بعدد أتباع مختلف الطرق والواردة في الجداول الرّسمية - السابقة الذكر - تتعلّق بعددهم داخل كل مراقبة دون تصنيفهم حسب الوسط - ريف أو مدينة - ، فإنّ الأرياف - على ما يبدو - تمثّل الوسط الأكثر ملاءمة لانتشار الطرق الصّوفية، في حين شكّل الوسط الحضري الاطار الملائم لنشأة الأحزاب السياسية التي استفادت - لا شكّ - من أخطاء الطرق الصّوفية، وبالتالي من بداية فقدانها لنفوذها منذ نهاية الثّلاث الأوّل من القرن العشرين.

(135) انظر ذلك في حدّثا - في الفصل الرابع - عن الأسباب الداخلية لصعف الطرق الصوفية، ص 257 . 261

(136) A.G.T, Congregation des Tidjana, p 8, D 97 - 3

(137) Ibid, Contrée mère des Kadria, p. 13, D 97 - 3

على أنّ ما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد أيضا قلّة الأتباع بالنسبة لكلّ الطرق تقريبا - في جربة، وهو ما يمكن أن يفسّر كذلك بطبيعة سكانها المسلمين الذين يتّبع ثلاثة أحماسهم الوهبية (138) التي تنكر الطرقيّة وتعتبرها بدعة لابدّ من القضاء عليها (139)، هذا بالإضافة الى كثرة الخوارج الكثيرين هناك أيضا (140).

كما يُعزى ذلك - أيضا - الى طبيعة نمط عيش أهلها، الذي تعتبر التجارة من أهمّ مقوماته، وهذه الأخيرة بما تتطلبه من تنقلات دائمة ومستمرّة، وبما تفرضه على أصحابها من تفرّغ - يكاد يكون كليّا - تجعل السكان لا همّ لهم وشغلهم الشاغل إبرام صفقاتهم، وإثراء أرباحهم.

فلا يجدون - تبعا لكلّ ذلك - مجالا للتفرّغ للطرق، وما يتطلبه الانتماء إليها من حضور مستمرّ للحضرات، ومداومة على الأوراد اليومية.

وخلاصة القول أنّ هذه الرّكيزة الاقتصادية والبشرية للطرق الصوّفيّة في البلاد التونسيّة - في الفترة التي ندرسها - جعلتها تكاد تمثّل دولة داخل الدولة، لها كل المؤهلات للتحرّك والفاعليّة، الأمر الذي أثار الخوف والحذر منها لدى السّلط الاستعماريّة، فعملت على توظيفها لصالحها خشية أن تقف ضدها، فسلكت تجاهها سياسة متميّزة.

Ibid., Marabouts (familles et groupement maraboutiques de la régence de Tunisie), (138 D 97 - 3.

(139) حول موقف الوهابية من الطرقيّة أنظر، التليلي العجيلي، الوهابية والبلاد التونسيّة زمن حمّودة باشا، شهادة الكفاءة في البحث، مخطوطة، تونس، كلّية الآداب والعلوم الانسانية، أكتوبر 1983، ص 101 و 102.

A.G.T., Marabouts (familles et groupements....) (140)

الفصل الثّاني

السّياسة الإستعماريّة
تجاه الطرق الصّوفيّة

إن المتأمل في علاقات الطرق الصوفية — في البلاد التونسية — بالاستعمار الفرنسي، وتعاملها معه سلبي أو إيجاباً، لا يستطيع أن يجد مبررات لذلك — إلا في السياسة الاستعمارية التي كرستها حكومة الاحتلال تجاه الطرق.

ذلك أن تلك السياسة — بالإضافة الى طبيعة الفكر الطرقي ومصالح رموزه — حددت — إلى حد ما — مواقف عدة طرق بالايالة من العديد من القضايا التي جدت بها خلال الفترة التي ندرسها. لذلك كان لا بد من التعرف على تلك السياسة الإستعمارية من حيث أسسها ومميزاتها.

I - أسس السياسة الإستعمارية ووسائلها :

1 (أسسها

يبدو أن السياسة الإستعمارية تجاه الطرق — في الفترة الأولى — قد اعتمدت على أسس غير مستمدة من واقع البلاد وإنما من خارجها، وذلك من رصيد التجربة بالجزائر، والفكرة المسبقة التي لبعض رموز الإستعمار تجاه المسلمين.

أ - تجربة الجزائر :

إن الواقع الطرقي بالجزائر قد حدد — الى حد كبير — ملامح السياسة الإستعمارية لفرنسا تجاه الطرق الصوفية بالبلاد التونسية.

ذلك أن صمود بعض الطرق، وقيادتها للعديد من الثورات بالجزائر، جعل فرنسا تتوجس خيفة من أن تلقى من الطرق التونسية، نفس ما لقيته من مثيلاتها بالجزائر، والتي — وإن هادن البعض منها الاستعمار الفرنسي، وكرّس نفوذه الروحي لخدمته كالطريقة التيجانية مثلاً (1) —، فإن البعض منها كان وراء العديد من الثورات التي عرفت بها الجزائر طيلة الخمسين سنة الأولى من استعمارها، كالطريقة القادرية وخاصة الرّحمانية

(1) حول مواقف التيجانية من الاستعمار الفرنسي بالجزائر، أنظر، مراسل: «اعترافات خطيرة»، صاحب السجادة الكبرى يلقي بين يدي فرنسا خطة الاخلاص»، مجلة الفتح، القاهرة، المطبعة السلفية، عدد 257 لسنة 1930، ص 1 — 3، وكذلك. RINN, Op. Cit., p. 427.

وبالتالي فإنّ فرنسا ظلّت حتى قبيل احتلالها لتونس، في صراع مع بعض الطرق خاصّة على الحدود بين البلدين، الأمر الذي أدّى الى لجوء بعض الزّعمات الطّرقية الجزائرية الى تونس، حيث أسّست زوايا لها.

ونذكر منها على سبيل المثال ابراهيم بن أحمد الكبير- مؤسس زاوية القادرية بنفطة و«الذي بدأ - منذ سنة 1830 - معارضا للإستعمار الفرنسي بالجزائر» (2)، ومحمد بن عزّوز الذي وصل الى نفطة أيضا، وغيرهما من قادة بعض الثورات بالجزائر، ممّا جعل السّلط الاستعمارية بها تسلّط ضغوطات وتهديدات على باي تونس، وتطالبه بالقبض على الثوار الجزائريين الملتجئين الى الايالة (3).

كلّ هذه المؤثرات، جعلت الإستعمار الفرنسي يأخذ بعين الاعتبار - في سياسته تجاه الطرق الصّوفية بالبلاد التّونسية - ما صدر عن البعض منها بالجزائر، فسلّك حيالها سياسة اعتمدت التّمكين للطرق الموالية له، والتضييق على التي تناهضه.

ب - الفكرة المسبّقة:

إن المتأمّل في معظم الكتابات والدراسات التي قام بها بعض المختصّين وبعض المكلفين من قبل السّلط الاستعمارية حول الطرق يتبيّن - تقريبا - اتفاقها حول خطورة الطرق على المصالح الإستعمارية.

وهذه المعاني نجدها خاصة في كتاب مارسيل سيميان الذي طبع سنة 1910، حيث أوضح أنّ تلك «الجمعيّات الدّينية غالبا ما تتحوّل إلى وكر للثورة ضدّ الأجنبي، وضدّ الرّومي المدّنس لأرض الاسلام» (4)!!، وبالتالي فإنّ «الزّاوية - على حدّ قوله - لم تعد فقط مكانا لتعليم القرآن الكريم... بل أصبحت وكرًا

(2) A.G.T., Confrérie mère des Kadria, p. 4, D 97 - 3

(3) محمد المرزوقي، صراع مع الحماية. تونس، دار الكتب الشرقية، 1973، ص 62 و63، وكذلك BOUAZIZ (Y.), "Dawr Tunis Fi dam harakat attahrir aldjazairiyati wa mawkif aldjazairiyina min htalaliha ama 1881", Actes du 1er Séminaire d'histoire du Mouvement National, Réactions à l'Occupation Française de la Tunisie en 1881...., pp. 107 - 122, p. 118 - 119.

(4) SIMIAN (M.), Les Confréries Islamiques en Algérie (Rahmanya - T'Idjanla), (4) Alger, Adolphe Jourdan, 1910, p. 39

للثورة، ترسم في ظلام أركانها مخططات الانتفاضات» (5)!

أمّا شارل بروسارد فقد وصف أتباع الطرق بـ «الميليشيات المسلحة للدفاع ونشر العقيدة...، مستعدة للانطلاق بمجرد أول إشارة من قائدها..» (6). فكلّ هذه الأحكام وغيرها — وإن صدرت بعد تجربة في الجزائر — فإنّها قد صُرحَ بأغلبها قبيل استعمار فرنسا لتونس، ممّا جعل الادارة الاستعمارية — طيلة بقية القرن التاسع عشر وحتى قبيل الحرب العالمية الأولى — تخشى الطرق الصوفيّة التي جعل منها بعض من كتبوا عنها — في تلك الفترة — قوّة مجاهدة عن الاسلام، تساهم في نشر التعصّب في صفوف الموالين لها. كلّ ذلك جعل بعض الأوساط الإستعمارية، وحتى مصادر القرار فيها تهوّل، وتضخّم أمر الطرق، وترى في كلّ تحرّك جهاداً مقدّساً موجّهاً أساساً نحو «الكفار والمشرّكين» تقف وراءه الطرق، الأمر الذي حثّم على حكومة الاحتلال الفرنسي في تونس القيام بدراسات وإحصائيات في هذا الجانب للتعرف أكثر على واقع الآيالة وفق معطيات شبه ميدانية، أقرب نسبياً إلى الحقيقة.

2) وسائلها:

أ — الدراسات والإحصائيات:

تشير بعض الدلائل إلى أنّ اهتمام الإستعمار الفرنسي بالواقع الداخلي للبلاد التونسية سبق دخوله إليها، وذلك في إطار التمهيد والتحضير لإخضاعها ضمن مستعمراته.

ونلمس هذا في المسح الذي قام به أحد العسكريّين، الذي سجّل في مؤلفه معلومات مفصّلة عن البلاد، شملت المعطيات الطبيعيّة بما في ذلك التّضاريس، والأودية، والرؤوس والسّواحل (7)، وديمغرافية تمثّلت في تحديد مواقع مختلف القبائل، مع تبيان أهمّيّتها وعدد أفرادها وخاصّة قوّتها العسكريّة من حيث عدد

Ibid , p. 41 (5)

BROSSE-LARD (C.H.) Les Khouans et la Constitution des Ordres religieux Musulmans en Algérie, Alger, Imp A Bourget, 1859, p 19 (6)

ZACCONI (P) Notes sur la régence de Tunis, Paris, Librairie pour l'Art militaire, 1875 p. 24 - 25 (7)

الخيل والسلاح (8)، وكذلك الطرق الصوفية وأسماء مشائخها، وعدد الزوايا، إلى جانب ذكر المدن وتحديد مواقعها مع تقديم لمحة تاريخية عنها ومختلف أنشطتها الاقتصادية (9).

إلا أنّ أهم أعمال المسح كانت تلك التي حدثت بعد الاستعمار الفرنسي للبلاد التونسية، والتي سعى من خلالها إلى جمع معلومات عن الطرق في شكل إحصائيات من حيث عدد أتباعها، وأصنافهم الاجتماعية، وعدد زواياها، ووظائفها ومهامها، وخاصةً وزنّها الاقتصادي والاجتماعي، وميولاتها وانتماءاتها السياسية وقد اعتمد في كل ذلك على المراقبين المدنيين (10) والقياد (11)، وحتى مشائخ الطرق أنفسهم من خلال شيخ مشائخ كل طريقة. وأهم تلك الإحصائيات تلك التي وقعت في ثلاثة مناسبات هي:

* سنة 1896: لئن تمكّن ديبون من تجميع معلومات مهمة عن تاريخ التصوف الإسلامي، وخاصةً عن الطرق في الجزائر، فإنّه قد سعى إلى إثرائها، واستكمالها بمعلومات عن الطرق والزوايا بالبلاد التونسية بواسطة الحاكم العام للجزائر الذي طلب ريفوال (12) - المقيم العام المساعد بتونس - في رسالة منه إليه بتاريخ 1896/1/25 - مدّه بالمعلومات المتعلقة بالموضوع، فبادر ريفوال بتوجيه منشور يحمل رقم 63، مؤرخ في 1896/2/20 إلى المراقبين المدنيين يحثهم فيه على تجميع المعلومات المطلوبة وتوجيهها إليه.

(8) Ibid , p 39 - 41

(9) Ibid. , p 42 - 46.

(10) المراقب المدني. مسؤول جهوي وقع إقراره بمقتضى أمر من رئيس الجمهورية الفرنسية مؤرخ في 1884/10/4، له مهام حفظ الأمن بالدرجة الأولى، أنظر:

MAHJOUBI (A.), l'Etablissement du protectorat Français en Tunisie, Tunis, Publication de l'Université de Tunis, 1977, p 271 - 272.

(11) الفايد. مسؤول مدني له مهام إدارية وقصائية ومالية، ويمثّل واسطة بين الرعية والسلطة المركزية، حيث يسهر على تطبيق القوانين المتعلقة بالحياة الاقتصادية، والاجتماعية، كما يهتم بحفظ الأمن، أنظر. MAHJOUBI, op. cit , p. 23.

(12) ريفوال أمدي (Revoil Amedée)، محام، شغل خطة رئيس مصلحة «كتانة الدولة بوزارة البحرية والمستعمرات (1886 - 1889)، ثم نفس الخطة بوزارة الفلاحة (1890 - 1893)، فمدير =

والتأمل في الظروف التي جُمعت فيها تلك المعلومات، يتبين - منذ البداية - وجود مؤشرات تدلّ على أنّه لا يمكن القطع بصحتها، ولا الاعتماد عليها بصفة أساسية، وذلك لضيق الوقت الذي أُفجزت فيه، حتّى أنّ أحد المراقبين المدنيين طلب منحه مهلة أطول لاستكمال جمع المعلومات (13).

هذا في حين ظلّت رسائل الحاكم العام للجزائر - الى المقيم المساعد بتونس - تتوالى مؤكّدة عليه على ضرورة الإسراع ببعث المعلومات المجمّعة، باعتبار أنّ الوقت قد حان لطبع كتاب ديبون (14).

كلّ تلك الظروف والملايسات جعلت المقيم المساعد بتونس يؤكّد على أنّ المعلومات المجمّعة «لا تستجيب للأمال المعلّقة عليها...»، وبالتالي فإنّ المعطيات التي وقّرها المراقبون المدنيون - رغم كثرتها - لا تمكّن من استخلاص معلومات دقيقة تستحقّ أن تُنشر في دراسة رسمية...، فكان لا بدّ للكتابة العامة للحكومة التونسية (15) أن تزيد النقاط غير الواضحة فيها إيضاحاً بالاعتماد على دراسة جديدة» (16).

ولعلّ ذلك ما جعل الكتاب ينشر دون أن يحتوي على معلومات موثوق بها عن الطرق الصّومية بالبلاد التونسية باستثناء بعض المعلومات الأوّلية التي استقاها صاحبه بوسائله الخاصة (17)، ممّا جعل البعض منها متضارباً أحياناً (18).

= ديوان وزارة الشؤون الخارجية (1894/5/31). كما عيّن مساعداً للمقيم العام الفرنسي بتونس (1894/12/23)، ثم حاكماً عاماً للجزائر (1901/6/18 - 1903/4/11)، فسفيراً ببارن (1905/11/28)، ثم بمدرّد (1907 - 1910)، أنظر: MARTEL (A.) *Les Confins saharo-Tripolitains de la Tunisie* (1881 - 1911); Paris, P.U.F., 2t., t.1, 1965, p. 583.

(13) A.G.T., Le C.C de Gafsa au R.G, le 7/12/1896, D 97 - 3.

(14) Ibid., Cambon à Révoil, le 2/7/1896, D 97 - 3.

(15) الكاتب العام للحكومة التونسية: حدّدت مهامه بمقتضى الأمر العلي الصادر يوم 27 جانفي 1883 وتلخّص في مراقبة الوزراء التونسيين المهتمّين بالادارة العامّة للآيالة، كما يعتبر مدير الإطار الإداري العام، وناظر قسم الوثائق، بحيث أنّه لا يمكن أخذ أيّ قرار أو تنميد أيّ أمر بدون موافقته مسبقاً بعد عرضها عليه أنظر: MAHJOUBI, *l'Etablissement...*, p. 147 - 148.

(16) A.G.T., Révoil à Cambon, le 5/4/1897, p. 2 - 3, D 97 - 3.

(17) DEPONT et COPPOLANI, op. cit, p 292.

(18) أنظر مثلاً ما قلناه عن الطريقة الشّائية في حديثنا بالفصل الأول عن الطرق الأصليّة، ص 48.

كلّ تلك التّواقص حتمت على ما يبدو على السّلط الاستعمارية انجاز دراسة أخرى.

* سنة 1911: يظهر أنّ هذه الدراسة تجد مبرراتها في سلبيات التي سبقتها، بالإضافة إلى عوامل مستجدّة أشار إليها المنشور رقم 6، المؤرخ في 15 أفريل 1911، والذي حتم إنجاز دراسة حول الزوايا والطرق «بعد الأحداث الأخيرة التي برهنت على أنّ الزوايا كانت وراء كل ما حدث» (19)، ملمّحاً بذلك - على ما يبدو - إلى الأحداث التي جدّت بتالة في جهة القصرين في شهر أفريل من سنة 1906 والتي اعتبرت الأوساط الاستعمارية أنّ الطريقة الرحمانية تقف وراءها (20) إلا أنّ المدة الزمنية التي استغرقتها هذه الدراسة والإحصائيات، والظروف والملاسات التي دارت فيها، وحتى الأساليب والطرق التي اعتمدتها، تشبه إلى حدّ كبير الدراسة الأولى (سنة 1896)، ممّا جعل المقيم العام (21) نفسه يؤكّد في مذكرته إلى المراقبين المدنيّين بأن الإدارة الاستعمارية لا تملك - باستثناء المعلومات الواردة في أطروحة مانشيكور (Monchicourt) (22) معطيات حول الطرق الصوفيّة بالبلاد التونسية، وهو «ما يفرض معرفة - بأكثر ما يمكن من الدقّة - الطرق الموجودة بالآيالة»، بإنجاز دراسة أكثر عمق...، وصياغة نتائجها في جداول شبيهة بتلك التي نشرها ديون وكوبولاني في كتابيهما. (23). وبذلك أعطى منشور ماي 1924 إشارة الانطلاق لإحصائيات جديدة ثالثة، أقول ثالثة «باعتبار أنّ الأولى من نوعها وقعت سنة 1896 - 1897، والثانية سنة 1911 - 1912، فتكون هذه (سنة 1924 - 1925) الثالثة، وهي التي اعتمدت في غالبيتها لإنجاز إحصائيات 1933...» (24).

(19) A.G.T., D 97 - 3, document numéro 357

(20) أنظر ذلك في حديثنا عن الطرق المناهضة للإستعمار بالفصل الثالث، ص 154-165

(21) المقيم العام: له مهام واسعة حدّدت بمقتضى قرار رئيس الجمهورية الفرنسيّة المؤرخ في 1882/4/22، فهو ممثّل الحكومة الفرنسيّة لدى الباي، كما يسهر على تنفيذ المعاهدات المبرمة بين فرنسا والآيالة، أنظر: KASSAB, op. cit, p. 284.

(22) MONCHICOURT (CH.), La région du Haut-tell en Tunisie (le Kef, Téboursoúk, Maktar, Thala), essai de monographie géographique, Paris, Librairie Armand Colin, 1913.

(23) A.G.T., le R.G. aux C.C. et les Chefs du bureau des Affaires Indigènes, D 163.

(24) Ibid

ب - تقيّمها :

تلك هي أهمّ تواريخ الإحصائيات وعمليات المسح التي قامت بها السلطات الاستعمارية حول الطرق الصوفية خاصة، والمسألة الدينية عامة بالبلاد التونسية.

هذا بالإضافة الى وسائل أخرى وقع اعتمادها كمراقبة «المشبهو فيهم» بصفة دورية، وتقارير شهرية (25)، وأخرى كلّ ثلاثة أشهر «تُحوصل الملاحظات والاستنتاجات التي سجّلها [المقيم العام]...» حول اهتمامات المسلمين من حيث توجّهااتهم السياسية، والدينية...، وكذلك مشاعرهم الموالية أو المناهضة لغير المسلمين...» (26)، كلّ ذلك لمسيرة ومحاولة فهم التحوّلات التي يشهدها العالم الإسلامي.

فماذا كانت نتائج كل تلك الأعمال، وما هي مدى مصداقية وواقعية تلك النتائج المتحصّل عليها؟

على مستوى الأرقام - سواء بالنسبة إلى عدد الأتباع، أو الثروات التي تملكها الطرق - فإنّ المعلومات تبدو تقريبية، بعيدة على أن تكون قطعية، تبعاً لصعوبة الحصر، والتحديد، باعتبار أنّ عدد الأتباع وكذلك حجم الثروات والمداخل المتأتية للزوايا، غير منتظمة، ومتأثرة بالدرجة الأولى بالعوامل الطبيعية، وبذلك فإنّ الأرقام الواردة في جداول الإحصائيات لا تتجاوز أن تكون معدلات لا تعكس بالضرورة الواقع الحقيقي.

لكن - رغم النقائص التي تحملها، والتحفظات التي يمكن أن تُبدى تجاهها - فإنّها تُعطينا فكرة عن ذلك الواقع المعقّد، رغم ما فيها - أحياناً - من تحامل وتهويل واضحين ينمّان عن هاجس الجهاد المقدّس الذي ظلّ يقضّ مضجع السّلط الاستعمارية التي بقيت رهينة فكرة مسبقة تضيي على المسلمين سمة المتعصّبين لدينهم، والمبغضين لكل «رومي»، بالإضافة الى اعتمادها على تقارير ومعلومات لا أساس لها - أحياناً - من الصحة للأطراف الصادرة عنها والاطار الذي تنزّل فيه.

(25) أنظر . 1 et 2. Ibid , B 534

(26) Ibid , Le Ministre des Affaires Etrangères à Paris au R.G. de la République Française en Tunisie, le 22/12/1908, D 163.

إلى كلّ هذا يضاف أن تلك الدّراسات والإحصائيات يشوبها الكثير من النّقص حتّى على مستوى التقديرات: من ذلك أنّه ظلّ — باعتراّف أعوان تلك الدّراسات أنفسهم — إلى سنة 1925 من الصّعب التعرّف بدقّة على مجموع مداخل الطريقة الشاذليّة، فقدّر دخلها السنوي بـ 40.370 فرنكا (27).

كما أنّ المتأمّل في جدول موارد الطرق بأكملها (28)، يلاحظ أنّه بالنّسبة إلى قيمة العقارات التي يملكها مشايخ الطرق، والمداخل السنوية المتأتية منها أنّها معروفة بالنّسبة لخمسة طرق صوفيّة من جملة تسع عشرة طريقة معروفة في الأيالة (29)، وهو ما يجعل المجموع الوارد في ذلك الجدول — بالنّسبة لكل صنف من أصناف الملكيات والموارد — لا قيمة له باعتبار النّقص الواضح والبيّن في أغلب أودية ذلك الجدول.

ولعلّ ذلك ما دفع — المعنيين بالأمر — إلى التّصنيف في أعلى الجدول المذكور — على أنّ تلك «المعلومات غير كاملة، وأنّ تلك المتعلقة بتونس، وصفاً يشوبها النّقص، في حين أنّه بالنّسبة إلى جهات أخرى فإنّه لا يمكن إعطاء معلومات صحيحة إلّا بشيء من الاحتياط وبالتالي، فإنّه لا يمكن الإطلاع على ذلك الجدول إلّا للتعرف النسبي» (30).

وبصفة عامّة، فإنّ تلك الدّراسات والإحصائيات التي قامت بها السّلط الإستعمارية — رغم ما فيها من نُقص، وما أبدته نفس تلك السّلط نحوها من تحفّظات — يبدو وأنها كشفت لها على جوانب مهمّة من الواقع الطرقي بالايالة؛ وخاصّة تركيبته الداخليّة التي تميّز بعمق الرّابطة الرّوحية للأتباع بمشائخهم، لما لهؤلاء المشايخ من ثروة مادية هامّة جعلت لهم نفوذاً قوياً.

هذا بالإضافة إلى علاقات الطرق ببعضها البعض وبالقوى الخارجيّة، وهي جوانب شكّلت — إلى حدّ ما — أرضية ومرتكزات انبنت عليها السياسة

Ibid., Ordre principal des Chadelya, p. 10, D 97 - 3. (27)

(28) أنظر الملحق رقم 4، ص 275

(29) أنظر الملحق رقم 4، ص 275.

(30) أنظر الملحق رقم 4، ص 275.

الإستعمارية - في خطوطها الكبرى وأهدافها - تجاه ذلك الواقع الطّرقي للإحاطة به، ومحاصرته، والعمل تدريجيا على تحجيم الطّرق وتدجينها، وبالتالي تقويضها.

فماذا كانت خصائص ومميزات تلك السياسة الإستعمارية تجاه الطّرق الصّوفية بالبلاد التونسية ؟

II - ملامحها ومميزاتها :

عملت السّلط الإستعمارية في البلاد التّونسية على تشديد الخناق على الطّرق الصّوفية - اعتقادًا منها أنّها مصدر الخطر - وذلك بـ:

1) مراقبة السّلط الاستعمارية لمشائخ الطّرق:

إنّ التّنظيم الدّاخلي للطّرق، والعلاقات الموجودة بين الطريقة وزواياها في مختلف أنحاء الايالة، وما تتطلبه من اتّصال شبه دائم - حتى خارج حدودها - ، بالإضافة إلى الطّاعة الشّبه مطلقة للأتباع تجاه المشائخ، وخشية استغلالها ضدّ الاستعمار دفع السّلطة الإستعمارية إلى مراقبة دقيقة انصبّت بالدرجة الأولى على المشائخ، وذلك في عدّة مستويات منها.

أ - تدخّل السّلط الإستعمارية في تسمية مشائخ الطّرق

اقتضت العادة أن يمارس شيخ الطريقة وظيفته بمقتضى أمر علي - وإن كان بعض المشائخ لا يملكونه -، وفي هذا المستوى فرضت السّلط الإستعمارية عن طريق الوزير الأكبر - عدة إجراءات إدارية يجب توفّرها في المترشّح لخطّة مشيخة الطريقة.

من ذلك تعميم بطاقة إرشادات تتضمّن معلومات شخصية حول المترشّح، وخاصة من حيث مواقفه السياسية وميولاته، بالإضافة إلى رأي كلّ من العامل والمراقب المدني، علما وأن ملفّ الترشيح لا بدّ أن يتضمّن بطاقة قيس وبطاقة

عدد 3 (31) لمعرفة خلوّ سجل المترشّح من السّوابق العدلية.

لقد كانت السّلط الإستعمارية — في الظّاهر — لا تتدخل في تسمية مشائخ الطرق، باعتبار أن المترشّح يجب أن يكون أهلاً للخطة من حيث معرفته بالطريقة، وتوفّر شروط اللياقة فيه، واتّفاق أتباع الطريقة عليه وتوجيههم لحجّة اتّفاقهم على صلوحيته، بالإضافة الى موافقة شيخ مشائخ الطريقة التي ينتمي إليها المترشّح، وكذلك رأي كلّ من عامل الجهة والمراقب المدني.

وقد تمكّنت السّلط الاستعمارية بتقنيها لتلك الاجراءات، من اختيار نوع معيّن من المشائخ الذين لهم مكانة اجتماعية ووجاهة ونفوذ على السكان، حتى يتسنى للسّلط توظيفهم لصالحها.

ولذلك فإنّ هذا الصّنف من المشائخ قبلت ترشّحاتهم من قبل المراقبين المدنيين: فقام ابن الطاهر — المترشّح لخطة شيخ الطريقة السّلامية بزغوان (32) — قد قبل ترشّحه من جانب المراقب المدني لهذه الجهة، أمّا علي بن المنور المترشّح لخطة شيخ زاوية القادرية بكوكة (33) فقد قبل ترشّحه من قبل المراقب المدني بتبرسق، وغيرهما كثير.

وفي المقابل — وبواسطة نفس الإجراءات الإدارية السّابقة الذّكر — فإنّ السّلط الاستعمارية قد تمكّنت من إقصاء «المشبوه فيهم» لعدم «وضوح» ولائهم وتبعيتهم

31) تصدر بطاقة القيس عن مصلحة الهوية العدلية، ويرسم بها كل ما يتعلّق بالشخص ذاته، وهي لا تسلّم إلا بطلب صريح من السّلطة القضائية، وفي غير هذه الصورة تسلّم حسب الشروط المقرّرة بالتراتب الادارية بطاقة عدد 3 لا تشتمل إلا على بيان جميع الأحكام الحضورية أو الأحكام النيابية غير المعترض عليها والأحكام التأديبية الصّادرة عن السّلطة العدلية أو الادارية إذا كانت متسببة في حرمان المحكوم عليه من ممارسة حقوقه المدنية، وكذلك قرارات تحجير الإقامة أو المراقبة الإدارية وغيرها من الأحكام التي لم يقع محورها ناسترداد الحقوق أو التي لم يأت في شأنها الحاكم بتأجيل تنفيذ العقاب إلا إذا صدر في هذه الحالة الأخيرة عقاب جديد يقضي بحرمان الشّخص المعني بالأمر من الانتفاع بالتأجيل، علماً وأنّه لا يمكن — يحال — تسليم هذه البطاقة لغير صاحبها، أنظر: محمد الطاهر السّنوسي، مجلة الاجراءات الجزائية، تونس، المطبعة الرسمية، ط. 1، 1939، ص 133-135

A.G.T, Note du C.C de Zaghuan, le 23/4/1924, D 140 - 12. (32)

Ibid., le C C de Tébourouk au Délégué à la Présidence Générale, le 16/7/1904, D 102 - 4. (33)

المطلقة للإستعمار، ولوجود علاقة بينهم وبين قوى معادية لفرنسا، حتى ولو كان الأمر يتعلق بإشاعات لا أساس لها من الصحة وناقجة عن وشايات وأغراض شخصية، فهذا الصنف من المشائخ، قوبلت ترشحاتهم بالرفض التام:

من ذلك أنّ المراقب المدني بينزرت — عند استفساره عن رأيه في البشير بن حمودة اللزّام المترشح لخطّة مشيخة زاوية البنا القادرية بالمكان — وجه تقريراً ضمّنه عدم الموافقة بدعوى «ان ابن عمّ المترشح — والمسمّى عبدالرحمان اللزّام — له أميال (كذا) تركية» (34).

لقد أثار موقف المراقب المدني استغراب شيخ مشائخ القادرية الذي أوضح «أنّ ما ذكره المراقب المدني من الأسباب التي تمنع من ولاية من ذكر غير ممانعة، وأنّ عبدالرحمان المذكور، إنّما هو مجرد قريب للمترشح، وهو (عبدالرحمان) من أعضاء المجلس الشّوري، ولا يمكن مؤاخذه المنتخب (انتخبه أتباع الطريقة) المذكور بما نسب لابن عمّه...، إذ لو كانت هناك مؤاخذه لكان يؤاخذه بها ابن العمّ...» (35).

لكن رغم ذلك التبرير لساحة المترشح من «الولاء للأجنبي» بحجة عدم مؤاخذته بميولات أحد أقاربه، فإنّ المراقب المدني بينزرت أصرّ على أنّه، «ليس من مصلحة الحكومة التونسية تدعيم عائلة مشاعرها تجاه فرنسا محلّ ريبة، لما يمثله ذلك من خطر، باعتبار أنّ الطريقة القادرية لها أتباع عديدون في بنزرت.» (36).

فواضح من موقفه هذا أنّه يخشى أن يوظّف المترشح نفوذه على أولئك الأتباع الكثيرين ضد مصالح الإستعمار، فكان لا بدّ من عدم إجابة مطلبه، الأمر الذي جعل زاوية المكان تبقى طويلاً بدون شيخ حتى «أصبحت مهملة ومشّتة،

(34) خزينة الوثائق التونسية، رسالة من شيخ مشائخ الطريقة القادرية الى الويرير الأكبر، شاريخ 1912/7/11، س د، صد. 100، مل. 5.

(35) نفس المصدر.

A.G.T, le C.C. de Bizerte au R.G., le 15/4/1912, D 100 - 2. (36)

وكثر فيها الهيجان والتشويش والتفرق...» (37) على حدّ قول أتباعها في عريضتهم الموجهة إلى الوزير الأكبر .

كما أنّ نفس الممارسة قد مورست ضدّ محمد بن أحمد التّوري الذي طلب شيخ مشايخ القادرية بالأيالة «تعيينه شيخاً على زاوية جدّه سيدي علي التّوري بمدينة صفاقس لكبر سنّ والده، واشتداد ضعفه، وتعذّر قيامه بشؤون الزاوية...» (38). إلّا أنّ المراقب المدني هناك اعترض على ذلك بدعوى وجود علاقات بينه وبين الخلافة العثمانية (39).

كما أنّ محمد بالرّيش — المترشّح لمشيخة زاوية القادرية بالدّبابة بالحامة «وقع اعتراض على ترشّحه لأنّه دستوري، فاضطرّ — لتحقيق غايته — إلى كتابة تعهد ببراءته ممّا نسب إليه» (40).

فكلّ هذه الأمثلة وغيرها توضّح التّدخل السّافر للسلط الاستعمارية في مستوى تعيين مشايخ الطرق، الأمر الذي جعل رأي الأتباع في المترشّح وكذلك رأي حتّى شيخ مشايخ الطريقة لا قيمة له أمام مصلحة تلك السلط.

وبالتّالي فإنّ المقياس الأساسي والمحدّد لقبول المترشّح لخطة مشيخة الطريقة أو رفضه هو مقياس سياسي بالدرجة الأولى، كي تتمكّن السلط الاستعمارية من غلق الباب في وجه المناوئين لها، والمتشكّكة في ولائهم، حتّى لا يصلّوا إلى مناصب ووظائف حسّاسة قد يوظّفوها ضدها لما لهم من نفوذ على أتباعهم.

وبتلك الوسائل لا يصلّ إلى تلك المهام الخطيرة — على الاستعمار — إلّا الذين لا يمكن الطّعن في ولائهم، كما لا يمكن لهم أن يدخروا جهداً في موافاته بكلّ ما يطلبه منهم من حيث إعانته (الاستعمار) على المسك بالبلاد والعباد، في إطار توظيفه لهم.

(37) خزانة الوثائق التونسية، عريضة من أتباع الطريقة القادرية بزاوية سيدي البّا ببنرت إلى الوزير الأكبر، بتاريخ 1913/1/7، س. د، صد 100، مل 5

(38) نفس المصدر، رسالة من شيخ مشايخ الطريقة القادرية إلى الوزير الأكبر، بتاريخ 12 شوال 1308/5/21/1891، س. د صد 108، مل 2.

(39) A.G.T., le C.C. et Vice-Consul de France à Sfax au R.G., le 15/1/1899, D 108 - 2.

(40) Ibid, Note datée du 21/10/1922, D 107 - 2.

لكن السّلط الإستعمارية رغم كلّ تلك التّحرّيات في تعيينهم، فرضت عليهم عدّة إجراءات تتعلّق بتنقّلاتهم.

ب — مراقبة السّلط الإستعمارية لتنقّلات مشائخ الطّرق :

إنّ أولئك المشائخ لما لهم من نفوذ مادّي وخاصة أدبي على أتباعهم يشكّلون خطراً على السّلط الإستعمارية التي ترى في تنقّلاتهم وسيلة من وسائل الاتّصال المباشر الذي قد لا يهدف إلى جمع الأموال من الأتباع فحسب، بل يساهم في نقل الأخبار، وإيصال المعلومات، وتبادلها ضمن قنوات اتّصال شكّلت — الى حدّ ما — جهازاً إعلامياً منظّماً.

ذلك أنّ زيارة الشّيخ الى مكان ما ينتج عنها تجمّع ضخم لجلّ الأتباع الذين قد يحرسون على الحضور لنيل البركة والثّواب — على ما يعتقدون — أكثر من حرصهم — ربّما — على حضور الاجتماعات الرّسمية التي تدعو إليها السّلطة الحاكمة نفسها.

ونظراً لكلّ هذه الإعتبارات وغيرها، وإضعافاً للتركيبة الدّاخلية للطّريقة، ولننفوذ المشائخ على أتباعهم عملت السّلط الإستعمارية على سنّ قوانين حدّدت الإجراءات اللاّزم احترامها، والعمل بها قبل التنقّل الذي صار محجّراً بدون ترخيص.

من ذلك أنّ المنشور عدد 3 المؤرّخ في 9 جانفي 1913 «وضّح لمشائخ الزّوايا ونوآبهم الأعمال القانونية التي يلزمهم إتمامها قبل الإنتقال من الدّوائر المقيمين بها...» (41).

أما المنشور عدد 13 والمؤرّخ في 24 أوت 1921 فقد جاء منظّماً لتنقّل مشائخ الزّوايا من الجزائر الى تونس والعكس، موضّحاً أنّ سلط الدوائر مكلفة بإحاطة الحاكّم العام للجزائر أو المقيم العام بتونس علماً بتلك التنقّلات لمعرفة رأيهما لأخذ القرار اللاّزم (42).

(41) خزانة الوثائق التونسية، منشور وزيري، مؤرخ في 13 جوان 1924، س د، صد 97، مل 1

(42) A.G.T., Circulaire datée du 24/8/1921, D 182 - 3.

هذا في حين أعطى منشور جانفي 1921 المراقبين المدنيين صلوحيّة منح رخص التنقل لمشائخ الطرق داخل الأيالة، على أن يبقى تنقلهم بين الجزائر وتونس خاضعا للإجراءات التي حدّدها منشور سنة 1921 المذكور (43)، والتي زادها المنشور الصّادر يوم 13 نوفمبر 1934 (44) توضيحاً وإحكاماً، ليتمّ للسّلط الإستعمارية إحكام سيطرتها على كلّ المنافذ بدعوى تأمين نفسها.

وبتلك الإجراءات فقد مشائخ الطرق الصّوفية حرية التنقل التلقائي، وأصبحوا مطالبين «قانونياً» - قبل تنقلهم - بتقديم مطالب إلى السّلط التي يعودون إليها بالنظر، مع ما في ذلك من مماطلة، وبيروقراطية، وإضاعة للوقت، وحتى تعطيل للمصالح العامة والشخصية لأولئك المشائخ، ممّا دفع بالبعض منهم - أحياناً - إلى التنقل - مسبقاً - قبل الحصول على ترخيص في ذلك.

ومن هؤلاء - مثلاً - صالح بن عباس مقدّم زاوية غار الدماء (45)، ومحمد السّويسي مقدّم زاوية سوق الأربعاء (46) بالنسبة إلى الطريقة الرّحمانية، وإبراهيم بن محمد الكبير - شيخ زاوية توزر (47) ومحمد الرّشيد الكبير - شيخ زاوية نفطة (48) بالنسبة إلى الطريقة القادرية.

وأما بالنسبة إلى الطريقة التيجانية، فإنّه ممّن تنقل دوماً ترخيص مسبق المسمّى العربي ابن سالم شيخ زاويتها بجرجيس (49).
غير أنّ السّلط الإستعمارية اعتبرت تلك التنقلات غير قانونية، فسّلطت - على أصحابها - عقوبات لردعهم وحملهم على احترام الإجراءات السابقة الذكر.

(43) Ibid , Le R.G. aux C.C., le 5/1/1926, D 182 - 3

(44) Ibid., le Secrétaire Général du Gouvernement Tunisien aux C C , le 13/11/1934, D 182 - 3.

(45) خزانة الوثائق التونسية، مكتب وزير الكاهية بالرّقة بتاريخ 1915/9/28، س د، صد. 97، مل. 2.

(46) نفس المصدر، مكتب وزير سوق الأربعاء بتاريخ 1914/6/25 س د، صد. 97، مل. 2.

(47) A.G.T., le C C de Tozeur au R.G , le 23/7/1927, D 172 - 1

(48) Ibid , Le Capitaine Belvalette - Chef de l'Annexe de l'Oued au C C de Tozeur, le 16/1/1926, (48

D 172 - 1

(49) Ibid , Le Capitaine Thivetw -Commandant le Cercle de Zarzis- au R G., le 26/2/1936, (49

D 156 - 1

من ذلك أن تسعة أفراد توجهوا لزيارة الزاوية الرحمانية بالكاف — قبل الترخيص لهم — وقع إحضارهم من طرف كاهية المكان «ووقع توبيخهم، وإنذارهم بما يلزم ان عادوا لمثل ذلك» (50)، وهو نفس ما آل إليه أمر كل من مقدم الرحمانية بسوق الاربعاء (51)، ومقدم الزاوية القادرية بوادي غريب بنفس المكان (52)، إلا أن تلك العقوبات يبدو أنها تختلف باختلاف نفوذ المشايخ.

فهم رغم قيامهم بنفس المخالفة، لم ينالوا نفس العقوبة التي لم تقف عند حد التوبيخ بل وصلت — عند البعض منهم — إلى حد الزجر المادي.

ويمكن الاستشهاد — في ذلك — بإيقاف صالح بالعبّاس — العدل بغار الدماء — عن الاشهاد لمدة ثلاثة أشهر (53)، وبالتخطئة بخمسة وعشرين ريالاً — لادارة المال — بالنسبة لأحمد بن عزّوز مقدم الرحمانية بنقطة (54)، في حين تمثّلت العقوبة بالنسبة الى عبدالله بن عمر — شيخ الرحمانية في زاويتها بنقطة — في صدره من الكاف (55) مسقط رأس زوجته، وحيث أملاكه ومصالحه.

كل تلك العقوبات — ذات الصبغة الجزية — تهدف السلط الاستعمارية من ورائها الى حمل المشايخ على الانضباط للإجراءات السالفة الذكر، ليسهل عليها معرفة ومراقبة كل تحركاتهم، من حيث توقيتها وأهدافها، والأماكن المقصودة بالزيارة، ومدة التنقل، وحتى مسالكه.

على أن مراقبة السلط الاستعمارية لمشايخ الطرق لم تقف عند حد إجبارهم على تقديم مطالب في ذلك، بل طالبتهم بإجراءات أخرى أهمّها:

50) خزانة الوثائق التونسية، رسالة من كاهية الرقة الى الوزير الأكبر، تاريخ 1916/6/7، س د. صد. 97، مل 2

51) نفس المصدر، مكتوب وزيري لعامل سوق الاربعاء تاريخ 1914/6/25، س د، صد. 97، مل 2

52) نفس المصدر، مكتوب وزيري لعامل سوق الاربعاء، تاريخ 1913/7/2، س د، صد. 101، مل 6

53) نفس المصدر، مكتوب وزيري لكاهية الرقة بتاريخ 1915/9/28، س. د. صد. 97، مل 2

54) نفس المصدر، نسخة مكتوب وزيري لعامل نقطة، تاريخ 23 رمضان 1308/6 ماي 1891، س. د، صد. 172، مل 3

55) نفس المصدر، رسالة من عبدالله بن عمر الى المقيم العام، تاريخ 1925/7/17، س. د، صد 120، مل 2.

* ضبط مسالك التنقل وتوضيحها بذكر الأماكن التي ستقع الإقامة بها خلال الرحلة، وأحياناً - تحديد العنوان، وخاصة المثل أمام السلط بمجرد الحلول بالمكان المقصود طيلة تنقل الشيخ، وبذلك مسكت السلط الإستعمارية بكل القنوات التي تمكنها من مراقبة المشائخ في حلهم وترحالهم.

* توضيح أسباب وغاية التنقل حتى تقف على الغايات الحقيقية لذلك، فعمدت - أحياناً - إلى التثبت منها بالبحث، وإلغائها كلما اتضح لها أن الأسباب المقدمة - من قبل المعني بالأمر - ليست حقيقية، وإنما تُخفي وراءها أهدافاً لم يصرح بها: كرفض مطلب التنقل - للفصريين - الذي قدمه محمد الكبير بن عزوز - شيخ الرحمانية بزاوية تمغزة - بدعوى أن له أقارب هناك، لكن بالبحث ثبت عدم صحة دعواه (56).

كما رفض مطلبه الذي قدمه للمراقب المدني - بتوزر - للحصول على رخصة تنقل إلى التمامشة والدير - بالجزائر - ، حيث له زرع وقر وبغال، إلا أنه بالتثبت مع الحاكم العام للجزائر - تبين أنه «ليست له البتة مصالح فلاحية بدائرة تبسة، وإن الغاية الحقيقية لسفره تتمثل في جمع الزيارات...» ، لذلك لا سبيل لمنحه رخصة سفر... » (57).

وفي المقابل فإنَّ عبدالقادر بن محمد الحفناوي - شيخ القادرية بزاوية تمغزة - قد حصل على جواز سفر إلى تبسة بعد أن ثبت أن له - فعلاً - أملاكاً فلاحية هناك (58).

وبذلك، تمكنت السلط الإستعمارية من منع عدد هام من المشائخ من التنقل بتعلات واهية أحياناً، ودعمت إجراءاتها الرامية إلى الحيلولة دون جمع بعض مشائخ الطرق لبعض الزيارات التي ظل يجمعها بعضهم سرّاً بعد أن وقع تحجيرها كما سيأتي.

A.G.T., le C.C. Suppléant -gérant le C.C. de Thala- au R.G., le 9/8/1921, D 172 - 3 (56)

Ibid , Télégramme du Gouverneur Général de l'Algérie au R.G. de Tunisie, le 5/7/1915, D (57)
172 - 3.

Ibid., le C.C. Suppléant -Chef de l'Annexe de Tozeur- au R.G., le 13/2/1918, D 172 - 1. (58)

* السّماح بالتنقّل شريطة عدم جمع الزّيارات: لقد تشدّدت السّلط الاستعمارية في هذا الجانب مع كلّ المشائخ - تقريباً - متعلّلة - في ذلك - بالوضعية الاقتصادية التي يعيشها السكّان خاصّة في سنوات الجفاف أو الكوارث الطبيعية، في حين أن هدفها الحقيقي - من ذلك - التخفيف عليهم ليتمكّنوا من دفع الضرائب الموظّفة عليهم، ويسدّدوا لها الديون المتخلّدة بدمّتهم.

ذلك أنّهم إذا منحوا مشائخ الطرق الهدايا والعطايا، فإنّهم يصبحون عاجزين عن تسوية أوضاعهم المالية تجاه السّلط الاستعمارية.

وحرصاً منها على أخذ تلك الأموال، ضيّقت المنافذ على المشائخ حتّى لا ينافسوها في ابتزاز الرعية، خاصّة وأنّ السكّان «لو خيّروا بين دفع الضرائب وإرسال الزّيارات والهدايا لمشائخ الطرق لاختاروا الحلّ الثاني...» (59).

(2) احتواء السّلط الاستعمارية لبعض مشائخ الطرق

تهدف السّياسة الإستعمارية - تجاه الطرق الصوفية في البلاد التونسية - إلى استغلالها وتوظيفها لخدمة مصالحها، وتحقيق أهدافها وذلك لمكانة مشائخها بين الأتباع، لنفوذهم الروحي عليهم.

وتحقّقاً منها لذلك، خصّتهم بعدة امتيازات منها:

أ - الإعفاءات:

كالاعفاء من الخدمة العسكرية طبقاً للأمر المؤرخ في 24 جانفي 1893، و20 جويلية 1896. كما وقع إعفاء بعض مشائخ الطرق الصوفية من بعض الاداءات الدّولية،

OULED MOHAMED (H.) "Notes a propos des enquêtes coloniales sur la religion populaire (59 en Tunisie de 1896 à 1934", *Cahiers de la Méditerranée*, Publié par le Centre de la Méditerranée moderne et contemporaine, numéro 20/21, (Juin - décembre 1980); pp. 81 - 99, p. 90.

كاعفاء سيدي فدّور (60) شيخ زاوية القادرية بالكاف — من السخرة ابتداءً من سنة 1901 (61)، وإعانة زاوية التيجانية بتماسين — بالجزائر — بمبلغ 3000 فرنك تعويضاً لها على القانون الذي تدفعه على نخيلها بالجنوب التونسي (62).

كما يقع أحياناً التخفيض من بعض الأداءات التي تشكّي المشائخ من ارتفاعها: من ذلك أنّ سيدي فدّور — السّابق الذكر — تشكّي من الاداء الذي يستخلص على الحيوانات التي تذبح لأكل فقراء الزاوية، «فتقرّر تخفيض الاداء المذكور — إلى النصف، بحيث [صار] مبلغه 300 فرنك ابتداءً من غرة جانفي...» (1905) «(63).

ب - التسهيلات :

وتتمتّل في التكتّم على مخالفات مشائخ الطرق، وعدم فضح محاكماتهم، عدلياً.

من ذلك — مثلاً — التدخل لدى محكمة سوسة لاييقاف تتبّع الحفناوي ابن عبدالحفيظ — شيخ رحمانية تمغزة — (64) المتّهم بقضية تهريب ومسك أسلحة (65)، وكذلك تدخل حاكم التحقيق بفقصة لصالح محمد الكبير

(60) فدّور بن الحاج محمد بن عمّار الميزوني، هو ابن العدل بلقاسم بن حسن أحد أتباع الحاج محمد بن عمّار الميزوني المؤسس الأوّل للزاوية القادرية بالكاف الذي كانت زوجته عاقراً، فتبّي فدّور المذكور ومكّنه من مشيخة زاويتي القادرية بالكاف والديوان بالحاضرة — وعد دخول الفرنسيين للبلاد كان لهذه الزاوية نفوذ على كامل غرب وشمال غرب الأيالة ووسطها والغربي وصولاً إلى شرق الجزائر، كما كانت له علاقات وطيدة مع العون القنصلي الفرنسي رواء، وهي علاقات استغلّها هذا الأخير في تسهيل مهمة استيلاء الجيوش الفرنسية على مدينة الكاف، توفي سيدي فدّور يوم 1916/7/29، أنظر: A.G.T., Confrérie mère des Kadria, pp 6 - 15, p. 6 - 7, D 97 - 3.

(61) خزينة الوثائق التونسية، رسالة من رواء إلى فدّور، بتاريخ 1900/7/23 س. د، صد. 102، مل 3.

(62) A.G.T., Note datée du 3/6/1924, D 179 - 2.

(63) Ibid., Décret daté du 27/12/1904, de Roy à Kaddour, D 102 - 3.

(64) Ibid., Note de la Résidence Générale datée du 12/4/1899, D 172 - 3.

(65) خزينة الوثائق التونسية، ترجمة مكتوب من المراقب المدني بفقصة إلى المقيم العام بتونس، بتاريخ 1898/11/26، س د، صد 172، مل 3.

شيخ القادرية - بها (66)، رغم صدور الإذن لباري (Barry) - العدل المنقذ - قرار - بتنفيذ الحكم الصادر ضده عن المحكمة المدنية بتونس بتاريخ 31 ديسمبر 1891، والقاضي بدفع محمد الكبير - المذكور - لمبلغ 6660 فرنكا الى موري (Mauri) البنكي بتونس (67).

كما تمثلت الامتيازات - أحيانا - في منح مشائخ بعض الطرق - تسهيلات في سديد ديونهم، كما كان الشأن - مثلا - بالنسبة الى أحمد فدور (68) شيخ زاوية نادرية بالكاف - الذي كان عليه دين لفائدة جمعية الأوقاف (69)، فوقع التدخل به عن طريق المراقب المدني بالكاف، فأبدى استعدادا للتسديد بالأقساط (70).

كما أن محمد بن ابراهيم الكبير - شيخ القادرية بزاوية نفطة - اقترض سرات الآلاف من أحد الاسرائيليين، كما كان مدانا للدولة، ونظرا لمكانته، فإن الخزينة كانت لا تستطيع تتبّعه، [فكانت تمنحه] أجلا بعد أجل... (71).

هذا الى جانب منح السلط الاستعمارية لبعض مشائخ الطرق - مبالغ مالية في كل حالات بدعوى ما لهم ولزواياهم من الفضل والاعتبار: من ذلك توجيه 1- (Roy) (72) حوالتين الى سيدي فدور - شيخ القادرية بزاوية الكاف -

A.G.T., Note du Juge de paix de Gafsa datée du 16/8/1899, D 102 - 4. <<

Ibid. <<

أحمد بن سالم زواري المعروف بأحمد فدور خلف جدّه سيدي فدور الميزوني في مشيخة زاويتي القادرية بالكاف والذويان بالخاصرة بمقتضى الأمر العلي المؤرخ في 1916/8/12. بدأت زاوية الكاف في عهده في فقدان نفوذها لتحاورات المتعددة. توفي في فيفري 1941. حول ترجمه أنظر، A.G.T., Note datée du 9/2/1929, D 102 - 3.

أسسها خير الدين سنة 1874، مهمتها تسيير بعض المؤسسات الدينية والاشراف على التحكم في مجالات صرف مواردها، أنظر، MAHIOUBI, L'Établissement p. 302

A.G.T. le C.C. du Kef au R.G., le 28/4/1936, D 102 - 3. <<

Ibid., le C.C. de Gafsa au R.G., le 20/1/1898, D 106 - 4. <<

روا (Roy, J. B.B.), ولد يوم 1845/5/28، شغل خطة عون بإدارة البريد والبرق والهاتف من سنة 1864 الى 1884، وبالقنصلية الفرنسية بالكاف (1871)، ثم مراقب مدني ومكلف بمهمة نائب بالقنصلية المذكورة (1884)، ثم كاتب عام للحكومة التونسية يوم 1889/9/12، حيث أهله كل هذه المناصب لمعرفة لغة وعادات أهل البلاد التونسية، فربط علاقات وطيدة مع العديد من أعيان جهة الكاف وخاصة سيدي فدور - شيخ زاوية القادرية بها - عين سنة 1910 كاتباً عاماً للحكومة =

الأولى - مقدارها 800 فرنك (73)، والثانية 500 فرنك «على وجه الاعانة للزاوية...» (74)!!.

فواضح - من خلال هذه الأمثلة - أنّ الذين خُصّوا بتلك الامتيازات المختلفة - كلّهم من المشائخ الذين لهم وجاهة ومكانة اجتماعية، ونفوذ كبير في مناطقهم. وبالتالي فإنّ الهدف من وراء تلك الامتيازات الخصوصية احتوائهم وحملهم على الوقوف إلى جانب السلّط الاستعمارية، حتى تستعين بهم، وتوظّفهم في تحقيق أهدافها في البلاد، ولا يكون لها ذلك إلا بالتمكين لهم، حتى إذا اقتضت الأوضاع الاستعمارية الإستعانة بهم لا يستطيعون فكّاكاً من المهام التي يطالبون بإنجازها.

ج - التوظيف:

لقد تعدّدت المهام التي قام بها بعض مشائخ الطرق الصوفية لصالح السلّط الاستعمارية بالبلاد التونسية، مستغلة - في ذلك - نفوذهم على السكّان.

من ذلك - مثلاً - أنّ عمران بن عبدالسلام الفيتوري - مقدّم الطريقة السلامية - قد وظّفته سلّط الاحتلال في إعادة العربان الفارين إلى طرابلس الغرب على إثر دخول الاستعمار الفرنسي للبلاد، حيث أرجع كافتهم في عشرة أيام، «ففي يوم واحد أركب 1500 نفس» (75) على حدّ قوله.

= للعدالة ورئيس القسم الأهلي بالتدوينة الاستشارية. توفي سنة 1919، حول ترجمته أنظر، MARTEL, op. cit., t. 1, p. 584; MONCHICOURT, op. cit., p. 405.

MAHJOUBI, L'Etablissement..., p. 276; AYADI (T.), *Mouvement réformiste et mouvements populaires à Tunis (1906 - 1912)*, Tunis, Imp. Officielle de la République Tunisienne, 1986, p. 107, de même Fallot (E.) "Roy, Secrétaire Général du Gouvernement Tunisien", *l'Afrique Française*, 30^e Année, n° 1, (Janvier 1920), p. 7.

(73) خزانة الوثائق التونسية، رسال؛ من روا إلى قُدّور بتاريخ 1900/7/23، س. د. د. صد. 102، مل. 3، أنظر الملحق رقم 5 ص 277.

(74) نفس المصدر، رسالة من روا إلى قُدّور بتاريخ 1904/4/21، س. د. د. صد. 102، مل. 3، أنظر الملحق رقم 6.

(75) سيدي عمران «شكوى واتحاد»، جريدة المنتظر، تونس، مطبعة العمالة، السنة الثالثة، عدد 21، ليوم 1893/8/20، ص 3.

أمّا الشّيخ الأزهاري بن مصطفى بن عزّوز - شيخ الطريقة الرّحمانيّة - فقد وقع تكليفه بالاتّصال بالشّيخ الحفناوي للعمل على افتكاك بقايا المركب الفرنسي الذي غرق بمقبرة من طبرقة من سكّان جبل خمير .

ولما اندلعت الحرب العالميّة الأولى، كلفه الكاتب العام للحكومة الفرنسيّة بمُدّ الدولة بما تحتاجه من الخيل، وبحث الأهالي على الانخراط في الجندية، فقام بكلّ ذلك على أحسن وجه، وتقديرًا لخدماته «وقع تقليده، وسام الشّرف الفرنسي، ونيشان الافتخار» (76).

كما أنّ سعيد بن عمّار الشّابي - من الطريقة الشّايّة - كثيرًا ما وقع تكليفه بإعادة الهامّة كلّما خرجوا عن الطّاعة، حتى حصل بذلك الأمن والاستقرار (77) على حدّ قوله .

كما لعب مقدّم التّيجانية سعد بن الحاج ناصر دورًا هامًا أثناء حوادث الجنوب فيما بين 1915 و 1916، حيث اجتمع - أكثر من مرّة - بأتباع الطريقة، وحثّهم على الوقوف إلى جانب فرنسا، كما قرأ عليهم عدّة تعليمات في هذا المعنى، واصله إليهم من شيخ الطريقة الأمّ بالجزائر (78).

إلا أنّ أهمّ مثال على توظيف الاستعمار الفرنسي لمشائخ الطرق الصّوفية تمثّل فيما قام به محمد بالطيّب بن ابراهيم - شيخ القادرية بورثلة - فيما سمّي بقضية المركيز ديموريس (Le Marquis de Mores) (79) الذي خرج في مهمّة

(76) خزانة الوثائق التونسية، رسالة من الشّيخ الأزهر بن مصطفى بن عزّوز إلى المقيم العام، بتاريخ 28 أبريل 1925، م. د، ص. 112، مل. 9، أنظر الملحق رقم 7، ص 281.

(77) خزانة الوثائق التونسية، رسالة من سعد بن عمّار الشّابي إلى الكاتب العام بالدولة التونسية، بتاريخ صفر الخير 1316هـ، م. د، ص. 172، مل. 4.

(78) A.G.T, Note datée du 17/4/1916, D 156 - 31

(79) انطوان فالبيروزا الملقّب بالمركيز دي موريس ولد يوم 15 جوان 1858، التحق بأحد المدارس العسكريّة المشهورة بسان سير. عرف بحبّه للمغامرات، حيث سافر إلى الهند والصّين دخل الجزائر حيث ألقي محاضرة بأحد نوادي باب الوادي، كما دخل تونس يوم 1896/3/20 وألقى محاضرة يوم 29 مارس بقاعة المسرح تمحورت حول الدعوة إلى تحالف «فرنسي إسلامي» ضدّ اقلّتنا. شرع في رحلة استكشافية للصحراء قتل أثناءها على يد الطوّارق في شهر جوان من سنة 1896 في مكان بين الوطية وعدامس، أنظر المروقي المرجع السابق، ص 391، وكذلك MARTEL, op. cit., t. 1, pp. 681 - 683.

استكشافية للصحراء لصالح الإستعمار الفرنسي، إلا أنه لم يلبث أن قتل من طرف التوارق، ولم تتمكّن السلّط من القبض على الجناة، فما كان من محمد بالطيّب - المذكور - إلا أن توجه في أبريل سنة 1898 - نحو الجنوب بدعوى تفقّد الزوايا القادرية هناك، واستطاع أن يغرّر بثلاثة من القتلة، مدّعيا لهم أنه سيحصل لهم على الأمان بفضل مكانته الدينية.

ولما وصل بهم الى ذهنية سلّمهم إلى ضابط المركز الفرنسي الذي أرسلهم - بدوره - الى مدنين، ومن ثمّ أحيلوا الى سوسة للمثول أمام المحكمة الجناحية بها (80).

ولئن مكنت هذه المهمة السلّط الاستعمارية من الإيقاع بالواقفين في وجه مخططاتها الإستطلاعية والتوسّعية، فإنّ الشيخ المذكور قد كلفته تلك المهمة حياته، حيث تمّ اغتياله - فيما بعد - على أيدي التوارق أنفسهم يوم 3 مارس 1901. لقد تمكّنت السلّط الاستعمارية - بفضل توظيفها لبعض مشائخ الطرق الصوّفية من تحقيق عدّة أهداف بأقلّ التكاليف، وفي مدّة وجيزة، كما وفّرت لها الأمن والاستقرار في أشدّ الفترات حرجاً، وفي أماكن حدودية نائية من الصّعب السيطرة على قبائلها، وإرجاعها الى الجاذبة، وحملها على الانقياد والدخول في الطّاعة.

لقد أمكن للسلّط الإستعمارية تحقيق كلّ ذلك بواسطة امتيازات ومكافآت كثيراً ما تكون رمزية ودون العمل المنجز، مستغلّة في ذلك تسابق وتنافس بعض مشائخ الطرق في إظهار الولاء لها، والتّفاني في خدمتها، ممّا مكنها من إذكاء العداء والتّنافر بين المشائخ وأتباع الطرق المختلفة، لغاية إضعافها داخليّاً، لتسهيل السيطرة عليها خارجياً.

(80) حول مهمّة المركيز دي موريس ودور شيخ القادرية في الكشف عن الجناة، أنظر: المروقي، صراع... ص 390 - 392، وكذلك .

A.G.T, Lettre au Secrétaire Général du Gouvernement Tunisien, le 9/7/1910, D 178-5; de même A 284-3, ainsi que A.M.A.E.F, N.S. 77, Tunisie, Affaires du Sud, Affaires Mores I, (30/3 - 27/7/1896), f. 5, 7, 12, 25, 50, 120, 121, de même N.S. 78, Tunisie, Affaires du Sud, Affaires Mores II, (28/7/1896 - 23/8/1898); f. 3, 4, 5, 147, 167, 171, 181, 182, 184, 187, 189 jusqu'au f. 194; de même N.S. 79, Tunisie, Affaires du Sud, Affaire Mores III, (24/8/1893 - 15/9/1902), f 19, 23, 24, 33, 34, 81, ainsi que A.M.G., 2H52 - 1, f. 7, 22, 23, de même MARTEL, op.cit., t. 1, pp. 679 - 725

وبالتالي، فبقدر ما خدمت تلك المهام الإستعمار ومكنت له، كانت — إلى حدّ ما — سبباً في فقدان بعض المشائخ لهيبتهم ونفوذهم بين الأتباع من جرّاء كثرة استعمالهم من طرف السّلط الإستعمارية ممّا ساهم في ضعف بعض الطرق الصوفية (81)، خاصة بعد ضرب مقوماتها الاقتصادية.

(3) تفقير السّلط الاستعمارية للطرق ومشائخها:

ما كانت السّلط الإستعمارية لتتمكّن من تطويع الطرق الصوفية بالبلاد التونسية، والسيطرة عليها لو لم تبادر منذ دخولها للبلاد الى انتهاج سياسة معينة تصل بها الى كلّ ذلك.

ففي نفس الوقت الذي كانت فيه بعض الطرق الصوفية تبذل كلّ ما في وسعها لكسب رضا السّلط الاستعمارية بالسّير في ركابها، والتّفاني في خدمة مصالحها كانت تلك السّلط تزيد في تضيق الخناق على الطرق لتحجيمها وإضعافها تدريجياً، ليس بمراقبة مشائخها وتوظيفهم فحسب، بل بضرب المقومات المادية لتلك الطرق، باعتبار أنّ السّند المالي أحد الركائز الأساسية التي يتوقّف عليها وجودها واستمراريتها.

لقد كان تفقير الطرق خياراً مبدئياً راهنت السياسة الإستعمارية على تحقيقه، ليس فقط خشية تحويلها (الطرق) لتلك الأموال المجمّعة لتمويل الأحزاب السياسية، أو إثراء المشائخ مقابل تفقير أتباعهم (82)، وإنّما سعيّاً منها لوضع حدّ لقوّة بعض الطرق الأدبية وخاصة المادية، وسط واقع متحوّل يحمل في طياته الكثير من المفاجآت، ممّا قد يؤدّي — في وقت ما — إلى توظيف تلك القوّة ضدّ المصالح الإستعمارية.

ووقاية لها من كلّ تلك الاحتمالات وغيرها، عملت السّلط الاستعمارية على ضرب مصادر موارد الطرق المتمثلة أساساً في.

(81) انظر ذلك بتوسّع أكثر في الفصل الرابع في معرض حديثنا عن الأسباب الدّاخلية لضعف الطرق، ص 257-261.

(82) OULED Med, op. cit, p. 89.

أ - منع الزيارات:

تمثل مورداً هاماً من موارد الطرق، لذلك عملت السلط الإستعمارية على حرمانها منه بدعوى أنه يتسبب في تفتير السكان مما يجعلهم - بالتالي عاجزين عن دفع الضرائب، خاصة إذا علمنا أن المحصول السنوي من الزيارات والأعطيات - نفداً وعيناً - بلغ سنة 1925 حوالي 120.000 فرنك بالنسبة الى الطريقة القادرية بالبلاد (83)، و24.000 فرنك بالنسبة الى الطريقة التيجانية بها (84)، و56.310 فرنك بالنسبة الى الطريقة العيساوية بالآيالة (85).

لذلك عملت السلط الإستعمارية على حرمان الطرق من ذلك المورد الهام، فبادرت - في مرحلة أولى - إلى تحجير الإعلان عن تلك الزيارات في الأسواق، بمقتضى الأمر العلي المؤرخ في 20 جوان 1911، بدعوى أن مثل ذلك «الاعلان من شأنه أن تنشأ عنه أمور تخل بالراحة»! (86).

لكن رغم ذلك التحجير، ورغم عدم السماح بالتنقل إلا بعد التعهد بعدم جمع الزيارات، فإن بعض المشايخ - شعوراً منهم بأهمية ذلك المورد بالنسبة إليهم - استمروا في جمعها، أو على الأقل بقي يصلهم بعضها بطرق ملتوية، مما أوجب على تلك السلط فرض عقوبات على مرتكبي تلك «التجاوزات» وصلت أحياناً حد مصادرة الأموال المجمعة.

من ذلك أن مبلغ 630 فرنك، وقع تنزيله بخزينة مستشفى سوق الإربعاء، علماً وأنه متأت مما جمعه حمدة بن علي بن عيسى شيخ زاوية الرحمانية بالكاف (87).

إلا أن السلط الإستعمارية لم تقف عند حد تحجير الإعلان عن الزيارات، بل خطت خطوة ثانية تمثلت في منع الزيارات نفسها ابتداءً من سنة 1913، مما ألحق أضراراً بالمقومات الاقتصادية للطرق ومشايخها، الذين تعالت أصوات

(83) A.G.T., tableau récapitulatif des ressources des confréries .., Colonne 4, D 97 - 3

(84) أنظر الملحق رقم: 4، ص 275.

(85) أنظر نفس الملحق.

(86) خزينة الوثائق التونسية، منشور وزاري للعمال، تاريخ 20 جوان 1911، ص.د، ص.د، 97، مل. 1.

(87) A.G.T., Le C.C. de Souk-arbaâ au R.G., le 21/5/1924, D 97 - 2

بعضهم مطالبة بإرجاعها لملها من أهمية، إذ تمكّن الطرق من مواصلة مؤازرة فرنسا ومحاربة أعدائها (88) على حدّ قول أحد المشائخ، لكن رغم ذلك أصرت تلك السّلطة على عدم التّراجع في «القرار الذي اتفق في شأنه حكّام شمال إفريقيا» (89).

وحرصا منها على تطبيق تلك الاجراءات، راقبت تنقّلات المشائخ، ولم تسمح للبعض منهم بالتنقّل إلا بعد التزامهم بعدم جمع الزيارات، وبذلك أحكمت السّلطة الإستعمارية مراقبة جمع المال من الزيارات، إلا أنّ ذلك لم يمنع من وصول مبالغ أقلّ أهمية، ممّا حدّ من موارد الطرق، خاصة بعد أن توجّهت السياسة الاستعمارية لضرب المورد الثاني.

ب - ضرب الأحياس (90):

مكّنت الأوقاف الطرق الصّوفية من ملكيات عقارية شاسعة، قدّرت قيمتها الجمليّة سنة 1925 بأكثر من 21.759.900 فرنك (91)، منها 12.807.900 فرنك قيمة ما تملكه الزّوايا (92) وله دخل سنوي قدر بأكثر من 368 466 فرنك (93)، و8.952.000 فرنك قيمة ما يملكه المشائخ (94) وله دخل سنوي قدر بأكثر من 282.060 فرنك (95).

وبذلك يكون الدّخل السنوي الجملي لزوايا الطرق الصّوفية في الآيالة من الملكيات العقارية أكثر من 650.526-فرنك، وهو ما يعادل تقريبا أكثر من

88 A.M.A.E.F., Le Cheikh Manoubi Tidjani -Chef de la confrerie Tidjania à Bou-arâda- à Peycelon, le 7/11/1929, Tunisie, 1917 - 1940, vol. 316, d no° 1, (1/1927 - 12/1929), f. 264 - 265

89 Ibid., Note pour Peycelon, le 21/11/1929, f. 266.

90 HEFFENING, "wakf ou Habs", l'Encyclopédie de l'Islam, t. IV-2, PP 1154 - 1162.

91 A.G.T., Tableau recapitulatif des ressources des confréries , 4.

92 أنظر الملحق 4، الوادي الثاني من الجدول.

93 أنظر الملحق 4، الوادي الثالث من الجدول

94 أنظر الملحق 4، الوادي السادس من الجدول

95 أنظر الملحق 4

نصف دخلها السنوي العام (96).

لهذا نبتين السبب الذي دفع بالسلط الاستعمارية الى العمل على إضعاف مداخيل الطرق ومشائخها المتأثية من هذا المورد، وفي نفس الوقت التمكن للمعمرين الفرنسيين بمنحهم مساحات عقارية شاسعة. ولتحقيق هذه الغايات عملت تلك السلط على التدخل في نوعي الأحباس وهي:

* الأحباس العامة:

وهي أملاك حُبست من طرف أصحابها على مؤسسات وزوايا صارت هي المالك الحقيقي لها، بحيث ينص عقد التأسيس على الأوجه التي تنفق فيها عائدات تلك الأملاك كالترميم للمقام، والزوايا، وشراء الحصر، وإيواء الزائرين، علما وأن هذا النوع من الملكيات كان يسمح مساحات شاسعة في جل أنحاء الأيالة.

وهو ما استرعى انتباه السلط الاستعمارية التي عملت على الإستحواذ على أكثر ما يمكن من ذلك النوع من الأراضي، وذلك بإصدارها لقانون 18 أوت 1885 الذي حوّر الإجراءات المتعلقة بالانزال (97) الذي هو نوع من الاجارة الأبدية، تمكن صاحبها من التمتع بالملكية، والقيام بكل ما يريد فوق الوقف.

ولئن كان الانزال قبل 1885 يقع عن طريق القاضي — الذي يصدر الأمر بالمراد العلني، وأحياناً يعمد الى الترفيع في الرّيع الذي حدّده الخبراء بحيث لا يتم الانزال بصفة نهائية إلا بعد موافقة الباي — فإن حكومة الاستعمار — التي تقدّر أهمية الفوائد التي يمكنها الحصول عليها بتلك الوسيلة — استصدرت قانون 18 أوت المذكور، واستكملته بقانوني 21 أكتوبر و22 جوان 1888 وقد نصّت على:

— أن الانزال للأحباس الخاصة والعامة لا يمكن اجراؤه إلا عن طريق المراد العلني بعد اشهار خمسة أسابيع.

96) يقدر دخل الطرق السنوي من الملكيات العقارية التي تملكها بـ 368.466 فرنك، في حين يقدر الدخل السنوي من الملكيات التي يملكها مشائخها بـ 282.060 فرنك بالإضافة الى دخل الطرق المتأثي من الزيارات والمقدّر بـ 93.740 فرنك، فيكون بذلك اجمالي دخلها السنوي يقدر بـ 1.144.266 فرنك وهو مقدار نصفه تقريباً (650.526 فرنك) متأثي من عائدات ملكيات الطرق العقارية: أنظر الملحق رقم 4، ص 275.

97) حول تاريخ الانزال وأثره على الأحباس، أنظر: HEUFENING, op.cit., p. 1159.

— بمجرد قبول الجمعية، أو المتفعين للمطلب، فإنّ على الراغب دفع مبلغ لقباضة الأحباس.

ويصدر تلك القوانين، عملت أوساط المعمّرين على توظيف رؤوس أموالها في شراء الانزال للإستحواذ على أراضي الأحباس، خاصة وأنهم قد تمكّنوا من الحدّ من ارتفاع أسعار الانزال كلّما وقع مزاد علني، علماً وأنهم أصبحوا «ينسّقون مع إدارة الفلاحة عوضاً عن جمعية الأوقاف، وإدارة الفلاحة هذه أنشئت لدعم الاستعمار الفلاحي، فصار لها الحقّ في مراقبة إدارة الجمعية، بحيث لا يمكن أن يتمّ انزال بدون موافقتها، وأن أيّ إنزال [يهمّ] أكثر من 20 هكتار لا يمكن كراؤه بدون موافقتها، فتمكّنت — بذلك — من الحيولة دون التفويت في أراضي ترى أنّها صالحة للإستعمار...» (98).

وتلك الوسائل — المختلفة — أمكن للمعمّرين السيطرة على مساحات شاسعة من الأراضي الفلاحية الخصبة خاصة (99)، حيث توضّح الإحصائيات الرّسمية أنّ المعمّرين الفرنسيين هم الذين استفادوا من عمليات الانزال.

ذلك أنّه منذ مارس 1889 تفيد الأرقام أنّه من جملة 6068 هكتار — من أراضي الأحباس التي وضعت للمزاد العلني — صار منها 3430 هكتار — أي بنسبة 56٪ — الى الفرنسيين (100).

غير أنّ الخطورة المصيرية لاستيلاء المعمّرين على أراضي الأحباس العامّة كان أقرّها قانون 13 نوفمبر 1898 (101).

KASSAB, op. cit ; p. 58 - 59. (98)

(99) حول الاحباس الخاصة والعامّة، والسيطرة التدرّجية .. للإستعمار عليها، أنظر : SFAR (B) "Les Habous en Tunisie envisagés au point de vue de l'opinion publique indigene et de l'interet général", *Compte-rendu des travaux du Congrès de l'Afrique du Nord*, t 2, Paris, 1909, pp. 385 - 404, de même CHEBIL (M), "Les grands Habous de Zaouias", *Bulletin Economique et Social de la Tunisie*, n° 92 (septembre 1954), pp. 36 - 42; ainsi que PONCET (J.) *La Colonisation et l'Agriculture Européennes en Tunisie depuis 1881*, Paris, l'Imp. Herissey, 1961.

PONCET, op. cit., p. 154 (100)

Ibid. , p. 190 (101)

* الأحباس الخاصة: وهي أملاك حُبست على عائلات تتصرف فيها مباشرة أو عن طريق مقدمين.

ولئن استهدفت أطماع المعمرين الأحباس العامة مبكراً، فإن الأحباس الخاصة لم تسلم بدورها من تلك القوانين.

وبالرغم من التحذير الصادر عن البشير صفر (102) - في تقريره إلى المقيم العام بتاريخ 15 سبتمبر 1903 - فإن السّلط الإستعمارية كانت متشبّثة بأهدافها الرّامية إلى الاستحواذ على ذلك النوع من الأحباس تمكّيناً منها للمعمرين.

ولذلك الغرض سنّت قانون 12 أبريل 1913 الذي مكّن المالكين لأراضٍ محبّسة عامّة أو خاصّة أخذها بالإنزال إذا أثبتوا استغلالهم لها أبا عن جدّ بموافقة جمعية الأحباس أو المنتفعين من الحبس (103)، علماً وأنّ الإدارة الإستعمارية تهدف من وراء كلّ ذلك إلى «تحديد الاستحواذ الحقيقي على الأراضي المحبّسة، والعمل على جعل المهياً منها للاستغلال والغير مستولى عليه - تحت تصرف الاستعمار» (104).

ويتلك الطرق الملتوية، أمكن للسّلط الإستعمارية انتزاع مساحات شاسعة على حساب الأحباس الخاصة والعامة، وهي إجراءات عملت على تدعيمها بعد الحرب العالمية الأولى بمحاولتها «الاستيلاء على أرض الأوقاف الخاصة وإلحاقها بإدارة الاستعمار، وتوزيعها على المعمرين الذين يجب أن يعدّوا الآلاف المؤلّفة» (105) على حدّ قولها.

(102) البشير صفر: من أصل تركي، ولد تونس سنة 1856 زاول تعلّمه بالمدرسة الصادقية، ثم سافر إلى فرنسا لإتمام دراسته هناك بمعهد سان لويس. وبعودته إلى تونس سمّي مترجماً بالكاتبة العامة، ثم صار أوّل رئيس لقسم المحاسبات ساهم في تأسيس «الجمعية الخلدونية» التي كان يقوم فيها بدروس في التاريخ، كما باشر رئاسة «جمعية الأوقاف». عيّن فأيد بسوسة سنة 1908، أين توفي سنة 1917، حول ترجمته أنظر: الماضل بن عاشور تراجم الاعلام، تونس، الدار التونسية للنشر، 1970، ص 197 - 206، ZMERLI (S.), *Figures Tunisiennes*, les Successeurs, Tunis, M.T.E , 1967, pp. 15-29; MAHJOUBI, *Les Origines*, p. 121-122, AYADI, *Mouvement réformiste*, p. 34.

(103) PONCET, op. cit., p. 193

(105) أحمد توفيق المدني، حياة كفاح (مذكرات)، الجزء الأول في تونس، 1905-1925، الجزائر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1976، ج2، ج. 1، ص 177.

كل ذلك وفق مشروع المقيم العام فلاندين (Flandin) (من نوفمبر 1918 إلى ديسمبر 1920)، والذي يمس بالمصالح الجوهرية لمشايخ الطرق الصوفية، مما أدى — يوم 14 ماي 1920 — الى خروج المتظاهرين، و«في مقدمتهم مشايخ زوايا متعددة، من المتنفعين من الأحباس الخاصة، حيث تجمعوا أمام الاقامة العامة، إلا أن فلاندين أكد لهم أنه لن يُمضي البتة على قانون يستهدف معتقداتهم الدينية، علماً وأن كل ذلك حدث في رمضان، شهر هيجان المشاعر الدينية» (106).

لكن يبدو أنه رغم تلك الوعود ظلت السلط الاستعمارية في الايالة متمسكة بالاستحواذ على أراضي الأحباس الخاصة، فأصدرت قانون 2 جويلية 1935 أتبعته بقانوني 17 سبتمبر و22 نوفمبر 1935، مما أدى سنة 1937- الى بحث جمعية للدفاع عنها مقرها 5 نهج النحاس بتونس (107).

تلك هي أهم ملامح السياسة الاستعمارية تجاه الطرق الصوفية من حيث انتزاعها لأراضي الأحباس، وبالتالي إضعاف مشايخها مادياً وأدياً لتسهيل السيطرة عليهم والتحكم فيهم، الأمر الذي أدى بالكثير منهم الى تدهور مداخيلهم، مما حملهم على التداين.

من ذلك مثلاً أن كل من محمد العربي وأخيه عبدالرحيم الشريف — صاحبي الزاوية القادرية بالقصور — تدأبنا من اليهودي سيمون برامي (108)، كما أن محمد بن ابراهيم الكبير شيخ القادرية بنقطة قد استدان من أحد الاسرائيليين ومن الدولة (109).

إن تلك الديون — رغم التسهيلات الممنوحة للمشايخ في تسديدها — كما سبق أن أشرنا — جرت العديد منهم إلى التفتيت في عقاراتهم بأثمان بخسة. ويمكن الاستدلال — في هذا المجال — بهنشير محمد العربي وأخيه عبدالرحيم الشريف المذكورين (110).

(106) HANOTEAU (G.), *Histoire des Colonies Françaises et de l'expansion de la France dans le monde*, Paris, Imp. Paris-Vanves, t. 3, 1931, p. 460.

(107) أنظر: A.G.T., E 509 - 180.

(108) Ibid., D 102 - 4. أنظر للملحق رقم 3، ص 273

(109) Ibid., Le C.C. de Gafsa au R.G., le 20/1/1898, D 106 - 4.

(110) أنظر قضية الهنشير في خزانة الوثائق التونسية، في توضيح أحمد بن الخوجة — عامل تاجروين — الى الوزير الأول، بتاريخ 1945/8/12، س. د، صد. 102، مل. 2.

كما أدّت بالبعض الآخر إلى رهن عقاراتهم ريثما يتمّ لهم خلاص ما عليهم من ديون: من ذلك أن ديون محمد بن ابراهيم - شيخ القادرية بنقطة - بلغ مجموعها فيما بين 1894 - 1896 ما قدره 104.600 فرنك، منها 94.600 فرنك لأربعة من اليهود (111).

وبحلول آجال كلّ تلك الديون، وعجزه عن تسديدها - مع فوائضها - اضطرّ الى رهن حجج جناحه في دور الحسبة (توزر)، وغابة داينة (112) في حين رهن رسم «سانيت خرنوب (نقطة)، ونصف الدّورة (توزر) عند اليهودي حامي بن بارور» (113)، وبذلك لم تبق بيده - الى حدّ سنة 1899 - إلا حجة جنة نصف بولرباق بنقطة، وحجج السّواني المحبّسة على الزّاوية التي - بدورها - «يمكن رهنها لأن الأمور كلّها بيده لا يشاركه فيها أحد...» (114) على حدّ قوله.

لقد دفعت وضعية تفاقم الديون - لدى بعض مشايخ الطرق - وعجزهم عن تسديدها إلى الإلتجاء إلى السّلط الإستعمارية - التي تبحث عن تلك الظروف لاستغلالها - للتدخّل لفائدتهم، ومساعدتهم على إيجاد صيغة لتسوية أوضاعهم.

ويمكن الإستشهاد في هذا الصّد بالتجاء محمد بن ابراهيم - المذكور - إلى الكاتب العام بالدولة التونسية للتدخّل لفائدته لدى أصحاب الديون «لإيقاف الزيادة (أي فائض الدين)، وتقسيط الخاضل على السّنين ليقع الخلاص من غير تعب» (115) على حدّ قوله.

أما عبدالرحيم وأخوه - المذكوران سابقا - فقد طلبا «قرضا ثمن الهنشير يسدّدانه أقساطا...» (116).

إنّ هذه الأمثلة وغيرها تكشف عن الوضعية المادية التي آلت إليها بعض زوايا الطرق ومشائخها الذين ساءت ظروفهم الاجتماعيّة، فأصبحوا عاجزين عن توفير حاجياتهم اليومية:

(111) خزينة الوثائق التونسية، م. د، ص. 102، مل. 4، أنظر الملحق رقم 3، ص 273.

(112) نفس المصدر، أنظر نفس الملحق.

(113) نفس المصدر، أنظر نفس الملحق.

(114) نفس المصدر، أنظر نفس الملحق.

(115) نفس المصدر، رسالة من محمد بن ابراهيم إلى الكاتب العام بالدولة التونسية، بتاريخ 1899/7/3 م. د، ص. 106، مل. 4.

(116) نفس المصدر، رسالة من عبدالرحيم بن الأزهر الشريف إلى المقيم العام، بتاريخ 1931/7/18، م. د، ص. 102، مل. 2.

من ذلك أنّ محمد المكيّ - شيخ القادرية بالجريد - صار على حالة «من ضعف الحال، وقلة ذات اليد...، حتّى أنّه لم يجد شيئاً يقتات به هو وعائلته التي يخشى عليها الإهمال...» (117)، وهذا ما آل إليه أمر محمد الأخضر السهيلي - مقدّم التيجانية بتبرسق - الذي أصبح يعاني من «شدة الفاقة، والاحتياج وكثرة العائلة، وعدم الحرفة...» (118).
لقد اضطرت تلك الوضعية بعض مشائخ الطرق الى التوجّه نحو السّلطة طلباً للإعانة، كمحمد الأخضر السهيلي المذكور (119)، وكذلك محمد الجنيد بن حسين (120)، ومصطفى بن الحوسين (121)، وغيرهم ممّن يتسبون الى الطريقة الرّحمانية.

ومحمد الحيارى (122)، وحميد النّايلى (123)، من الطريقة السّلامية. وعبدالرحيم الشّريف (124) من الطريقة القادرية، وغيرهم كثير، علماً وأن بعض تلك الاعانات المطلوبة كانت بغاية ترميم أو إتمام بعض الزّوايا كالزاوية القادرية

(117) نفس المصدر، رسالة محمد المكيّ بن محمد الكبير الى كاتب الدّولة العام، بتاريخ 1915/10/22، س. د، صد 172، مل. 1.

(118) نفس المصدر، رسالة من محمد الأخضر السهيلي الى رّوا، بتاريخ 1901/5/25، س. د، صد. 156، مل. 1.

(119) نفس المصدر، رسالة من محمد الأخضر السهيلي الى رّوا، بتاريخ 1901/11/17، س. د، صد. 156، مل. 1.

(120) نفس المصدر، رسالة من محمد الجنيد بن حسين الى رّوا، بتاريخ 1894/10/29، س. د صد. 121، مل. 2.

(121) نفس المصدر، رسالة بالفرنسية من مصطفى بن الحوسين الى الكاتب العام للحكومة التونسية بتاريخ 1935/12/8، س. د، صد 112، مل 2.

(122) نفس المصدر، رسالة محمد الحيارى الى المقيم العام بتاريخ 1936/8/10، س. د، صد. 153، مل 7.

(123) نفس المصدر، رسالة حميد النايلى الى الكاتب العام، بتاريخ 1914/5/15، س. د، صد. 140، مل. 5.

(124) نفس المصدر، رسالة عبدالرحيم الشّريف الى المدير العام للداخلية بتاريخ ديسمبر 1931، س. د صد 102، مل. 2.

بمساكن (125)، مما يوضح العجز المادي الذي صارت عليه بعض الزوايا الطرقية التي لم تعد لديها مداخيل كافية لتسديد مصاريفها.

كذلك من الزوايا التي أصبح ترميمها أو إكمال بناءها متوقفاً على إعانة الحكومة بذكر الزاوية السلامية بتطاوين (126) والزاوية الرحمانية بالملاسين (127) مما يوضح مدى العجز المالي الذي آل إليه أمر بعض الطرق الصوفية، حتى صارت عاجزة عن الإبقاء بحاجياتها.

لكن هل يمكن تحميل السلط الاستعمارية وحدها مسؤولية تفكير بعض الطرق الصوفية ومشائخها؟
لئن تعتبر السياسة الاستعمارية مسؤولة فعلاً عن الأوضاع المزرية التي آلت إليها الطرق، فإن جانباً من تلك الأوضاع يعود الى تصرفات المسؤولين عن أملاكها وعقاراتها.

ذلك أن تبذيرهم، وإسرافهم للأموال المتأتية من الموارد المختلفة للطرق أدى إلى إتلاف ثرواتها، وهو ما آل إليه — مثلاً — أمر الزوايا القادرية (128)، والرحمانية (129) بنقطة، وزاوية الرحمانية بالكاف (130).

تلك هي الأسباب الأساسية التي كانت وراء تفكير عدة طرق صوفية بالبلاد، وهذا قد يكون وراء اندثار البعض منها، كزاوية سيدي الحاج — التيجانية — بتوزر التي لم تذكر ضمن قائمة زوايا الجهة سنة 1925¹ (131)، وكذلك زاوية

(125) نفس المصدر، رسالة من جماعة القادرية بمساكن الى رواء، بتاريخ 1910/6/8، س. د، ص 109، مل. 8.

(126) نفس المصدر، رسالة محمد الحيارى الى المقيم العام بتاريخ 1936/8/10، س. د، ص 153، مل. 7.

(127) نفس المصدر، رسالة محمد الجنيد بن حسين الى الكاتب العام للحكومة، بتاريخ 1904/10/25، س. د، ص 112، مل. 2

(128) A.G.T., Confrérie mère des Kadna, p. 5, D 97 - 3.

(129) Ibid., Confrérie mère des Rahmánya, p. 9, D 97 - 3.

(130) Ibid., p. 14.

(131) Ibid., Congrégation des Tidjanía, p. 6, D 97 - 3.

الشّاوش صالح التّيجانية بباجة (132)، وزاوية الحاج العبّاسي - الرّحمانية - في ماجر التي انتهى أمرها بموت مؤسّسها (133).

بهذا كلّ نتيجتين وسائل السياسة الاستعمارية لفرنسا، ونتائجها تجاه الطّرق الصّوفية بالبلاد، والتي ضربت مقوماتها المادية، وامتيازاتها الأدبية كحقّ الاحتفاء بالزّوايا (134) بمقتضى الأمر الصادر سنة 1882.

وهو أمر أوجب على مشائخ الزّوايا والمراقبين المدنيين أنه «إذا تحصّن - بأحد الزّوايا - أيّ جان كان...، مُتهم بسرقة، أو نهب أو جرح، فلأنهم يبادرون - في الحال - بإعلام العامل بذلك...، مع التأكيد على مشائخ الزّوايا برّد البال من الجاني حتى يقع تثقله (أي بالحديد)...» (135).

وبهذا تكون السياسة الاستعمارية قد ساهمت - إلى حدّ بعيد - في فقدان الطرق الصّوفية لأهمّيّتها الماديّة والأدبية، وبالتالي إضعافها (136). تلك هي السياسة التي اعتمدتها السّلط الإستعمارية في التعامل مع الطّرق ومشائخها، قصد تطويعهم، واحتوائهم، وتوظيفهم، حتى تستعين بهم عند الحاجة، ولا يصدر عنهم ما يهدّد مصالحها.

فهل نجحت في تلك السياسة ؟
وإن كان لها ذلك، فإلى أيّ مدى ؟

Ibid., p. 8. (132)

Ibid., Confrérie des Rahmánya, p 17, D 97 - 3 (133)

(134) تتمنّع بعض الزّوايا في الأيالة بحرم، وهو عبارة عن مساحة - تختلف باختلاف الزّاوية - مقدّسة، ومحدّدة بجدار أو أسلاك شائكة، لا يمكن انتهاكها من أحد، بحيث أنّ من دخلها، واحتسب بالראوية يعدّ أمناً، أنظر الهادي حمّودة الغزّي، الأدب التّونسي في العهد الحسيني، 1705-1881، الدّار التّونسية للنشر، 1972، ص 86 و 87، أنظر كذلك قائمة هذا النوع من الزّوايا، وحدود حرمها في A.G.T., Les limites des zones de Zaouias qui jouissent du droit d'asile à Tunis et aux environs et dans la régence, D 97 - 8 bis.

(135) خزينة الوثائق التّونسية، مكتوب من الوزير الأكبر إلى المراقب المدني بالوطن القبلي، بتاريخ 25 رجب 1885/5/10/1302، م. د، صد. 97، مل. 4

(136) أنظر ذلك بأكثر تفصيل في حديثنا - بالفصل الرابع - عن الأسباب الخارجية لضعف الطّاقة الصّوفية، ص 251-257

الفصل الثالث

علاقات الطرق الصّوفية بالاستعمار الفرنسي

لئن سلكت السلط الإستعمارية — تجاه الطرق الصوفية — سياسة لها ملامحها الواضحة، وخصائصها المميّزة، فإنّ بعض تلك الطرق، لم تكن لها مواقف ورؤى منسجمة وموحّدة تجاه الإستعمار الفرنسي وسياسته بالبلاد.

ذلك أنّه رغم تعدّد الطرق وكثرتها، فإنّ بعضها تمّن تعامل — سلبا أو إيجابا — مع الإستعمار جدّ قليلة حسب ما تفيد الوثائق التي أمكننا الإطلاع عليها.

وتلك المواقف — على قلّتها — تميّزت بالتّباين — ليس بين طريقة أمّ وأخرى متفرّعة عنها فحسب — وإنّما يحدث ذلك بين عدّة طرق فرعية تعود إلى طريقة أمّ واحدة، بل وقد يحصل ذلك التّباين بين زوايا داخل الطريقة الفرعية الواحدة.

وهذا يجعل من الصّعب على الباحث أن يحدّد المواقف الطرقية الملزمة لها جميعا أصلا وفرعا، الأمر الذي يحمله بالضرورة على تحديد خصائص كلّ موقف من مواقف تلك الطرق، ومقارنتها بعضها ببعض، وتوضيح خلفياتها وتحديد أسبابها.

I — الطرق الصوفية والمسألة الاستعمارية :

جسّم مؤتمر برلين (1) — الذي افتتح أشغاله يوم 13 جوان 1878 — قمة التّناقض بين الدّول الإستعمارية المتنافسة على اقتسام ممتلكات الإمبراطورية العثمانية.

ذلك أنّ بريطانيا كانت حريصة على إيجاد توازن بين القوى في البحر الأبيض المتوسط (2) بعد أن استولت على قبرص لمساندتها للإمبراطورية العثمانية ضدّ الأطماع الروسية (3).

كما وجّهت إهتمامها إلى البحر الأحمر، فعملت على صرف فرنسا عن الطّمع في الإستيلاء على مصر خاصّة بعد أن شقّ دي ليسبس (De Lesseps) — المهندس الفرنسي — قناة السويس التي تمّ افتتاحها يوم 17 نوفمبر 1869.

ولأهميّة ذلك الممرّ المائي في ربط بريطانيا بمستعمراتها بالهند — لقصر الطريق وقلة التّكاليف — تمكّنت بريطانيا — سنة 1875 — من اشتراء نصيب الخديو

(1) حول أشغال هذا المؤتمر ومداولاته أنظر: GANIAGE, op.cit, pp. 509 - 520

(2) MARTEL, op. cit, t. 1, p. 208.

(3) MIEGE (JP.), Expansion Européenne et decolonisation de 1870 à nos jours, (3 Paris, P U F, 1973, p. 177

اسماعيل من الأسهم (4)، فسيطرت بذلك على الملاحة في القناة التي أصبح 75٪ من السفن المارة بها تابعة لبريطانيا (5).

ولتلك الاعتبارات، شجعت هذه الأخيرة فرنسا على الاستيلاء على تونس على حساب إيطاليا حيث كانت تخشى إغلاقها لمضيق صقلية في صورة انتصابها على صفتيه (6).

كما أن بسمارك - رئيس المؤتمر السابق الذكر - قد رغب فرنسا - أيضاً - في الاستيلاء على تونس، سعياً منه لعزلها عن القارة الأوروبية حتى يُنسيها التفكير في مقاطعتي الألزاس واللورين (7).

وبذلك تجاوزت فرنسا العراقيل الخارجية لاحتلالها للآيالة، فوضعت خطة مرحلية تقضي باحتلال المناطق الشمالية من البلاد، وفرض معاهدة على الباي - كمرحلة أولى -، ثم احتلال بقية التراب التونسي في مرحلة ثانية.

وحتى تضع مخططاتها - ذلك - حيز التنفيذ استغلت دخول 300 مسلح من سكان خمير التراب الجزائري يوم 16 فيفري 1881 (8) كتعلة لتحريك قواتها نحو الآيالة بدعوى تعقب المعتدين والاقتصاص منهم.

فاجتازت الجيوش الفرنسية الحدود التونسية الجزائرية من جهة غار الدماء يوم 24 أبريل 1881، كما وصلت في نفس التاريخ - قوات بحرية فرنسية نزلت بطبرقة، حتى كان يوم 3 ماي 1881، فتعززت القوات الفرنسية بنزول فرق أخرى بميناء بنزرت بقيادة الجنرال بريار (Breart) (9) الذي حاصر قصر الباي يوم 12 ماي 1881، وعرض عليه التوقيع على معاهدة «الحماية»، ففضل الاستجابة على التخلي، وبذلك أصبحت تونس بمقتضى معاهدة باردو «محمية فرنسية».

ورغم قرار الباي بعدم المقاومة، فإن العديد من الجهات وبعض المدن قد استعدت لذلك.

(4) ارنستو كينيتز، قناة السويس، القاهرة، دار القاهرة للطباعة، 1957، ص 54

(5) نفس المرجع، ص 61.

(6) GANIAGE, op.cit., p. 508.

(7) MARTEL, op.cit., t. 1, p. 208, de même GANIAGE, op.cit., p. 503.

(8) MARTEL, op.cit., t. 1, p. 208; GANIAGE, op.cit., p. 664.

(9) Breart (Jules - Armé) (1826 - 1913) شارك في الحملة على القبائل والمكسيك وسنة 1881 أرسل إلى تونس ليفرض على الباي معاهدة باردو، توفي يوم 1913/2/13 أنطرب. MAHJoubi, l'Etablissement., p. 37

فماذا كانت مواقف الطرق الصوفية من دخول الإستعمار الفرنسي للبلاد التونسية؟

وهل كانت لها نضالات ضده؟

1) مواقف الطرق الصوفية من دخول الإستعمار الفرنسي للآيالة التونسية

في الفترة التي دخلت فيها الجيوش الفرنسية للبلاد، كانت الطرق الصوفية — على ما يبدو — تمثل أهم تنظيم فيها يتمتع بنفوذ مادي وأدبي هامين، وقاعدة شعبية عريضة، يمكن توظيفها لو وقع التفكير في ذلك.

وبذلك يمكن القول بأن الطرق الصوفية كانت آنذاك القوة الوحيدة — تقريبا — في الآيالة القادرة على التصدي للقوات الإستعمارية باستنفار السكّان، وإعلان التعبئة العامة، وتنظيم الجهاد رغم النقص البين في العتاد.

فهل قامت بما كان متظّرا منها؟

إن الدّارس لمواقف الطرق إزاء دخول الإستعمار للبلاد التونسية، ولما تميّزت به من تناقضات — فيما بينها — يمكنه أن يصنّفها صنفين:

أ — بعض مشايخ الطرق المتواطئين مع المستعمر:

ونقصد بهم أولئك الذين سهّلوا أو ساهموا ولو نسبيا في مساعدة الإستعمار الفرنسي على دخول البلاد التونسية.

ومن هذا المنطلق، يبدو أنّ زاوية القادرية بالكاف قد لعبت دورا هاما في تسهيل استيلاء الغزاة الفرنسيين على المدينة.

ومّا يحملنا على هذا الرأي أنّه من جهة بلغ إلى علم الحاكم العام للجزائر تقرير مفاده أنّ «حالة من التّملّمل بدأت تظهر حول الكاف، وأنّ الأعراب أخذوا يقتنون كمّيات هامة من البارود استعدادا للجهاد المقدّس...» (10).

(10) A.M.A.E.F, Dépêche télégraphique de Roustan au Gouverneur Général de l'Algérie, le 15/4/1881, C P. Tunis 57 Roustan, (avril 1881). Correspondance télégraphique entre le consulat Général et l'Agence consulaire du Kef pendant les jours des 24, 25 et 26/4/1881.

ومن جهة ثانية وقع — بعد عشرة أيام — «التخلي نهائيا عن فكرة المقاومة، وتكون وقد لتبلغ ذلك [الموقف] إلى قائد القوات الفرنسية» (11).

فما الأسباب الكامنة وراء التخلي عن الاستعداد للجهاد؟

إن ذلك التراجع عن التفكير في المقاومة والصمود، وفتح أبواب مدينة الكاف للقوات الفرنسية قد يعود — إلى حد ما — إلى دور سيدي قُدور:

لقد كان — هذا الأخير — طيلة شهر أبريل من سنة 1881 — أي قبل معاهدة باردو — على اتصال وثيق بالعمّال القنصلي الفرنسي روا حيث راسله (أي سيدي قُدور) مستفسرا إياه «عن الدور الذي يمكن له أن يلعبه، (فأشار عليه) بأن يعمل ما في وسعه للحفاظ على تلك الصورة الحسنة التي لديه عنه...» (12) على حدّ قوله.

ثم لم يلبث سيدي قُدور — في نفس ذلك اليوم — أن أعلم روا أنّه «على استعداد للذهاب لمقابلة اللّواء لوجروا (Logerot) قائد القوات الفرنسية للإعراب له عن ولائه، وهي فكرة حبّتها روا، [واعتقد] بأنها — ستكون لها نتائج حسنة» (13) حسب زعمه.

ويبلاغها لروسطن (Roustan) (14) أبدي موافقته عليها، وعلي كلّ المساعي «التي من شأنها أن تحول دون إراقة دماء لا طائل من ورائها...» (15) غير أنّ «اللّواء المتصلّب (لوجرو) رفض مقابلة أيّ كان...» (16). لكن رغم كلّ ذلك، فإنّ سيدي قُدور وصل به الأمر إلى إعطاء الأوامر

Ibid, du même au même, le 25/4/1881, à 8 heure 40 mn du soir, C.P. Tunis 57 Roustan..., (11 f. 453 verso

Ibid., du même au même, le 24/4/1881, 7 heure 15 mn du soir ..., f. 451 verso. (12

Ibid, Depeche Télégraphique, l'Agent Consulaire du Kef au Chargé d'Affaires, le 24/4/1881, à 8 heure du soir, C.P. Tunis 57..., f. 451 verso. (13

(14) تيودور، روسطون (Roustan) ولد سنة 1833 بأكس أون بروفانس (Aix - en provence) عين قنصلا عاما لفرنسا بتونس سنة 1874، ثم أول مقيم عام لفرنسا بتونس سنة 1881، وسنة 1882 عين سفيرا للاده بواشنطن، ثم بمديرد سنة 1890، توفي بباريس سنة 1906 (MARTEL, op.cit., t. 1, p. 172

A.M.A.E.F., Depeche Télégraphique, le Chargé d'Affaires à l'Agent consulaire au Kef, le 24/4/1881, à 8 heure 50 mn du soir, C P. Tunis 57 ..., f. 452. (15

MAHJOUBI et KAROU (H.), Quand le soleil s'est levé à l'Ouest, Tunisie 1881, (16 Imperialisme et resistance, Tunis, Ceres production, 1983, p. 78.

— للذين جاؤوا إلى زاويته — بالعودة من حيث أتوا (17)، مما جعل رُؤا يستحسن ذلك قائلا: «تحرّك أصدقائنا...» (18)!!.

إنّ هذا يحملنا على القول بأنّ سيدي فدّور كان وراء التخلّي عن فكرة الجهاد، مستعملاً في ذلك نفوذه المادّي والروحي بالمنطقة، هذا بالإضافة إلى الدّور التّخذيّ الذي قام به فايد الكاف وبعض أعيانها والذي لم يمكننا تحديد أهمّيته.

لتلك الإعتبارات وغيرها، «تمّ فتح أبواب المدينة وكذلك قصبتها حيث سيقيم الجنرال حامية...» (19).

إنّ هذا الدّور الذي لعبه سيدي فدّور قد يُعزى إلى العلاقة الوطيدة التي كانت تربطه برؤا، وهي علاقة كانت سبباً في حماية هذا الأخير من التّهديدات بالموت الصّادرة عن الطريقة الرّحمانية بالكاف (20)، علماً وأنّ سيدي فدّور الذي مهد لاحتلال المدينة «كان قد رفض — أثناء الحرب الرّوسية التّركية سنة 1877 — المساهمة في الاكتتاب الذي فتحه الباي لصالح السّلطان، وفضّل استغلال موارده في شراء الحبوب للفقراء» (21) على حدّ قول بعض المصادر الفرنسيّة.

تلك هي — انطلاقاً من الوثائق التي أمكننا الإطّلاع عليها — أهمّ الإشارات المتعلّقة بموقف قادريّة الكاف من دخول الإستعمار الفرنسي للبلاد.

لكن هل يمكن اعتبار موقف زاوية القادرية بالمدينة المذكورة ملزماً وممثلاً لموقف هذه الطريقة على مستوى كامل البلاد التّونسيّة؟

إنّ هذا لا يمكننا القول به لانعدام الأدلّة — في حدود ما اطّلعنا عليه — إلا أنّه يمكن اعتبار ذلك الموقف من الأهميّة بمكان تبعاً للقيمة والمنزلة التي تحتلّها الزاوية المذكورة — كما مرّ بنا — ليس على مستوى الطريقة القادرية بالبلاد — والتي تمثّل فيها تلك الزاوية أحد مراكز نفوذها الروحي فحسب — وإنّما على مستوى الطرق الصّوفيّة بالبلاد.

A.M.A.E.F., Dépêche télégraphique de Roy à Roustan, le 25/4/1881 à 7 heures 15 mn du soir, C.P. Tunis 57...., f. 453 verso.

Ibid. (18)

Ibid., Dépêche télégraphique du même au même, le 26/4/1881 à 10 heures 59 mn du matin, C.P. Tunis 57...., f. 454 verso

FALLOT, op.cit., p. 7. (20)

MONCHICOURT, op.cit., p. 317. (21)

كما أنّه لابدّ من الإشارة إلى أنّ الشّيخ محمد بن شعبان (ت. 1919) — شيخ مشايخ القادرية وإمام جامع باردو آنذاك — قد ورد ذكره ضمن الذين نسّقوا مع الاحتلال الفرنسي، حيث شوهد يرحّب بالقوّات الفرنسية عند دخولها إلى تونس (22)، وقد يفسّر موقفه ذلك بالخطة الرّسمية التي كان يشغلها آنذاك حيث قد يكون الباي طلب منه ذلك.

لكن هل أنّ تلك المواقف — السّالفة الذكر من دخول الإستعمار الفرنسي إلى البلاد التّونسية — كانت صادرة عن بعض مشايخ الطريقة القادرية وحدها أم كانت تشاركها فيها طرق صوفية أخرى؟

إذا أخذنا بالإعتبار الاتّصالات المكثّفة برموز الإستعمار، والتّسيق معهم، وإبداء الإستعداد للقيام بكل ما من شأنه أن يسهّل عليهم دخول مدينة الكاف واحتلالها فإنّ الدّور الذي لعبه سيدي قدّور — حسب الوثائق التي أطلعنا عليها — يبدو أنّه الوحيد من نوعه وفي حجمه.

لكن رغم ذلك توجد دلائل تشير إلى أنّ هناك مشايخ زوايا طرقيّة أخرى كانت لهم مواقف وممارسات لا تخلو من أهميّة.

فالشّابيون [اتباع الطريقة الشّايبة] قد بذلوا جهوداً لاستتباب الأمن بالجريد، وجلبوا المناوئين وسلّموهم للفرنسيين.

من ذلك — مثلاً — أنّه لما وصل الجنرال فيلبار (Philebert) — لأول مرة للجريد على رأس قوّة فرنسية — فرّ العديد من سكّان أحواز توزر — مذعورين —، «فما كان من ابن جدو ابن الحاج أحمد — شيخ الشّايبة هناك — إلّا أن أعادهم إلى ديارهم، كما لعب دور الوسيط مع الجيش الفرنسي لتهدئة الأوضاع، فما كان من المستعمر إلّا أن عيّنه فأيد بيت الشريعة مكافأة له، ومن ذلك الحين لم يدّخر جهداً في الإعراب عن ولائه لفرنسا...» (23).

كما قام عمّركان بن عبدالسّلام الفيتوري — مقدّم الطريقة السّلاميّة بالبلاد — بنفس الدّور، حيث عمل — عند فرار العُربان إلى طرابلس الغرب زمن الاحتلال الفرنسي للبلاد — على إرجاعهم.

GREEN (A H.), the Tunisian Ulama 1873 - 1915, social structure and response to Ideological currents, Leyden, E.J. Brill, 1978, p. 131

DEPONT et COPPOLANI, op.cit., p. 483 (23)

أما المتوحي العمراني (24) شيخ زاوية الطريقة التيجانية ببوعرادة — فقد أوضح في رسالة له الى وزير الخارجية الفرنسية بباريس — أنه في بداية الاحتلال — «استقبل الجيش الفرنسي، وكان دليله [في المنطقة] موصيا إياه بالقبائل خيرا...»، كما أوصى القبائل بملازمة الهدوء والامتثال للتفوذ الفرنسي، وبذلك عرف كيف يتجنب إراقة دماء غالية عليه، وكيف يسهل مهمة السُّلْط المدنية الفرنسية...» (25) على حدّ قوله.

كما يمكن في نفس السياق الاستشهاد بزاوية باب منارة بالحاضرة التي ساهمت — على ما يبدو — في «تهدئة الخواطر، حتّى أنّ القائد سيون (Cyone) (26) مساعد الملحق العسكري [لدى بول كمبون (27) المقيم العام آنذاك] — كان يشارك في المائدة التي تُنصب بالزاوية كلّ يوم جمعة...» (28).

لكن هل يعني هذا أنّه لا توجد زوايا تيجانية أخرى لها مواقف من الغزو الفرنسي مغايرة لمواقف الزوايا التي ذكرناها؟
أشار المراقب المدني بالكاف — سنة 1896 — إلى أنّ الطريقة التيجانية بالجهة، أثارت — أيام الاحتلال الفرنسي — قبائل ورتان والحمامسة.

24 المتوحي بن الشيخ سيدي صالح العمراني التيجاني الشريف، كان مقدّما للطريقة التيجانية نزائيتها في هشير بوفطيس بجهة بوعرادة المعروفة بزاوية سيدي صالح التيجاني، توفي يوم 1930/8/19، أنظر: A.G.T., D 156 - 21.

25 A.G.T., Le Cheikh Manoubi au Ministre des Affaires Etrangères Françaises à Paris, le 7/11/1929, D 156: 21

26 سيون أبال (Cyon Abel) (1835 — 1898)، اشتغل في المكاتب العربية بالجزائر (1861 — 1881)، ويوم 1882/1/2 وحتى جانفي 1886 عيّن في تونس كمساعد للملحق العسكري لدى المقيم هناك، ثم ملحقا عسكريا من أفريل 1883 إلى جانفي 1886، أنظر: MARTEL, op.cit., t. 1, p. 268.

27 بول كمبون (Paul Cambon) ولد بباريس سنة 1843، عيّن سنة 1870 رئيس ديوان جيل فيري، ثم مقيما عاما بالبلاد التونسية من مارس 1882 إلى نوفمبر 1886، كما عيّن فيما بعد — سعيرا لبلاده بمدير (1886/10/28) ثم بالقسطنطينية (1891/8/3) ولندن (1898/9/21 — 1920/11/20) توفي بباريس سنة 1924، أنظر: MARTEL, op.cit., t. 1, p. 268.

28 A.G.T., Congrégation des Tidjania, p. 10, D 97 - 3.

فما كان من العقيد دولاروك (29) إلا أن زحف عليها لاختضاعها، وحملها على دفع غرامة حربية، مما أدى إلى استتباب الأمن، لكن بمجرد رحيله عادت الاضطرابات (30)، هذا في حين أن زاوية التيجانية بالسرس قد أعربت عن ولائها وخضوعها (31).

إن هذا الموقف المناهض للاستعمار من زوايا ثانوية في أهميتها - وإن كان لا يتسجم مع الخط العام الذي سارت عليه الطريقة التيجانية ككل سواء في الجزائر أو في تونس - لم يكن له تأثير في مواقف التأييد والولاء الصادرة عن الزوايا الهامة.

فواضح من خلال هذه الأمثلة، استفادة الاستعمار من الدور الذي لعبته بعض الطرق في تسكين وتهذبة الخواطر للجيلولة دون ردود فعل قد تعرقل، أو على الأقل تؤخر الاستيلاء السريع للقوات الفرنسية على البلاد،

ب - بعض مشائخ الطرق الذين قاوموا دخول المستعمر:

هل يمكن الحديث عن طرق ناضلت بآتم معنى الكلمة، بحيث نظمت الجهاد، وأعلنت التعبئة، وأطرت المجاهدين وقوفاً في وجه المستعمر؟ إن المتأمل في مواقف الطرق التي لم تكن متواطئة يصعب عليه القول بوجود طرق صوفية ناضلت فعلاً.

إذ غاية ما في الأمر، أن هناك بعض الطرق تميزت بمواقفها برفض التعامل أو التواطؤ مع الاستعمار، محاولة بذلك الوقوف في وجهه بإمكانيات محدودة، لم تكن كافية لعرقلة تقدم قوات الاستعمار - ولو نسبياً - .

لكن رغم محدودية محاولات التصدي هذه لقوات الاحتلال فإن تلك

(29) دولاروك (De Laroque)، ولد سنة 1835 كلف بعدة مسؤوليات في الشرق (1855 - 1856)، وبالمكاتب العربية (1859) وسوريا (1860 - 1861) وأفريقية (1864 - 1870). دعي سنة 1881 إلى تونس لقيادة قسبة الكاف كما تولى عدة مناصب عسكرية كبرى كقيادة هيئة الأركان العامة (1886)، أحيل على التقاعد يوم 1899/10/7، توفي بباردو سنة 1903، أنظر:

MARTEL, op.cit, t. 1, p. 314.

A.G.T., Congregation des Tidjania, p. 10, D 97 - 3. (30)

Ibid., p. 11. (31)

المحاولات توضّح أنّ بعض مشائخ الطرق قد بذلوا ما في وسعهم في المقاومة، وهو ما يعدّ في حدّ ذاته أمر له أهميته.

من ذلك أنّ علي بن عيسى - شيخ زاوية الطريقة الرّحمانية بالكاف - الذي سبق أن «قرّر قتل العون القنصلي روا بهذه المدينة» (32)، قد «شجع الأهالي على الوقوف في وجه القوّات الفرنسية الدّاهمة...» (33)، لما اقتربت منها. كما أنّ أحمد بن عبدالمملك (34) - شيخ زاوية الرّحمانية بأولاد عون - قد «برهن عن عداوته للإستعمار سنة 1881 لذلك أقصاه الجنرال فيلبار الى تونس، ولم يعف عنه إلا سنة 1888...» (35).

أمّا محمد بن ابراهيم بن عبدالمملك - أحد رجالات زاوية سيدي عبدالمملك - السّابق الذكر - فقد «قاوم انتصاب الحماية الفرنسية، وواجه قواتها قرب الفحص، ولما انهزم هرب الى جبل السّرج [قرب الوسلاتية من ولاية القيروان]، ومنه إلى طرابلس، حيث استقرّ الى ان توفي (سنة 1901)...» (36).

كما سجّلت محاولة لمقاومة الإستعمار الفرنسي - في أيّامه الأولى - من قبل معمر الزّاير - شيخ زاوية الرّحمانية بكُدّية الحلفاء بماجر - إذ أنّه «وقف في وجه الطّاوور [الذي يقوده] فورجمول (Forgemol) (37) لكنه لم يلبث أن

FALLOT, op. cit. , p. 7. (32)

A.M.A.E.F., Dépêche télégraphique de Roy au Chargé d'Affaires, le 25/4/1881 à 11 heures (33)
10 mn du matin, C.P. Tunis 57.....

(34) أحمد بن عبدالمملك شيخ زاوية الطريقة الرّحمانية بالشطّ، الواقعة تقريبا 16 كلم غرب تبرسق، ولد سنة 1821 تقريبا استمدّ نفوذه من مصاهرته للشيخ مصطفى بن عزّور شيخ الرّحمانية بالحريد، كما له علاقة قرابة بشيخ رحمانية لغواط بالحزائر كما كانت له ثروة طائلة زادت في تدعيم نفوذه على أولاد عون. توفي سنة 1921 تقريبا، أنظر: A.G.T, Confrérie des Rahmánya, D 97 - 3.

A.G.T., le C.C. de Maktar au R G. le 6/11/1893, D 182 - 2 (35)

(36) عبدالقادر، الهاني، «الدور الاجتماعي والثقافي للزّوايا وجهة سليانة» مجلة الحياة الثقافية، تونس، وزارة الشؤون الثقافية والأخبار، السنة 8، العدد 26، 27، (مارس - أفريل - ماي - جوان 1983) ص. 115 - 119، ص 118، أنظر كذلك، MONCHICOURT, op.cit., p. 315.

(37) (Forgemol de Bostquenard) ولد سنة 1821 أمضى مدّة طويلة من مهنته بالحزائر حيث شارك في الحملة على القبائل ثم تولّى قيادة مقاطعة تيسّة وسكرة، كما تولّى قيادة مقاطعة قسنطينة يوم 1879/3/4 حيث قاد عمليات القمع في الأوراس سنة 1879، ويوم 1882/1/25 قاد قوات الاحتلال في البلاد التونسية التي غادرها في نهاية سنة 1883 أنظر: MAHJOUTI, l'Etablissement, p. 65.

فرّ إلى طرابلس التي عاد منها سنة 1882، وبوفاته سنة 1907 خلفه أخوه الأصغر عبدالحفيظ فكافح بدوره ضد الاستعمار، لكنّه بعد النّضال هدأ وسكن. » (38).

من خلال هذه الأدلة، نتبيّن أنّ بعض زوايا الطريقة الرّحمانية كانت من أبرز زوايا الطرق — على مستوى البلاد — التي وقفت في وجه الغزو الفرنسي. لكن بعض مواقفها لم تخل أحيانا من التردد والتذبذب، ممّا قد يوحي بأنّها ليست صادرة عن قناعات ثابتة، وإنّما ناتجة عن معطيات وظروف متحوّلة، وربّما — كذلك — عن اجتهادات فردية ومعزولة، خالية — على ما يبدو — من محاولات التنسيق على مستوى البلاد.

من ذلك أنّ علي بن عيسى — المذكور — قد تأرجح بين أربعة مواقف في يوم واحد، وهو ما تؤكّده البرقيات الصادرة عن روا إلى القنصلية العامّة.

فالأولى — منها — تفيد أنّه في صباح 25 أفريل 1881 قد حرّض الأهالي ضدّ الغزاة الفرنسيين، وحوالي منتصف النّهار أعلن عن استعدادة للخضوع (39). أما البرقية الثانية، فتفيد أنّ الرّجل قد عاد ليعلن الجهاد المقدّس ضدّ العدوان وذلك على السّاعة الواحدة بعد الزّوال من نفس اليوم (40).

وفي المساء، وبعد ما شتّت سيدي قدّور الأهالي — الذين احتشدوا بزوايته — أحبطت عزائمه فجده قبوله بالخضوع (41).

بماذا يمكن أن نفسر مظاهر التردد في مواقف علي بن عيسى؟ هل يعني ذلك أنّه لا ينوي الجهاد، أم ثمة أسباب أخرى حملته على ذلك التصرف؟

إنّ المتّبع للبرقيات المتعدّدة بين روا والقنصلية العامّة، يتبيّن وجود نية الجهاد عند علي بن عيسى، لكنّها بقيت على ما يبدو في مستوى الاضمار، ولم تتحوّل إلى عمل فعلي.

وقد يعود ذلك إلى علاقة التنافس بين زاويتي القادرية والرّحمانية بالكاف

A.G.T., Confrérie des Rahmánya, p. 16 et 17, D 97 - 3. (38)

A.M.A.E.F., Dépêche Télégraphique de Roy au Chargé d'Affaires, le 25/4/1881 à 11 heure 10 mn, C.P. Tunis 57..., f. 452 verso. (39)

Ibid., Dépêche télégraphique du même au même, le 25/4/1881 à 1 heure 20 mn C.P. Tunis 57....., f. 453 (40)

Ibid., Dépêche télégraphique, du même au même, le 25/4/1881 à 7 heure 15 mn du soir, C.P. Tunis 57... , f. 453. (41)

على تزعم المدينة والسيطرة على سكانها (42) والأمر الذي يؤكد ذلك حرص سيدي قدور علي حماية روا (Roy)، في حين يصرّ علي بن عيسى على قتله.

قد يكون علي بن عيسى تراجع عن مواقف التصديّ لأنه يتقن بعد ان فرق سيدي قدور جموع الأهالي بزاويته من استحالة القيام بأيّ عمل نضالي مهما كان حجمه.

وخلاصة القول، أنّ الرّحمانية بالكاف وإن اختلفت مع القادرية بها في المواقف - إزاء الغزو - فإنّ الطريقة الرّحمانية التي كانت وراء العديد من الانتفاضات بالجزائر (43) لم تقم ببادرة نضال في حجم قوتها الاقتصادية والروحية والبشرية التي كانت تتمتع بها في البلاد التونسية في الفترة التي ندرسها.

ج - المقاومة الوطنية لدخول الاستعمار ودور الطرق فيها:

رغم النتيجة التي انتهينا إليها والتي تظهر فيها مواقف بعض مشايخ الطرق الصوفية من دخول الاستعمار الفرنسي إلى البلاد التونسية غير موحدة، فإنه يجدر بنا معرفة مواقف الأهالي من ذلك الاحتلال في مختلف مناطق البلاد وخاصة منها تلك التي فيها نفوذ طرقي هام، حتى نتبين إلى أيّ مدى جاءت تلك المواقف منسجمة أو مخالفة لمواقف المشايخ السالفي الذكر ومحاولة تفسير ذلك. فما هي أهمّ مواطن المقاومة التونسية للاستعمار الفرنسي والعوامل المفسرة لها؟

* في الشّمال:

إنّ الكتيبة الفرنسية التي تسرّبت من الجزائر يوم 24 أفريل 1881 بقيادة الجنرال لوجروا قد تمكّنت من احتلال مدينة الكاف يوم 26 أفريل، وسوق الأربعاء في التّاسع والعشرين منه، وعين دراهم يوم 11 ماي.

في حين كانت مدينة بنزرت قد استسلمت بدون أدنى مقاومة منذ غرة ماي 1881 (44).

MONCHICOURT, op.cit, p. 318 (42)

MERAD, op.cit, p 55 - 56. (43)

(44) المحموي علي، «مقاومة السّكان التونسيين للإحتلال الفرنسي»، المجلة التاريخية المغربية، تونس، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل، السنة 11 العدد 34/33، (جوان 1984)، ص111-124، ص111.

فإلى أي شيء تعود سرعة ذلك الإحتلال حتى أن تلك المناطق قد تمّ الإستيلاء عليها قبل معاهدة باردو؟

هل يُمكن إرجاع ذلك الى الدور التمهيدي الذي قد تكون قامت به بعض الطرق الصوفية المهيمنة على تلك المناطق؟

رغم أن نفوذ زاوية القادرية بالكاف يتجاوز أولاد بوغانم، وشارن، والزغامة، حيث يصل إلى بنزرت (45)، ورغم أن المراقب المدني ببزرت فسّر اعتراضه على ترشّح البشير بن حمّودة اللّزام لمشيخة زاوية البنا — القادرية ببزرت — بولائه لتركيا، وما يمثّله ذلك من خطر على المصالح الفرنسية، لأنّ للطريقة المذكورة أتباع كثيرون بالمراقبة المدنية ببزرت (46) كما سبق أن أوضحنا فإننا لم نعرّ — في حدود الوثائق التي أطلعنا عليها — على ما يثبت أنّ الطريقة القادرية أو غيرها من الطرق المهيمنة على المناطق التي استسلمت بسرعة أو بسهولة قد كانت طرفا في ذلك.

على ان استسلام بنزرت بدون مقاومة قد يعود أساسا الى موقعها الجغرافي المتقدّم ودورها التجاري:

ذلك أن موقعها يجعلها قرية من الغرب ومفتوحة عنه، مقابل بعدها عن المشرق شأنها في ذلك شأن المدن الساحلية في الشمال.

كما أن نشاطها التجاري وما يتطلّب من علاقات واختلاط أدّى إلى امتزاج سكانها بالأوروبيين، الأمر الذي جعلهم أقلّ عداء لهم من غيرهم في داخل البلاد. فلقد وصل الأمر ببعض الأعيان من سكّان تلك المدن — حماية لمصالحهم وامتيازاتهم — إلى الدّخول تحت حماية أولئك الأوروبيين وحتىّ دولهم، ممّا جعل من أولئك الوجهاء الأغنياء حلفاء موضوعيين للقوى الأوروبية ضدّ دولتهم نفسها» (47).

(45) A.G.T., Confrérie mère des Kadna, p. 4, D 97 - 3

(46) أنظر تدخّل السّلط الاستعمارية في تسمية مشايخ الطرق بالفصل الثاني ص 89-93.

(47) CHERIF; "Les réactions Citadines...."; p. 232.

هذا بالإضافة الى «نزعة الحضر الى الخضوع للسلطة الحاكمة...»، [ذلك أنّ الفئات المحظوظة المتمركزة في المدن]...، والمتكوّنة من كبار الفلاحين والصناعيين والتجار...، لا تريد الدّخول في صراع غير متكافئ مع قوآت الاحتلال حتى لا تتعرّض مصالحها وممتلكاتها وأمنها للخطر، كما يعود ذلك الحمول الى خوف الحضر من عمليات النهب التي قد يقوم بها الأعراب خلال القبضي...» (48).

هذا بالنسبة لبعض المناطق التي استسلمت.

أما بالنسبة لأهمّ المناطق التي تصدّى سكانها للاستعمار الفرنسي عند دخوله للبلاد التونسية فيمكن حصرها في:

* الشمال الغربي:

ما أن سمعت قبائل خمير بوصول السّفن الحربية الفرنسية إلى ميناء طبرقة حتى هبّ المتطوّعون من أولاد بُوسعيد والحوامدة وأولاد عمر لمواجهة الأعداء، الذين لم يتمكنوا من الاستيلاء على المدينة إلّا بعد قصفها بالقنابل.

هذا في حين لازمت فروع أخرى من خمير مواقعها لقطع الطريق على القوآت الفرنسية القادمة من «جزائر»، بحيث استبسلت تلك القبائل في المقاومة ساعات عديدة، ولم تنسحب إلّا بعد أن دكّت خسائر فادحة (49).

وينفس الحدة واجهت قبائل مُقعد ومذيل الغزاة الفرنسيين، حيث استولى أبناء مقعد — يوم 28 أبريل 1881 — على «سفينة حربية غرقت في عرض السّاحل التونسي بين رأس سرات وميناء بنزرت، فنهّبوها وأسروا من فيها» (50).

وبذلك لم تتمكّن قوآت الاحتلال من السيطرة نهائيا على الوضع، وحمل تلك القبائل على الخضوع إلّا في شهر جوان (51).

كما اندلعت المقاومة أيضا في جهة جندوبة بمشاركة أولاد بوسالم، والشيّاحية وعمّدون، حيث كان سهل بوسالم مسرحا لمعركة عنيفة يوم 30 أبريل 1881،

(48) المحجوبي، المقال السابق، ص 123.

(49) نفس المرجع، ص 112.

(50) نفس المرجع، ص 113.

(51) نفس المرجع والصفحة.

تواصلت من الثامنة صباحاً إلى السادسة مساءً، وانتهت بتقهقر المقاومين للتفوق التقني للعدوّ ووصول تعزيزات هامة لقوّاته (52).

تلك هي أهمّ الأحداث المتعلقة بالمقاومة في اشمال الغربي، فما هي الانتماءات الطّرقية للقبائل المذكورة التي شاركت في تلك المقاومة، وإلى أيّ حدّ كان العامل الطّرقي وراءها سلباً أو إيجاباً؟

بالرجوع إلى مؤلّفي منشيكور (Monchicourt) وزكّون (Zaccone) يمكن القول بأنّ قبائل خمير كانت تنتمي إلى الطريقة الرّحمانيّة، وتعود بالنظر إلى الحفناوي بن مصطفى ابن عزّوز - شيخ رحمانيّة نقطة - ، وعلي بن عيسى - شيخ رحمانيّة الكاف - (53).

كما أنّ نفوذ أحمد بن عبد الملك - شيخ الرّحمانيّة بقنطرة سليانة - يصل كذلك إلى تلك المنطقة (54).

ومن جهة أخرى، فإنّ أولاد بوسالم ينتمون إلى الطريقة القادرية (55)، في حين تنتمي قبائل عمدون إلى الطريقة الرّحمانيّة (56).

هل يمكن القول بأنّ الطريقة الرّحمانيّة كانت وراء مقاومة قبائل خمير وعمدون؟ يبدو أن الطريقة الرّحمانيّة كانت وراء ذلك خاصة إذا علمنا أنّ علي ابن عيسى، وأحمد بن عبد الملك - صاحبيّ التفوذ الرّوحي في المناطق المذكورة - قد عرفا بعداوتهما لدخول الإستعمار الفرنسي للبلاد التّونسيّة، ممّا يحملنا على القول بأنّ موقف كلّ منهما في منطقته قد يكون أثر على مواقف أتباعه في مناطقهم.

هذا مع العلم أنّ أحمد بن عبد الملك - المذكور - قد كلّف من طرف الباي - بعد نهب السفينة الفرنسيّة لوفارني (L'Auvergne) بالتحوّل والتّفاوض - على عين المكان - حول دفع غرامة (57)، وهو ما يوضّح - فعلاً - نفوذه على قبائل خمير الأمر الذي يساهم في نجاح وساطته.

(52) نفس المرجع والصّحة.

(53) A.M.A.E.F., Le Secrétaire Général du Gouvernement Tunisien au R G, le 12/3/1887.

Protectorat Français en Tunisie, C. 1218 .

MONCHICOURT, op.cit., p. 315. (54)

ZACCONI, op.cit., p. 68 (55)

Ibid, p. 69. (56)

MONCHICOURT, op.cit., p. 315. (57)

كما ساهم — أيضا — في تلك الوساطة الأزهاري بن مصطفى بن عزّوز — شيخ الرّحمانية بنقطة — الذي كُلف من طرف الوزير مصطفى بن اسماعيل بتبليغ أوامره إلى أخيه الحفناوي (ابن مصطفى بن عزّوز) والرّامية «إلى افتكاك المركب الفرنساوي الذي غرق بمقبرة من طبرقة من سكّان جبل خمير...» (58).
إنّ التجاء السّلط الرّسمية الى مشائخ الطّريقة الرّحمانية للتّدخل لدى قبائل خمير يعتبر إقراراً ضمّنيّاً منها بنفوذهم عليها، واعتراضاً — بالتّالي — منها بما يوفّره تدخّلهم من حظوظ لنجاح تلك الوساطة.

ولكن حملتنا مؤشرات نفوذ الرّحمانية في المناطق التي اندلعت فيها المقاومة الوطنية للمستعمر على القول بأنّ تلك الطّريقة تبعاً للمحاولات التي حاول القيام بها بعض مشائخها — كعلي بن عيسى وأحمد بن عبدالمك، أو التي قام بها فعلاً محمد بن ابراهيم بن عبدالمك وشيخ زاوية الرّحمانية بكدية الحلفاء قد تكون وراء ذلك التحرك انسجماً مع ما عرفت به في خطّها العام، فإنّ تحرّك أولاد بوسالم أتباع الطّريقة القادرية قد يفسّر بتجاوزهم لطريقتهم الصّوفية التي إتّضح لهم تواطؤها مع الغزاة عند دخولهم لمدينة الكاف مركز الزّاوية الأم للطّريقة التي يتمون إليها.

فبما يمكن تفسير ذلك التّجاوز؟

إنّ وجود أولاد بوسالم — القادرية — في منطقة قرية من الحدود التّونسية الجزائرية حيث العديد من اللاّجئين الجزائريين الذين يطلق عليهم اسم «الغرابة» والذين كانوا — إلى حدّ ما — وراء الهيجان الذي كان يسود القبائل (59) — قد يكون أجج حماسهم وشعورهم الوطني الغريزي، فاندفعوا مدعّمين بأبنائهم «من الجنود الذين فروا بأسلحتهم من معسكر علي باي في 29 أفريل 1881 — للدّفاع عن مواطنهم اثر احتلال سوق الاربعاء...» (60).

كما أنّ تعلّق القبائل الطّيعي بمسقط الرّأس، ورفضها «للأجنبي»، وإيمانها بواجب اعلان الجهاد ضدّ «الكفار» هو الذي كان وراء رفضها لدخول الاستعمار الفرنسي للآيالة، وهو ما يتّضح أكثر في بقية المناطق.

58) خزينة الوثائق التونسية، رسالة الأزهاري بن مصطفى بن عزّوز الى الويرير الأكبر، بتاريخ 28 أفريل 1925، س. د، ص. 112، مل. 9، أنظر الملحق رقم 7.

59) TIMOUMI, op. cit, p 179

60) المحجوبي، المقال السّابق، ص 112.

* الوسط والوسط الغربي :

عملت قبائل هذه المنطقة على وضع خطة موحدة لمواجهة القوات الفرنسية الداهمة، فانعقد - بين 15 و20 جوان 1881 - اجتماع بجامع القيروان ضمّ ممثلين عن قبائل عدة من ضمنها قبائل الوسط.

وهناك تمّ إتفاق الأطراف الحاضرة على إرسال ثلاثة رسل إلى طرابلس لاستقصاء نوايا الباشا التركي تجاه الإحتلال الفرنسي للبلاد (61).

ويوم 19 أوت 1881 انعقد اجتماع ضخم بسيطة جمع بين عدد كبير من قيّاد ومشائخ، وأعيان قبائل ماجر والفراشيش والهمامة وورتان وأولاد عيّا وجلاص، للتباحث في طرق تنظيم المقاومة (62).

لقد مثلت تلك الاجتماعات المرحلة النظرية لتنظيم المقاومة في الوسط والوسط الغربي والتي تجسّدت في:

- معركة حيدرة: إنّ المقاومين المؤلّفين من ماجر والفراشيش والزغالة، والذين كانوا يعدّون ألفين بين خيالة ومشاة تحت قيادة محمد بن يونس والحاج الحراث قد واجهوا قوات فورجمول في معركة حيدرة التي استمرت كامل مساء 17 أكتوبر 1881.

وقد خلّفت عشرات القتلى من ضمنهم القائد محمد بن يونس، إلى جانب العديد من الجرحى (63).

- معركة الروحية: وقعت يوم 23 أكتوبر 1881، وهي التي أبدى فيها الأهالي مقاومة مدهشة لقوات فورجمول

إذ شارك فيها أولاد مهنّة بقيادة فرحات بن علي بن سيّد، والقوايد بقيادة الحاج علي ابن عبدالله إلى جانب أولاد عيّا، وونيفة، والفراشيش، وجلاص، وورتان، والهمامة والزغالة. لقد خلّقت تلك المعركة خمسة وعشرين قتيلاً وعدد كبيراً من الجرحى (64).

MARTEL, op.cit., t 1 p. 230; même TIMOUMI, op.cit, p 183. (61)

TIMOUMI, op.cit, p 179 (62)

Ibid, p. 185. (63)

Ibid. p. 187 (64)

— معركة كدية الحلفاء: وهي المعركة الثالثة والأخيرة وقد وقعت يوم 25 أكتوبر 1881، حيث قرّر الأهالي أن يستخدموا فيها كل قوّاتهم في وجه قائد الفيلق الفرنسي، ممّا كلّفهم مائة وخمسين قتيلًا (65).

تلك هي أهم مواطن المقاومة ومختلف الأطراف التي ساهمت فيها، فماذا عن طبيعة العوامل والدوافع التي كانت وراءها؟

هل يمكن تفسير المقاومة المذكورة بالعامل الطرقي؟

للإجابة على ذلك لا بدّ من معرفة الانتماء الطرقي لمختلف القبائل التي ساهمت في مقاومة الوسط والوسط الغربي للقوّات الفرنسية الغازية، وتحديد دور زوايا الطرق الصوفيّة في تلك المناطق في كل ذلك.

تشير بعض المعلومات إلى أنّ نفوذ رحمانية الجريد كان يصل إلى ماجر، حيث زاوية سيدي محمد بن عمّار التي تأسّست بجبل سمّامة سنة 1856، وزاوية سيدي عمر السّمّاتي بسبيبة، وزاوية سيدي أحمد الزّاير بكدية الحلفاء والتي تأسّست سنة 1847 (66).

أما في الفراشيش فتوجد زوايا ابن عزّوز بكلّ من الفصيرين وتالة (67). وفيما يتعلّق بالطريقة القادرية فقد كان لها ثلاثة زوايا في ماجر وأربعة في الفراشيش (68).

وفي الجملة فإنّ التوزيع الطرقي لقبائل الوسط والوسط الغربي - آنذاك - كان كما يلي:

Ibid., p. 189. (65)

A.G.T, Confrérie des Rahmánya, p. 16, D 97 - 3 (66)

Ibid., p. 17. (67)

Ibid, Confrérie mère des Kadra, p. 8, D 97 - 3. (68)

إسم القبيلة التي ساهمت في المقاومة	الطرق الصوفية التي تنتمي إليها
ماجر	القادرية، التيجانية، والرحمانية(69)
الفراشيش	أغلبهم رحمانية (70)
أولاد مَهَّنة	
الفراييد	
ونيفة	
أولاد - «القبالة» عيّار - «الظاهرة» جلاص	قادرية + رحمانية (71) كلهم تقريبا رحمانية الرحمانية والقادرية (72)
ورثان	القادرية والرحمانية (73)
الهمامة	جزء هام منهم قادرية (74)
الزغالة	القادرية والرحمانية (75)

ZACCONE, *op.cit.*, p. 131. (69)

Ibid., p. 129. (70)

Ibid., p. 172; de même MONCHICOURT, *op.cit.*, p. 313. (71)

ZACCONE, *op.cit.*, p. 132. (72)

Ibid., p. 64. (73)

Ibid., p. 138. (74)

Ibid., p. 53. (75)

يوضح هذا الجدول هيمنة الطريقتين القادرية والرحمانية على قبائل الوسط والوسط الغربي، في حين تبدو الطريقة الرحمانية أكثر تمثيلاً من غيرها. لكن هل كانت هاتين الطريقتين أو إحداهما وراء مقاومة تلك القبائل لدخول الإستعمار الفرنسي للبلاد؟

فإن كان الأمر كذلك ففي أي شيء تمثل ذلك الدور، وهل يتناسب هذا الأخير مع ما تتمتع به من حضور مكثف هناك؟

إن المتأمل في دور الطرق الصوفية في مقاومة قبائل الوسط والوسط الغربي لدخول الإستعمار لا يلاحظ التناقض — في المواقف — بين طريقة وأخرى فحسب، بل يتبين قمة ذلك التناقض داخل الطريقة الواحدة.

وهذا أمر يجعل من الصعب تحديد المواقف تبعاً للطريقة، في حين يكون الأمر سهلاً حسب الزاوية التي كثيراً ما تكون مواقفها غير منسجمة ليس مع زاوية الطريقة الأم التي تنتمي إليها فحسب — بل وحتى مع زوايا أخرى قريبة منها جغرافياً وتعود معها إلى نفس الطريقة.

من ذلك أنه في الوقت الذي اعتبر فيه الحاج صالح العسيلي (ت. 1916) — مقدم سيدي فدور على الزاوية القادرية بالفراشيش — وراء المقاومة التي تصدّت للغزو الفرنسي، حيث نُسبت إليه شرارة اندلاع معركة حيدرة (76)، فإن محمد صالح بن الحاج الشافعي (ت. 1910) مؤسس وشيخ زاوية عين المنشية الرحمانية — بين حيدرة وتالة، والتي تعود بالنظر إلى زاوية الرحمانية بالكاف — كان قد رفض — سنة 1881 — الانضمام إلى المناهضين للإستعمار الفرنسي والمقاومين له، حيث فرّ صعبة عائلته والتجأ إلى جبل سمّامة.

ومكافأة له، عيّن — سنة 1886 — فايد أولاد ناجي، ثم فايد كل الفراشيش سنة 1896 نظراً «لماضيّه» (77) !.

وفي نفس الوقت الذي لم تشارك فيه زاوية سيدي عمر السمّاتي — الرحمانية — بسببية في المقاومة (78) فإن شيخ زاوية نفس الطريقة بكدية الحلفاء — معمر الزاير — قد وقف في وجه فيلق فورجمول ضمن الذين تصدّوا له في معركة كدية الحلفاء شمال جبل مغيلة.

A.G.T., Confrérie mère des Kadria, p. 8, D 97 - 3. (76)

MONCHICOURT, op.cit., p. 317 (77)

A.G.T., Confrérie des Rahmánya, p. 16, D 97 - 3 (78)

كما أنّ بعض مشائخ الطرق كالحفناوي بن مصطفى بن عزّوز - مقدّم زاوية الرّحمانية بنقطة - ومحمد صالح بن الحاج الشّافعي - مقدّم زاوية الرّحمانية بعين منشية - ، كانوا يمدّون السّلطات العسكرية الفرنسية - عن طواعيّة - بكلّ الأخبار التي تروج بين النّاس ، حسب ما ورد في تقرير بتاريخ 20 سبتمبر 1884 (79).

فواضح من هذه النّماذج عدم الإنسجام في المواقف بين طريقة وأخرى في نفس المنطقة ، وبين الزّوايا التابعة لنفس الطّريقة ، بل وحتى بين شيخ الطّريقة وأتباعه .

وهو ما يجعل العامل الطّرفي - في المقاومة - ليس المحدّد والنّهائي إذ كثيراً ما يقع تجاوزه .

من ذلك أنّ محمد صالح بن الحاج الشّافعي - السّابق الذكر - لم يكن له نفس الموقف الذي كان لأتباعه من الاستعمار ، حيث انضمّوا للمقاومة في حين رفض هو ذلك ، مما اضطرّه الى الفرار والاعتصام بجبل سمّامة .

بل أنّ تالة أين توجد زاوية ابن عزّوز الرّحمانية - قد هادنت قوّات فورجمول سنة 1881 في الوقت الذي كانت فيه هذه الأخيرة تُبىد المقاومين من ماجر والفراشيش والزّغالة في معركة حيدرة .

فما كان من المقاومين من أولاد ناجي - وهم جزء من الفراشيش ينتمون - شأنهم شأن سكّان تالة - إلى الطّريقة الرّحمانية (80) - إلّا أنّ أغاروا عليها - بعد معركة حيدرة - ونهبوها «وسلبوها بعنف ، فلقيت بذلك نفس المصير الذي لقيه القيّاد الذين خانوا المقاومة» (81) .

ومما يدلّ على أنّ ما لحق بتالة كان بسبب سليبتها في المقاومة ، أنّ التّخريب كان أشدّ بالنّسبة للقيّاد الذين رفضوا المشاركة في المقاومة ، كعلي الصّغير الذي أبدى تعجّلاً في الخضوع لقوّات فورجمول (82) .

كلّ ذلك يدلّ على أنّ الموقف من المقاومة هو المحدّد لطبيعة العلاقات بين الأطراف المتواجدة وليس دائماً العامل الطّرفي أو المعطى القبلي .

هذا مع العلم أنّ تالة - زمن الشيخ مبارك شيخ زاويتها الرّحمانية - قد

TIMOUMI, op.cit., p. 209. (79)

ZACCONE, op.cit., p. 128 - 129. (80)

TIMOUMI, op.cit., p. 187. (81)

Ibid. (82)

ساندت سنة 1864 — ثورة علي بن غزايم (83).
لكنّها إلى جانب فريانة — التي كانت تعدّ عند دخول الإستعمار الفرنسي
البلاد — 600 نسمة ينتمون إلى الطريقة الرّحمانيّة (84)، لم تشارك في المعارك
ضدّ قوآت فورجمول (85)، كما بادرت تالة إلى استنكار ثورة 1906 والثبرّ من
القائمين بها (86).

كل هذه الدلائل تشير إلى أن المُنْعَى الطرقي - وإن انسجم أحيانا مع
المقاومة- لم يكن العامل المفسّر لاندلاعها، وهو أمر قد يفسّر بطبيعة علاقة قبائل
الوسط والوسط الغربي ببعض الطرق الصّوفيّة التي ينتمون إليها، ومدى نفوذ هذه
الأخيرة عليهم.

فما الذي إذاً دفع القبائل المذكورة إلى التحرك إذا لم تكن الطرق التي ينتمون
إليها وراء ذلك؟

هل يمكن القول بأن العامل القبلي هو الذي كان وراء تنظيم القبائل
للمقاومة؟

إنّ المتبيح لسير الأحداث بمنطقة الوسط والوسط الغربي، يلاحظ أنّ القبائل
المشار إليها قد تجاوزت — أثناء المقاومة — الحيز الجغرافي الخاص بكلّ واحدة منها،
الأمر الذي جعلها تلتحم وتتحد في وجه العدو المشترك — عدو البلاد — ،
متناسية أو على الأقلّ مؤجلة خصوماتها وصراعاتها الداخليّة التقليديّة، للتفرّغ لما
هو أخطر وأهمّ.

وتما يدلّ على ذلك التّجاوز، ويؤكد التّحامها انصهار قوآت العديد منها مع
بعضها البعض في معارك دارت خارج فضاء العديد منها.

من ذلك تحوّل 3000 من خيالة الهامة للقتال بجهة زغوان بين 19
أوت و20 أكتوبر 1881 (87).

MONCHICOURT, *op.cit.*, p. 318. (83)

ZACCONE, *op.cit.*, p. 200. (84)

TIMOUMI, *op.cit.*, p. 211. (85)

Ibid., p. 187 et 347. (86)

Ibid., p. 183. (87)

كما أنّ علي بن عمّار قائد المقاومة في أولاد عيّار لم يلبث أن التحق بالمقاومة في الوسط الغربي لما طلب منه حميدة بن يونس نجدة في معركة كدية الحلفاء وذلك رغم أنّه كان منشغلاً بمعارك تستور ضدّ الفرنسيين (88).

كما وصل الأمر بالحاضرين في ميعاد يوم 6 جوان 1881 بزاوية سيدي حسين بلحاج - بين صفاقس والجلم - إلى حدّ اقتراح إرسال 3000 من الخيالة لتحرير قبائل خمير من الفرنسيين (89).

فما الذي جعل القبائل تتجاوز، وتعمل على تنظيم المقاومة - رغم إمكانياتها المحدودة بالنسبة للعدو - إن لم يكن العامل الطرقي ولا القبلي وراء ذلك؟

إنّ ذلك قد يُفسّر بشعور تلك القبائل بضرورة الجهاد، وواجب الدفاع ليس عن القبيلة أو «العرش» في فضاء محدود، وفي إطار جغرافي معيّن، بل في مجال أوسع وأرحب وأشمل من ذلك، وهو مجال «البلاد» الذي يعني كامل تراب الولاية (90) أرض الأجداد التي تحوي المقابر والمواشي (91) وكل ما يذكّرهم بالماضي الحريصين على التعلّق به.

ذلك أنّ التعلّق بأرض الأجداد مسقط رأس قبائل الوسط والوسط الغربي، وقلة اختلاطها بالأوربيين وتأثيرها بهم (92)، بالإضافة إلى تعود تلك القبائل على الحياة الحرة بعيداً عن السيطرة والتحكّم فيها مع ما يتبع ذلك من تمرد وعصيان حتّى على دفع الضرائب كالهامة مثلاً (93) وهو ما سينتهي بدخول الاستعمار، جعل لتلك القبائل نفور من «الأجنبي»، وتمييز واضح بينه وبين «الأهالي».

كما أنّ تلك القبائل رأت في دخول الاستعمار الفرنسي للولاية غزوا «نصرانيا»، وانتهاكاً لأرض الاسلام من طرف الكفار الذين لابدّ من إعلان

Ibid., p. 189 (88)

AYADI (T.), "La résistance sfaxienne à l'occupation coloniale en 1881", Réaction à l'occupation Française de la Tunisie en 1881..., pp. 161 - 194, p. 167. (89)

TIMOUMI, op.cit., p. 213. (90)

Ibid. (91)

CHERIF, "Les reactions...", p. 231. (92)

ZACCONE, op.cit., p. 140. (93)

الجهاد للتصديّ إليهم والوقوف في وجههم بالتنسيق مع الدولة العثمانية التي أرسلت القبائل المجتمعة في القيروان ثلاثة رسل لممثلها بطرابلس الغرب لمعرفة موقفه من التدخل الفرنسي في تونس.

كلّ ذلك يوضّح أنّ أغلب تلك القبائل لا تزال — حتّى نهاية القرن التاسع عشر — تعتبر نفسها جزءاً مُغايراً «للغرب المسيحي»، ومرتبطة بالخلافة العثمانية رمز تكتّل المسلمين واتّحادهم في وجه الهجمات الأوربية النصرانية.

وبذلك يمكن القول بأنّ مقاومة القبائل السّالفة الذّكر للإستعمار الفرنسي عند دخوله الأيالة تعود إلى شعور وطني فطري، شكّل بداية «وعي قومي - لازال جنيئاً — ظهر نتيجة ردّ الفعل ضدّ الإستعمار، وتحت تأثيره...» (94).

خلاصة القول، أن قبائل الوسط والوسط الغربي كانت مدفوعة — بالدرجة الأولى في مقاومتها للغزو الفرنسي للأيالة — بدافع شعور غريزي قوامه جعل مصلحة «البلاد» فوق كل اعتبار، وفي صدارة اهتماماتها.

وهي مصلحة تجاوزت من أجلها القبائل ليس مشائخ بعض طرقها الصوفيّة المتواطئة، أو خصوماتها وتشبّتها فقط، بل تجاوزت وتناست من أجلها حتى ظلم بعض قيادها الذين طالما شكتهم إلى السّلطات العليا في البلاد (95).

فهؤلاء رغم «ماضيهم الأسود» (96)، لم تر القبائل بُدأً من اتّباعهم، والانصياع إليهم، عندما تزعموا المقاومة، لا لشيء إلاّ لأنّ شعار الجهاد الذي رفعه أولئك القياد يستجيب لإرادة الجميع ويعبّر عن طموحاتهم، وهو شعار طغى على التناقضات التي كانت قائمة بين الأهالي ومضطهديهم القدامى (97).

كل ذلك يوحي بأنّ تلك القبائل قد تصبر على اضطهاد بني جلدتها من قياد وغيرهم، لكنّها لا تقبل إطلاقاً الصّبر على التّدلّ الأجنبي.

(94) TIMOUMI, op.cit., p. 213. حول الدّاتيّة التّونسية والشّعور الوطني أنظر. DEMEERSEMAN (A.); "Formulation de l'idée de Patrie en Tunisie de 1837 à 1872, interprétation psychologique", Revue de l'Institut des Belles Lettres Arabes (I.B.L.A.), Tunis; I.B.L.A., 29^e Année; n° 114 - 115; 2^e/3^e Trimestre; 1966; pp. 109 - 142.

TIMOUMI; op.cit., p. 205. (95)

Ibid. (96)

Ibid. (97)

ولأنّها إن تغفر لأولئك استغلالهم لها، واستبدادهم بها، فلأنّها إن تغفر لهم
تفريطهم في البلاد التي يتطلّب الدّود عنها وحدة الجميع، بتجاوز الحزازات وحتى
مشاعر الإنتماء الطرقي أو الولاء القبلي.

كما لا بدّ من الإشارة إلى أنّه رغم أنّ المعطيات الميدانيّة — التي أوضحناها —
للمقاومة في الوسط الغربي تبرز غياب العامل الطرقي فيها إلا نادراً، فإنّ الأرقام
الرّسمية لعدد أتباع الطرق جعلت تلك المنطقة أهمّ جهة بالبلاد من حيث كثرة
الأتباع.

لقد أظهرت تلك الأرقام مراقبة تالة كأكبر منطقة بالايالة تحتوي على حوالي
40٪ من أتباع الطّريقة القادرية، و50٪ من أتباع الطّريقة الرّحمانية بكامل الايالة،
في حين نجد بها ثلث العدد الجملي للأتباع على مستوى البلاد كما سبق أن
أوضحنا.

إنّ هذه المبالغة في الأرقام تفسّر بتعمّد الأوساط الإستعمارية تضخيمها لتحميل
الطرق الصّوفيّة مسؤولية الأحداث التي جدّت بالمنطقة وخاصّة ثورة الفراشيش
— بمراقبة تالة — سنة 1906، لتؤكد — تبعاً لمنطقها الاستعماري — أنّ الطرق هي
المصدر الحقيقي لكلّ خطر حدث أو يحدث في الايالة.

ومّا يثبت تضخيم عدد أتباع الطرق الصّوفيّة بمراقبة تالة عدم انسجامه مع
عدد سكانها كما أوضحنا سابقاً.

* صفاقس:

واجهت صفاقس الدّخول الاستعماري بشدّة وضراوة (98) رغم التفوّق اليّن
للعُدوّ في العُدّة والسّلاح.

فإلى أيّ مدى كان العامل الطرقي حاضراً — سلبيّاً أو إيجابياً ، في تلك
المقاومة؟

تعتبر صفاقس — باستثناء الطريقتين العيساوية والمدنية — من أقلّ جهات
السّواحل من حيث عدد أتباع الطرق للعوامل السّابقة التي سبقت الإشارة إليها.

(98) حول مقاومة صفاقس لدخول الاستعمار الفرنسي، أنظر : AYADI, "La résistance Sfaxienne...";
de même CHERIF, "Les réactions Citadines...", p. 234 et 235.

كما تشير بعض المعطيات الطرقية إلى أن بعض أتباع الطريقة الرحمانية في صفاقس كانوا ينتمون إلى عائلات غنية كعائلة النوري والشعوبي والشرقي (99) والزريبي والكراي (100)، في حين ينتمي أتباع الطريقة القادرية بها إلى «كل الطبقات من أغنياء وأعيان وشحاذين» (101).

أما الطريقة المدنية فلها زاوية في صفاقس أسسها محمد ظافر المدني - صاحب الخُصوة لدى السلطان العثماني عبد الحميد - وهي زاوية الشيخ أبي عبدالله التي كان محمد ابن عبدالله - ابن أخت محمد ظافر السابق الذكر - شيخا عليها أثناء الاحتلال الفرنسي للبلاد.

من خلال هذا، نتبين أن الطريقة المدنية المدعومة خارجيا بتأييد السلطان العثماني لها، ويقربها - جغرافيا - من زاويتها الأم بطرابلس الغرب، وداخليا - في صفاقس - بوجود ابن أخت محمد ظافر - المقرب من السلطان - شيخا على زاويتها بها هي الطريقة المهية أكثر من غيرها لتنظيم المقاومة في صفاقس التي هناك عدة دلائل تشير إلى تعلق سكانها بالخلافة العثمانية، وهو شعور كان بإمكانها استغلاله وتوظيفه.

فهل قامت تلك الطريقة - في صفاقس - بما كان متظرا منها أن تقوم به؟ رغم عدم عثورنا - في حدود الوثائق التي اطلعنا عليها - على ما يؤكد تحرك هذه الطريقة ضد الاحتلال الفرنسي لمدينة صفاقس، أو سلبيتها تجاهه، فإنه يمكننا القول بأن سلط الاحتلال كانت واعية بخطورة تلك الطريقة نظرا للدور الذي قد تقوم به في المدينة المذكورة.

وتلافيا منها لذلك - واحتواء لها - راهنت تلك السلط على المسماة عائشة أخت الشيخ محمد ظافر المدني - السابق الذكر - وأم شيخ زاوية المدينة بمدينة صفاقس، بأن منحتها مبلغ 15.000 فرنك بعنوان جبر الأضرار التي لحقت منزلها

99) تشير بعض المصادر أن نفس هذه العائلة (الشرقي) تنتمي إلى الطريقة القادرية، أنظر: A.M.A.E.F., La sous - direction des protectorats au Ministre des Affaires Etrangères, Tunis, le 22/8/1887, N.S.127, Culte musulman, Sectes religieuses, Panislamisme, 1886 - 1891

Ibid., Le Vice - Consul de France à Sfax au R.G, le 14/8/1888, protectorat Tunis 1er (100) Versement..

Ibid., La Sous- direction des Protectorats au Ministre des Affaires Etrangères, Tunis, le 22/8/1887, N.S. 127...

أثناء قصف القوات الفرنسية للمدينة سنة 1881 (102). كل ذلك تبعاً «للإعتبارات السياسية التي قدّرت كسب تلك العائلة لما لأخيها (عائشة) من علاقة مع السلّطات [العثمانية]، وما قد يقوم به من تسهيل استقرار فرنسا بتونس...» (103)، خاصة وأنّ عائشة المذكورة كانت وعدت — بعد تسلّمها ذلك المبلغ — «بتسخير كل جهودها ونفوذ عائلتها في خدمة فرنسا» (104) على حدّ قول المصادر الفرنسية.

ولم تقف إنعامات سلط الاحتلال على تلك العائلة عند ذلك الحدّ بل وصلت سنة 1883 إلى إعفاء محمد بن عبدالله — ابن عائشة المذكورة وشيخ زاوية المدينة بمدينة صفاقس — من الضريبة الحربية التي فرضت على المدينة بعد استسلامها (105).

وهو مبلغ قدّر — بالنسبة لابن عائشة — المذكور — بـ 8.000 فرنك، ممّا يجعل تلك العائلة قد نالت — إجمالياً — مبلغ 23.000 فرنك.

لكن رغم ذلك ظلّ محمد بن عبدالله يطلب بقية قدرها 7.500 فرنك، ووصل به الأمر إلى الاحتجاج لدى خاله بالقسطنطينية عن طريق سفارة فرنسا هناك.

لكنّه لم يحصل على شيء، لأنّ «الاعتبارات التي كانت قائمة في ستي 1882 و 1883 - والتي حتمت على الحكومة الفرنسية معاملة عائشة وابنها بامتياز خاص - لم تعد موجودة...» (106) لتبدّل الظروف على حدّ قول الأوساط القريبة من الإقامة العامة في تونس.

إنّ هذه الإشارات فضلاً على أنّها توضّح بجلاء كيفية تعامل سلط الاحتلال مع طريقة صوفية، واحتوائها لها ببعض الإمتيازات في الوقت المناسب، تحملنا على القول بأنّ الطريقة المدنية لم يكن لها دور في مقاومة صفاقس للإحتلال الفرنسي.

إذ لولا مهادنتها وسليبتها لما نالت تلك الانعامات والإمتيازات في وقت لم

(102) A.G.T., Note émanante de Tunis, le 17/7/1882, D 158 - 5

(103) Ibid., le R.G. à Tunis au Ministre des Affaires Etrangères à Paris, (en 1911), D 158 - 5.

(104) Ibid., Note émanante de Tunis, le 17/7/1882, D 158 - 5.

(105) حول الضريبة الحربية التي فرضت على صفاقس بعد استسلامها أنظر: AYADI "La résistance Sfaxienne...", pp. 182 - 184.

(106) A.G.T., Le Délégué à la Résidence Générale à l'Ambassadeur de France à Constantinople (sans date), D 158 - 5.

تدرس فيه المطالب التي قدمها التونسيون — من سكان صفاقس — للجنة المكونة من ممثلي المصالح الفرنسية والإنجليزية والإيطالية، والتي كانت ستتولى — آنذاك — تقييم الأضرار الناجمة عن دك السفن الحربية للمدينة (107).

كما أنه في الوقت الذي يتحمل فيه الصفاقسيون وحدهم مسؤولية تخريب المدينة وبالتالي دفع ضريبة قدرت بعشرة ملايين فرنك ثم خفضت إلى ستة ملايين فرنك، مما أدى إلى إفلاس العديد منهم ومصادرة أملاكهم (108) نالت فيه عائشة وابنها ما قدره 23.000 فرنك.

إن حصول عائشة وابنها على تلك الإمتيازات الخصوصية دليل على أنه لم يصدر عنهما شيء من شأنه أن يعرقل الاستيلاء الفرنسي على المدينة، وأن تحقيق ذلك الاستيلاء يتطلب الإغداق على تلك العائلة لمزيد كسب سكوتها وبالتالي توظيفها.

هل يمكن القول بأن هناك طرق أخرى كانت وراء المقاومة في صفاقس أو على الأقل ضمن الفئات الشعبية التي ساهمت فيها أو حتى المؤيدة لها؟ رغم أننا لم نعر — ضمن الوثائق التي اطلعنا عليها — على ما يفند ذلك أو يؤيده فإنه يمكن القول بأن المقاومين في صفاقس كانوا مشجعين معنويا من قبل الدعاة العثمانيين الذين أرسلوا إلى طرابلس الغرب، حيث أن مبعوث السلطان إلى هناك — الشيخ حمزة ظافر — كان مكلفا بمتابعة المسألة التونسية الفرنسية عن كثب (109). لكن رغم ذلك لا يمكن إرجاع ذلك الحماس، وتلك المقاومة المستميتة من طرف الصفاقسيين للاستعمار إلى ولائهم للطريقة المدنية الممثلة في مدينتهم في محمد بن عبدالله شيخ زاوية المدنية بصفاقس وأمه أخت محمد ظافر رغم أنها طريقة لها أتباع كثيرون في طرابلس الغرب، وإنما يعزى ذلك إلى ولائهم للخلافة العثمانية.

وهو ولاء تجسد في العلم الأخضر للسلطان الذي حل محل علم الباي — لمدة أيام — فوق التحصينات الأساسية لمدينة صفاقس (110). كما أن رواج شائعات مفادها أن الدولة العثمانية ستتدخل لطرد فرنسا من

AYADI, "La résistance Sfaxienne ." p 182. (107)

Ibid , p. 183 et 184. (108)

Ibid., p. 172. (109)

Ibid , p. 180. (110)

البلاد التونسية قد زاد في توتر الوضع في صفاقس (111).

إذ أنها ساهمت في رفع معنويات المقاومين ودعّمت فيهم الشعور بالانتماء إلى أمة إسلامية واحدة على أبنائها أن يتوحدوا ويتكتلوا لمواجهة الأطماع الأجنبية النصرانية التي تهدّد الجميع.

ومما يؤكّد - كذلك - أهمية الولاء للدولة العثمانية في المقاومة الوطنية بصفاقس لجوء بعض رموز المقاومة إلى القسطنطينية بعد سقوط المدينة، كالحاج محمد الشّرفي (112)، وكذلك محمد الشّريف - قائد مدفعية صفاقس - الذي بعد إقامة قصيرة بطرابلس إنتقل إلى القسطنطينية أين استقبل بكل إعزاز وتشريف، وشغل خطة عقيد في الجيش العثماني (113).

ومما يفسّر رفض صفاقس أوقابس التّعبية للباي وإعلانهما التعلّق بالسّلطان العثماني أنّ كلاّ منهما كانت - قبل سنة 1881 - أقلّ تغلغل من طرف الأوروبيين - عكس مدن الشّمال والسّاحل - ، وبالتالي تربطهما بالشرق العربي الإسلامي علاقات نشيطة (114).

فهذه العلاقات البعيدة عن الغرب، والمفتوحة على المشرق جعلت هاتين المدينتين وجنوب الايالة أكثر اتّصال ببقية البلدان الإسلامية عن طريق الحجيج وطلبة العلم والتّجار خاصّة.

وهو ما دعّم في السكّان التعلّق بالخلافة العثمانية وخليفتها حامي حمى المسلمين، والحريص على توحيدهم في وجه الأطماع الأوربية بواسطة الجامعة الإسلامية التي دعا إليها السّلطان العثماني عبدالحميد الثّاني.

كلّ هذا يوضّح العوامل الأساسية والتي كانت محدّدة في مقاومة صفاقس وقابس لدخول الاستعمار الفرنسي، ويبرهن - بالتّالي - عن غياب العامل الطرقي وتأثيره فيها.

(111) المحجوبي، المقال السابق، ص 115.

(112) A.M.G., Le Général St Marc au Ministre de la guerre, le 25/11/1889, 2H25 - 4, f. 853 verso; de même A.M.A.E.F., La sous-direction des Protectorats au Ministre des Affaires

Etrangères à Paris, Tunis, le 22/8/1887, N.S. 127....., f. 45.

AYADI, "la résistance sfaxienne..." p. 186. (113)

Ibid, p. 187; de même CHERIF, "Les réactions..." p. 234. (114)

* الجنوب:

يعتبر الجنوب من المناطق التي لم تواجه دخول الاستعمار الفرنسي فحسب، وإنما الجهة التي ظلت غير مستقرة، ومسرحا لحركات التمرد، مما فرض على السلط الإستعمارية جعلها تحت المراقبة العسكرية (115).

فما هو وزن الطرق الصوفية به؟

وما هو مدى نفوذها على سكانه؟

وهل كان لها دور في المقاومة فيه سنة 1881؟

من حيث الطرق المهيمنة في الجنوب نجد زاوية سيدي محمد بن ابراهيم القادرية بنفطة، والتي كانت تعتبر سنة 1896 أهم مؤسسة دينية بالجريد والجنوب التونسي تمتد نفوذها إلى سوف، وقريبا من غدامس والنمامشة وتبسة (116).

في حين كان عدد أتباع التيجانية بالجريد - سنة 1896 يقدر بحوالي 400 (117). أما الطريقة السلامية، فيبدو أن نفوذها يزداد تدريجيا كلما اقتربنا من الجنوب (118)، في حين تبقى المعلومات المتعلقة بتواجد الطريقة السنوسية - هناك - متضاربة ومتناقضة.

فمن دوفيري (Duveyrier) المضخم والمهول لعدد أتباع هذه الطريقة بالجنوب التونسي وخطرها على الاستعمار الفرنسي (119)، حتى أنه ذهب إلى أن الدعاية السنوسية جلبت إليها قبائل ورغمة أين توجد سبعة زوايا (120)، إلى قائل بعدم

(115) أنظر تعريف «التراب العسكري» في حديثنا عن أسباب مهادنة بعض الطرق للوجود الاستعماري في هذا الفصل، ص 170، هامش 216.

(116) A.G.T., Confrérie mère des Kadria, p. 5, D 97 - 3

(117) Ibid., Congrégation des Tidjania, p. 8, D 97 - 3.

(118) Ibid., Le C.C. de Bizerte au R.G., le 20/4/1896, D 97 - 3.

(119) في الصفحة الأولى من كتابه نجد مكتوبا «الترك والنصارى الكلّ في زمرة نقطعهم في مرة» وقد ذهب إلى أن سيدي محمد المهدي شيخ السنوسية كان يرددها، أنظر:

DUVEYRIER (H.), La Confrérie Musulmane de Sidi Med. ben Ali Es-senoussi et son domaine géographique en l'année 1300 de l'hégire 1883 de notre ère, Paris, Imp. Réunies; 1884.

(120) A.M.A.E.F, La Direction politique au Ministre des Affaires Etrangères à Paris, Tunisie, N.S. 128, Cultes musulmans; Sectes religieuses, Panislamisme, vol. II, Août 1891 - Octobre 1897, f. 43 verso.

صحة تلك المعلومات، إذ «أثبتت الدراسات الميدانية أنه لا وجود لاتباع أو زوايا سنوسية في ورغمة أو مدينين والدويرات» (121).

أما المراقب المدني بتوزر فقد ذكر أنه لا وجود بصفة ظاهرة إلا لزوايا سنوسية بالوذيان تسمى «زاوية العرب»، في حين أن للطريقة أتباع قدرهم بحوالي مائة، من ضمنهم سي العبيدي فايد نقطة (122).

وبقطع النظر عن مدى صحة المعلومات المتعلقة بالتواجد الطرقي بالجنوب – والمتأتية من اهتمام السلط الاستعمارية بهذه الجهة – فلأنه يمكن القول بأن الجنوب لم يكن يخلو من نفوذ الطرق لقربه – جغرافيا – من المناطق التي بها الزوايا الأم لبعض الطرق كالتيجانية (تماسين وعين مهدي)، والسنوسية (جغسوب)، والسلامية (زليطن في طرابلس الغرب)، والمدينة (مسراطة في طرابلس الغرب).

هذا بالنسبة للطرق التي لها أتباع بالجنوب، أما عن مواقفها من دخول الاستعمار الفرنسي إليه سنة 1881 فيمكننا التذكير بالدور الذي قام به ابن جدو بن الحاج أحمد – شيخ الشابية في توزر – والذي أعاد المذعورين من دخول الفرنسيين إلى المدينة، ومكافأة له على ذلك عين – فايد بيت الشريعة.

أما مقدم الرحمانية بمدين فكان يمد السلطات الاستعمارية في تونس – عن طريق أتباعه في طرابلس – بمعلومات تتعلق بتحركات الإيطاليين هناك (123)، في حين أن الحفناوي بن عبدالحفيظ – شيخ رحمانية تمغزة – كان يبدو مؤيدا أكثر منه مناهضا للإحتلال الفرنسي (124) على حد قول السلطات الاستعمارية نفسها.

ذلك أن مشائخ رحمانية الجريد «لم يكونوا أبدا مناهضين للنفوذ الفرنسي» على حد قول بعض المسؤولين العسكريين الفرنسيين بالجنوب (125).

Ibid. (121)

Ibid., Le C C de Bizerte au R G , Le 10/7/1888, Protectorat Tunisie, 1er versement, (122 C. 1218 .

A.M.A.E.F., Le Général st Marc au R G , Le 9/4/1888, Protectorat Tunisie, 1er (123 versement, C 1218. .

A.M.A.E.F., D'Estoumelles au Minsitre des Affaires Etrangères, Confidentielle, Paris le (124 22/6/1883, Tunisie, C P 1871 - 1896, vol 74, Mai - Juin 1883, f. 497

Ibid , Le Général de brigade au R.G., Le 9/4/1888, Protectorat Tunisie, 1er versement, (125 C. 1218.

كما أنّ محمد بن إبراهيم الكبير - شيخ زاوية القادرية بنقطة - كانت له علاقات وطيدة مع السلّط الفرنسية خلافاً لأبيه إبراهيم بن أحمد (ت. 1878) الذي اتّضحت عداوته للإستعمار الفرنسي بالجزائر (126).

أمّا الطريقة التيجانية بالجنوب - فقد كانت لها في تونس - على حدّ قول بول كمبون - نفس موقف الولاء والتأييد الذي كان لها بالجزائر (127).

ذلك أنّها ما أن اكتشف أن الحاج أحمد - أحد مقدّميه بالجنوب - كان في أوت 1882 بصدد الإعداد لعدوان ضدّ فرنسا حتى بادر شيخ مشائخها بالجزائر إلى إقالته في مارس 1883 بعد أن أرسل مبعوثاً خاصاً إلى تونس (128).

كما أنّ وصول الشيخ سيدي محمد الصّغير من تماسين إلى تونس في جويلية 1885 قد يكون في إطار طمأنة المقيم العام وإقناعه بولاء الطريقة التيجانية، وهو ما حمل بول كمبون - آنذاك - على القول بأنّ التيجانية - بالنسبة لفرنسا - أداة من الطراز الأول «للصّمود في وجه دعاية الجامعة الإسلامية، لأنّ أتباعها هم الأعداء الطبيعيين للطريقة السنوسية» (129)!

وفي مقابل هذه المواقف تبرز الطّريقة السنوسية بمناهضتها للأوروبيين، وسعيها إلى تحريض المسلمين على التّوحدّ وإعلان الجهاد المقدّس للوقوف في وجه المستعمرين (130).

فهل يمكن القول بأنها كانت وراء المقاومة في الجنوب؟

رغم أنّ الوثائق التي اطّلعنا عليها لا تجيب على ذلك فإنّه يمكن القول بأنها بمناهضتها للإستعمار، وبقرّنها من الحدود الجنوبية للآيالة قد تكون مارست نفوذاً معنوياً على المقاومين من الخارج نظراً للتّضيقات التي فرضت عليها في الدّاخل كما سبق أن أوضحنا.

وفي نفس السّياق اعتبرت السلّط الإستعمارية القاضي عبدالعزيز بن يحيى

(126) Ibid, Le Général de brigade au R.G., Le 9/4/1888, Protectorat Tunisie, 1er versement, C 1218.

(127) GREEN (A.H.), "French" Islamic policy" in Tunisia, 1881 - 1918, a préliminary inquiry", Revue d'Histoire Maghrébine, Tunisie; Imp. de L'U.G.T.T; n° 3, Janvier 1975, pp. 5 - 17, p. 5

Ibid., p. 8. (128)

Ibid. (129)

(130) ANDRÉ, op.cit., p 72, de même MAHJOUBI, Les Origines., p. 147.

والباش مفتي علي الحبيب - أحد اللذين كانوا وراء تنظيم المقاومة في قابس فيما بين 1881-1883 - نائين جهوين الأول للطريقة الرحمانية والثاني للطريقة القادرية (131) إلا أن اعتبارها ذاك قد يجد مبرراً له في ما حدث لها بالجزائر حيث ساندت الطريقة القادرية الأمير عبدالقادر (ت. 1883) في حروبه ضد الغزاة الفرنسيين بين 1830 و 1842، كما أن الطريقة الرحمانية كانت وراء أغلب الانتفاضات التي عرفتها الجزائر ضد الاحتلال الفرنسي فيما بين 1842 و 1878 بجهة قسنطينة (132).

ولذلك أصبح كل تحرك في نظر السلط الاستعمارية تقف وراءه الطريقة القادرية أو الرحمانية، وهو ما حملها سنة 1883 على إيقاف شيخ زاوية الرحمانية بتمغزة بتهمة التحريض على الجهاد (133)، بل جعلها تعتبر الباش مفتي علي الحبيب المذكور من أتباع الطريقة السنوسية (134).

كما أنه لا بد من الإشارة إلى أهمية الدور الذي قد تكون لعبته الطريقة المدنية إنطلاقاً من طرابلس الغرب.

فقد ذهب بول كمبون - في رسالة له بتاريخ 20 ماي 1882 - إلى أن الباب العالي قد استعمل الزاوية المدنية بمسراطة في طرابلس الغرب للوقوف في وجه الاستيلاء الفرنسي على الجنوب التونسي.

فلقد قام شيخها - على حدّ قوله - بدعاية واسعة ونشطة بين القبائل ضد «المشركين»، وخاصة ضد الفرنسيين، الأمر الذي جعله ينتهي إلى القول بأن «دعاية الأعوان الدينيين المبعوثين والمؤيدين من طرف الباب العالي كانت السبب الوحيد لاستمرار الانتفاضة بالجنوب» (135).

ولعلّ ما حمل المقيم العام المذكور على القول بذلك هو إرسال محمد ظافر المدني لشقيقه الشيخ حمزة إلى طرابلس أين تولّى شنّ حملة معادية للفرنسيين، فاعتبر لذلك «المسؤول عن الاضطرابات التي استمرت طويلاً على الحدود الجنوبية للبلاد التونسية...» (136)

GREEN, "French" Islamic policy. ."; p. 5. (131)

Ibid., p. 7 (132)

Ibid (133)

Ibid (134)

Ibid (135)

A.G.T, Enquête réalisée par le Capitaine Le Chatelier au Ministre de la guerre, le 23/9/1889, p. 3, D 97 - 3. (136)

لا شكّ أنّ إرسال الشّيخ حمزة يبرز تقدير السّلط العثمانية لقيّمته الدّينية وأهمّيّتها في حمل القبائل على التمرّد على الفرنسيين في المناطق الحدودية.

كما أنّه في نظر الأهالي يمثّل السّلطان العثماني، وهو ما يعني بالنّسبة إليهم التفاتة هذا الأخير نحوهم، واهتمامه الشخصي بقضيتهم، وبالتالي مساندته لهم في مقاومتهم للإستعمار الفرنسي.

ولعلّ ذلك ما ساهم في انتشار الإشاعات القائلة بقرب وصول المدد العثماني للمقاومين بالجنوب التّونسي.

ذلك أنّ التّونسيين وخاصة سكّان الجنوب قد راهنوا على ذلك المدد انطلاقاً من طرابلس الغرب، لكنّه لم يأت أبداً (137).

ولذلك اضطرّ العديد منهم إلى الهجرة التي شملت 120.000 لاجئ تونسي من ضمّهم علي بن خليفة (ت. 1884) الذي قاد - انطلاقاً من منفاه - عدّة غارات ضدّ الفرنسيين في الجنوب التّونسي (138).

فواضح - من خلال هذا - مدى أهمية قرب الوجود العثماني من الآيالة في دعم المقاومة معنوياً، الأمر الذي جعل القبائل تستميت في الدّفاع رغم امكانياتها المحدودة بالنّسبة إلى العدو.

ومن المفيد ذكره - في إطار حديثنا عن إبراز المعطى الطرقي في مقاومة الجنوب للإحتلال الفرنسي - أنّ أحد المبعوثين إلى تمغزة يوم 10 جوان 1883 أكّد - بعد عودته يوم 16 من نفس الشّهر - أنّ الشّيخ الحفناوي بن عبدالحفيظ - شيخ الرّحمانية بالمكان المذكور - بصدد الإعداد للجّهاد المقدّس (139).

وأنّ محمد بن إبراهيم - شيخ زاوية القادرية بنقطة - بمروره بتمغزة عائداً من تونس - أكّد أنّ الفرنسيين بعد انهزامهم في قصر مدنين - أين تكبّدوا خسائر فادحة - أرسلوا تعزيزات هامة إلى قابس لايّيقاف تقدّم الأتراك، وأنّ الجرحى من الفرنسيين يصلون إلى تونس بأعداد كبيرة.

AYADI, "La résistance ..", p. 188. (137)

Ibid. , p. 185. (138)

A.M.G., Le Général de division - commandant le corps d'Occupation de la Tunisie - au (139)
Ministre de la guerre à Paris, le 3/7/1883, 2h29 - 2, f. 387.

وقد زادت تلك الأخبار في حماس السكّان، فصاروا يُطلقون البارود(140)، خاصة وأنّ الشيخ الحفناوي المذكور قد راسل العديد من المشايخ وإخوان الطرق معلنا عن «وصول 200.000 من الأتراك، وموت الباي وسحق الفرنسيين...»! (141).

ورغم أنّ الجنرال فورجمول نفسه كان يشكّ في صحّة تلك المعلومات(142) فإنّه تحرّك بفيلقه من قفصة صوب تمغزة معزّزا بقوات زحفت من تبسة ومقرن، لتلتقي يوم 22 جوان 1883 على بعد حوالي عشرين كيلومترا غرب تمغزة. فما هي حقيقة الأمر، وهل كان هناك فعلا إعداد للمقاومة في تمغزة انطلاقا من الزاوية الرّحمانية بها؟

كلّ ما في الأمر أنّ الأتباع والمشايع — ككلّ عام — يتوافدون بكثرة للإجتماع في شهر رمضان (143)، وأنّ لا شيء يؤيد أنّ في الأمر ثورة تُعدّ ضدّ الوجود الفرنسي (144).

ولكن رغم ذلك، ورغم أنّ الشيخ الحفناوي المذكور وثايد تمغزة وأعيانها كانوا قد اتّصلوا — قبل وصول القوات الفرنسية إلى قريتهم — بالجنرال فورجمول، وأعربوا له عن ولائهم لفرنسا وخضوعهم لها (145)، فإنّ القوات الفرنسية واصلت زحفها وطوقت تمغزة.

فتمّ إيقاف كلّ من الشيخ الحفناوي والمسمّى مصطفى بن مبروك — أصيل بسكرة التجأ إلى تمغزة على إثر ثورة 1876 بالجزائر والتي كان طرفا فيها — وكذلك فايد المنطقة أحمد بن مسعود والذين تمّ نقلهم إلى قفصة. لقد انتهت أطوار قضية تمغزة بتخطة شيخ زاويتها بـ 1.000 فرنك لسماحه

Ibid., f. 388. (140)

Ibid., f. 389. (141)

A.M.A.E.F., Dépêche télégraphique de D'Estournelles au Minsitre des Affaires Etrangères (142) Françaises, Tunis, le 16/6/1883, C.P. Tunisie, 1871 - 1896, vol 75, (Juillet - Août 1883), d. 1, f. 420.

Ibid., Dépêche télégraphique du même au même, Tunis, Le 18/6/1883, C.P. Tunisie, (143) 1871 - 1896, vol 75..., f. 444.

Ibid., Dépêche télégraphique du même au même, Tunis, Le 20/6/1883, C.P. Tunisie, 1871 (144) - 1896, vol 75..., f. 463.

Ibid., Dépêche télégraphique, du même au même, Tunis, Le 22/6/1883, C.P. Tunisie, (145) 1871 - 1896, vol. 75..., f. 490.

وتشجيعه على ممارسات مناهضة لفرنسا بالزاوية التي هو شيخها، بالإضافة إلى معاقبته بثلاثة أشهر من الإقامة الجبرية بقفصة. في حين تمت تخطيطة فايد القرية بـ 500 فرنك لعدم إحاطته السلط علما بما كان يعلمه.

أما محمد بن إبراهيم شيخ زاوية القادرية بنقطة فقد عوقب بخطيئة قدرها 500 فرنك من أجل قيامه بأعمال مناهضة لفرنسا، في حين اقترح نفي مصطفى بن مبروك إلى سان مارجوريت أو إلى كرسিকা (146).

فواضح من خلال هذه الإشارات أنّ الشيخ الحفناوي لم يقم بما من شأنه أن يُعتبر مناهضة للدخول الفرنسي للجنوب، وهو ما ينسجم مع ما عرف به من تأييده لدخول الاستعمار، وهو تأييد جعله يستهدف إلى غارة قام بها المناوؤون له وللإستعمار في بداية الاحتلال (147).

إلا أن كلّ ذلك - إلى جانب عدم ثبوت ما نسب إليه - لم يحل دون عقابه بدعوى - حسب السلط الاستعمارية - أنّ «كلّ محاولة للفوضى يجب أن تُقمع بشدة، وإن كل مشير للإضطرابات يجب إيقافه حالا حتّى يكون لمثل تلك الإجراءات ردّ فعل قوي يحول دون حدوث مضاعفات أخرى...» [ذلك] أنّ إبداء التساهل أو اتّخاذ إجراءات من نوع آخر من شأنه أن يساعد على تطوّر التعصّب...» (148) على حدّ قول أحد قوّاد جيوش الاحتلال الفرنسي.

تلك هي بعض المعطيات المتعلّقة بأحداث تمغزة، والتي افتعلتها مكاتب الاستخبارات الفرنسية، وعملت على تضخيمها «لتحدث تدخل فيلق الاحتلال، وهو ما يُعطي من هيبة السلّطة العسكرية بانتصارات مزعومة، ويوضّح الحاجة الأكيدة للجيش لضمان السيطرة الفرنسية على تونس...» (149).

كل ذلك في إطار الصّراع - في الآيالة - بين السلّطة العسكرية وسلطة المقيم العام بول كمبون الذي يسعى جاهداً لإقناع الحكومة الفرنسية بعدم جدوى

Ibid., Dépêche télégraphique du même au même, Tunis, Le 19/7/1883, C.P. Tunisie. ., (146)
F. 132 - 133.

A.M.A.E.F., Dépêche télégraphique de D'Estournelles au Ministre des Affaires (147)
Etrangères, C.P. Tunisie, 1871 - 1896, vol. 75..., f. 454.

A.M.G., Le Général de division - Commandant le corps d'Occupation de la Tunisie - au (148)
Ministre de la guerre à Paris, le 3/7/1883, 2H29 - 2, f. 394 verso.

MAHJOUBI, L'Etablissement. ., p. 267. (149)

مكاتب الاستخبارات التي تتطلب أموالاً طائلة تُثقل كاهل الخزانة الفرنسية، وضرورة تعريضها بنظام المراقبين المدنيين الذي تتحمل مصاريفه الأيالة. وباستغلاله لتلك الحادثة، وتوظيفها لصالحه، تمكن المقيم العام من إضعاف السلطة العسكرية، حتى أن الجيش الفرنسي الذي كان يعدّ حوالي 40.000 جندياً في بداية الاحتلال لم يعدّ يعدّ سوى 15.000 جندي (150).

إنّ حادثة تمغزة لا تثبت سلبية زاوية الطريقة الرحمانية بتمغزة فحسب بل تُبين مدى التباين في المواقف — من دخول الاستعمار الفرنسي — بين مختلف زوايا الطريقة الواحدة إذا ما قارنا بين زاوية تمغزة في الجنوب مثلاً وزاوية كدية الحلفاء، وعين المنشية في الوسط الغربي، وزاوية سيدي يوسف بوحجر بالكاف وكلّها تابعة للطريقة الرحمانية.

وهو أمر يحملنا على القول بأن بعض الطرق الصوفية ليست لها تصورات ورؤى واضحة ومبادئ ثابتة تحدّد مواقفها طبقاً لها.

وخلاصة القول — وانطلاقاً من هذا المسح الذي حاولنا فيه رصد أهم مواطن المقاومة الوطنية سنة 1881، وتتبّع دور الطرق فيها — أنّ هذه الأخيرة — رغم أنّها زمن دخول الجيوش الفرنسية للبلاد كانت مهتأة للدفاع وتنظيم المقاومة لما تتمتع به من قاعدة شعبية عريضة ونفوذ مادي وروحي كفيّلين بجمع السكّان في صعيد واحد — نراها ليس فقط لم تقم بذلك فحسب، بل وقف العديد من مشائخها إلى جانب قوّات الاحتلال ضدّ رغبة الجماهير في رفضها للإستعمار الأجنبي، مسجّلين بذلك تعلقهم بمصلحتهم على حساب مصلحة البلاد.

كما أنّه انطلاقاً من نفس المسح المذكور يمكن القول بأن المعطى الطرقي إذا تفاعل وانسجم إيجابياً مع رغبة الأهالي يزيد هؤلاء حماساً واستماتة في الدفاع: ذلك أن رفض كلٍّ من شيخ زاوية الرحمانية بكدية الحلفاء أو غيره للإستعمار، وإعلانه للمقاومة من شأنه أن يكسب هذه الأخيرة مزيداً من «الشرعية الدينية» والتحام المقاومين.

أما إذا جاء موقف بعض مشائخ الطرق الصوفية من الإستعمار في نوازٍ بين مع رغبة الأهالي في المقاومة وإعلان الجهاد، فإنّ المعطى الطرقي سرعان ما يقع تجاوزه، ولا أدلّ على ذلك من فرار محمد الصالح الشافعي — شيخ زاوية الرحمانية بعين المنشية — في حين انضمّ أتباعه للمقاومين.

لقد كان الموقف العام للطرق الصوفية — على مستوى كامل البلاد — يتسم بالسلبية، والركون إلى المسالمة والمهادنة إزاء دخول الإستعمار الفرنسي إلى البلاد التونسية، مما ساهم في تيسير مهمة قوات الاحتلال في السيطرة على معظم أنحاء البلاد خاصة الشمالية الغربية منها — موطن ثقل الطرق — (151)، وفي ضمان استمرار وصول المدد إليها للتفريغ لإخضاع بعض المدن التي استماتت كصفاقس، أو حتى تلك التي كانت مقاومتها محدودة (152) كالقيروان مثلاً.

لقد حالت سلبية الطرق — تلك — دون فتح عدة جبهات في وقت واحد ضدّ الجيوش الفرنسية وإجبارها على تشتيت قواتها تبعاً لتعدد جبهات المقاومة.

وهو ما كان من شأنه أن يقطع توارد المدد للعدو من جهة، ويخفف من قبضته على المدن التي استمرت فيها المقاومة مدة لا يستهان بها كصفاقس وقابس.

ولئن أمكننا تحليل بعض المواقف السلبية لكل من الرحمانية والقادرية بالكاف — إزاء الغزو الفرنسي — فكيف نفسر مواقف الطرق الصوفية الأخرى بالبلاد التونسية من ذلك الحدث؟

د. أسباب سلبية بعض الطرق في مقاومة الحماية:

إنّ ذلك قد يرجع إلى عدة أسباب أهمها:

* درس الجزائر:

ذلك أنّه إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر كانت عدة طرق وخاصة الرحمانية وراء العديد من الانتفاضات طيلة النصف الثاني من القرن التاسع عشر للميلاد، ممّا أضر — ولو نسبياً — إحكام سيطرة القوات الفرنسية على عدة أنحاء من البلاد، وبالتالي تسببت في عدم استقرار الأمن بها نهائياً.

إلا أن تلك المجهودات الطرقية قوبلت من طرف السلط الاستعمارية بالقمع والإرهاب ضدّ الثوار الذين استهدفوا للقتل الجماعي ومصادرة أموالهم وأرزاقهم، وتشريد العديد منهم، حيث وصل بعضهم إلى تونس فراراً من نير الإستعمار الذي

(151) أنظر خريطتي توزيع أتباع القادرية والرحمانية بالبلاد في الفصل الأول، ص 42 و 56

(152) حول محدودة مقاومة المدن وأسبابها أنظر: "Les réactions..." CHERIF,

رغم ذلك لاحقهم وطالب الباي بتسليمهم، وفعلا تمكنت السلط الاستعمارية من الانتقام من العديد منهم.

وبذلك يبدو أنّ فشل محاولات الطرق الصوفية بالجزائر في التصدي الفعلي للإستعمار الفرنسي بالإضافة إلى الملاحقة التي تعرض إليها من لجأ من مشائخها وأتباعها إلى تونس وتسليمهم، قد يكون لذلك أثر في مشائخ بعض الطرق الصوفية بالآيالة التونسية، واعتبار بالدرس الجزائري، فأثروا السلامة على أن يلقوا نفس المصير.

ومّا يحملنا على القول بذلك أنّ بعض الزوايا في تونس تعتبر امتداداً لطرق بالجزائر، حيث أسسها مشائخ معارضون للإستعمار فروا إلى تونس أمثال محمد بن عزوز شيخ الرحمانية بالجريد، وإبراهيم بن أحمد الكبير مؤسس الزاوية القادرية بنقطة.

والجدير بالملاحظة أنه بوصول هذين الرجلين إلى تونس تغيرت مواقف من خلفهما لفائدة الاستعمار، وهذا يجعلنا نقول أنّ ذلك التحول قد يكون مبادرة إلى طي صفحة الماضي، وفتح صفحة جديدة من العلاقات قوامها الودّ والولاء للغاصبين، بعيداً عن كلّ ما يؤلّب عليهم السلط الاستعمارية ويهدّد مصالحهم.

* الحفاظ على المصالح:

يبدو أنّ بعض مشائخ الطرق - في سلبيتهم تجاه دخول الإستعمار الفرنسي للبلاد التونسية - كانوا مدفوعين بدافع الحرص على صيانة المصالح المادية والروحية والتي يقتضي الحفاظ عليها العمل على استتباب الأمن والاستقرار(153).

ذلك أنّ فترات الحروب والفتن والإضطرابات من شأنها أن تسبّب في إتلاف المحاصيل، وتفقير الأتباع وبالتالي حرمان الطرق ومشائخها من مواردهم الحياتية.

كما يمكن القول أيضاً بأنّ بعض مشائخ الطرق الذين تواطؤوا مع الإستعمار، وقاموا بكل ما من شأنه أن يسهّل عليه الإستيلاء على البلاد أو بعض جهاتها كانوا مدفوعين في ذلك بدافع الطمع في بعض الامتيازات، ونيل المكانة والحضوة تدعيماً لمواقعهم وتوسيعاً لنفوذهم المادّي والأدبي:

TIMOUMI, op.cit., p. 209 et 211; de même MAHJOUBI; Les origines ; p. 106. (153)

فالطريقة الشّائية - مثلاً - قد عملت - عند وصول فيلبار الى توزر سنة 1881 - على «أن تخصّ نفسها بشرف إخضاع الجريد...» معوّلة - في ذلك - على جني فوائد ملموسة... [حيث عبرت عن طموحها] في بسط نفوذها على الصحراء الممتدة من قفصة الى خنقة الظريف...» (154).

هذا بالإضافة إلى المكافأة التي نالها شيخها ابن جدو ابن الحاج أحمد على خدماته السابقة الذكر.

إنّ هذا كلّهُ يوضح أن السياسة الاستعمارية - بالآيالة - قد عملت على التّمكن للطرق الموالية لها مكافأة على ما صدر عنها من مواقف، وسعت إلى احتوائها حتى تخضع للأمر الواقع وتقبل التّعامل مع الاستعمار.

* التناقضات الداخلية:

باعتبار عدد الأتباع، فإنّه يمكن القول بأن الطرق الصّوفية بالآيالة كانت تملك قوّة بشرية هامة يمكن تأطيرها وتوظيفها في مقاومة قوات الاحتلال، إلا أنّ التناقضات بين الطرق - داخل المنطقة الواحدة كالكاف (155)، وعلى مستوى البلاد - قد عمّق الاختلاف بينها حتى وصل الأمر - في بعض الأحيان - إلى حدّ المشادات العنيفة التي كادت تعصف بالتعايش السّلمي، وتسبّب في حرب أهلية (156).

وهي ممارسات تفرضها عدّة عوامل كالتنافس على كسب الأتباع، وتنمية الثروة، وخاصة عقلية الزّعامة التي تدّعي كل طريقة استحقاقها دون سواها (157).

كل هذه العوامل وغيرها حالت دون إمكانية وجود أدنى إتفاق، أو أرضية

154 A.G.T., Renseignements sur les Zaouias et les personnages religieux fournis par le C.C de Gafsa en 1896, D 172 - 4.

155 MONCHICOURT, op.cit., p. 318.

156 أنظر الفصل الرابع فيما يتعلّق بالأسباب الدّاخلية لضعف الطرق ص 261-265.

157 خزانة الوثائق التّونسية، رسالة من محمد بن الحاج الطيّب - مقدّم الطريقة العروسية بورغمّة - الى الوزير الأكبر، بتاريخ 18 ربيع الثاني 1334/23 فيفري 1916، ص. د، صد. 153، مل. 3.

158 نفس المصدر، رسالة من روا إلى قُدّور، بتاريخ 1900/7/23، ص. د، صد. 102، مل. 3.

عمل مشترك حتّى في أشدّ الفترات حرجا على البلاد، خاصّة وأنّ الاستعمار نفسه قد اعتمد — تجاه الطرق — سياسة «فرق تسد» لادخالها في دوامة تآكل داخلي يحول دون توجيهها موحّدة نحو عدو مشترك خارجي.

تلك هي — في نظرنا — أهمّ الأسباب التي كانت وراء السلبية الشّبه مطلقة لجلّ الطرق الصّوفية البلاد التّونسية تجاه الغزو الفرنسي لها سنة 1881.

لكن هل يعني أنّ الاستعمار — لما أحكم قبضته على البلاد — قد حمل كل الطرق على مهادنته والولاء له، والتّعامل معه؟

أم أنّ تلك السّيطرة لم تمنع بعضها من مناهضته والولاء لغيره؟
وللإجابة على هذا السّؤال لا بدّ من توضيح مواقف الطرق الصّوفية من الواقع الجديد بالبلاد، ونعني به الاستعمار.

(2) مواقف الطرق الصّوفية من الاستعمار الفرنسي بعد استقرار نظام الحماية في تونس:

لئن أوضحنا في العنصر السّابق — من هذا الفصل — مواقف بعض الطرق من دخول الاستعمار الفرنسي للآيالة التّونسيّة سنة 1881 فقط، فإنّنا سنحاول — فيما يلي — توضيح مواقفها منه طيلة تواجده بها.

إنّ المتبّع لمواقفها من ذلك يمكنه أن يصنّفها — بصفة عامة — صنفين:

أ - الطرق الموالية للمستعمر:

ونقصد بها تلك التي اتّضح ولاؤها للإستعمار في العديد من المناسبات كما تعاملت معه إيجابا في العديد من القضايا كما سنرى فيما يلي.

وعلى رأس هذا الصنف من الطرق الصّوفية في الآيالة — نجد زاوية القادرية بالكاف التي كانت تربط شيخها علاقات وطيدة برؤا، تكشف المراسلات — بينهما — عن بعض الجوانب الخصوصية فيها:

من ذلك إعفاء دواب سيدي قُدّور - المذكور - من السّخرة، وهو إجراء بشرّه به رُوا، وطلب منه أن لا يعلم به أحدا، «حيث أنه من الأمور الخصوصية التي يتحتّم كتمانها...» (158) على حدّ قوله.

أمّا خليفته أحمد قُدّور فقد وصل تعامله مع الاستعمار الفرنسي ميدان الفلاحة، حيث كان روقارو (Regaru) - محافظ الحكومة بالكاف - شريكا فلاحيا له (159).

بل وصل به الأمر إلى تأليب السلط الاستعمارية ضد الوطنيين بكشف مواقعهم، واعطاء أسماء البعض منهم حتى يسهل ضربهم (160).

وهي نفس الممارسات التي قام بها المتوّبي بن الشيخ صالح - شيخ زاوية التيجانية ببوعرادة - في العديد من المناسبات كما سيأتي في هذا الفصل.

فلقد أوضع هذا الأخير «أنّ المعمّرين الفرنسيين الأوائل - بتونس أمثال تان (Taine)، ونابليون ناي (Napoléon Ney)، وآخرين كثيرين بجهة بوعرادة وباجة، [كانوا قد] تمكّنوا من استغلال واستثمار ضيعاتهم بمساعدة ودعم زاويته وحمايتها...» (161).

كما لعب دوراً أساسياً - حسب ما ذكره هو نفسه - في الحدّ من التحركات المضادّة التي قام بها الحزب الحر الدستوري التونسي (162) ضد إصلاحات سنة 1922.

لقد علمت السّلط الاستعمارية على التّمكن لمشائخ الزّوايا الطرقية الموالين لها ليس بالامتيازات الممنوحة لهم فحسب بل كذلك بمنحهم سلطات واسعة ونفوذ مطلق تجسّم بالخصوص في شيخ زاوية القادرية بالكاف.

(158) نفس المصدر، رسالة من روا إلى قُدّور، بتاريخ 1900/7/23، ص د، ص 102، مل. 3.

(159) A.G.T., Note émanante du Kef, datée du 16/2/1929, p. 1, D 102 - 3.

(160) ذلك في مواقف الطرق الصّوفية من الحركة الوطنية بهذا الفصل.

(161) A.G.T., Le Cheikh El manoubi au Ministre des Affaires Etrangères à Paris, Le 7/11/1929, p 2, D 156 - 21.

(162) حول نشأة هذا الحزب وموقفه من إصلاحات 1922، أنظر المدني، المرجع السابق، ج. 1، ص 173، وكذلك. MAHOUBI, Les Origines .., p. 198 - 218 et 224.

فلقد كان يشيع أنه «من القانون في حرز حرز، وأن له علاقات متينة... مع بعض رجال الحكومة تمكّنه من القلب والابدال ونقله المتوظفين...» (163). ولعلّ هذا ما يفسّر تجاوزاته العديدة التي لم تقتصر على النزاعات العقارية التي أثارها بمنطقة الكاف (164)، بل وصلت أحيانا حدّ الاعتداء على الأشخاص (165).

كما تجلّى تمكين السّلط الإستعمارية للمشائخ الموالين لها في شيخ زاوية التّيجانية ببوعرادة والذي - سعيًا وراء منحه الخطّة المذكورة - ساندته في ذلك «رئيس الغرفة الفلاحية الفرنسية، ونائب رئيس المجلس الكبير للولاية...»، ورئيس نقابة المعمّرين الفرنسيين الذي أمضى - صحبة مجموعة من المعمّرين - عريضة مساندة، هذا إلى جانب مساندة الصحافة الفرنسية له أيضا...» (166). فهذه الأمثلة توضّح - إلى حدّ ما - مدى تعامل بعض مشائخ الطرق الصّوفية بالولاية مع الإستعمار، والتمكين له من الإسيطان، إلّا أن ذلك لا ينطبق عليهم كلّهم.

ب. الطرق المناهضة للمستعمر:

ونقصد بها تلك التي لم تتواطأ مع الإستعمار فحسب بل حافظت

(163) «صدى الكاف»، جريدة الصواب، عدد 361، السنة 17، ليوم 1921/7/29، ص 3.

(164) حول النزاعات العقارية التي كان شيخ زاوية القادرية بالكاف طرفا في إثارتها بالمنطقة أنظر: A.G.T., D 102 - 3.

(165) 166. حول ذلك أنظر: A.G.T., Le Chef du poste de police d'Ebba-Ksour au C C Consul de France au Kef, le 19/2/1927, D 102 - 3; ainsi du même au même, le 12/3/1927, D 102 - 3; de même LOUZON (R.) "Les protégés des protecteurs", l'Avenir Social, Tunis, Imp L Rombi; 3è Année, les n°= 188 du 2/6/1921, p 1 et 2, n°= 191, du 12/6/1921, p. 1; n°= 200 du 31/7/1921, p. 1.

C.N.U.D.S.T., Le Chérif Tidjani au Ministre des Affaires Etrangères à Paris, le 14/12/1930, Tunisie 1917 - 1940, Dossier n°= 2, 12/1930 - 7/1938, la Confrérie Tidjania, aux f 2 - 18/111 - 112 et 117, f. 4.

على شيء من الاستقلالية تجاهه، فنجت بذلك من الانزلاق في ما وقعت فيه بعض الطرق السالفة الذكر. وضمن هذا الصنف من الطرق نجد بعض زوايا الطريقة الرحمانية:

من ذلك أن حسونه بن أحمد بن عبد الملك - شيخ الرحمانية بأولاد عون - كان قد عمل - حسب ما أورده المراقب المدني بمكثر - على عرقلة المشاورات المتعلقة بمشروع سدّ وادي بوزافة لري سهل سليانة (167).

ورغم أن معارضته تلك قد تكون نابعة من رغبته في صيانة مصالحه بالمنطقة من كل ما من شأنه أن ينافسها أو يهددها، فإن موقفه ذلك يتناقض أساساً مع المواقف السابقة الذكر لكل من أحمد قُدور والمتنوبي التيجاني.

على أن من أهم التحركات التي سُجّلت في الايالة ضدّ الوجود الاستعماري بها كانت انتفاضة الفراشيش سنة 1906، وأحداث الجنوب سنة 1915 - 1916.

فما هي أسباب تلك الانتفاضات، وماذا كان دور الطرق الصوفية فيها؟

* ثورة الفراشيش بمراقبة تالة:

لقد هزت وسط غرب الايالة في آخر فترة المقيم العام يشون (168)، وكان

A.G.T., Renseignements fournis par le C.C. de Maktar, le 8/6/1911, D 97 - 3. (167)

(168) ستيفان ولد سنة 1857 بـ Arnay - le Duo (Côte d'or) مارس خطة قنصل بلدي لمدينة باريس

(1883)، ثم قنصل عام (1884)، فوزير مفوض في سان دومينغ (St domingue) (1894 - 1895)،

ثم في ريودي جانيرو بالبرازيل (1895)، وبيكين (1897)، فمقيماً عاماً بالبلاد التونسية (1901/3/19)

- جانفي 1907)، ثم عين وزيراً للشؤون الخارجية الفرنسية (1907/3/19 - 1911/3/2) توفي سنة

MARTEL, op.cit., t 2, p 27 ، 1933

وراءها المسمّى عمر بن عثمان (169) أحد المعروفين بانتمائه الى الطريقة الرّحمانيّة.

لقد اندلعت أحداثها يوم الجمعة 26 أفريل 1906 بهجوم جمع من الفراشيش على المزرعة المعروفة ببرج الشعاني (170)، والتّابعة لأحد المعمرين الفرنسيين الذي قتل مع أمّه، في حين جرح خادمهما.

ثم تحوّلت مجموعة المهاجمين إلى ضيعة مجاورة أين تمّ قتل أحد الايطاليين، وأسر أربعة آخرون نُقلوا إلى مقرّ عمر بن عثمان، حيث لم «ينجهم من الموت - حسب رواية جريدة (La Dépêche Tunisienne) إلاّ النطق بالشهادتين، والتّظاهر بالدّخول في الاسلام...» (171).

ثم تحوّل المهاجمون - في مرحلة ثانية وعددهم حسب ما جاء في ملفّ القضية يتراوح بين خمسة وعشرين وثلاثين شخصا - إلى منجم عين خمودة (172) الذي يبعد عن مكان الحادث حوالي كيلومتر

(169) عمر بن عثمان ولد سنة 1881 بضواحي قلّة بالجزائر، حفظ القرآن الكريم بأحد الزّوايا، سرعان ما ظهرت عليه أعراض الجذب فساح في الأرض حتّى وصل إلى فوسانة بجهة الفصرين أين اعتقده أهلها وأصفوا عليه صفات الولاية والصّلاح، توفّي بالسّجن الذي سجن به على إثر أحداث الفراشيش، أنظر المرزوقي، دماء على الحدود، الدّار العربيّة للكتاب، 1975/1395، ص 18، وكذلك TIMOUMI, op.cit., p. 325.

(170) برج الشعاني، قرية تعرف اليوم ببولعابة، وتوجد على بعد حوالي 10 كلم من الفصرين على الطريق الرابطة بين هذه الأخيرة وتالة، أنظر الخريطة بالملحق رقم 1 ص 271.

"L'Affaire de Kasserine - Thala devant le Tribunal de Sousse"; *La Dépêche Tunisienne*; (171) Tunisie; Imp. Rapide Luis Nicolas et Cie; 18è Année n°= 5937; du 22/11/1906; p. 3 - 4 سنشير إلى هذا المصدر في الصفحات الموالية بالليّاش تونيزيان

(172) يحتوي هذا المنجم على عدة معادن (أنظر الخريطة في آخر صفحة من كتاب مانشيكور) وأغلب المساهمين فيه - سنة 1911 - من الفرنسيين، في حين يتكوّن إطاره المسير من الايطاليين، أنظر: MONCHICOURT; op.cit; p. 465.

ونصف (173) يعمل به عدد من العمال، أرغم رئيسهم على النطق بالشهادتين (174).

لم يكتف الثائرون بذلك، بل قرّروا مهاجمة تالة في اليوم الموالي، إلا أن السلط الاستعمارية كانت قد استعدت للأمر.

فما أن اقتربت مجموعة منهم من دار المراقبة حتّى بادر أعوانها بإطلاق النيران عليهم، فسقط منهم اثنا عشر قتيلًا، ومقبرتهم — بتالة — تعرف بحفرة الاثني عشر... (175).

هذا في حين جرح عدد آخر، ولاذ البقية بالفرار، لكن الجيش طاردهم، واستطاعت السلط — بعد أيام — أن تقدّم تسعة وخمسين متّهما وجّهت لهم تهم مختلفة كالقتل، ومحاولته، والمشاركة فيه، ومسك السلاح واستعماله، واستعمال العنف.

ومثلوا أمام المحكمة الجنائية بسوسة، ثم عُقبت القضية — من طرف النيابة العامة — إلى دائرة الاتهامات بالجزائر، وصدرت ضدهم أحكام مختلفة (176). تلك هي — بإيجاز شديد — أهم أطوار ومراحل انتفاضة مراقبة تالة سنة 1906، ضدّ الوجود الاستعماري في منطقة الفراشيش، بعد حوالي ربع قرن من دخوله البلاد، والتي تحدّثت عنها، وردّدت صدها أكثر من خمسمائة جريدة (177).

TIMOUMI, op.cit; p. 347. (173)

"L'Affaire de Kasserine - Thala..."; La Dépêche Tunisienne...; p. 3-4.. (174)

(175) المرزوقي، دماء...، ص 21 — 22.

(176) أنظر تلك الأحكام في المرزوقي، دماء...، ص 18 — 26. كذلك TIMOUMI, op.cit, p.361.

حول ثورة تالة، أنظر المرزوقي، دماء...، ص 18 — 26، وكذلك

la Dépêche Tunisienne du n°= 5937 du 22/11/1906 au n°= 5945 du n°= du 30/11/1916, et du n°= 5946 du 1/12/1906 au n°= 5954 du 9/12/1906 et les n°= 11, 12, 13, 14, 15/12/1906, de même A.M.G., 2H29 d. 1, f. 3; SIMIAN, op.cit., p. 47; JULIEN (CH.A.), "Colons Français et jeunes Tunisiens, 1882 -- 1912", extrait de la Revue Française d'Histoire d'Outre-mer, t. 4 (1967), p. 94 - 95.

TIMOUMI, op.cit., p. 325. (177)

فلماذا تأخرت هذه المجابهة كل تلك المدة؟

وما هي خصوصيات سنة 1906، والعوامل الظرفية المميّزة في منطقة القراشيش - آنذاك - والتي تولدت عنها تلك الأحداث؟

وما هو - بالتالي - دور العامل الطرقي فيها؟

تجد تلك الأحداث مبرراتها في العوامل الظرفية - الطبيعية والاقتصادية - التي كانت عليها تلك المنطقة سنة 1906.

لقد كان الموقع الجغرافي لكلّ من فوسانة - المكان الذي انطلق منه الثائرون - وبولعابة - المنطقة التي كانت مسرحاً لأحداث 1906 - محدداً لنوعية المناخ المسيطر عليهما، وبالتالي - لطبيعة نشاطهما الاقتصادي.

ذلك أن فوسانة تشكّل حوضاً بُنيوياً (Cuvette techtonique) بين هضبة زلفان (من 800 إلى 1000 متر)، وهضبة بُودَرياس وبُوشبُكة (بين 900 و 1150 متر)، يغطي أرضها الصلصال الرّملي (Grès) والأرطماسية (l'Armoise) والحلفاء (178)، ممّا يجعل زراعة الحبوب بها غير مضمونة المردود، فهي بذلك لا تصلح إلا لتربية الماشية (179).

أما بولعابة فهي عبارة عن ممر ضيق جداً يسمى «خنقة الجبّاس أو فم السمكة» (180)، يفصل بين جبل سمّامة وجبل الشّعاني، ويشكّل - بالتالي - همزة وصل بين فوسانة والقصرين، وهو معبر يعبره وادي الخطب (181). فلا عجب - تبعاً لهذه التضاريس - أن يكون مناخ هذه المنطقة يتّسم دوماً بالقساوة والشدة، وخاصة في السّنوات التي سبقت أحداث سنة 1906، حيث لا

178) حول المناخ والتربة بهذه المنطقة أنظر: MONCHICOURT, "La Steppe Tunisienne chez les Frechiches et les Majeurs, (regions de Feriana, Kasserine, Sbeitla, Djulma)", Bulletin de la Direction de l'Agriculture et du Commerce, Tunisie, Imp. Rapide Modernes, Imp. Rapide Modernes, 10è Année, N° 38, 1er Trimestre, 1906, pp. 38 - 76

179) MONCHICOURT, La région du Haut-Tell, p. 143.

180) الميساوي، المقال السابق، ص 61.

181) Ibid., p. 145.

يكاد شتاء يُمرّ دون أن تعرف المنطقة عواصف ثلجية (182)، مما يجعلها تتجمّد ما بين الخمسة عشر يوما والشهر في السنة (183).

ومن السنوات التي نزلت فيها الثلوج سنة 1905 المسماة «العامّ لبيّض» لكثرة ما نزل بها من ثلوج (184)، وخاصة سنة 1906 التي وصلت درجات الحرارة فيها — خلال شهر فيفري — الى ما تحت الصّفر طيلة عشر أيام.

كما تساقطت في تلك السنة الثلوج بتالة طيلة خمسة أيام متتالية (185)، ووصل ارتفاعها الى مترين ونصف (186).

والجّر عن ذلك تحطيم خيوط التّلغراف بين مكشر والكاف، وبين الكاف وتالة التي بقيت ثمانية أيام معزولة عن بقية أنحاء البلاد.

وهو ما تسبّب في نقص تموين السكّان الذين أوشكوا أن يموتوا جوعا، علما وأن إقامة الأسواق كانت مستحيلة، حتّى أنّ تالة لم تقم سوقها من 3 إلى 24 فيفري 1906 (187).

لقد تسبّبت كل تلك العوامل المناخية في أضرار لحقت بالفلاحة وكذلك بالثروة الحيوانية (188) — المصدر الأساسي لحياة الأهالي هناك — حيث وصلت نسبة الوفيات فيها إلى 60% (189)، ممّا تسبب في تدهور أثمانها وارتفاع أسعار الحبوب، وبالتالي في تفكير السكّان.

لقد جاءت كلّ تلك العوامل الظرفية لتضاف إلى أسباب هيكلية مزمنة، قوامها تغلغل المعمرين بالمنطقة، وهو تغلغل وصل — سنة 1906 — إلى وضع أصبح انفجاره لا يحتمل التأخير:

TIMOUMI, *op.cit.*, p. 61 (182)

Ibid. (183)

Ibid., p. 309. (184)

MONCHICOURT, *La region...*, p. 172 (185)

Ibid., p. 174. (186)

Ibid., p. 174 - 175. (187)

MONCHICOURT, *La region...*, Tableau récapitulatif des pertes d'animaux par suite des mauvais temps, février 1906, p. 174 - 175; de même

TIMOUMI, *op.cit.*, p. 309.

TIMOUMI, *op.cit.*, p. 339. (189)

ذلك أنّ استيلاء المعمرين على الأراضي خاصة الخصبة والسقوية كهنشير الفصرين (190) بالإضافة إلى استبدادهم بالسكان، وإثقال كواهلهم بالغرامات أدّى إلى انحصار الأهالي في مساحات ليست ضيقة فحسب - بالنسبة إلى عددهم - وإنما كذلك فقيرة التربة، ظنينة العطاء لهم ولمواشيهم.

لقد أدّى انخرام التوازن بين الأرض والرأسمال البشري إلى نقمة الأهالي على الذين نافسهم في وجودهم، وحالوا دون انتفاعهم وتصرفهم في أملاكهم.

وهي نقمة زادها سكوت السلط الرسمية - رغم تعدّد شكايات المتضررين المطالبين بإنصافهم (191) - حدة، وعرف عمر بن عثمان كيف يوظفها.

فلئن مهّدت الأسباب الهيكلية والعوامل الظرفية - السابقة الذكر - لإيجاد حالة من الإستياء، فإنّ عمر بن عثمان قد عمل على توسيع الهوة، وتوتير الأوضاع قصد إيجاد أرضية قابلة للتثوير - في مرحلة أولى - وممكنة التفجير في مرحلة ثانية: ذلك أنه طيلة الستة أشهر - التي قضاها بين الفراشيش (192) - كان معبراً في تصرفاته عن هموم سكّان فوسانة، متمثلاً لأمانيتهم، وشديد الوعي بواقعهم ومشاكلهم.

فهو قد وعدهم - بعد أن تشكّوا له من الخدمة العسكرية - «بأن لا يذهب أبناؤهم أبداً إلى عسكر النصارى» (193).

كما أنّ عمر بن عثمان قد تجسّدت فيه معاناة الأهالي من نير المعمرين، فكان محمّساً للمناهضين لهم (194)، مروّجاً بين السكّان القول بأنّ «الفرنسيين سيغادرون تلك السنة [1906] الآيالة، مؤكّداً أنّ ساعة الخلاص قد دقّت، وأنّ الفراشيش لن يعانون إطلاقاً إذا اتّبّعوا نصائحه» (195)، مردّداً باستمرار قوله:

أنا عمر ونحبّ العماره نطهر البلاد ونخرج النصارى (196).

(190) حول تقسيم هنشير الفصرين أنظر: JULIEN, op.cit, p 94. وكذلك: TIMOUMI, op.cit, p. 307.

(191) أنظر مثلاً الرسالة المجهولة الموجهة إلى الباي في C.N.U.D.S.T., Tunisie 1885 - 1916, vol. 325, (4/ 1906 - 7/1906), f. 61 - 61 bis

(192) دخل إلى فوسانة بين ديسمبر 1905 وجانفي 1906، أنظر المرزوقي، دماء...، ص 18.

(193) TIMOUMI; op.cit., p. 345.

Ibid., p. 331. (194)

Ibid., p. 331. (195)

Ibid., p. 331. (196)

وبذلك لم يع عمر بن عثمان مشاكل وطموحات أهالي فوسانة فحسب، بل تمثلها في حياته وهو مازاد في حماسهم ونقمتهم على الجاثمين على بلادهم. غير أن ذلك كله ما كان ليكون كافياً لتفسير قدرة عمر بن عثمان على تحريك الأهالي، إذ أنها مواصفات كان بالإمكان أن تتمثل في غيره، و – بالتالي – أن يقود ذلك التحرك بدلاً منه.

فما هي خصوصيات ذاك «الولي الصالح» (Marabout) المنتمي للطريقة الرحمانية (197) ؟ إن تلك الخصوصيات – التي سنشير إليها – تكشف دور المعطى الطرقي في ذلك التحرك:

ذلك أن تمثل عمر بن عثمان لمشاكل الأهالي، وتعبيره عن طموحاتهم وأمانهم ما كان كافياً ليمكّنه من كسبهم ولقّهم حوله، وبالتالي تحريكهم ضدّ عدوّ جاثم على أرضهم لا يملكون لا العدة ولا العدد الكافي لمواجهة.

لقد أضاف عمر بن عثمان إلى اهتماماته الحياتية للسكان بُعداً آخر يندرج مع طبيعتهم المتعلقة بالأولياء والصالحين، والمعتقدة في صلاحهم وتقواهم، والمؤمنة بكراماتهم وواجب تصديقهم فيما يُخبرون عنه.

فلقد طلب منه الأهالي توسطه لنزول المطر – تبعاً لحالة الجفاف التي عرفتھا المنطقة آنذاك – ، فصادف أن نزلت «أمطار طوفانية...» ، إلى حدّ أصبح معه الأهالي يخشون مكروها، ويطلبون من عمر توقّفها، فوعدهم بذلك،... ، فتفشّعت السحب وصفا الجو...! (198).

كما أن أحد الذين سرقوا له شياها أهديت له، لم يلبث أن فقد ابنه وجزءاً هاماً من قطيعه الذي أكلته الذئاب، بالإضافة إلى ثلوج هامة غطت أرض الفرائشيش، وأفنت جزءاً هاماً من مواشيتهم.

وهي كوارث فسرها الأهالي بغضب «الولي الصالح» عمر بن عثمان، الذي كان لا بد من صفحه وعفوه عنهم حتى يكونوا في مأمن من كل المصائب. فتهاطلت عليه الهدايا والعطايا، وزادت مكانته في فوسانة (199) بعد أن

SIMIAN, op.cit, p 47. (197)

TIMOUMI, op.cit., p. 329. (198)

Ibid. (199)

تيقن أهلها من ولايته تبعاً لكراماته العديدة التي أثبتتها - حسب رأيهم - الأيام ! .
لقد زاد نجاح عمر بن عثمان في تلك «الاختبارات» في تدعيم مكانته كولي
بين الأهالي الذين اعتقدوا أن الله جباه بقوة خارقة للعادة، فلقبوه بـ «صانع
المعجزات» ! (200).

وبوصوله إلى تلك المنزلة لم يكسب عمر بن عثمان ثقة الأهالي فحسب،
بل ملك قلوبهم ومشاعرهم، فصاروا طوعاً لإرادته، مستعدين لتنفيذ كل ما
يأمرهم به.

وهكذا تمكّن عمر بن عثمان - بعمق معرفته للواقع الذي يتحرك فيه،
وبنفوذه الروحي على الأهالي - من جعل سهل فوسانة يعيش - في شهر أفريل
من سنة 1906 - «جواً حقيقياً من الجهاد المقدس، كُهر به وصول ولي آخر من
قفصة يُكنّ له الفرائشيش آيات الاحترام والاجلال» (201).

وبذلك تجمّعت كلّ العوامل ليحصل الانفجار بعد كبت دام حوالي ربع قرن
مرّ على دخول الإستعمار الفرنسي للبلاد.

وسعيّاً منها للحيلولة دون تكرّر تلك الواقعة، أخضعت الإدارة الإستعمارية
«الأولياء الصّالحين» لمراقبة شديدة، وطالبت السّلط الجهوية بمدّها بكلّ المعلومات
المتوقّرة لديها عنهم من حيث درجة نفوذهم على السكّان وكذلك تنقّلاتهم
وتحرّكاتهم (202).

بل وصل أمر حذرهما منهم أنّها منعت الترخيص في رفع سنجق أي علم على
الزّاوية القادرية بجبل مغيلة (قرب سبيطلة بجهة القصيرين) (203).

ومهما يكن من أمر ، فإنّ انتفاضة الفرائشيش سنة 1906 - التي اعتبرها
المعمّرون الفرنسيون بداية يقظة الاسلام، وغزو المسلمين للعالم (204) - حملت

TIMOUMI, op.cit., p. 329. (200)

Ibid (201)

Ibid , p. 357. (202)

Ibid., p. 359. (203)

SAMMUT (C), L'Impérialisme capitaliste Français et le Nationalisme (204

Tunisien (1881 - 1914), Belgique, Les Presses de GEDIT à Tournai, 1983, p. 308.

السُّلْط الاستعمارية على القول بأن الزوايا تقف وراء كل ما يحدث بالولاية (205) وفرضت عليها - بالتالي - القيام بدراسة ميدانية وإحصائيات أقرب ما تكون إلى الصحة حول كل ما يتعلق بالطرق، فكانت إحصائيات سنة 1911 كما سبق أن أوضحنا.

* أحداث الجنوب:

رغم أن الجنوب التونسي يعتبر آخر جهة في الولاية خضعت للإحتلال الفرنسي بعد صمود طويل مما حتم على السُّلْط الاستعمارية وضعه تحت السُّلْط العسكرية، فإنه ما أن اندلعت الحرب العالمية الأولى، ودخلت فيها الدولة العثمانية إلى جانب ألمانيا، حتى عمته الانتفاضات، كان مسرحاً للعديد من المعارك العنيفة ضدَّ قوَّات الاحتلال (206).

فما هو دور الطرق الصوفية في كل ذلك؟

من خلال الوثائق التي اطلعنا عليها، يمكننا الإشارة - في هذا الصدد - إلى مواقف الطريقة التيجانية هناك:

فلقد عمل شيخ زاوية التيجانية الأم على استغلال الأوضاع المضطربة للجنوب لينشئ زاوية تيجانية بجوار تطاوين حتى تنافس كلاً من الطريقة الرحمانية والقادرية اللتين لهما أتباع كثيرون هناك (207).

كما أن الطريقة التيجانية قد عبّرت - في العديد من المناسبات - عن اخلاصها ووفائها وذلك أثناء الأحداث التي هزت منطقة الجنوب سنة 1915 و 1916، وهو نفس الموقف الذي صدر عن كل من الطريقة الرحمانية والقادرية بنفس المنطقة (208).

ومن جهة أخرى وفي نفس السياق فإنَّ سعد بن الحاج ناصر القاضي - مقدّم التيجانية - قد عمد - أثناء أحداث الجنوب تلك - إلى تجميع أتباعه في العديد من المناسبات «ليوصيهم بأن يكونوا إلى جانب فرنسا، حيث قرأ عليهم رسائل - في

(205) أنظر. A.D., "Le rôle des Marabouts en Tunisie", Le Courrier de Tunisie, Tunisie, 8è année, n° 2753 du 24/5/1912, P. 1.

(206) أنظر تلك المعارك في، المرزوقي، دماء. ، ص 51 - 139.

(207) A.G.T., lettre du Gouverneur Général de l'Algérie, p 1, datée d'Avril 1916, D 156 - 21.

(208) Ibid., p. 2.

نفس الغرض — واردة عليه من الزاوية الأم... » (209).
 أما البشير بن محمد بن سي العيد — شيخ التيجانية الأكبر بتامسين بالجزائر —
 فقد أرسل أحد مقدميه إلى جهة تطاوين ليقوم — على حد قوله — «بتهدئة
 الخواطر، ونشر الهدوء، والسلم المطلق...» وحمل الناس على الهدوء
 والانقياد لفرنسا... واحترام القوانين... ووضع حدًا للشائعات المغرضة التي
 تدور [هناك] بين الأهالي... » (210).

فواضح من خلال هذا أن الطرق الهامة في الجنوب ليس فقط امتنعت عن
 المساهمة في الأحداث التي هزته فيما بين سنتي 1914 و1915 — بل عملت في
 أغلب الأحيان على حطّ العزائم، وتفشيل القبائل وفاء منها لفرنسا.

وذلك يدلّ على أن العامل الطرقي لم يكن ملموسا وراء تلك الأحداث وإنما
 كان ضدها.

ورغم ذلك فإنّ جلّ القبائل تجاوزت المعطى الطرقي وأبلت البلاء الحسن،
 مدفوعة في ذلك ببعدها عن مقرّ السّلطة المركزية (211)، ومستفيدة من رحيل
 الجنود الفرنسيين إلى الجبهة، ومن قريبها إلى طرابلس الغرب حيث المقاومة ضدّ
 الإيطاليين، وكذلك من سعي ألمانيا والأتراك إلى فتح جبهة في جنوب البحر
 الأبيض المتوسط والتي من شأنها أن تربك الفرنسيين (212).

إلى كلّ تلك الأسباب — السابقة الذكر — يضاف — في ثورة الجنوب إبان
 الحرب العالمية الأولى — دور التونسيين الذين كانوا قد التحقوا بمقرّ الخلافة
 العثمانية كصالح الشريف (213) الموجود بها منذ سنة 1906، وعلي باش

(209) Ibid, note datée du 17/4/1916, d 156 - 31.

(210) Ibid., lettre émanante du Marabout El béchir ben Mohamed ben Si Mohamed el Aïd -
 Grand maître Tidjania de Temacine, Le 26/3/1916, D 156 - 31.

(211) CHERIF, "Les réactions....", p. 234.

(212) AYADI, Mouvement réformiste... , p. 263

(213) صالح الشريف، ولد بتونس سنة 1860، زاول تعلّمه بجامعة الزيتونة حيث نال شهادة
 التطويع سنة 1887، كما أحرز على خطّة التدريس به سنة 1893-1894. وبعد حجه سنة
 1906 قصد الاستانة ومنها سافر إلى الشام أين قضى عامين عاد على اثرهما إلى دار الخلافة أين =

حانية (214) وغيرهما .

فهؤلاء — سعيًا منهم لحمل التونسيين على الوقوف إلى جانب الخلافة ضدّ فرنسا — أرسلوا الرسائل إلى بعض الأعيان التونسيين على طريق طرابلس الغرب «ضمّنها وجوب الدّعوة إلى الجهاد، ووعدوا بتوفير السّلاح بواسطة الغواصات الألمانية...» (215).

وبقطع النظر عن إيفاء الأتراك بما وعدوا به أو عدمه، فإنّ أحداث الجنوب جاءت لتثبت مدى الثّورية التي كانت في قبائله.

غير أن اندلاع ثورته وخاصّة نجاحها كان متوقّفًا على المدد الخارجيّ، ممّا جعل تلك القبائل — رغم حدّة المعارك التي خاضتها — ينتهي أمرها إلى الانهزام والاستسلام، وذلك راجع ليس لعوامل خارجية فقط، بل وكذلك لأسباب داخلية من بينها السّلبية والدّور التفشيّلي الذي قامت به معظم الطرق الصوفيّة في المنطقة.

وبصفة عامّة — وإذا ما استثنينا أحداث ثالة — فإنّه يمكن القول بأن الاتّجاه العام لجلّ الطرق — بالآيالة من وجود الاستعمار الفرنسي بها — كان يتميّز بالمهادنة والتّعامل معه في أغلب الأحيان.
فإلى أيّ شيء يعود ذلك؟

= أسندت له إدارة مشيخة الإسلام، كما زار طرابلس الغرب سنة 1911. سافر مع نهاية الحرب العالمية الأولى إلى سويسرا أين توفي في مدينة لوزان سنة 1920. حول ترجمته أنظر: ابن عاشور، المرجع السابق، ص 207 — 217، مخلوف: المرجع السابق، ص 425، المرزوقي: دماء...، 221 — 235 وكذلك GREEN, the Tunisian... p. 286 - 287.

(214) علي باش حانية: ولد بتونس سنة 1876، في عائلة من أصل تركي، زاول تعلّمه بالمدرسة الصادقية ثم سافر إلى فرنسا. أمّس سنة 1905 جمعية «قدماء تلامذة الصادقية»، كما أمّس جريدة «التونسي» الناطقة بالفرنسية والتي صارت لها نشرة بالعربية ابتداء من سنة 1909. وعلى اثر الاحتلال الإيطالي لليبيّا أمّس جريدة «الاتحاد الإسلامي». قام بدور هام في حوادث الترامواي التي نفّي على اثرها من البلاد في ماي 1912 إلى فرنسا ومنها انتقل إلى اسطنبول. اتّهم بالتعامل مع الامبراطوريات الوسطى، وخرج معروض من الباي بمصادرة أمواله، توفي باسطنبول سنة 1918. حول ترجمته أنظر المرزوقي، والجيلاني بن الحاج يحيى: معركة الزّلاّج 1911، تونس، مكتبة المنار، ط. 1، 1961، ص 174 — 175، وكذلك ZMERLI, op.cit., pp. 43 - 67; de même MAHJOUBI, Les Origines..., p. 125; AYADI, Mouvement réformiste..., p. 65.

(215) المرزوقي: دماء... ص. 38 — 39.

ج — أسباب مهادنة بعض الطرق للوجود الاستعماري:

إنّ ذلك قد يفسّر — في نظرنا — بعدّة أسباب من أهمّها:

*** فشل المقاومة التونسية:**

إنّ فشل المقاومة التي اندلعت في عدّة جهات من البلاد وخاصة الجنوب مكنّ الاستعمار من بسط نفوذه عليها، ومن تركيز حامياته بالتراب العسكري (216)، ممّا فرض الإستسلام، وقبول الأمر الواقع بالولاء والتعامل.

*** عدم وصول المدد العثماني الذي تردّدت حول وشك وصوله شائعات عديدة** كانت وراء الحماس بين الأهالي، وحملهم على إعلان الجهاد خاصة في أحداث الجنوب.

إلا أنّ عدم وصول ذلك المدد جعل الأهالي يواجهون عدوّاً يفوقهم عدداً وخاصة عدّة، بإمكانيات محدودة جداً فأل أمرهم إلى الهزيمة بعد أن تكبّدوا خسائر فادحة.

*** السياسة الإستعمارية:**

إنّ تظاهر السّلط الإستعمارية باحترامها للقيم الروحية للتونسيين من دين وعادات، وتقاليده، مكنّها من احتواء بعض مشائخ الطرق بعد منحهم بعض الامتيازات، وتوظيفهم وفق مصالحها.

216) التراب العسكري: تسمية أطلققتها سلطات الاحتلال على الجنوب وأقصى الجنوب التونسي، حيث ركّزت — بعد دحرها لقوات المقاومة إلى الأراضي الليبية — قواعد مراقبة، وامداد عسكرية، ويضم التراب العسكري — ادارياً — عمالات ورغمة، ومطماطة، ونفزاوة، والودارنة أنظر الهادي جلاب، المجلس الكبير للبلاد التونسية، القسم التونسي، 1922 — 1954، شهادة الكفاءة في البحث، مخطوطة، كلية الآداب والعلوم الانسانية، تونس 1984، ص 35.

هذا بالإضافة إلى طبيعة الفكر الطرقي، والذي يتركّزه على تلك الأوراد والأذكار ومفاهيمه حول الدنيا - وجه الأتباع إلى الزهد في الحياة، ورغبتهم في أجر الآخرة بدعوى الترقّي في مراتب الصالحين.

وهذه التربية - التي لقّنها المشايخ لمريديهم - مكّنتهم من السيطرة على أغلبهم إلى درجة صاروا معها - في أغلب الأحيان - مسلوبى الإرادة، عديمى المبادرة، فاقدي الشخصية لا يخالفونهم في شيء، ممّا حال غالباً دون القيام بأي عمل لا يوافق عليه أولئك المشايخ.

وبذلك يمكن القول بأنّ السياسة الإستعمارية بمسكها واحتوائها لبعض المشايخ مسكت من وراء ذلك أحياناً بعض الأتباع والمريدين واحتوتهم. لقد عملت السّلط الإستعمارية كلّ ذلك لحمل الطرق على الولاء لها للحيلولة دون قيامها بعمل مناهض لها، ولتحول بينها وبين الولاء لقوى «خارجية».

فهل نجحت في ذلك؟

لئن عملت فرنسا على البحث بدقّة - في الآيالة - عن الطرق أو الأشخاص الذين لهم ولاء أو شبه علاقة بقوى خارجية، وخاصة الدولة العثمانية، فراقبت الطريقة السنوسية، واطردت كل داعي لها يشتبه في أمره (217) فلأنّ بعض المؤشّرات تشير إلى وجود علاقة بين بعض مشايخ الطرق وقوى أخرى. من ذلك أنّ أحمد بن عبدالمملك - شيخ زاوية الرّحمانية قرب سليانة - اتّهم سنة 1911 بأنّ له «علاقات مع تركيا، [وأنّه] شجّع - سنة 1910 - بعض السكان على الهجرة إلى سوريا...»! (218).

وهي نفس التّهمة التي وُجّهت إلى الحاج حمده العباسي مقدّم الطريقة المدنية ببنزرت (219)، والبشير بن حمّودة اللّزّام الذي ترشّع لمشيخة زاوية سيدي البنا ببنزرت أيضاً، وكذلك محمد بن أحمد الثّوري الذي كانت نفس التّهمة وراء إقصائه من مشيخة الزّاوية القادرية بصفافس.

A.M.A.E.F., La Direction politique au Ministre des Affaires Etrangères à Paris, Le (217) 16/4/1890, N.S. 127, Culte Musulman..., f. 84 verso.

A.G.T., Confrérie des Rahmánya, p. 23, D 97 - 3. (218)

Ibid., Renseignements sur les Zaouias et les Personnages religieux, fournis par le C.C. de (219) Bizerte, Le 20/4/1896, D 97 - 3.

أمّا الحاج عبدالقادر الشّلاكي - مقدم القادرية بحومة السّوق بجربة - فقد أشار المراقب المدني بقابس إلى أنّ له ميولات إيطالية (220).

هل يمكن - انطلاقاً من هذه الأمثلة - القول بوجود طرق موالية فعلاً للدولة العثمانية؟

رغم إقرارنا بأنّ المعلومات الواردة في الأمثلة السّابقة الذكر قد لا تعدّو أن تكون نوعاً من المعلوما الظنيّة، الواردة في تقارير «المشبه» فيهم» من مصادر ليست يقينيّة نتيجة الوشايات والأغراض الشخصية أحياناً، فإنّه لا يمكننا القطع بعدم وجود علاقات بين أتباع بعض الطرق والدّولة العثمانية، أو على الأقلّ تعاطف معها، وميول نحوها.

ذلك أنّ عدّة عوامل داخلية وخارجية - في بداية القرن العشرين - قد زادت - على ما يبدو - في تنامي التعاطف والولاء للخلافة العثمانية، الأمر الذي دفع فرنسا إلى العمل على حمل الطرق الصوفيّة في البلاد التّونسية على إعلانها للوقوف إلى جانبها ضدّ تركيا في الحرب العالمية الأولى، لا شيء إلاّ لخوفها من مغبّة استعمال الخلافة لنفوذها الرّوحي على المسلمين حتى يقفوا معها إلى جانب ألمانيا ضدّ الحلفاء.

فهل تمّ لحكومة الإحتلال ما أرادت؟

(3) مواقف الطرق الصوفيّة من اندلاع الحرب العالمية الأولى ودخول تركيا فيها إلى جانب ألمانيا.

ظلّت فرنسا - حتّى قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى، ورغم مرور أكثر من ثلاثين سنة على استيلائها على البلاد التّونسية - تشعر بعجزها عن السّيطرة التّامة على واقع البلاد الذي ظلّ متحوّلاً، ومتأثراً بما يجدّ على مستوى العالم الإسلامي، وخاصة في علاقته بالخلافة العثمانية.

كلّ ذلك في ظرف أو شكت فيه الحرب العالمية الأولى على الإندلاع، ممّا حثّم على الإستعمار الفرنسي بتونس انتهاج سياسة ظرفية هدفها السّيطرة على الوضع الدّاخلي قصد التفرّغ لمجابهة الخطر الخارجيّ.

A.M.A.E.F., Le C.C. de Gafsa au R.G., le 4/4/1896, D 97 - 3. (220)

فبماذا تميّز الوضع الداخلي للإيالة آنذاك، وفي أي شيء تمثلت السياسة الإستعمارية الظرفية لمواجهته؟

أ - مميزات الوضع الداخلي:

رغم بُعدها - جغرافيا - عن مركز الخلافة وانقطاع تبعيتها لها - على المستوى السياسي على الأقل - فإن البلاد التونسية ظلّت - على ما يبدو - وعلى مستوى أوسع الجماهير الشعبية موالية للخلافة العثمانية.

وهو ولاء لا علاقة له بقوة أو ضعف الخلافة، وإنّما يجد مبرراته في مفهومها في المنظور الديني والرأي العام الإسلامي الذي يعتبر بيعة الخليفة واجب شرعي لأنه حامي حمى المسلمين، ومن ثمّ فإنّهم مطالبون بالإنّزاع بطاعته باعتباره رمز وحدتهم في وجه هيمنة القوى الإستعمارية.

وهي مفاهيم زادت في تغذيتها «الجامعة الإسلامية» التي تهدف إلى جمع المسلمين على صعيد العقيدة وفقاً لتعاليم القرآن الكريم والسنة، بقطع النظر عن لغاتهم وأجناسهم ومواطنهم.

وبالتالي فهي الوسيلة «الوحيدة» التي يمكن أن توحّد المسلمين وتشدّ أزرهم في كفاحهم...، ضدّ الإحتلال الأجنبي...» (221).

وهذه المفاهيم ازدادت تبلوراً بعد ظهور الحركة الإصلاحية بتأسيس «جمعية العروة الوثقى» سنة 1882 على يد جمال الدين الأفغاني (ت. 1887)، وبما قام به محمد عبده (ت. 1905)، لربط المشرق بالمغرب بزيارته إلى تونس وإلقائه للعديد من المحاضرات، وتأثيره في الأوساط العلمية الزيتونية وغيرها.

كل هذه المؤثرات جعلت سكّان الإيالة «يشعرون برابطة قوية، وانجذاب نحو عاصمة الخلافة...، ويرون فيها مراكز إشعاع خاص للدين، والثقافة، والفكر،

(221) أبو القاسم محمد كرو، اعلامنا، محمد الخضر حسين، تونس، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل، 1973، ص 18.

بل وللحرية أيضا...» (222).

وهو شعور زادته أحداث طرابلس سنة 1911 تدعيما لما قام به التونسيون من مساندة لإخوانهم هناك بالقول والفعل: حيث نظمت حركة التطوع للجهاد، كما كوّنت لجان الهلال الأحمر لجمع التبرعات للمجاهدين ومدّهم بالمساعدة الطبية والعسكرية، مما أوجد لدى الرأي العام التونسي خاصة، والإسلامي عامة جواً من التضامن والتكافل والشعور بوحدة المصير، وبضرورة التوحد خاصة وأنّ حوادث الترامواي والزلاّج قد فجّرت لدى التونسيين النّقمة على الأجنبي الجاثم على وطنهم.

إلى كل هذه المؤثرات الداخلية والخارجية يضاف إلحاق العديد من التونسيين بالمشرق، وخاصة بدار الخلافة.

لقد شملت تلك الهجرة العديد من الأوساط العلمية من خريجي الزيتونة وغيرهم كالشيخ صالح الشريف الذي التحق بتركيا منذ سنة 1906، وعلي باش حانية بعد إبعاده على اثر أحداث الزلاّج سنة 1912، وأخيه محمد (223) والشيخ محمد الخضر حسين (224)،

(222) نفس المرجع، ص 19 و20.

(223) محمد باش حانية: ولد بتونس سنة 1881 من عائلة أصلها تركي، غادر الأيالة التونسية سنة 1913 للقاء أخيه علي في القسطنطينية التي رجع منها إلى تونس في 18 جانفي 1914 ثم غادرها نهائيا يوم 25 مارس 1914. استقر في أوروبا حيث عمل أثناء الحرب العالمية الأولى على التعريف بقضايا بلدان المغرب العربي توفي في برلين في ديسمبر 1920، حول ترجمته، أنظر الحبيب الجنتاحي، محمد باش حانية، تونس، الدار التونسية للنشر، 1968، ص 37 — 61، وكذلك MAHJOUTI, *Les Origines*., p. 141; de même AYADI, *Mouvement réformiste*., p. 141.

(224) محمد الخضر حسين: ولد بنقطة سنة 1873، كان والده من مريدي مصطفى بن عزّوز شيخ الطريقة الرحمانية بالجريد. التحق بجامع الزيتونة أين تحصل سنة 1898 على شهادة التطويع. أصدر سنة 1904 «مجلة السعادة العظمى» تولى خطة القضاء ببنزرت كما تولى التدريس بالمدرسة الصادقية. هاجر إلى المشرق واستقر بدمشق أين سجن لمدة ستة أشهر ونصف، إرتحل على إثرها إلى الاستانة ومنها كلف بمهام في ألمانيا أثناء الحرب العالمية الأولى. دخل مصر سنة 1922 لاجئا سياسيا أين استلم رئاسة تحرير «مجلة نور الإسلام» كما أنشأ جمعية «الهداية الإسلامية» وأصدر =

واسماعيل الصفايحي (225)، وغيرهم.

وهؤلاء جميعا كانوا «يعملون - في الآستانة وفي أوروبا - على إعداد حملات تحريرية مسلحة ضد الاحتلال الإيطالي والفرنسي في المغرب العربي، وكانوا يتحركون بكثرة بين العواصم، ولهم إتصالاتهم السرية المنظمة، وأنصارهم الكثيرون في تونس، وليبيا والجزائر...» (226).

وقد نظموا دعاية في صفوف المغاربة المجتدين داخل الجيش الفرنسي، واتصلوا بالأسرى لدى الألمان لحملهم على التطوع في الحركات الجهادية التي تساندها الدولة العثمانية معنويا وأديبا، وانتهى بهم الأمر إلى تأسيس لجنة لتحرير المغرب سميت باسم «اللجنة التونسية الجزائرية»، وذلك ببرلين سنة 1916 (227).

هذا بالإضافة إلى وجود مؤشرات توحى بوصول دعاة عثمانيين إلى الأيالة «قصد تحريض الأهالي التونسيين على الانخراط في الجيش العثماني بطرابلس...»، كما أن عددا من الأهالي وقع أخذهم من عدة قبائل، وتوصلوا لعبور الحد التونسي الطرابلسي...» (228).

كما وصلت رسالة يامضاء محمد - من صالونيك - بتاريخ 24 مارس 1912

= مجلة تحمل نفس الاسم. عين عضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق وعضوا في المجمع اللغوي بالقاهرة، كما ترأس جمعية «جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية»، وفي سنة 1952 عين شيخا للأزهر توفي سنة 1958 أنظر: كرو، المرجع السابق، محمد موعده، محمد الخضر حسين، حياته وآثاره، 1873 - 1958، تونس، الدار التونسية للنشر، 1974، وكذلك GREEN, the Tunisian Ulama...p. 251-252.

(225) اسماعيل الصفايحي: ولد بتونس سنة 1849، إلتحق بجامعة الزيتونة سنة 1865 فأخذ عن عدة مشايخ كسالم بوحاجب والشاذلي بن القاضي. أحرز على رتبة التطويع سنة 1877، وسنة 1889 عين مدرسا بالصادقية، كما قُدّم سنة 1895 للقضاء الحنفى. توجه سنة 1914 للحج، ومن هناك للآستانة حيث تولى مناصب علمية مختلفة، توفي سنة 1917. حول ترجمته أنظر: MAHOUBI; Les Origines..., p. 281; de même AYADI, Mouvement réformiste..., p. 141.

(226) كرو، المرجع السابق، ص 24.

MAHOUBI; Les Origines..., p. 160. (227)

A.G.T., Circulaire date du 28/2/1912, G 3 (Circulaires divers) d. 33. (228)

إلى صالح البكوش فايد باجة، أوضح له فيها «تعاطف العثمانيين والمسلمين بصفة عامة مع كلّ الشعوب الإسلامية الخاضعة للدّول الأوربية، ويدعوهم إلى الاعتماد على وحدتهم للوقوف في وجه الذين يكبلون المسلمين، ويقتلون إخوانهم في إفريقيا، وطرابلس، وكذلك في المغرب...» (229).

كلّ هذه العوامل الدّاخلية والخارجية ساهمت في إيجاد المجذاب نحو المشرق وخاصة نحو دار الخلافة (230)، سيحلّ بالآيالة في العشرة الأولى من القرن العشرين.

وهو المجذاب أريك السّلطة الإستعمارية بها، خاصة بعد أن وقفت على بعض الأدلّة التي أكّدت لها وجود ذلك الولاء، وذلك التعلّق.

من ذلك إعلانات علّقت بجامع الزيتونة «دعت إلى رفض كلّ إعانة لفرنسا بما في ذلك دفع الضرائب لها، لأنها [في نظرهم] تقا تل الخليفة، كما أنّ ثلاثة من الطلبة عشر على تلك الإعلانات بين أيديهم تمّ اعتقالهم بدون مقاضاة مدّة سنة، ثم وضعوا تحت الإقامة الجبرية...» (231).

كما أنّه لما قام أحد المسؤولين الفرنسيين بجولة تفقّدية في الجنوب - في أوت 1915 - «تفطّن إلى أنّ لأعيان صفاقس تعلّقاً واضحاً بتركيا، وأنّ للمثقفين بقابس عدااء لفرنسا...، حتى أنّ كاتب الفايد - هناك - كان يحضر اجتماعات تلك الأوساط...!» (232).

هذا بالإضافة إلى دخول بعض الكتب إلى الآيالة نذكر منها مجموعة أشعار بعنوان «صوت الحرية والوطن» وهي قصيدة «معربة من التركية نظماً...، يتغنّى بها كلّ تركي حرّاً على وجه الأرض...» (233) وفق ما كتب على غلافها.

Ibid., E 550/ 30 - 1. (229)

TLILI (B.), "Les rapports Arabo-Turcs à la veille de la grande guerre (1907 - 1913)", Les Cahiers de Tunisie, Tunis, les Presses de la Société Tunisienne des Arts

Graphiques, t. XXIII, n°= 89-92, 1er et 2è trimestre, 1975, pp. 33 - 140.

GOLDSTEIN (D.), Libération ou annexion: aux chemins croisés de l'Histoire (231 Tunisienne, 1914 - 1922, Tunis, Maison Tunisienne de l'Édition, 1978, p. 139.

Ibid., p. 140. (232)

A.G.T., Note datée du 15/11/1910, E 550/30 - 1. (233)

تلك هي أهمّ المعطيات المتعلقة بالوضع المتميّز الذي كانت عليه الإيالة في علاقتها بها بالشرق وخاصة بدار الخلافة قبيل الحرب العالمية الأولى.

وهو وضع زاد السّلط الإستعمارية في تونس تخوّفاً من اندلاع الجهاد ضدها خاصة بعد دخول تركيا - رمز الخلافة عند المسلمين - الحرب إلى جانب ألمانيا، وإصدار شيخ الاستانة لفتوى في وجوب إعلان الجهاد المقدّس من كافّة المسلمين ضدّ فرنسا وحليفاتها، وهي فتوى وقع الترويج لها في معظم أنحاء العالم الإسلامي قصد تثوير شعوبه، وتأليبها ضدّ فرنسا.

فكيف واجهت السّلط الإستعمارية الأمر في تونس؟

تمثّلت الإجراءات «الوقائية» للسّلط الإستعمارية بالآيالة في العمل على محاصرة «الدّعاية العثمانية» داخلها.

لذلك راسلت المراقبين المدنيين، والمسؤولين على مكاتب الشؤون الأهلية تأمرهم بيبثّ العيون للتعرفّ على الدّعاة العثمانية، وحصر عددهم ومناطق وجودهم.

وباندلاع الحرب العالمية الأولى وصلت تلك الإجراءات الأمنية أوجها بصدر أمر عليّ مؤرّخ في 29 جويلية 1914 يتعلّق برعايا الآيالة الذين «كانوا بأسارحوا - عصيانا منهم زمن انتصاب الحماية الفرنسية - الإيالة، ولم يعودوا... إليها، وأنّ مكاسبهم بقيت معرّقة أثناء كلّ تلك المدة...» (234).

لذلك نصّ فصله الأوّل على أنّه «يعتبر عصاة التّونسيون الذين تركوا الإيالة...، ولم يعودوا إليها...، أو التّونسيون الذين خدموا أو يستخدمون بجيش أجنبي بدون الحصول على رخصة في ذلك...» (235).

أما الفصل الثامن - من الأمر المذكور - فقد منحهم ثلاثة أشهر منذ تاريخ نشره «للدّخول تحت الطّاعة والرّجوع إلى مسكنهم...» (236).

(234) «نسخة أمر عليّ»، جريدة الزهرة، تونس، المطبعة التونسية، عدد 2021، السّنة 26، ليوم 1914/10/27، ص 2.

(235) نفس المصدر

(236) نفس المصدر والصفحة.

في حين أعلن الأمر العلي المؤرخ في 2 أوت 1914 حالة الحصار بالمملكة التونسية (237).

هذا بالإضافة إلى ضرب مراقبة شديدة على «المشبهو فيهم»، وعلى «عائلات المهاجرين، والفارين، وذوي الميولات المعادية للإستعمار، كما تمّ إيقاف بعض المروجين لإشاعات مغرضة بين العربان بالجنوب، وتسليط عقوبات شديدة عليهم...» (238).

ولم تغفل السلط الإستعمارية أيضا عن تسليط مراقبة على الطرق الصوفية، وتحميل مشائخها إلى جانب أعيان البلاد مسؤولية السهر على الأمن العام، والحيلولة دون القيام بأعمال تخريبية قد تستهدف الخطوط الحديدية (239).

كما سلّطت «رقابة شديدة على الصحف الأجنبية والمحلية، وكانت [السلط] لا تتردد في حذف أيّ خبر من المراسلات الشخصية يتضح لها أنه قد يعكّر صفو الأمن العام، وتمت مراقبة الاتصالات مع الخارج، في البداية مع البلدان الإسلامية، وفي مرحلة ثانية مع كلّ البلدان، وأما بالنسبة للبريد الوارد من فرنسا إلى تونس فقد وقع الاكتفاء بفتح رسائل الأشخاص المشبهو فيهم...» (240).

تلك هي مميّزات الوضع الداخلي للإيالة قبيل الحرب العالمية الأولى، وإذ أطلنا حوله الحديث فلنحدّد الإطار التاريخي الذي ستتنزل فيه مواقف الطرق الصوفية في البلاد من تلك الحرب، ومدى خطورة الوضع الذي كانت عليه السلط الإستعمارية بها آنذاك، لتبيّن أهمية مواقف تلك الطرق في معالجة ذلك الوضع بمحاولة مسكه والسيطرة عليه.

ذلك أنّ أهمّ إجراء قامت به حكومة الاحتلال في البلاد - عند اندلاع الحرب العالمية الأولى ودخول تركيا فيها إلى جانب ألمانيا - تمثّل في توجيهها إلى العلماء والهيئات الشرعية الرسمية وخاصة مشائخ الطرق والزوايا - قصد

(237) «إعلان حالة الحصار بالمملكة التونسية»، نفس المصدر، عدد 1940، السنة 26، ليوم 5 أوت 1914، ص 2.

GOLDSTEIN, op. cit, p 121. (238)

Ibid., p 122. (239)

Ibid., p 123. (240)

حصولها على تأييدهم لها، وحملهم على إعلانهم لمساندتها والوقوف إلى جانبها ضدّ تركيا، مقدّرة ما لهم من تأثير على الأهالي.

فهل تمّ لها ذلك؟

ب - ردود فعل الطّرق الصوفيّة في الآيالة :

إنّ حرص حكومة الإحتلال في تونس على كسب ولاء الأطراف الدينيّة والإجتماعية الفاعلة فيها ينبع من تخوّفها من النّفوذ الذي تملكه تلك الأطراف، والذي قد يُستعمل ضدها، بالإضافة إلى تقدير السّلط الإستعمارية للنتائج المحليّة وحتىّ الخارجيّة التي يُمكن أن تترتّب عن إعلانهم على رؤوس الملال لذلك الولاء.

لهذه الإعتبارات وغيرها بادرت حكومة الإحتلال بنشر مواقف الولاء والتأييد لها في الحرب ضدّ تركيا، طمعاً في كسب الرأي العام الإسلامي، وسعيّاً منها لإحداث قطيعة بينه وبين تركيا للحدّ من الشعور بالولاء للخلافة، وخاصّةً للتخفيف من فاعليّة فتوى شيخ الاسلام الدّاعية إلى إعلان الجهاد المقدّس على فرنسا وحليقاتها أعداء الإسلام.

فما هي الأطراف التي صدرت عنها المواقف المشار إليها، والتي بادرت السّلط الإستعمارية بالآيالة إلى نشرها منذ الأشهر الأولى لاندلاع الحرب، وما هي محتوياتها؟

إنطلاقاً من المصادر التي أمكننا الإطلاع عليها، فإن تلك المواقف صدرت عن الأطراف التالية:

الإطراف الصادرة عنها المواقف	وظيفتها الدينية بالإيالة التونسية	الجهة الموجه إليها الموقف	تاريخ الموقف	اللغة الصادرة بها الموقف
محمد بن شعبان	شيخ مشايخ الطريقة القادرية	موقف موحد	1914/11/8	العربية (241)
محمد البشير الشّريف	شيخ مشايخ الطريقة الرحمانية	إلى المقيم العام		الفرنسية (242)
أحمد الشّريف	شيخ مشايخ الطريقة العيساوية			
محمد بلحسن	شيخ مشايخ الطريقة الشاذلية	المقيم العام	1914/11/8	العربية (243)
أحمد الشّريف	شيخ مشايخ الطريقة العيساوية	المقيم العام	1914/11/8	الفرنسية (244)
حمده بن علي ابن عيسى	شيخ الرحمانية بزاوية الكاف	المقيم العام	1914/11	العربية (245)

(241) محمد ابن شعبان، محمد البشير الشّريف، أحمد الشريف، «شواهد الإخلاص»، الزهرة، السنة 26، عدد 2039، ليوم 1914/11/17، ص2، أنظر كذلك C.N.U.D.S.T., Tunisie, Guerre 1914 - 11/1914, f 138; de même "Les Musulmans Français et la guerre, adresses et temoignages de fidélité des Chefs Musulmans et des Personnages religieux", Revue du Monde Musulman, Paris, Ernest Leroux éditeur, t. 21, vol. XXIX, R.M.M. (décembre 1914), p. 274

A.G.T., D 93 - 3. (242)

(243) محمد بلحسن، «شواهد الإخلاص»، جريدة الزهرة، السنة 27، عدد 2047 ليوم 1914/11/25، ص2.

A.G.T., D 126 - 21 (244)

(245) حمده ابن علي بن عيسى «رسائل الإخلاص»، جريدة الزهرة، السنة 27، عدد 2049، ليوم 1914/11/27، ص2.

محمد العربي الشّريف بالقاسم الشريف	شيخ زاوية القادرية بنقطة شيخ زاوية القادرية بفقصة	المقيم العام	1914/11/12	العربية (246)
محمد العربي الشّريف	شيخ زاوية القادرية بنقطة	المراقب المدني بفقصة	1914/11/12	العربية (247) الفرنسية (248)
بالقاسم الشريف	شيخ زاوية القادرية بفقصة			
محمد الفيزوني	شيخ زاوية العتساوية بالكاف	المقيم العام	1914/11/17	العربية (249) الفرنسية (250)
الحاج الطاهر الشّريف	شيخ الطريقة العتساوية	المقيم العام	1914/11/18	الفرنسية (251)
محمد بالحاج اللوز	نائب العتساوية فقصة	المراقب المدني بفقصة	1914/11/18	العربية (252) الفرنسية (253)

(246) محمد العربي الشّريف، بلقاسم الشّريف، «رسائل الإخلاص»، نفس المصدر، السنة 27، عدد 2049، ليوم 1914/11/27، ص 2.

(247) محمد العربي الشّريف، بلقاسم الشّريف، «رسائل الإخلاص»، نفس المصدر، السنة 27، عدد 2049، ليوم 1914/11/27، ص 2.

(248) خزينة الوثائق التونسية، س، د، صد. 106، مل. 2.

(249) الفيزوني محمد، «رسائل الإخلاص»، الزّهرة، السنة 27، عدد 2049، ليوم 1914/11/27، ص 2.

(250) خزينة الوثائق التونسية، ص. د، صد. 130، مل. 4.

(251) C.N.U.D.S.T, Tunisie, Guerre 1914 - 1918, vol. 1650 (août - novembre 1914), f. 174.

(252) محمد بن الحاج اللوز، «رسائل الإخلاص»، الزّهرة، السنة 27، عدد 2049، ليوم 1914/11/27، ص 2.

(253) خزينة الوثائق التونسية، س. د، صد. 134، مل. 1.

يوسف بوحجر السّهيلي	شيخ زاوية الرحمانية بقفصة	المقيم العام	1914/11/19	العربية (254)
مصطفى بن الحاج مبارك	مقدم زاوية الرحمانية بتالة	المراقب المدني بتالة	1914/11/20	الفرنسية (255)
محمد الصالح العمراني	شيخ زاوية الرحمانية بعين الصّابون	المقيم العام	1914/11/23	العربية (256)
عبد الحميد بن عزّوز	شيخ الرحمانية بالقيروان وجلاص	المقيم العام	1914/11/24	العربية (257) الفرنسية (258)
حسّونة بن عبد الملك	شيخ الرحمانية بأولاد عون	المقيم العام	1914/11/27	العربية (259) الفرنسية (260)
عمر بن الشيخ أحمد	شيخ العيساوية بطبرية	المقيم العام	1914/11/27	العربية (261)
محمد الشريف	شيخ مشائخ السلامة	المقيم العام	نوفمبر 1914	الفرنسية (262)

(254) يوسف بوحجر السّهيلي، «رسائل الإخلاص»، الزّهرة، السنة 27، عدد 2049، ليوم 1914/11/27، ص 2.

(255) محمد الصالح العمراني «رسائل الإخلاص»، نفس المصدر، السنة 27، عدد 2049، ليوم 1914/11/27 وكذلك عدد 2055، ليوم 1914/12/3، ص 2.

(256) مصطفى بن الحاج مبارك، نفس المصدر.

(257) عبد الحميد ابن عزّوز، «رسائل الإخلاص»، نفس المصدر، السنة 27، عدد 2056، ليوم 1914/12/4، ص 2.

(258) خزانة الوثائق التونسية، س د، صد. 172، مل. 3.

(259) حسّونة ابن عبد الملك، «رسائل الإخلاص»، الزّهرة، السنة 27، عدد 2054، ليوم 1914/12/2.

(260) خزانة الوثائق التونسية، س. د، صد. 97، مل. 3.

(261) عمر ابن الشيخ، «رسائل الإخلاص» الزّهرة، السنة 27، عدد 2053، ليوم 1914/12/1، ص 2.

(262) C.N.U.D.S.T., Tunisie, Guerre 1914 - 1918, vol. 1650..., f. 173.

تلك هي أهم الأطراف (263) - في حدود اطلاعنا - التي عبرت عن مواقفها من دخول تركيا الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا، والتي رغم تعددها، واختلاف الجهات الصادرة عنها تتفق في جملة من المحاور من أهمها:

* تعبير تلك الأطراف عن الإستياء والأسف الذي حاق بها بسبب دخول تركيا تلك الحرب إلى جانب ألمانيا، وتأكيدا (تلك الأطراف) على تجديد الولاء والاخلاص «للملك والدولة الحامية»، متبرقة مما صدر عن تركيا، ومتمسكة بمواقف الودّ والوفاء لفرنسا.

* تعديدها، وتنويهها بالمكاسب «التي تحققت في الإيالة على يد فرنسا» كقول بعض تلك الأطراف بأنها «تسعى فيما يعود [على الرعية] بالرفاهية والترقي...»! (264)، وكل ما من شأنه أن يمتنعها «بمنافع الحضارة والتقدم...»! (265).

إلى جانب تحقيق فرنسا «لأمن الطرقات، وتهذيب البلاد والعباد...» (266)، و«نشر التعليم، وتذليل الصعوبات، وتأمين الطرقات...»! (267). هذا بالإضافة إلى تأكيد كل الأطراف تقريبا على احترام الإستعمار الفرنسي في تونس «للسعائر الدينية والعوائد القومية، [ومحافظته عليها]...» (268).

263) استثنينا من هذا الجدول مواقف مشائخ الزوايا غير الطرقية كزاوية سيدي محرز، وابن عروس، والزاوية البكرية، وزاوية سيدي الباهي، وغيرها باعتبارها لا علاقة لها بموضوع البحث.

264) محمد ابن شعبان، محمد البشير الشریف، وأحمد الشریف، المصدر السابق، ص 2.

265) ابن عيسى، المصدر السابق، ص 2، اللوزو المصدر السابق، ص 2، ابن عبد الملك، المصدر السابق، ص 2.

266) محمد العربي الشریف، بلقاسم الشریف، المصدر السابق، ص 2.

267) A.G.T., B 550 30/15 - 894.

268) ابن شعبان، محمد البشير الشریف، وأحمد الشریف، المصدر السابق، ص 2، بلحسن، المصدر

السابق، ص 2، ابن علي بن عيسى، المصدر السابق، ص 2، الشریف، محمد العربي ويلقاسم

الشريف، المصدر السابق، ص 2، اللوز، المصدر السابق، ص 2، ابن عزوز، المصدر السابق،

ص 2، ابن عبد الملك، المصدر السابق، ص 2، ابن الشيخ، المصدر السابق، ص 2، وكذلك

C.N.U.D.S.T., Tunisie Guerre 1914 - 1918..., f. 173 et f 174.

ولهذه الاعتبارات وغيرها دعت تلك الأطراف لفرنسا «بازدياد عزّها وشرفها، مع الظفر والنصر» (269)، لأنّ - في رأيها - «في انتصارها (فرنسا) انتصار للمسلمين...» (270)!!

* إتفاق أغلب تلك الأطراف - التي صدرت عنها تلك المواقف - على تحميل ألمانيا مسؤولية دخول تركيا الحرب العالمية الأولى إلى جانبها. حيث كانت تركيا - في نظرهم - ضحية «إغراء ودسائس ألمانيا» (271)، و«إمبراطورها الباغي، ورجال دولته...» (272)، مع نعت ألمانيا بـ«الباغية» (273)، و«المتوحّشة» (274)، و«الخزّونة» (كذا) التي لا صديق لها في العالم أجمع...» (275).

وانطلاقاً من هذه المحاور - التي يكاد يلتقي حولها جلّ أصحاب المواقف السالفة الذكر - يمكننا إبداء الملاحظات التالية:

* أنّ هذه المواقف - الصادرة عن أطراف متعدّدة - يبدو لها نفس المحتوى، ممّا يجعل التأمّل فيها لا يكاد يلاحظ إلاّ التقديم أو التأخير في الكلمات، وكأنّ محتوياتها مقتبسة عن بعضها البعض، ممّا يوحي بإمكانية وجود تنسيق مسبق بين أصحابها، أو على الأقلّ إتفاقهم المسبق حول محاور معيّنة كالإعراب عن الاستياء والأسف من دخول تركيا تلك الحرب، واعتبار ذلك ليس ملزماً لها، ولا يغيّر شيئاً من ولائها لفرنسا، مع تعديد مزاياها على البلاد والعباد والدّعاء لها بالنصر.

26. صدر ذلك الدّعاء عن كلّ الأطراف المذكورة في الجدول السابق

(270) بلحسن، المصدر السابق، ص 2، وكذلك، C.N.U.D.S.T., Tunisie, Guerre 1914 - 1918 f 173 et 174

(271) نفس المصدر، ص 2، ابن الشّيح، المصدر السابق، ص 2، وكذلك، C.N.U.D.S.T., Tunisie, Guerre 1914 - 1918 f. 173 et 174.

(272) ابن الشّيح، المصدر السابق، ص 2

(273) بلحسن، المصدر السابق، ص 2

(274) ابن شعبان، محمد البشير الشّريف وأحمد الشّريف، المصدر السابق، ص 2، اللّوز، المصدر السابق، ص 2، السّهلبي، المصدر السابق، ص 2، ابن عبد الملك، المصدر السابق، ص 2، وكذلك، A.G.T., E 550 30/15 - 894.

(275) الفيزوني، المصدر السابق، ص 2

كما يمكن أن يكون ذلك التشابه — في محتويات تلك المواقف — راجعا إلى تأثر أصحابها — عند صياغتهم لها — بخطاب الحضرة العلمية (276).

* أن بعض الطرق — في مواقفها — فسرت دخول تركيا تلك الحرب بدسائس ألمانيا، وإغرائها، مشهورة — كذلك — بـ «رجال الدولة العثمانية...» (277).

فهل يمكن إعتبار ذلك تبرئة منها — غير مباشرة — لساحة تركيا، مما قد يبرهن على وجود تعاطف تجاهها، مسايرة من بعض مشائخ الطرق لمشاعر أتباعهم؟

كما نجد نفس تلك المعاني في الخطاب الملوكي الذي جاء فيه «أن مقاطعة فرنسا للدولة العثمانية، ليس المقصود منها معاداة الأمة التركية بأجمعها... بل هو عدااء لكل أولئك الأفراد الذين إستعبدتهم ألمانيا بدسائسها وأموالها...، فزاعوا عن جادة الصواب، وسلخوا بدولتهم مسلك التهلكة بطريق الخيانة، وسفك الدماء...» (278).

على أن إدانة الماسكين بزمam السلطة السيّامية بتركيا — آنذاك — نلمسها بأكثر وضوح في مواقف الطرق الصوفيّة بالجزائر، التي اعتبر بعضها أن تركيا في «يد غلمان تربوا في ألمانيا، وليس لهم من الإسلام إلا إسمه...» (279)، وأن «العهد على أنور باشا» (280)، ومن شاركه [في ذلك] الأمر

(276) «خطاب ملوكي لعامة الرعايا التونسيين»، الزهرة، السنة 27، عدد 2033، ليوم 1914/11/11، ص 1 وكذلك، «خطاب ملوكي موحه من الحصرة العلية الى كافة الرعايا التونسيين». R.M.M, p 270

277 بلحسن، المصدر السابق، ص 2، اللوز، المصدر السابق، ص 2، ابن عبدالمك، المصدر السابق، ص 2

(278) «خطاب ملوكي لعامة الرعايا التونسيين»، المصدر السابق، ص 2

(279) محمد، الصغير، «داء السيد محمد الصغير بن الشيخ المختار — شيخ الطريقة الرحمانية في زاوية أولاد جلال». R.M.M, p. 204.

(280) أنور ناشا، ولد باسطنبول سنة 1881، تخرج من الأكاديمية العسكرية ناسطول سنة 1902، إضرط في «جمعية الاتحاد والترقي» التي كانت وراء ثورة 1908/7/24 عيّس سنة 1909 ملحقا عسكريا ببرلين لا تقاها للغة الألمانية، وهناك أعجب بالقوة العسكرية لألمانيا وفاعلية =

الفضيع...» (281)!

بل وصل الأمر ببعض الطرق الصوفية بالجزائر إلى التبرئ من الأتراك أصلاً، اعتباراً لما قاموا به في الجزائر (282)، وهو ما لا نلمسه في مواقف الطرق الصوفية في البلاد التونسية، التي تشابهت مواقفها — كذلك إلى حد كبير — مع مواقف بعض الطرق الصوفية في إفريقيا الغربية (283).

* إن المتأمل في الأطراف التي صدرت عنها تلك المواقف، يلاحظ أنها لم تشمل كل الطرق، بل اقتصرت — بصفة أخص — على الطرق الهامة بالبلاد، مما يوحي بتقدير السلط الاستعمارية لوزنها الشعبي، وما لمواقفها المنشورة من تأثير على أتباعها العديدين حسب ما اتضح لها — على الأقل — من تلك الدراسات والإحصائيات، فركزت عليها أكثر من غيرها لأهميتها.

تلك هي — في حدود اطلاعنا — أهم محتويات مواقف بعض الطرق الصوفية من دخول تركيا الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا، وهي مواقف — وإن عمل بعض مشائخها على إظهارها بمظهر المعبّرة عن مواقف أتباعهم باستعمالهم أحيانا لعبارة «بالأصالة عن نفسي وعن أتباعي» (284) — فإنها تبدو معبّرة بدرجة أولى على مواقف بعض المشائخ.

= جيشها، تطوع سنة 1911 للقتال في ليبيا، وباندلاع الحرب العالمية الأولى عرف بدفاعه المستميت من أجل تحالف ألمانيا والامبراطوريات الوسطى مما أدى إلى دخول تركيا الحرب ضدّ الحلفاء. أطرد هالكمايو سنة 1922. توفي ببرلين، أنظر: RUSTOW (D.A.), "ENWER PASHA", L'Encyclopédie de l'Islam, t. 2, 1965, pp. 716 - 720.

(281) محمود، ابن سيدي محمد البشير، «وصية السيد محمود بن سيدي محمد البشير ابن القطب الأكبر سيدي أحمد التيجاني لأحباب الطريقة التيجانية أينما كانوا» R.M.M., p. 202 - 204.

(282) شيخ الطريقة التيجانية، «نداء شيخ الطريقة التيجانية لأحباب طريقتهم في العالم الاسلامي» R.M.M., p. 190 وكذلك ميسوم عبدالرحمان، «وصية السيد ميسوم عبدالرحمان ابن الشيخ الميسوم — شيخ الطريقة الشاذلية في زاوية قصر البخاري —» R.M.M. p. 246 - 248، محمد الهاشمي بن ابراهيم، «نداء السيد محمد الهاشمي بن ابراهيم — شيخ الطريقة القادرية في زاويتي توغرت وعميش — إلى كافة اخوان طريقتهم»، R.M.M., p. 240 - 242.

(283) حول مواقف الطرق الصوفية في إفريقيا الغربية، أنظر: R.M.M., vol. XXXII, 1915 - 1916, pp. 15, 16, 64, 17, 118

(284) محمد العربي الشريف وبلقاسم الشريف، المصدر السابق، ص 2، وكذلك السهيلي، المصدر السابق، ص 2، و A.G.T., E 550 30/15 - 894.

لكن هل اقتصرت مواقف الطرق الصوفية في البلاد التونسية — من دخول تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا — على ما نشر لها على صفحات الجرائد والمجلات، أم تظاهرات كذلك في جوانب أخرى لا تخلو — بدورها — من أهمية؟

تشير بعض الدلائل إلى أن بعض مشائخ الطرق في مواقفهم تلك تجاوزوا المستوى الاعلامي الى المستوى العملي بإنجازهم لعدة خدمات لصالح الإستعمار الفرنسي في تلك الظروف الحرجة.

من ذلك أن الشيخ الأزهاري بن مصطفى بن عزّوز — شيخ الرحمانية بنقطة — كُلف «بتمهيد الأمن بين بعض عروش متحاربة، وبمدّ الدولة بما تحتاجه من الخيل، وحثّ الأهالي على الانخراط في الجندية...» (285).

كما وصلته تعليمات من شيخ الطريقة بزاوية الرحمانية بطولقة — بالجزائر — يأمره فيها بالتوجه بها إلى الاخوان «أعراش (كذا) طرود والنماشة لينشر العافية بينهم، ويبصرهم لمحبة الدولة الفرنسية...» (286).

أما شيخ العيساوية بطبرية فقد «نصح [الأتباع] — أثناء الحرب في اجتماعاته داخل الزاوية وخارجها — بالخضوع، والطاعة لفرنسا، الأمر الذي نتج عنه الهدوء والاستقرار بالجهة...» (287) على حدّ قوله.

أما الدور البارز — على ما يبدو — فقد قام به المتوبي — شيخ الزاوية التيجانية ببوعرادة — الذي كتب رسالة مسجوعة كلّها دعاء بالنصر والتّمكن لفرنسا، ومّا جاء فيها قوله: «[نسأل] الله العزيز الديان الحفظ والأمان لعساكرنا في كلّ مكان...، ولدولة الألمان يعوقهم الزمان في العساكر والحال والأبدان...، والذلّ في كلّ مكان...» (288).

(285) خزانة الوثائق التونسية، رسالة من الأزهاري بن مصطفى بن عزّوز إلى الوزير الأكبر، بتاريخ 1925/4/28، س. د، صد. 112، مل. 9، أنظر الملحق رقم 7.

(286) نفس المصدر، رسالة من عمر بن علي بن عثمان إلى بلان الكاتب العام لتونس، بتاريخ 1915/2/3، س. د، صد. 178، مل. 4.

(287) A.G.T, El Hadj Amor ben Cheikh Ahmed au Délégue au Ministère d'Etat du Gouvernement Tunisien, le 13/11/1929, D 126 - 7.

(288) خزانة الوثائق التونسية، رسالة الشيخ المتوبي التيجاني إلى المقيم العام (غير مؤرخة)، س. د، صد، 156، مل. 21، أنظر الملحق رقم 8.

إلى هذا يضاف ما قام به من تهدة للأوضاع بمنطقته، بحيث أنه بتدخلاته، ووساطاته واستعماله لنفوذه، المادي والروحي «أمكن إعادة الفارين من الجندية إلى فيالقهم ببنزرت وغيرها...» (289).

كما جاء - في رسالة أخرى له - قوله: «... إنَّ ابني الوحيد الشريف محمد التيجاني (290) كان قد تطوَّع - بأمر مني وبموافقتي - لقنال الأعداء [الألمان]، إذ أن أعداء فرنسا هم أعداؤنا، [فهو بذلك] الوحيد من كل المشايخ، الوحيد من كل أتباع كل الطرق الصوفية بإفريقيا، الوحيد من الأشراف المنحدرين من الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي عبَّر بطريقة ممتازة عن الولاء والتعلُّق الدائم بفرنسا، وذهب يمنح دمه وحياته للدفاع ضدَّ العدوَّ المشترك...» (291).

كما قام الشيخ المذكور بتحريض «الضباط الفريديَّة (أي ذوي الرتب)، والجنود العسكرية، والمراقبات المدنية، وجميع الأهالي من عرب وبدوية، أن يمددوا يد المساعدة بالدفاع في محاربة دولة الألمان الظالمين الحركائمية (كذا)، أصحاب المكر والخدع والشر والبدع...»، [كما حُرِّض] الإخوان على الدفاع على دولة فرنسا الفخيمة والأمة الكريمة...» (292).

وفي رسالة من محمد الشريف بن المتوبي التيجاني - ابن شيخ زاوية التيجانية ببوعراة المذكور - إلى وزير الدعاية الفرنسية بباريس ورد قوله: «... لما اندلعت الحرب سنة 1914 كان أبي له من العمر سبعين سنة، وكنت ابنه الوحيد، ورغم أنني معفى من الخدمة العسكرية...، ولي صحة سريعة العطب...، فإنَّ أبي أمرني بالإلتحاق بالجبهة...، كما نصَّح بالهدوء والخضوع لفرنسا في كل مكان، وشجَّع الإنخراط في الخدمة العسكرية، كما أمر - أحيانا - العائلات بأن يرجعوا بأنفسهم أبناءهم الفارين إلى فيالقهم، لقد كان لي من العمر إثنتين

A.G.T., Le Cheikh El Manoubi Tidjani à Briand, le 7/11/1926, D 156 - 21. (289)

(290) محمد الشريف بن الشيخ المتوبي التيجاني، اشتهر بحبه للمغامرة قصد توفير المال، فأسس جريدتي «المنصف» سنة 1907 و«التسامح» سنة 1909، كما سافر عدة مرَّات الى المغرب وباريس حيث كان مولعاً بالشَّبه بالأوروبيين. خلف والده على مشيخة الزاوية التيجانية ببوعراة أنظر: A.G.T.,

Note du R G de la France au Maroc au sujet du Chénf Tidjani, le 7/11/1924, D 156 - 21.

Ibid, du même au même, le 7/11/1929, D 156 - 21. (291)

(292) خزينة الوثائق التونسية، رسالة محمد المتوبي التيجاني الى الكاتب العام بالدولة التونسية، بتاريخ 1915/11/17، ص. د، ص. د. 156، مل. 21

وعشرين سنة لما تطوّعت في الحرب كجندي بسيط التحق بالجبهة في شمال فرنسا...، إلا أنه تمّ إجلائي...، على إثر نزلة رئوية ألّت بي على إثر البرد والأمطار هناك...، وهي نزلة أصابت منّي الرئة اليسرى ولازلت أعاني من مضاعفاتها، وبعد إحدى عشرة شهر قضيتها بالمستشفى وقع تسريحني من طرف لجنة الإعفاء من الخدمة العسكرية...، وخلال فترة النقاهة طلب مني الجنرال سرفيار (Sérvière) زيارة دور النقاهة والمستشفيات التي يوجد بها المسلمون...، وذلك للرفع من معنوياتهم، وتشجيعهم على العودة إلى الجبهة.

لقد تكلمت في كلّ مكان لصالح فرنسا، حتّى أنّ بعض خطاباتي نشرت من طرف ارنست دوداي (Ernest Daudet) ضمن كُتيب صغير تحت عنوان «العرب والحرب، 1914-1915» (293)...، لكن رغم كلّ ذلك لم أطلب شيئاً مقابل خدماتي...» (294).

وفي خطاب أمام «الرماة Les Tirailleurs» ورد قوله: «إنّ علينا أكثر من واجب، بل إنّ لنا ديناً نجاه فرنسا علينا أن نسدّه بكلّ شرف، فالقرآن يأمر المسلمين بأن يحموا حاميهم، ولذلك فإنكم مدعوون للتضحية بحياتكم للدفاع عن فرنسا...، فالذين يحصل لهم شرف الموت في هذه الحرب يتقبلهم الله برحمته تماماً كالذين يموتون أثناء الحج...، فالفرنسيون إخواننا ولا مجال لأن ندعهم لوحدهم...!» (295).

فواضح من خلال هذه الرسالة مدى التوظيف الذي عمدت إليه فرنسا لأحد أبناء مشائخ الزوايا، كما يتّضح كذلك مدى خدمات هذا الأخير للإستعمار الفرنسي أثناء الحرب العالمية الأولى، وخاصة اتّصاله بالمرضى المسلمين «لرفع من معنوياتهم وتشجيعهم على العودة إلى الجبهة» على حدّ قوله، وهو عمل يمكن أن يفهم على أنّه ردّ فعل على ما قام به بعض الذين غادروا الإيالة واتّصلوا بالأسرى المسلمين لدى الألمان لحملهم على التطوّع في الحرب ضدّ فرنسا وحلفائها، علماً وأنّ محمد الشريف التيجاني - المذكور - كان قد شغل رئاسة «اتحاد شمال

DAUDET (E), *Les Arabes et la Guerre*, Paris, Imp. Artistique "Lux", 1915. (293)

C.N.U.D.S.T., *Le Chérif Tidjani au Ministre de la guerre à Paris, le 14/12/1930, Tunisie* (294)
1917 -- 1940, dossier n° 2, 12/1930 - 7/1938,..., f. 2, 3

DAUDET, *op.cit.*, p. 30. (295)

إفريقيا لقدماء المحاربين المستطوعين في الحرب الكبرى» (L'Union Nord 296) "Africaine des Anciens Combattants engagés volontaires de la grande guerre".

غير أن المشاركة الفعلية في الحرب إلى جانب فرنسا لم تقتصر على زوايا الطرق السالفة الذكر، بل شملت الطريقة الرحمانية التي أشار شيخها بالقيروان وجلال بص كل فخر واعتزاز الى وجود «أبنائه الروحيين» (297) في ميادين القتال الى جانب «العساكر الفرنسية الباسلة...» (298) على حدّ قوله.

واعتماداً على ما ذكر، يمكننا أن نقول أن نسبة كبيرة من الثمانين ألف عسكري تونسي الذين جندوا في تلك الحرب (299)، قد يكونون جندوا بتأثير بعض مشائخ الطرق الصوفية، علماً وأن أعلامها وسناجقها قد صاحبت الجنود التونسيين إلى جبهات القتال تيمناً وتبركاً بها، ولاستعمالها من قبل السلط الاستعمارية في إثارة حماس الجنود، وتحريضهم على الاستبسال في القتال تحت رايات زواياهم.

حتى أنه تمّ «أثناء الطواف بها...» [تجميع] ثلاثمائة وأربعة وستين فرنكا وزعت - حسب رغبات أصحابها - (300) على الزوايا الهامة بالولاية...» (301).

من ذلك أنه تمّ توزيع مائة خبزة في زاوية سيدي عبدالقادر الجيلاني - بالديوان - ثمنها عشرون فرنكا دفعها جناب شيخ المدينة من المال الذي وجهته العساكر بفرنسا...، جعلها الله صدقة بالغة...»! (302).

C.N.U.D.S.T, Le Chénf Tidjani à M. Frossard - Ministre de la propagande à Paris, le 296
3/4/1938, Tunisie 1917 - 1940, dossier n°= 2, 12/1930 - 7/1938., f. 111.

297 ابن عزّوز، «رسائل الاخلاص»، المصدر السابق، ص 2.

298 نفس المصدر والصفحة.

KASSAB, op.cit. p. 378. (299)

A.G.T, Le Secrétaire Général au Chef de Service Central des Affaires Indigènes en 300
Tunisie, le 14/1/1919, D 97 - 6.

Ibid., Le R.G au C.C. de Sousse, Le 29/9/1918 301

Ibid. 302

تلك هي أهمّ المواقف والتحركات التي صدرت عن بعض الطرق الصوفية أثناء إندلاع الحرب العالمية الأولى ودخول تركيا فيها إلى جانب ألمانيا، وهي - وإن كانت متنزلة في إطار وظروف معينة تأثرت بها - فإنّها في الواقع تكشف عن التوجّه الرّسمي الذي دأبت عليه بعض الطرق - ليس إزاء ظروف استثنائية كالحرب المشار إليها - وإنما تجاه السياسة العامّة لحكومة الاحتلال في البلاد التّونسية.

II - الطرق الصّوفية والسياسة الإستعمارية:

رغم وجودها السّابق لدخول الإستعمار الفرنسي للبلاد التّونسية، ورغم تجذّرها في واقع الإيالة مع ما تملكه من إمكانيات ماديّة وبشريّة هامّة فإنّ الطرق الصّوفية لم تكن لمعظمها مواقف واضحة إزاء العديد من الأحداث التي جدّت بها، وإزاء مختلف مجالات السياسة الإستعمارية بالبلاد.

1) مواقف الطّرق الصّوفية من السياسة الاستعمارية بالآيالة:

أ - مواقفها من السياسة الاستعمارية في المجالين الاقتصادي والاجتماعي:

رغم أنّ السياسة الإستعمارية في هذا المجال قد استهدفت - منذ السّنات الأولى للإستعمار - المصالح الطرقية بضربها للأحباس العامّة والخاصّة ومنع الزيارات، فإنّنا لا نلمس مواقف واضحة للطّرق من كلّ ذلك باستثناء مطالبة العديد من مشائخها بالتّراجع في قرار منع الزيارات باعتباره يمسّ موردا هاما من الموارد المكوّنة لثرواتهم.

هذا إلى جانب ردود فعلهم عندما حاولت السّلط الإستعمارية ضرب الأحباس الخاصّة سنة 1920، ممّا يوضّح أنّ مواقف الرّفّض أو الإحتجاج لدى الطرق لا تصدر في الغالب إلّا عند تعرّض مصالحها الحيوية للخطر.

وفي ما سوى ذلك، فإنّ مشائخها غالبا ما يتبنّون مواقف رسمية لا تعكس الواقع الإقتصادي والاجتماعي الذي عليه الإيالة، وذلك تقريبا من السّلط الإستعمارية أو على الأقل مجاراة لها.

وهذا نلمسه في مواقف العديد منهم من دخول تركيا الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا، حيث أشاد بعضهم بإنجازات فرنسا في البلاد:

كالقول بأنها نشرت «ثوب الرفاهية والتمدن والرقى، وبثت النفع العام والمصالح التي لم تُعهد في غابر الأزمان، من تهذيب العباد، وتذليل الصعوبات وأمن الطرقات...» (303)، الأمر الذي جعل الناس - على حد قول أحدهم - «منذ ثلث قرن... في أرغد عيش تحت رعاية صاحبة العدالة [فرنسا] راتعين في بحبوحة تلك المزايا التي لا تحصى...» (304).

هذا بالنسبة لمواقفها في الثلاثين سنة الأولى التي تلت دخول الاستعمار الفرنسي للإيالة، أما عن مواقف بعضها من تلك السياسة في الثلث الأول من القرن العشرين فتبدو أكثر وضوحاً.

فماذا كانت مميزات الوضع الإقتصادي والاجتماعي بالبلاد على إثر الأزمة الإقتصادية لسنة 1929، وفي أي شيء تمثلت الحلول التي توخّتها السّلط الاستعمارية لمواجهة الأزمة، وماذا كانت مواقف الطرق الصّوفية من كلّ ذلك؟

* مميزات الوضع الإقتصادي والاجتماعي للإيالة سنة 1930 :

تجلّت انعكاسات الأزمة الإقتصادية العالمية لسنة 1929 في تونس بصفة متأخرة، حيث تمثلت في تضخّم مالي مصحوب بسلسلة من المحاصيل الفلاحية الرديئة «شملت الزيت والحبوب منذ 1929، وفي عامي 1930 - 1931 أهلك الطوفان آلاف الهكتارات كما أفضت الأزمة الإقتصادية - من جهة أخرى - إلى تدهور أسعار الحبوب...» (305).

لقد وصل انحدار أسعار المنتوجات الفلاحية أوجه، حتى أن «ثمن القمح الصّلب وصل في - مراقبة القيروان -... إلى 37 و39 فرنك للمائة كيلو...»

(303) السّهيلي، للصدر السابق، ص 2

(304) الفيّزوني، للصدر السابق، ص 2.

(305) «الفلاحة في خطر، نداء حار من السيّناتور براغجي»، جريدة الزّهرة، السّنة 45، عدد 7657، ليوم 1932/12/1، ص 1.

والشعير 20 و18 فرنك للمائة كيلو...» (306).
وهو أمر حال دون تمكّن الفلاحين من دفع ما عليهم من أشعار وأداءات
دولية وكراء أراضي، بالإضافة إلى ما عليهم من ديون.

لقد دفعت تلك الوضعية الفلاحين إلى الإلتجاء إلى المربين للحصول على
قروض «بفوائض مشطة وصلت حدّ 300٪: فالفلاح الذي يستلف كيسا من
القمح يجب أن يرجع ثلاثة...» (307).

وهي وضعية أجبرت صغار الفلاحين خاصة على بيع أراضيهم، في حين
افتكّت أراضي وحيوانات ومحاصيل المعسرين منهم، وتمّ طردهم من أراضيهم
التي أصبح ثمن هكتارها 1000 فرنك بعد أن كان يساوي - قبل الأزمة - 4000
فرنك (308)، وأصبح العدد اليومي للعقارات المحجوزة - سنة 1934 مثلا -
بمعدل عشرة في اليوم (309).

لقد نجم عن كلّ ذلك نزوح أعداد مهولة من سكّان الأرياف إلى المدن
وخاصة العاصمة التي تكوّنت حولها الأحياء القصديرية، كما تضخّم عدد
سكانها آنذاك: فالملاّسين - مثلا - تضاعف عدد سكّانها، في حين قدّرت نسبة
النموّ السنوي بها - في تلك الفترة بـ 166٪ (310).

هذا بالإضافة إلى تزايد عدد العاطلين، وتفشّي المجاعات والأوبئة، حيث
عمّت الإيالة حالة من البؤس والعُري كانت أكثر حدة على سكّان المناطق الداخلية
منها والذين «كانوا يأكلون الحشيش، ويطبخون الخرشف، ولا يجدون حتى
قشور القمح المعروفة بالنخالة المصنوعة خبزا...» (311).

(306) «اشتداد الكرب على الفلاحين من جرّاء تدهور الأسعار»، جريدة الصّواب، السّنة 30،
عدد 775، ليوم 1935/8/9، ص 2.

(307) M'HALLA (M.M.), *La Crise de 1929 en Tunisie*, Mémoire de maîtrise d'histoire
(dactylographié), Université Paris VII, 1974 - 75, p. 115.

Ibid, p. 116. (308)

Ibid, p. 118. (309)

Ibid., p. 164. (310)

(311) مصطفى ابن شعبان، «المجاعة والبطالة»، جريدة لسان الشعب، تونس، المطبعة التّونسية،
السّنة 14، عدد 559، ليوم 1934/3/7، ص 2، أنظر كذلك M'HALLA, op.cit, p 152.

إن تلك الأوضاع لم تؤدّ إلى العديد من الوفيات خاصّة في الوسط والجنوب (312)، فحسب وإنّما كانت وراء تفاقم عمليات النهب والسلب لمحلّات المواد الغذائية كالدكاكين (313)، والمخابز (314)، وإهراءات الحبوب (315) ممّا أدّى إلى ارتفاع عدد الإيقافات من 851 سنة 1928 إلى 3081 سنة 1934 (316). هذا بالإضافة إلى تعدّد مظاهر الاحتجاج على ما آل إليه الأمر في الإيالة كمظاهرة الفلاحين التونسيين التي نظمتها نقابتهم للإعراب للحكومة على الآلام التي يقاسيها المباشرون للفلاحة، والذين قدموا نقاطا عديدة تحوّل أهم مطالبهم (317).

على أنّ أهمّ ما تجب الإشارة إليه في هذا المجال المظاهرات الشعبية التي جاءت كردّ فعل على ما تعانیه أوسع الفئات الاجتماعية، كمظاهرة توزر (318)، ومظاهرة سوسة (319)، وخاصة الأحداث التي عرفتها الملاّسين في مطلع سنة 1937 (320).

بهذه الحوادث المختلفة بلغت الأزمة أوجها ممّا حتمّ على حكومة الاحتلال الإسراع باتّخاذ عدّة إجراءات لمجابهة الأزمة ومحاولة السيطرة عليها للحيلولة دون تفاقمها.

ففي أي شيء تمثّلت تلك الإجراءات، وماذا كان موقف الطّرق الصّوفية منها؟

M'HALLA. op.cit. p. 152 (312)

Ibid., p.152. (313)

Ibid. (314)

Ibid (315)

Ibid., p.153. (316)

(317) «مظاهرة الفلاحين التونسيين»، جريدة الزّهرة، السّنة 46، عدد 7842، ليوم 12/7/1933، ص 2.

(318) «مظاهرة بتوزر ضدّ الأزمة الحاضرة»، نفس المصدر، السّنة 49، عدد 8839، ليوم 25/8/1936، ص 4.

(319) «مظاهرة البطالين في سوسة، وقوع بعض الحوادث»، نفس المصدر، ص 3.

(320) حول أحداث الملاّسين، أنظر: «في أوساط الجائعين، حوادث مؤلّفة بقرب الملاّسين بين الجائعين وأعوان الأمن»، نفس المصدر، السّنة 49، عدد 9000، ليوم 4/2/1937، ص 3 وكذلك العدد 9001، ليوم 5/2/1937، ص 1 و2، وكذلك:

L'Inspecteur des Services Administratifs au R.G., le 15/2/1937, *Revue WATHA'IQ*, Tunis, Les Imprimeries Réunies, n° 4, 1985, pp. 25 - 69

* الإجراءات المتعلقة بالجانب الاقتصادي والاجتماعي:

بادرت حكومة الاحتلال إلى تأسيس «الصندوق العقاري لتوحيد الديون»،
الغاية منه مدّ الفلاحين بقروض للحيلولة دون بيع أملاكهم، (321)، وذلك
بمساعدهتهم على تسديد «ديونهم إلى حدّ مائة وخمسين ألف فرنك، يخلصون
فيها في ظرف ثلاثين سنة بفائض قدره خمسة في المائة...» (322).

في حين تمثّلت مهمّة الصندوق التونسي للقرض في إعانة الفلاحين على
التصرّف في قروض التوثيق التي تمنحها لهم لجنة إدارية (323).

هذا بالإضافة إلى صدور عدّة أوامر تتعلق «بتوقيف قضايا الحجز العقاري
المرفوعة ضدّ الفلاحين وأرباب العقارات الفلاحية، على أن يكون ذلك التوقيف
بصفة وقتية، ومنحهم أجالا - ، على وجه الفضل - ، تسمح لهم سواء الإنتفاع
بتسهيلات في الخلاص بالتي هي أحسن، أو بالإلتجاء للمؤسسات المعدّة لتوحيد
الديون... [لذلك] فإنّ جميع التبعات الواقعة على إثر عقارات لأملاك
فلاحية - يقع توقيف العمل بها...» (324). كما تمّ إلغاء آداء العشر وتعويضه
بأداءات زهيدة على وسق الإنتاج الفلاحي (325).

هذا بالإضافة إلى «الضرب - مباشرة - على أيدي المتكاليين من المرابين،
والحكم عليهم بالتغريب والتّقي من الأرض، ولعلّ هذه أوّل مرّة - في تاريخ
الحماية - يصدر حكم من هذا القبيل على فئة من العقبان دأبهم امتصاص
دماء ضحاياهم...، حيث كانوا يقرضون بفائض يتراوح بين 100 و
200/...!!» (326) على حدّ قول أحد اليوميات التي كانت تصدر آنذاك.

321) محمد نعمان، «الصندوق العقاري»، الزهرة، السّنة 46، عدد 7960، ليوم 1933/11/28، ص 1.

322) محمد نعمان، «تأسيس الصندوق العقاري»، نفس المصدر، السّنة 46،
عدد 7964، ليوم 1933/12/3، ص 1.

323) «الأزمة الاقتصادية»، نفس المصدر، عدد 7962، ليوم 1933/11/30، ص 1.

324) «بؤادر الاصلاح الاقتصادي»، نفس المصدر، السّنة 47، عدد 8202، ليوم 1934/9/17، ص 1.

325) «إلغاء اداء العشر»، نفس المصدر، السّنة 48، عدد 8573، ليوم 1935/11/30، ص 2.

326) «مقاومة آفة الرّبا تكتسي شكلا جديداً ناجحاً»، نفس المصدر، عدد 8586،
ليوم 1935/12/13، ص 1.

هذا على مستوى الديون وطرق خلاصها، أمّا عن أهمّ تلك الإجراءات على مستوى الإنتاج والأسعار فقد تمثّلت في تدخل الحكومة بواسطة الدواوين التي تمّ بعثها كديوان الخمر، وديوان الزيت، وديوان الحبوب (327)، حيث «قررت الحكومة إشتراء القمح والشعير للتخفيف على سوق الحبوب، والتسهيل على صغار ومتوسّطي المنتجين استنفاد قسم من حاصلاتهم - على الأقلّ -، وتصفية ما لديهم من المؤخّر، ولذلك فإنّ الجمعيات الإحتياطية التونسية . . . قامت باشتراء كمّيات من الحبوب . . . [بحيث] يكون الثمن مساويا - في بعض الأحيان - للديون التي اقترضوها من الجمعيات والخزينة وفي نفس الوقت - وبصفة استثنائية ومقابل دفع المتأخّر من حبوب البذر - المنعقد قبل 1930 - 1931، فإنّ هذه السلفات يقع خفضها بصفة تصبح معها الديون الباقية مساوية لقيمة حبوب البذر الحالية التي وقع تسليمها للفلاحين بالسعر القديم الذي هو مرتفع بصفة عامّة عن الأسعار الحالية، فيحصل من ذلك نقص من الديون التي عليهم للجمعيات يتراوح [بين] . . . 35 و 75 في المائة . . . ، [كما أنّ] الإدارة ستشتري . . . قسما من الحبوب التابعة للفلاحين الذين عقدوا قروضا من الصندوق التونسي، أو الصندوق العقاري للتعديل مع صابتهم إذا لم يمكنهم أن يقوموا بأنفسهم ببيع حاصلاتهم أو ادخارها» (328).

لم تحل حكومة الإحتلال دون تدهور أسعار الحبوب بالنسبة للفلاحين إلاّ بواسطة شراء كمّيات هامة منهم، واللجوء خاصّة إلى ادخارها وخزنها بإنشاء عدّة إهراءات في باجة (1926)، سوق الخميس (1932)، بوعرادة (1930)، ومقرين (1932)، والتي لها طاقة خزن جمليّة تقدر بـ 290.000 قنطار (329).

وبالإنتهاء من أشغال إهراء مئويّة - سنة 1935 - أصبحت طاقة الخزن الجمليّة تقدر بـ 500.000 قنطار.

كما أنّ الوضعيّة زادت تدعّما بشراء الدّولة - فيما بين سنتي 1937 - 1938 - لمخزن التصدير بينزرت (330)، هذا بالنسبة إلى الجانب الإقتصادي.

M'HALLA, op.cit., p 131. (327)

(328) «إشتراء الادارة للحبوب»، الزهرة، السّنة 47، عدد 8178، ليوم 1934/8/20، ص 2.

PONCET, op.cit., p 137. (229)

Ibid. (330)

أما بالنسبة إلى الجانب الاجتماعي فقد بادرت حكومة الاحتلال باتباع سياسة «الأشغال الكبرى (la Politique des Grands Travaux) (331) لحلّ أزمة البطالة، حيث «اتّجهت الإدارة إلى فتح أشغال تحت عنوان «الأشغال الخيرية أو أشغال الإسعاف»، ومن المعلوم أنّ الطرقات التونسية لم تكن [آنذاك] على حالة مرضية...، وقد سنحت الفرصة لضرب عصفورين بحجر واحد، فأصبح من الممكن للإدارة أن تستخدم البطالة وتصلح الطرقات في آن واحد...» (332).

ومن جهة أخرى عملت الحكومة - منذ جوان 1936 - على توزيع الغذاء على العاطلين والجانحين: «فكان يتمّ يومياً - بالملاسين وأحواز العاصمة - توزيع كمية من الخبز تتراوح بين 200 و700 كيلوغرام على حوالي 800 شخص» (333).

كما فتحت «الجمعية الخيرية الإسلامية» محلاتّ الإسعاف بالحارات الأهلية، كمحلّ الإسعاف الكائن بالحفصية حيث «ما يزيد [آنذاك] عن الألفة نسمة في انتظار القوت...» (334).

كما توجد أربعة «مطابخ إسلامية» بباب سويقة توزّع بها الأرزغة على المعوزين تحت إدارة شيخ المدينة ورعايته (335).

* ردود فعل الطرق الصّوفية:

تلك هي أهمّ ملامح الوضع الإقتصادي والاجتماعي بالايالة في بداية الثّلاث الثاني من القرن العشرين، وتلك هي أهمّ الإجراءات التي اتخذتها حكومة الاحتلال لمجابهة الوضع، والتي - رغم نواقصها - حققت نسبيّا من الأزمة، ولقيت إستحسان بعض الأوساط بما في ذلك بعض مشائخ الطرق الصّوفية.

MHALLA, op.cit., p. 134. (331)

(332) «أشغال اسعاف البطّالين»، الزّهرة، السّنة 49، عدد 8803، ليوم 1936/7/21، ص 2، وكذلك «مقاومة البطالة»، نفس المصدر، عدد 8986، ليوم 1937/7/21، ص 4، أنظر كذلك،

MHALLA, op.cit., p. 135

L'Inspecteur des services administratifs au R.G., le 15/2/1937, Revue WATHA'IQ..., p. 31 (333)

(334) «زيارة جناب العميد لمحلاتّ الاسعاف الأهلية»، الزّهرة، السّنة 46، عدد 8036، ليوم 1934/2/28، ص 2

(335) «زيارة جناب العميد للمطابخ الشّعبيّة»، نفس المصدر، عدد 8037، ليوم 1934/2/29، ص 2.

فقد أوضح شيخ زاوية الطريقة التيجانية ببوعرادة مدى امتنانه بالقوانين التي صدرت سنة 1935، والتي أغاثت — على حدّ قوله — آلاف المساكين (336).

أمّا المئات من أتباع التيجانية بزاوية سيدي صالح التيجاني بجهة نفزة فقد عبّروا عن تأييدهم لكلّ تلك الإجراءات المتخذة لمقاومة الجوع بتوزيع الإغاثات الضرورية، وتقديم العون للفلاحين التونسيين وتقليص البطالة.

كما عبّروا عن إمتنانهم لبعث ديوان الحبوب الذي سيضمن — حسب رأيهم — الوضعية الاقتصادية للفلاحين، ويجنّبهم — بالتالي — المضاربة (337).

على أنّ ذلك الإستحسان — لتلك الإجراءات — لا يجب أن يفهم على أنه صادر فقط عن انشغال أصحابه (الإستحسان) بالوضعية المتردية للفلاحين عامّة والمعوزين خاصّة، بل لأنهم بدورهم سيسفّتون من تلك الإجراءات، علما وأنّ بعض المشائخ كانوا — في فلاحتهم — شركاء لبعض المعمّرين كأحمد فدّور — شيخ زاوية القادرية بالكاف — والمتوبي التيجانية ببوعرادة —. بل إنّ هذا الأخير — في الوقت الذي استهدفت فيه السياسة الإقتصادية والإجتماعية لسلط الإحتلال أراضي العروش والأوقاف للتمكين للمعمّرين — لم يكتف للمعمّرين الأوائل فحسب، بل أخذ «عقود الملكية من الأهالي الذين رفضوا إعطاءها للمراقب المدني قصد تحديد أراضي الدولة...» (338).

تلك هي الإشارات التي تتعلّق — في حدود إطلاعنا — بمواقف الطرق الصوّفية من السياسة الاقتصادية والإجتماعية لحكومة الإحتلال.

ورغم محدودية تلك المواقف، فإنّها قد أوضحت إلى حدّ ما موقف بعض مشائخ الطرق الصوفية من الوضعية الاقتصادية والإجتماعية للبلاد آنذاك.

لكن تلك المواقف توضّح أنّ بعض تلك الطرق اكتفت بالإعلان عن مواقفها من ذلك الوضع دون أن تكون طرفا فاعلا في تغييره:

ذلك أنّ تلك الأوضاع الاقتصادية والإجتماعية — السّالفة الذكر — حثّت بعث العديد من المؤسسات الخيرية للمساهمة في الإغاثة: فبالإضافة إلى محلّات

A.G.T., Le Chérif Tidjani au R G., le 21/10/1935, D 156 - 21. (336)

Ibid, du même au même, le 24/9/1937, D 156 - 21. (337)

C.NU.D.S.T., Le Chérif Tidjani au Ministre de la guerre à Pans, le 14/12/1930, Tunisie (338)

1917 - 1940, dossier n°= 2., f. 2.

الإسعاف التي أسستها الجمعية الخيرية الإسلامية، تكونت «جمعية الإغاثة التونسية» بواسطة «طائفة من أهل البرّ والإحسان للنظر في إغاثة الفقراء والمعوّزين الذين قضت عليهم البطالة، وأصبحوا بسببها عاجزين عن العيش...» (339).

كما تكونت بصفافس «جمعية البرّ العربية» (340)، وأسّس الحزب الحرّ الدستوري التونسي «لجنة إغاثة البائسين» (341)، التي تمكّنت — آنذاك — وفي «بحر مدّة وجيزة من إرسال بعثتين إلى عين الكدية [قرب حفوز حاليًا]، وعين جلولة [قرب الوسلاية من ولاية القيروان] وزّعت فيهما عددًا كبيرًا من الملابس والأغطية على النساء والولدان والفتيات وحتى الشيوخ» (342).

هذا بالإضافة إلى ما قامت به من مساعدة أبناء العاصمة خاصّة أيام عيد النحر، حيث وزّعت الملابس والدّراهم واللّحوم على البائسين والمعوّزين (343).

كل هذه النماذج توضّح مدى التكافل الذي ساد البلاد التونسية على إثر انعكاسات الأزمة الاقتصادية العالمية لسنة 1929، وهو تكافل — رغم ضرورته وحتميته تبعًا لما آل إليه حال الأهالي — ومشاركة عدّة أطراف فيه، لا نلمس — في حدود إطلاعنا — أثرًا لوجود الطرق فيه رغم أنّها أولى من غيرها — بزواياها ومواردها — للقيام بذلك الدور الاجتماعي والإنساني.

إنّ المتأمل في المجتمع التونسي — إبان الأزمة السّالفة الذكر — يلاحظ مدى التضامن الذي ساد مختلف فئاته: فلقد تبرّعت «جمعية التمثيل العربي» بتمثيل رواية «العبّاسية»، لفائدة صندوق «جمعية الإغاثة التونسية» (344).

هذا بالإضافة إلى الإعلانات المحرّضة على المساهمة في التبرّعات وكذلك

(339) «جمعية الإغاثة التونسية»، الزّهرة، السّنة 46، عدد 8031، ليوم 1934/2/22 ص 2.

(340) «جمعية البرّ العربي بصفافس»، نفس المصّدر، السّنة 47، عدد 8130 ليوم 1934/6/21 ص 3.

(341) «لجنة إغاثة البائسين»، جريدة الصّواب، السّنة 31، عدد 807 ليوم 1937/1/22، ص 3.

(342) «لجنة إغاثة الجائعين والعرّة» نفس المصّدر، عدد 808، ليوم 1937/2/12 ص 3.

(343) «لجنة إغاثة الجوع والعرّة»، نفس المصّدر، عدد 810، ليوم 1937/3/26، ص 3.

(344) «جمعية الإغاثة التونسية»، جريدة الزّهرة، السّنة 46 عدد 8040، ليوم 1934/3/5، ص 2،

وكذلك «رواية العبّاسية لفائدة جمعية الإغاثة التونسية»، نفس المصّدر، عدد 8039، ليوم

1934/3/4، ص 3.

القصائد الشعريّة (345)، والحفلات الخيرية النسائية (346).

إنّ تلك الأوضاع الإقتصادية والاجتماعية تعتبر مجالا خصبا كان على الطرق الصوفيّة أن تستغلّه في تدعيم قاعدتها الشعبيّة، والظهور بمظهر المحبّ للبؤساء والمُعوزين، الحريص على إغاثتهم وإعانتهم.

غير أنّها لم تفعل، في حين أنّ الكنيسة قد وجدت - في نفس تلك الأوضاع - مجالا حيويّا لتوسيع نشاطها التبشيري، الأمر الذي جعل «بعض فقراء المسلمين يستفيدون - حقيقة - من مشروعات الإغاثة والإسعاف التي يقوم بها رجال الدّين المسيحي... [علما وأنّ تلك] الإغاثة والإسعاف المسيحي - التي لا يقصد بها ظاهرا إلا خدمة الإنسان، وتخفيف الآلام عن أبناء البشر... إنّما تخفي في الواقع... مقاصد تبشيرية، وتنطوي تحتها آمال جمّة محوم حول جلب القلوب بالإحسان...»! (347) على حدّ قول جريدة الزّهرة.

فكيف يمكننا تفسير غياب الطرق الصوفيّة عن المساندة في ذلك العمل الإنسانيّ؟

لا شكّ أنّ ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى سياسة التّفكير التي سلكتها حكومة الإحتلال لضرب الركيزة الماديّة للطرق، وخاصة إنعكاسات الأزمة الإقتصادية العالمية ليس على أتباع الطرق فحسب، بل وعلى الممتلكات العقارية للطرق ومشائخها، والتي لا شكّ قد تضرر إنتاجها بالإضافة إلى تدهور أسعاره.

وهو ما يؤدّي حتماً إلى نقص فادح في مداخيل الطرق التي ستبقى مساحات شاسعة من أراضيها بدون استغلال بعد تفاقم حركة النزوح الى المدن على إثر الأزمة، وما نتج عن ذلك من نقص واضح في اليد العاملة الفلاحية بالأرياف. ومّا يدلّ على أنّ الوضعيّة الإقتصادية للطرق الصوفيّة ومشائخها كانت - على إثر الأزمة الإقتصادية - متردّية أنّ هؤلاء كانوا - في الوقت الذي تعدّدت

(345) «بدء شاعر القيروان إلى الإكتساب لإعانة الناس»، نفس المصدر، عدد 8042، ليوم 1934/3/7، ص 3، وكذلك «قصيدة الشّاعر حلال الدّين النقّاش»، نفس المصدر، عدد 8048، ليوم 1934/3/14، ص 3

(346) «حفلة خيرية نسائية لإعانة الجائعين»، نفس المصدر، عدد 8055، ليوم 1934/3/22، ص 2

(347) «توبه الصحافة الأحيية تسامح الاسلام»، نفس المصدر، السّنة 42، عدد 6871، ليوم 1930/5/5، ص 1.

فيه المؤسسات الخيرية، وعمّت البلاد حملات جمع التبرّعات — كانوا يناشدون سلط الإحتلال لتسمح لهم بالتنقّل والاتّصال بالأتباع الذين — سيزيدهم ذلك — إرهاباً على إرهاب.

ونجّباً لذلك كان إعتراض السلّط الإستعمارية على زيارة المكّي بن الحوسين — شيخ الرّحمانيّة بتونس — إلى الجنوب التّونسي في صائفة 1930 (348)، 1932 (349)، و 1933 (350) ممّا قد يوضّح أنّ بعض أولئك المشايخ كانوا يبحثون — في كثير من الأحيان، وحتّى في الظروف العصيبة لمواطنيهم — على مصلحتهم، ممّا قد يكون وراء تقلّص نفوذهم وبالتالي شعبيّتهم.

ب - مواقف الطرق من السياسة الإستعمارية سياسياً :

رغم تعدّد أوجه ومجالات السياسة الإستعمارية لحكومة الإحتلال في الأيّالة، واختلافها أحياناً باختلاف المقيمين العامّين، فإنّ جلّ الطرق الصّوفية — في حدود إطلاعنا — ليست لها مواقف من تلك السياسة باستثناء إصلاحات 1922 وسياسة بعض المقيمين العامّين بالأيالة.

ويقطع النظر عن الدّوافع الخارجيّة والداخلية التي حملت السلّط الإستعمارية على القيام بتلك الإصلاحات (351)، وكذلك عن محتواها (352)، فإنّ الحزب الحرّ الدّستوريّ التّونسي قد «أجمعت صحافته...، على أن... [تلك] الإصلاحات تمثّل مساً إضافياً من استقلال البلاد، وخطوة على طريق إلحاقها

A.G.T., Le Commandant militaire des Territoires du sud au R.G. le 26/6/1930, D 172 - 3 (348)

Ibid, Le Capitaine Fourches - Chef de Bureau des Affaires Indigènes au R.G., le 7/6/1932, (349 D 172 - 3,

Ibid, du même au même, le 30/6/1933 (350)

(351) حول تلك الدّوافع الخارجيّة والداخلية، أنظر

MAHJOUBI, "Les réformes de 1922 et le Mouvement National Tunisien " *Revue Tunisienne des Sciences Sociales*, Tunis, Imp de L'U G T T, 13è Année, n°= 45 (1976), pp. 99 - 139.

(352) حول محتوى تلك الإصلاحات أنظر جريدة الزّهرة، السنة 34، عدد 4508، ومن العدد 4511 إلى العدد 4519، وعدد 4521 و 4523، وكذلك جلاب، المرجع السابق، ص 30 — 34.

بفرنسا...، لأنها تمثل إنتصارا لأديولوجية التفوق، وتكريس هيمنة الفرنسيين...» (353).

ولذلك عملت الأوساط الدستورية على القيام «بواجب رفضها والردّ عليها، وحثّ الأمة على عدم الإمتثال لها، وعدم المشاركة في انتخاباتها المزيّفة...» (354).

كما توالى البرقيات المستنكرة لها من مختلف الشعب الدستورية (355).

أمّا الحزب الإصلاحى (356) فقد اعتبرها خطوة إلى الأمام، إذ تمثّل - في نظره «مرحلة معتبرة تؤهّل التونسيين إلى الحياة العمومية، وتسمح لهم بالمشاركة في إسعاد البلاد بالتعاون مع الفرنسيين...» (357).

هذا بالنسبة لردود فعل بعض التشكيلات السياسية في البلاد، أمّا عن ردود فعل الطرز الصوفية من تلك الإصلاحات فإنّه يمكن القول بأنّه رغم ضآلة المعلومات المتعلقة بهذه المسألة، فإنّ بعض الدلائل تشير إلى ترحيب بعض مشايخ الطرز الصوفية بتلك الإصلاحات:

من ذلك أن صالح بن شعبان - شيخ مشايخ الطريقة القادرية بمقتضى الأمر العليّ المؤرّخ في 3 ديسمبر 1919 (358) - أبرق الى رئيس الجمهورية الفرنسية معربا له عن «عبارات التقدير والامتنان للإصلاحات التونسية، وإكبار

(353) جلاب، المرجع السابق، ص 50

(354) المدني، المرجع السابق، ح 1، ص 272

(355) أنظر تلك البرقيات والشعب الدستورية الصادرة عنها في A.M.A.E.F., Campagnes de Télégrammes contre les réformes administratives, Tunisie 1917 - 1940. vol 66, dossier n°= 1, 11/7/1922 - 30/9/1923, f. 14, 31, 32, 33, 35, 38, 50 et 54

(356) 358 حول الحزب الإصلاحى أنظر:

KRAIEM (M.), "Le Parti réformiste Tunisien 1920 - 1926" Revue d'Histoire Maghrébine, n° 4 (Juillet 1975), pp. 150 - 162

(357) حسن فلاّتي، «حول الإصلاحات التونسية»، جريدة البرهان، تونس، المطبعة التونسية، السّنة الأولى، عدد 39 ليوم 1/8/1922، ص 1.

(358) A.G.T.; D 97 - 3.

مجهودات المقيم العام بتونس...» (359). كما أبرق - بنفس المعنى - إلى رئيس المجلس الفرنسي (360).

أمّا المتّوبي - شيخ الطريقة التيجانية ببوعرادة - فقد أشاد بالدور الذي لعبه «أثناء أحداث الدستور، بحيث جنّب المنطقة كلّ تحرّك...»، وهو ما أدركه... المراقب المدني بمجاز الباب في رسالة الشكر والامتنان التي أرسلها إليه بتاريخ 23 سبتمبر 1922 (361).

هذا مع العلم وأنّ مهمّة المتّوبي - المذكور - تمثّلت آنذاك - على ما يبدو - في استعمال نفوذه على أتباعه لإقناعهم بتلك الإصلاحات، خاصّة وأنّ المراقب المدني - السّابق الذكر - قد طلب منه القيام بنفس الدور فيما بعد (362).

إنّ هذا يحملنا على القول بأنّ بعض مشائخ الطرق قد وظّفوا في إقناع أتباعهم بتلك الإصلاحات لما لمشائخهم من سلطة عليهم، وذلك سعيًا من السّلط الاستعمارية للتخفيف من حدّة الأصوات المناهضة لتلك الإصلاحات خاصّة من جانب الحزب الحرّ الدستوري التونسي.

كما أنّ بعض مشائخ الطرق قد يكونون قبلوا ذلك الدور لالتقاء مصلحتهم بمصالح حكومة الاحتلال، حيث سعوا إلى سحب البساط من تحت الحزب المذكور الذي قد تزايد معارضته لتلك الإصلاحات في اتّساع شعبيته، فيهيمن على الرّأي العام التونسي، ويلفّ حوله أوسع الجماهير، وهو أمر يضرّ بالقاعدة الشعبية للطرق الصّوفية.

إنّ هذه الإشارات - رغم محدودياتها - توضّح أنّ بعض مشائخ الطّرق الصّوفية - في مواقفهم من تلك الإصلاحات لم ينسجموا مع مواقف الحزب الإصلاحي فحسب، بل انسجموا أيضا مع مواقف الطائفة

A.M.A.E.F., Communiqué au protocole, Salah ben Chaâben au Président de la République Française, le 10/8/1922, Tunisie 1917 - 1940, vol: 66., f 61

Ibid, f. 64 (360)

A.G.T., Le Cheikh El manoubi au Ministre des Affaires Ettrangères à Paris, le 7/11/1929, (361)
D 156 - 21.

A.M.A.E.F., le C.C de Medjez-el-bab au Cheikh El manoubi à Bou-araâda, le 28/5/1929, (362)
Tunisie 1917 - 40, vol. 316, Dossier n°= 1 (Janvier 1927 - décembre 1929), f 272.

اليهودية بالايالة(363)، وأعيان أولاد عون وأولاد عيَّار (364)، وأعيان الكاف(365)، والفرانشيش وماجر وتاجروين والسَّواسي وسوسة والمنستير(366)، وحتى مع مواقف بعض أمناء الحرف (367).

وهي كلّها أوساط رسمية لم تتخلَّف — غالبا — على مؤازرة السَّياسة الإستعمارية بالبلاد، ومباركة كل خطوة من خطواتها مهما كانت إنعكاساتها على الايالة، وحتى وإن لم تلب المطالب الوطنية التي عبّرت عنها أوسع الجماهير وزعماء الحركة التحريرية.

فلقد وصلت مواقف بعض أولئك المشائخ حدّ إثارة السُّلط الإستعمارية على الوطنيين، لحملها على تصفيتهم.

فجاءت مواقف كل من شيخي زاويتي التَّيجانية ببوعرادة والقادرية بالكاف كلّها تحامل على سياسة بعض المقيمين العامّين الفرنسيين الذين — حسب ما ذهب إليه — قد مكّنوا للدستوريين في البلاد، في حين لم يلق «أحباب فرنسا» — على حد قول أحدهما — أي إهتمام أو إكرام وتقدير:

ففي هذا المجال ذهب محمد الشَّريف التَّيجاني — شيخ زاوية التَّيجانية ببوعرادة — الى أنّ المقيم العام الفرنسي لوسيان سان (Lucien Saint) (من ديسمبر 1920 الى جانفي 1929)، قد جعل — بعد سنة 1923 — «الدستوريين في كل مكان...، وعروض أن يخرجوا أصبح لهم نفوذ كامل...، فصار منهم القايد، والخليفة، وفي حاشية الباي والوزير الأول وفي الدَّاخلية...، والعدلية، وفي كل مكان، وذلك تبعا لسياسة لوسيان سان...، الذي سار على متواله خلفه(368)، الذي صار رهين إرشاداتهم وميولهم...، في حين أنّ أصدقاء فرنسا

Ibid. Le Président du Conseil au Ministère des Affaires Etrangères à Paris au Delegué à la (363) Résidence Générale de France à Tunis, le 7/8/1922, Tunisie 1917 - 1940, vol 66..., f. 57.

Ibid., f 63 (364)

Ibid., f. 74. (365)

Ibid., f. 86. (366)

Ibid., f 62. (367)

(368) يقصد المقيم العام فرنسوا مانصورون (F. Monceron) الذي شغل تلك الحطة من جانفي 1929 الى حويلية 1933.

صاروا مهملين...! (369) على حدّ قوله.

وزيادة منه في تقسيم سياسة المقيم العام الفرنسي للإيالة، وتهويل أمر «الدستوريين» يمضي قائلا: «إنّ المقيم العام متفوق وأسير الدّاخلية ومديرها العام الذي بدوره تحت نفوذ السيد دوجاي (Dugoy) — المراقب العام للشؤون الأهلية (le Controleur General des Affaires Indigenes) المحاط — بدوره — بنفوذ الدّستوريين...، بحيث إذا قيل له ذلك الشّيء أسود، قال أسود، وإذا قيل له أبيض قال كذلك...»! (370).

وفي رسالة منه إلى المقيم العام مارسال بيروطون (Marcel Peyrouton) (جويلية 1933 — ماي 1936)، وبعد تهنّته بالسّنة الجديدة (1934) وردّ قوله: «أسأل الله أن يعينكم في مهمّتكم الصّعبة، ويعطيكم القوة اللاّزمة لإسعاد هذه البلاد التّعيسة، التي دبت فيها الحياة من جديد بفضل عنايتكم...، فكلّ ما أتمناه هو التّوفيق لكم في السّير بهذه البلاد نحو الرّقاهية... لكن مع الأسف...، فإننا في هذه البلاد خربنا الدّستور...، حيث أنّ الدّستوريين أصبحوا في كلّ الإدارات...، في الدّاخلية، والعدلية...، وأصدقاء فرنسا يتحسّرون — من بعيد — على تلك الفئة التي أساءت لهم ولكلّ الأحباب الذين يمكن لفرنسا أن تعولّ عليهم بكلّ ثقة...، كلّ ذلك بفضل السياسة العقيمة للمقيمين [العالمين الفرنسيين] والمديرين العالمين الذين بطيبتهم أضاعوا الطريق السّوي...، [فأصبح] يوجد ضمن الوظائف... العديد من الدّستوريين...، وكل ذلك خطأ كبير...، وأتمنى أن تتصروا على كل ذلك...»! (371).

كما أن شيخ زاوية القادرية بالكاف قد ركّز — هو الآخر — على السياسة غير الحكيمة لبعض المسؤولين في مؤسّسات حكومة الاحتلال. فقد ذهب إلى أنّ خليفة فعفرور صديق حميم لأحد الدّستوريين المسمّى إبراهيم بن حسن (372)، بحيث أنّ هذا الأخير — على حدّ قوله — هو الخليفة

C.N.U.D.S.T., Le Chérif Tidjani au Minsitre de la guerre à Paris, Le 14/12/1930, (369)
Tunisie 1917 - 1940, dossier n°= 2, 12/1930 - 7/1938, la Confrérie Tidjania aux f. 2 -
18/111 - 112/117, f 3

Ibid. (370)

A.G.T., Le Chérif Tidjani au R.G., Le 1/1/1934, D 156-21. (371)

A.G.T., E 550 - 30/15 - 120. (372) أنظر ترجمته في:

الفعلي للجهة المذكورة، وبواسطته - إلى جانب بعض الموظفين - «انتشرت الأفكار الدستورية بين الأهالي...»، وهو ما يمثل خطراً على الحكومة...!! (373) حسب رأيه.

إنّ هذه المواقف التي تدين فقط سياسة بعض المقيمين العامين الفرنسيين تجاه رواد النضال الوطني تفسّر بالعداء الذي يُكنّه بعض مشايخ الطرق للنضال الذي يقوده الحزب الحر الدستوري التونسي آنذاك، وهو عداء مصدره الصراع بين بعض الطرق والتشكيلات السياسية على استقطاب الأنصار، وخوف الأولى من فقدانها لنفوذها بعد بروز الثانية.

ومما يؤيد ما ذهبنا إليه أمران:

* أولهما: أنّ كلّ من شيخ زاوية التيجانية وشيخ الزاوية القادرية المذكورين اقترحا إنزال عقوبات «بالدستوريين»: ففي حين تعجّب الأوّل قائلاً: «إنّ أولئك الأشخاص (الدستوريون) الذين كانوا - أثناء وجودنا بالجهة [أثناء الحرب العالمية الأولى] - يطالبون باستقلال تونس وإخراج فرنسا - عوض أن يُطردوا أو يُسجنوا نحمدهم على رأس الادارات...»! (374)، أكّد الثاني أنّه لا يمكن لفرنسا أن تحدّ من نشاط «الدستوريين» إلّا إذا «أقرّت عقوبات ضدّ كل من يساهم في ذلك...»! (375).

* ثانيهما تأييد أتباع زاوية الطريقة التيجانية ببوعرادة وعدّة جهات أخرى للسياسة القمعية التي إنتهجها المقيم العام مارسال بيروطنون تجاه الوطنيين خاصة سنة 1934 وللقوانين التي أصدرها في ذلك الشأن.

A.G.T., Ahmed KADDOUR el Mizouni au C.C. du Kef, Le 21/3/1931, D 97 - 2. (373)

يعود الفضل الى المرحوم الحبيب الشابي الباحث بمركز الفنون والتقاليد الشعبية - زينة ابن عبد الله تونس - الذي أملىنا بنسخة من رسالة أحمد قنّور هذه، والتي لم نجد لها أثراً في الموضع المشار إليه.

C.N.U.D.S.T., Le Chérif Tidjani à M. Donman, Le 7/1/1931, Tunisie 1917 - 1940, (374) dossier n°= 2, f. 12 - 13.

A.G.T., Ahmed Kaddour el Mizouni au C.C. du Kef. Le 21/3/1931, D 97 - 2. (375)

وهو ما يوضّح خطورة العمل الوطني على نفوذ الطرق، ومراهنة مشائخها على تلك الإجراءات التعسّفية للحدّ من نشاط الوطنيين وضربه، علما وأنّ محمد الشّريف التّيجاني المذكور والذي - انتقد سياسة المقيمين العامين الفرنسيين لوسيان سان ومانصورون - قد كتب إلى أحد الوزراء يدعوه إلى التدخل لدى زملائه - أثناء انعقاد مجلس الوزراء - للإبقاء على أرمان فيون على رأس الإقامة العامة بتونس حتى - على حدّ قوله - «لا يحرم سكّانها - تحت كنف فرنسا - من رجل شهيم، بصير، مقتدر، صلب في سلطته...»! (376).

إنّ هذه المواقف من بعض مشائخ الطرق الصوفية توضح ليس فقط قصر نظرهم حيث لم يرقّهم في سياسة بعض المقيمين العامين إلا ما يتعلّق منها «بالدستوريين»، وإنّما تبرز كذلك إقرارهم للسياسة التعسّفية للسلط الاستعمارية، ووقوفهم - في غالب الأحيان - ضدّ جماهير أمّتهم المضطّعدة، وهو ما يبرز أكثر في مواقفهم من بعض الأحداث التي جدّت بالايالة في الفترة التي ندرسها.

(2) مواقفها من بعض الأحداث التي جدّت بالايالة :

عرفت الايالة التونسية منذ مطلع العشرية الثانية من القرن العشرين عدّة أحداث متقاربة جدّاً أحيانا وخطيرة، شدّت إليها انتباه أوسع الجماهير آنذاك، لارتباطها - من قريب - بحياتها اليومية، وللعلاقة التي لها بكيان البلاد وذاتيتها.

أ - أحداث طرابلس الغرب (377) :

ما أن شاع خبر دخول الجيوش الإيطالية طرابلس الغرب حتّى عمّت معظم أرجاء العالم الإسلامي موجة من العداء لاطاليا والتعاطف مع الدّولة العثمانية. لقد تجلّى ذلك التّعاطف في الايالة - آنذاك - على المستوى الاعلامي، حيث أصدر علي باش حانبة جريدة «الاتحاد الاسلامي» التي صدر عددها الأوّل يوم 19 أكتوبر 1911 للدّفاع عن حقوق المسلمين.

Ibid , Le Chérif Tadjani à Maurice violette -Ministie d'Etat à Paris- Le 24/9/1937, D 156 - 21, (376)

(377) حول أحداث طرابلس سنة 1911 أنظر : KRAIEM (M.) "La question de l'annexion Italienne de la Libye", Revue d'Histoire Maghrébine, n° 6 (Juillet 1967), pp. 157 - 179.

فقد عملت — طيلة أعدادها الستة التي صدرت منها (378) — على تغطية أحداث طرابلس الغرب، مما جعل لها «رواج في كل بلدان العالم الاسلامي وتأثير على مسلميها الأمر الذي نتج عنه وصول تهاني فورية — لصاحبها — من الجزائر، وطرابلس الغرب، ومصر وحتى من الهند...» (379).

أما التضامن الفعلي، فقد تمثل في «تنظيم جمع التبرعات لمساعدة الطرابلسيين في حريهم ضد الإمبريالية الإيطالية...» (380)، حيث شملت تلك الحملة كامل الأيالة لقائدة الهلال الأحمر.

كما تمثلت تلك المساعدة في تجنيد المتطوعين للإلتحاق بالجهة: فلقد عثر — لدى علي باش حانبة — على العديد من الرسائل الواردة عليه من عدة جهات تطلب منه إرسال قصاصات التبرع، أو تعلمه بوصولها إليها (381).

كما صدر — يوم 28 أكتوبر 1911 — منشور موجه إلى بعض الوجهاء (382) يدعوهم إلى تكوين لجان في جهاتهم تتولى جمع التبرعات — نقدا وعينا — ، ويوضح لهم طريقة إرسالها (383) إلى «جمعية الهلال الأحمر التي تم بعثها لنجدة الجرحى المسلمين في الحرب التركية الإيطالية الدائرة في طرابلس الغرب...» (384).

كما علقت إعلانات في أهم حارات المدينة، فيها تحريض للأهالي على مقاطعة البضائع الإيطالية (385)، وهي مقاطعة وجدت — على ما يبدو — صدى، حتى أن «كثيرا من التجار وأصحاب المغازات من الإيطاليين - بتونس - رفعوا مضبطة إلى جناب قنصل دولة إيطاليا بالعاصمة، يشتكون فيها مما أصاب

(378) صدر آخر عدد لها يوم الاثنين 1911/11/6.

"Lettre de M. Bach Hamba", Le Courrier de Tunisie, 8^e Année, (379)
n° 2715, du 14/4/1912, p. 1.

SAMMUT, Op.cit., p. 295. (380)

AYADI, Mouvement réformiste..., p. 150. (381)

AYADI, Mouvement réformiste..., p. 151. : أنظر نصّه في: (382)

Ibid. (383)

C.D.N., Section Mouvement National, l'Affaire du Djellaz (7 novembre 1911), B - 3 - 27, (384)
p. 28.

(385) «مقاطعة إيطاليان»، الصوّاب، السنة 2، عدد 297، ليوم 1911/10/20، ص 4.

تجارتهم من البوار، وما حاق بها من الكساد... (386).

تلك هي أهمّ الإشارات المتعلقة بردود فعل التونسيين تجاه الاحتلال الإيطالي لليبيا سنة 1911، فماذا كان موقف الطرق الصوفية - في الايالة - من ذلك الحدث؟

هل ساهمت - بمشائخها وأتباعها - في جمع التبرعات وإرسالها إلى المعنيين بذلك؟

هل كان أتباعها ضمن المتطوعين الذين التحقوا بالجبهة؟

ماذا كان موقفهم ودورهم في مقاطعة البضائع الإيطالية في الايالة؟

إن المعلومات المتوفرة لدينا - انطلاقاً من الوثائق التي أمكننا الاطلاع عليها - لا تجيب على كلّ تلك التساؤلات، ولا توضّح - بالتالي - الحجم الحقيقي لدور الطرق الصوفية - في البلاد - من تلك الحرب التي كان لها صدى في جلّ فئات المجتمع التونسي المسلم آنذاك.

فغاية ما في الأمر إشارات طفيفة لا تمكّننا من بلورة مختلف أوجه ذلك الموقف.

من ذلك أنّ المراقب المدني بمكثّر أفاد بأن أحمد بن عبد الملك - شيخ زاوية الرّحمانية قرب سليانة - اتّهم سنة 1911 بأنّ له علاقات مع الطرق في الجزائر وتركيا، وأنّه شجّع - سنة 1910 - بعض السكّان على الهجرة إلى سوريا، لكن جهوده لم تكمل بالتّجّاح (387).

هل يعني ذلك أنّ أحمد بن عبد الملك - المذكور - كان له موقف واضح من أحداث طرابلس تلك، أو أنّه ساهم فيها بشكل من الأشكال، أو على الأقلّ حرّض غيره على ذلك؟

لا شيء يميّكننا من الإجابة على ذلك، لكن من المفيد ذكره الإشارة إلى أنّ أحمد بن عبد الملك ورد إسمه في طليعة قائمة أسماء الذين لهم كلمة مسموعة في مناطقهم والواردة (قائمة الأسماء) في رسالة عثر عليها لدى علي باش حائبة، موجّهة إليه من المسمّى محمد العربي بن محمد الميموني - العدل بتبرسق - ، والمؤرّخة في 2 ذي القعدة 1329 هجري الموافق لـ 25 أكتوبر 1911.

(386) «الإيطاليون بتونس»، نفس المصدر، عدد 298، ليوم 1911/10/27، ص 4.

(387) A.G.T., Confrérie des Rahmánya, p 23, D 97 - 3

وهي رسالة أوضح له فيها إعجابه بالدور الذي قام به تجاه المجاهدين الطرابلسيين، كما أعلمه بأن المسمى علي بن لين - الذي بعث إليه علي باش حانبة برسالة في إطار جهوده الرامية إلى جمع التبرعات على مستوى البلاد - لم يفعل شيئاً.

لذلك أمدّ محمد العربي - المذكور - علي باش حانبة بقائمة إسمية في ذوي النفوذ بجهاتهم ليراسلهم في الأمر إن أراد ذلك (388).

إن القائمة المشار إليها تتضمن أسماء ثلاثة مشائخ طرق صوفية، وهم أحمد بن عبد الملك، وابنه حسونة - شيخ رحمانية أولاد عون - وسيدي فذور - شيخ زاوية القادرية بالكاف.

هل يمكن القول بأن سيدي فذور قد يكون تفاعل مع أحداث طرابلس، وكان له - بالتالي - دور إيجابي فيها؟

إن رفض سيدي فذور - كما سبق أن أشرنا - المساهمة في الإكتتاب الذي فتحه الباي لصالح السلطان العثماني في الحرب الروسية التركية سنة 1877، وموقفه من الإستعمار الفرنسي للآيالة يحملنا على القول بأنه من المستبعد أن يكون له دور إيجابي في حملة تضامن التونسيين مع الطرابلسيين، والتي كان لعلي باش حانبة دور أساسي في تنشيطها.

لكن إيراد محمد العربي بن محمد الميموني - المذكور - لاسم سيدي فذور ضمن القائمة السالفة الذكر لا يبين بالنسبة إليه - قيمته في المنطقة فحسب بل يوحي بأنه ممن يمكن التعويل عليهم في استغلالهم لنفوذهم في جمع التبرعات التي لم يفعل فيها علي بن لين شيئاً.

وفي المقابل فإنّ أحمد بن عبد الملك - الذي اتضحت عداوته للإستعمار عند دخوله للآيالة، وكذلك ابنه الذي عارض السياسة الفلاحية للإستعمار الفرنسي بسهل سليانة - قد يكونان ساهما في حملة التضامن تلك، خاصة وأنّ الأوّل اتهم سنة 1911 - بالتحديد - بأنّ له علاقات مع الطرق الصوفية في الجزائر وتركيا.

إلا أنه رغم ذلك لا شيء يمكننا من القطع بذلك، أو تحديد نوع وحجم وطرق تلك المشاركة في تلك الحملة إن وجدت فعلاً.

ب - أحداث الزلّاج : (389)

يقطع النظّر عن الأسباب التي أدّت إلى تلك الأحداث كالاحتلال الايطالي لليبيا (390)، أو الاحتلال الفرنسي لمدينة فاس، (391) وخاصة الأوضاع الاجتماعية المتردّية للولاية (392)، فإنّه يمكن الإشارة إلى أنّ بلدية الحاضرة عمدت إلى تسجيل مقبرة الزلّاج، وقدمت في ذلك طلباً إلى المحكمة العقارية المختلطة بتاريخ 26 سبتمبر 1911، ونشر بالرائد الرّسمي في أكتوبر من نفس السّنة، وعيّن يوم 7 نوفمبر 1911 موعداً لعملية التّسجيل، ووُجّهت الدعوة إلى سكّان العاصمة بوصفهم أصحاب المقبرة لحضور تلك العملية في اليوم المذكور(393).

لقد دفع قرار التّسجيل - الذي اعتبره السكّان انتهاكاً للحرمات وتدنيساً للمقدّسات (394) - إلى احتشاد ما بين 2000 و3000 (395) من الأهالي حول أبواب المقبرة صبيحة يوم 7 نوفمبر 1911.

وهو ما أدّى إلى اصطدامات دامية تلتها قوانين إستثنائية صدرت عن الباي يوم 8 نوفمبر:

منها قانون يتضمّن نصب حالة الحصار العسكري على العاصمة وضواحيها،

(389) 391. حول تلك الأحداث أنظر، المرزوقي والجيلاني، المرجع السابق، وكذلك:

A.G.T., Affaire du Djellaz; E 565 - 1, document n° 176 et 270, de même au C.D.N., Section Mouvement National, l'Affaire du Djellaz (7 novembre 1911), B - 3 - 27; de même au C.N.U.D.S.T., Nouvelle Série (N.S.), Tunisie 1882 - 1919, N.S. 33, 12/1911 - 3/1/12; ainsi que N.S. 34, 36; AYADI, Mouvement réformiste..., p. 165 et les journaux de l'époque

(390) المرزوقي والجيلاني، المرجع السابق، ص 10 - 12، وكذلك SAMMUT, op.cit., p. 324; de même MAHJOUBI, Les origines, p. 131, et AYADI, Mouvement réformiste..., p. 177.

(391) المرزوقي والجيلاني، المرجع السابق، ص 13 وكذلك: AYADI, Mouvement réformiste., p. 175 et 176. (392) المرزوقي والجيلاني، المرجع السابق، ص 17.

(393) MAHJOUBI, Les Origines..., p. 131; de même SAMMUT, op. cit., p. 324. (394)

(395) اختلف في تقدير عدد الحاضرين، فذهب البعض إلى أنه يتراوح بين 2000 و3000 AYADI, Mouvement..., p. 185. في حين ضخمت بعض الصحف الاستعمارية العدد، فأدّعت أنه

يتراوح بين 5 و6 آلاف، أنظر: "Une grave échauffourée à Tunis, manifestation qui tourne à l'émeute", La Dépêche Tunisienne, du 8/11/1911, P. 1.

وتكليف القيادة العسكرية الفرنسية بالمحافظة على الأمن.

وقانون آخر يتضمن منع الاجتماعات العامة والخاصة، واجتماع أكثر من ثلاثة أشخاص والوقوف بالطريق العام، ومنع الجولان ليلا ابتداءً من الساعة التاسعة.

هذا بالإضافة إلى قانون يتضمن غلق جميع المقاهي في الأحياء العربية مؤقتاً، وسحب رخص بيع ومسك وحمل الأسلحة مهما كان نوعها.

كما أصدرت السلط العسكرية قرارات بتعطيل جميع الصحف العربية عدا جريدة الزهرة (396)، علماً وأن تلك الأحداث قد أفضت إلى إيقاف 72 متهماً صدرت ضدهم أحكام مختلفة (397).

تلك هي - بإيجاز - أهم أطوار أحداث الزلاّج وحصيلتها، ونعرض فيما يلي إلى توضيح مواقف بعض الطرق الصوفية بالايالة منها.

توجد عدة إشارات هامة تتعلق بالمعطى الطرقي في تلك الأحداث:

فمما تجدر الإشارة إليه أن مقبرة الزلاّج توجد في سفح «جبل التوبة» المعروف بجبل سيدي أبي الحسن (398) حيث المغارة الشاذلية «موضع عبادة أبي الحسن الشاذلي، واعتكافه والتي كان أتباع طريقته يزورونها أسبوعياً ويعقدون فيها حلقات الذكر والأوراد، مما زاد المقبرة اعتباراً، وأصبغ عليها قدسية لدى سكان الحاضرة...» (399)، الذين ينتمي «ثلاثة أرباعهم - تقريباً - إلى الطريقة الشاذلية» (400) على حدّ قول علي باش حانبه.

هذا بالإضافة إلى احتواء المقبرة المذكورة على قبور العديد من العلماء والصّالحاء والأمراء والأعيان، مما جعل معظم سكّان تونس المدينة وأحوازها لهم أهل أو أقرباء مدفونون بها (401)، الأمر الذي جعلها أكبر مقبرة بالحاضرة،

396) المرزوقي، دماء...، ص 31، وكذلك: MAHJOUBI, Les Origines, p. 130 de même AYADI, Mouvement réformiste, p. 206.

397) أنظر تلك الأحكام في المرزوقي والحيلاي، المرجع السابق، ص 150 - 153، وكذلك: AYADI, Mouvement réformiste, p. 210

398) المرزوقي والحيلاي، المرجع السابق، ص 15

399) نفس المرجع، ص 16 و 17.

400) BACH - HAMBA (A), "Les responsabilités", Le Tunesien, Tunis, Imp Rapide, du 16/11/1911, P.1, au C.D.N., Section Mouvement National, événements 1911, A - 1 - 42.

401) المرزوقي والحيلاي، المرجع السابق، ص 16، وكذلك: BACH - HAMBA, op.cit., p. 1.

تلقى الإهتمام من كل فئات السكّان.

وبهذا كلّ، لنا أن نتساءل — مع علي باش حانية — : «هل يمكن أن نتصوّر أن أتباع الطريقة الشاذلية — التي ينتمي حوالي ثلاثة أرباع سكان مدينة تونس إليها— سيحضرون هادئي الأعصاب لتسجيل الزاوية الأم لطريقتهم باسم بلدية مدينة تونس» (402)؟

فهل صدر عن مشائخ الطريقة الشاذلية وخاصة أتباعها ما توقّعه علي باش حانية؟

فإن كان الأمر كذلك، ففي أي شيء تتمثّل؟

حسب رواية جريدة الديباش تونزيان، فإنّ ثمن شارك في أحداث 7 نوفمبر «مجموعة من الصوّفة مرّت تصبّح، في مقدّمتها شيخ رث الثياب يلوّح بخرقه حمراء يبدو أنّها علم ولي، وللحيلولة دون إثارة الهيجان، أمر بالإسحاب دون أن يُفتكّ منه ذلك الشعار...» (403).

فهل يمكن القول بأنّ المقصود بذلك الشيخ الرث الثياب أحد مشائخ الطرق الصوّفية يقود أتباعه كمساهمة في أحداث الزلاّج، وهل يمكن أن يكون بالتحديد أحد مشائخ الطريقة الشاذلية؟

إنّ هذا ما لا يمكن التأكّد منه لانفراد جريدة الديباش — في حدود اطلاعنا — بنشر ذلك الخبر، ممّا يحملنا على الشكّ في صحّته، خاصّة إذا علمنا أنّها تعكس وجهة نظر الأوساط الإستعمارية التي تمنّح دائما إلى التهويل والتّوريط.

ومع ذلك نجد إشارات هامّة تتعلّق بالمعطى الطرقي في أحداث الزلاّج:

من ذلك أنّ الجماهير المحتشدة أمام المقبرة صبيحة يوم 7 نوفمبر 1911 قد طالبت بإطلاق سراح «درويش Derwiche» كان قد تمّ اعتقاله (404)، ويبدو أنّ إلحاح الحاضرين على ذلك حمل شيخ المدينة على إجابة طلبهم (405). هل يعني هذا أن نأخذ بقول السكّط الاستعمارية، فنجعل «الأولياء وراء كل

BACH - HAMBA, op. cit., p. 1, de même C.D.N., l'Affaire du Djellaz, B-3 - 27, p. 4. (402)

"Une grave échauffourée à Tunis", la Dépêche Tunisienne, du 8/11/1911, p. 1. (403)

"L'Affaire du Djellaz", La Tunisie Française, Tunis, Imprimerie de la Tunisie Française, n° 2460 du 3/6/1912, pp. 5 - 7; p. 5; de même "Affaire du Djellaz"; Le Courrier de Tunisie, n° 2764 du 4/6/1912, p. 1 et 4, et le n° 2772, p. 1; de même AYADI, Mouvement réformiste..., p. 171.

"Affaire du Djellaz", Le Courrier de Tunisie, n° 2771, du 11/6/1912, p. 1 et 4, p. 4. (405)

ما يحدث» (406)، وبالتالي نذهب إلى القول بأن اعتقال ذلك «الدرويش» كان السبب في اندلاع أحداث الزلاّج (407)؟

إنّ هذا ما لا يمكن القول به لأنّه لا ينسجم مع سير الأحداث آنذاك: ذلك أنّ الولي الذي أوردت جريدة الديّاش أنّه كان يتزعم «مجموعة من السّوقية قد أمر بالانسحاب من ساحة الأحداث، كما أنّ شيخ المدينة قد بادر بإطلاق سراح «الدرويش» السّابق الذكر.

كل ذلك قبل أن تندلع الأحداث، وهو ما يدلّ على أنّ السّلط الإستعمارية كانت حريصة على تجنّب كل ما من شأنه أن يتسبّب في مضاعفات قد تكون لها عواقب وخيمة، فعملت على إزالة أسباب التوتر بعدم تعرضها «للأولياء» بما من شأنه أن يزيد في هيجان الجماهير.

لكن هل يعني ذلك أنّ تلك السّلط قد نجحت في تخييد الطرق، وتجنّبت — بالتّالي — عدم مشاركة أتباعها في أحداث الزلاّج؟

تشير بعض المعلومات إلى أنّ الطريقة الشاذلية قد تكون لعبت دوراً في ذلك: فبالإضافة إلى أنّ «العشرات من جثث الأهالي خُبّئت في زاوية المقبرة، ومنها تمّ نقلها إلى المستشفى الصّادقي...» (408)، فإنّ رئيس المحكمة — في جلسة صباح الاربعاء 5 جوان 1912 — وعند استنطاقه للمتهم محمد بن خميس لاكانجي أشار إلى أنّ هذا الأخير «لم تصدر ضده أحكام سابقة، حيث أثبت البحث أنّه شاب مقبل على أشغاله كنجّار، حسن الخلق، من الطبقة الحازمة من صغار أرباب الحرف، ومن أتباع الطريقة الشاذلية، محافظ على قواعد دينه، وكذلك إخوته، لكنّ الإشاعات الرّائجة اتّهمت الأخوين، فألقي عليهما القبض يوم 15 نوفمبر 1911...» (409).

أما شقيقه فهو المسمّى حسن بن خميس لاكانجي، الذي قال له رئيس المحكمة «إنّ البحث يفيد بأنك مثل أخيك في الإستقامة، والانكباب على

Ibid., n° 2790, du 30/6/1912, p 1 et 4, p 1, de même; A.D.; "Le rôle des Marabouts en (406 Tunisie", le n°= 2753, du 24/5/1912; p. 1

Ibid., n°= 2772, du 12/6/1912, p. 1. (407

"Les Indigènes se révoltent, une sanglante émeute aux portes de Tunis", La Tunisie (408 Française du 7/11/1911, p. 1.

(409 المرزوقي والجيلاني، المرجع السابق، ص 76، وكذلك: "Affaire du Djellaz", Le Courrier de Tunisie, n°= 2766 du 6/6/1912, p 1 et 4, p 4

عملك الخاص، والتمسك بالدين والتقوى...» (410)، علما وأن محمد بن خميس حكم عليه بالأشغال الشاقة لمدة خمس سنوات (411)، في حين حكم على أخيه حسن بالبراءة وترك السبيل (412).

كما أنه لابدّ - في هذا المجال - من الإشارة الى أن أحمد المتهمين يسكن جبل سيدي بلحسن نفسه (413)، وهو المسمّى محمد بن الحاج الصادق (414) الذي حكم عليه - هو الآخر - «بالسجن البسيط لمدة عامين» (415).

تلك هي الإشارات المتعلقة بالمعطى الطرقي في أحداث الزلاّج، فإلى أيّ مدى يمكن القول بأن الطريقة الشاذلية قد ساهمت فيها؟

إذا انطلقنا من قول علي باش حانية من أن حوالي ثلاثة أرباع سكّان مدينة تونس ينتمون إلى هذه الطريقة، وأنّ إثنان أو ثلاثة من المتهمين - من جملة اثنين وسبعين متّهما - ينتمون إلى الطريقة الشاذلية، فإننا نسيّن الانخراط الواضح بين الوزن العددي للطريقة في الحاضرة والمساهمة الفعلية لها في تأويل الأحداث. إذ أنّها مساهمة لا تتناسب مع ما تتمتع به من نفوذ، خاصة وأنّ عملية التسجيل - المزمع القيام بها - تستهدف مكانا يحتوي على الزاوية الأم للطريقة.

ذلك أن إجراء التسجيل من شأنه أن يكون كافيا لاستفزاز واستنفار جلّ أتباع الطريقة بالمدينة حتى يكون لهم دور أساسي في الدفاع عن زوايتهم، وبالتالي مساهمة واضحة وجليّة في تلك الأحداث، وهو ما لا يمكن القول به إذا أخذنا بالاعتبار التصنيف الطرقي للموقوفين إلا إذا اعتبرنا أن بحث واستنطاق المتهمين لم يصل إلى معرفة الانتماء الطرقي لهم جميعا.

وحتى إذا سلّمنا بأنّ وجود زاوية سيدي أبي الحسن الشاذلي داخل المقبرة قد يكون زاد في تأجيج حماس الذين حضروا صبيحة 7 نوفمبر 1911، فإنّ التصنيف الاجتماعي للمتهمين يوضّح - إلى حدّ ما - طبيعة تلك الأحداث، وبالتالي الأسباب التي كانت وراءها، والقوى التي كانت فاعلة فيها: فمن جملة الواحد والسبعين متّهما الذين مثّلوا أمام المحكمة الفرنسية الجنائية

410) المرزوقي والجيلاني، المرجع السابق، ص 77.

411) نفس المرجع، ص 150.

412) نفس المرجع، ص 152.

413) A.G.T., Affaire de Djellaz, E 565 - 1, p. 21, document n°= 270.

414) المرزوقي والجيلاني، المرجع السابق، ص 151.

415) نفس المرجع.

هناك أربعة عشر من فئة العمّال اليوميين، وثلاثة عشر حرفيين، وعشرين من فئة التجار، وثمانية حمالة، وأربعة فلاحين ومثلهم من العاملين بالمقاهي (416).

إنّ هذا يحملنا على القول بأنّ الذين كانوا فعلا طرفا فاعلا في أحداث الزلاّج هم - خاصة - أولئك المتضرّرين مباشرة من حصيلة السياسة الاستعمارية بعد ثلاثين سنة من الاستعمار الفرنسي للآيالة.

وهي سياسة أفضت إلى انتزاع الملكيات، وتضرّر الحرفيين والعمّال من مزاحمة البضائع الأوربية، هذا بالإضافة إلى تفشي البطالة والأجور المتفاوتة، والأعباء الضريبية.

وهي أوضاع زادت تأزّما المحاصيل الرديئة والأوبئة وخاصة الأحداث الظرفية التي جدّت آنذاك كغزو الايطاليين لطرابلس الغرب، ممّا أوجد جواً من الاستياء العام الذي جاء قرار التّسجيل ليفجّره.

هذا من ناحية، أمّا إذا أردنا أن نبحت المظهر السّلبي لبعض مشائخ الطرق الصّوفية من أحداث الزلاّج، فإنّه يمكننا الاستشهاد بأمرين:

* أولهما ما ورد في رسالة محمد الشّريف التّيجاني - شيخ زاوية بوعرادة - الى وزير الحربية الفرنسي، والتي ورد فيها قوله: «... أثناء أحداث الزلاّج، وفي الوقت الذي كانت فيه كلّ البلاد التّونسية تقريبا في ثورة، كان أبي يأمر أتباعه بالهدوء والخضوع، وعدم المشاركة مع حركة الشباب التّونسي في أيّ تحرك سياسي...» (417).

هل يمكن اعتبار هذا تمويهاً منه ومغالطة للسلط الاستعمارية في حين أنّه قد يكون لعب دوراً مخالفاً لما ذكره؟

إنّ هذا ما لا يمكن أن نرجّحه إذا علمنا مواقف التأييد للاستعمار الفرنسي التي صدرت عنه في العديد من المناسبات، ومختلف الخدمات التي قدّمها له، والتي أشرنا إليها في مواقع مختلفة من هذا البحث.

* ثانيهما أن المسمّى ابن حملاوي أحمد بن علاوة - مقدّم الطريقة التّيجانية أيضا - صرّح لمراسل أحد الصّحف بأنّ «أحداث الزلاّج لا علاقة لها بأحداث طرابلس...»، وأنّ ما جدّ بمدينة تونس (يعني أحداث الزلاّج) لم يرض

AYADI, Mouvement réformiste, ..., p. 187. (416)

C.N.U.D.S.T. , Le Chérif Tidjani au Ministre de la guerre à Paris; le 14/12/1930., (417)

Tunisie 1917 - 1940, dossier n°= 2..., f. 2.

عنه كلّ أحياء الحضارة... [مؤكداً] أن جزءاً من المقبرة القديمة (الزلاّج) يجب أن يزول، ويخصّص لبناء مستشفى للمسلمين! (418).

ويقطع النظر عمّا إذا كان هذا الموقف يعبر عن وجهة نظر أتباع الطريقة التيجانية أو هو ملزم فقط لصاحبه، أو ناتج عن الحقد الذي قد يكون شيخ التيجانية هذا يكتنه للطريقة الشاذلية المستقطبة لجلّ سكان مدينة تونس ممّا حال — ربّما — دون توسيع الطريقة التيجانية هناك لقاعدتها الشعبية، فإنّ الموقف المشار إليه — رغم غرابته إذا أخذنا بالاعتبار الاطار الذي تنزّل فيه — ينسجم مع الخطّ العام الذي عُرِفَت به بعض زوايا الطريقة التيجانية في البلاد التونسية سواءً في بوعرادة أو في الجنوب أو كذلك في الجزائر.

كل ذلك يدلّ على أنّ الذين تجمّعوا صبيحة يوم 7 نوفمبر 1911 قد حضروا — قبل كل شيء — ليعبروا عن احتجاجهم على السياسة الاستعمارية التي هم ضحاياها، وليعترضوا على تسجيل المقبرة التي لهم أموات بداخلها.

فهم — حتّى وإن كان من بينهم العديد من أتباع الطريقة الشاذلية أو غيرها — قد حضروا بصفّتهم كضحايا لسياسة استعمارية أوجدت وضعية إجتماعية متردّية، وليس بصفّتهم كأتباع طريقة معيّنة، باعتبار أنّ المعطى الاجتماعي الذي يمسّ أكثر الفئات من شأنه أن يجمعها حول موقف واحد يهتمّها كلّها، ويحملها بالتّالي على تجاوز انتمائها الطرقي، في حين أنّ المعطى الطرقي يبقى قاصراً على ذلك إذا أخذنا بالاعتبار التّنافس والتناقض بين الطّرق.

ومّا يؤكّد ما ذهبنا إليه من أنّ المعطى الطرقي لم يكن هو العامل المحدّد أو البارز في أحداث الزلاّج أنّه لو كان مقام أبي الحسن الشاذلي وراء تلك الأحداث لما تحرّك سكان المدينة في مقاطعة الترامواي التي لا علاقة لأبي الحسن الشاذلي أو الزلاّج بها، وذلك رغم القمع والضّحايا، وخاصة الاجراءات التعسّفية التي تلت أحداث الزلاّج.

وهذا يحملنا على القول بأنّ التّهمة التي عمّت الأهالي حملتهم على الخروج من صمتهم ودفعتهم — شعوراً منهم بقوتهم عندما يكونون متّحدين — إلى الإحتجاج على السياسة الاستعمارية بل والاعتراض عليها بالفعل لا بالقول فقط كما كان الأمر سابقاً.

"Les troubles de Tunis", Le Courrier de Tunisie, n° 2563, du 17/11/1911. (418

فكانت تلك الأحداث — بذلك — مناسبة «وقع فيها» لأول مرة — التعبير عن الشعور القومي بواسطة الشعب...» (419).

ج - أحداث مقاطعة الترامواي (420).

في الوقت الذي كانت فيه الأنباء لا تزال تصل إلى الآيالة حول المعارك العثمانية الإيطالية في طرابلس، وفي الوقت الذي لازالت فيه أحداث الزلاّج حاضرة حيّة في أذهان السكّان بالآيالة وخاصة حاضرتها، جاء حادث دوس إحدى عربات الترامواي لطفل مسلم — يوم 8 فيفري 1912 — ليزيد الأنفس حقًا، والأوضاع تأزّمًا.

ذلك أنّ معلقات باللغة العربية علّقت في الليلة الفاصلة بين 9 و10 فيفري تدعو الأهالي إلى مقاطعة الترامواي (421).

وهي مقاطعة وجد فيها العمّال التونسيون العاملون بالشركة فرصة للضغط على هذه الأخيرة لتحسّن ظروف عملهم (422)، وتجعل أجورهم مساوية لأجور العمّال الأوربيين (423).

وبتوتّر العلاقات، سعى علي باش حانية إلى بعث «لجنة المقاطعة» كوسيط بين الشركة والسكّان (424).

(419) SAMMUT, *op.cit.*, p. 325.

(420) حول تلك الأحداث، أنظر المرزوقي والجيلاني، المرجع السابق، ص 171 - 180، وكذلك: C.D.N., *Le boycottage des Tramways*, 9 février 1912, B - 1 - 37; de même au C.N.U.D.S.T., N.S., Tunisie 1882 - 1919, N S 33, 12/1911 - 3/1912, N.S. 34 et 36, de même MAHJOUBI; *Les Origines...*, p. 135; SAMMUT; *op.cit.*, p. 329, AYADI, *Mouvement réformiste*., p 223.

(421) MAHJOUBI, *Les Origines*., p. 135., de même SAMMUT; *op.cit.*, p 329; AYADI, (421) *Mouvement réformiste*., p. 224.

(422) حول الظروف السيئة للعمّال التونسيين في شركة الترامواي، أنظر: SAMMUT, *op.cit.*, p. 329 - 330.

(423) SAMMUT, *op.cit.*, p. 332

Ibid. (424)

وباستمرار المقاطعة طويلا، اعتبرتها السلط الاستعمارية موجّهة ضدها، فعمدت إلى نفي عبدالعزيز الثعالبي (425) وعلي باش حانبة ومحمد نعمان إلى مرسيليا.

في حين سلّم حسن الفلاتي — الجزائري — إلى السلطات الفرنسية لما وقع إرسال الشاذلي درغوث والصادق الزمرلي إلى الجنوب التونسي، أمّا المختار كاهية فإنّ قرابته من عائلة الباي إقتضت إيداعه سجن قصر باردو (426).

ذلك بإيجاز ما يتعلّق بأطوار الأحداث، ولنعرض فيما يلي إلى دور الطرق الصوفيّة سلبا أو إيجابا في أحداث الترامواي.

لقد فُتح إكتتاب لفائدة عائلة ضحيّة الحادث القاتل (427)، فهل ساهمت فيه الطرق الصوفية ممثلة في مشائخها أو أتباعها؟

لا شيء — إنطلاقا من المصادر التي أمكننا الاطلاع عليها — يفيد ذلك.

ومن جهة أخرى فإنّ الكاتب العام للحكومة التونسية أوضح في ملاحظات علقت بالمدينة أنّ المقاطعة قد انتهت، وأنّ كل من يعثر عليه يحرض عليها يعاقب بشدّة، وقد تولّى شيخ المدينة قراءة ذلك النصّ في المساجد (428).

فهل قرئ ذلك القرار أيضا في الزوايا الطرقية، وهل كان له وقع على أتباعها؟ لا شيء يمكننا من الإجابة على ذلك أيضا.

(425) عبدالعزيز الثعالبي: ولد بتونس سنة 1874 من عائلة جزائرية الأصل استقرت بتونس حوالي سنة 1830، أمس سنة 1895 جريدة «سبيل الرشاد»، سافر الى الشرق ثم عاد الى تونس أين حوكم سنة 1904 بتهمة التطاول على الأولياء والصالحين، أصبح سنة 1909 المحرّر للنشرة العربية لجريدة «التونسي» اتهم بوقوفه وراء مقاطعة الترامواي سنة 1912، فتمّ نفيه إلى فرنسا، ومنها انتقل إلى تركيا ثم الشرق الأقصى حيث زار جاوة والهند وعاد الى تونس قبيل الحرب العالمية الأولى التي ساهم — على إثرها — في تأليف كتاب «تونس الشهيدة» — وبعث الحزب لآخر الدستور التونسي سنة 1920، غادر تونس سنة 1923 ملتحقا بإيطاليا ففرنسا ثم الشرقين الأدنى والأقصى وعاد الى تونس سنة 1937 والحلاف على أشدّه بين حربه و«الديوان السياسي». توفي أكتوبر سنة 1944، أنظر المرزوقي والحيلاني، المرجع السابق، ص 176 — 177، وكذلك

MAHJoubi, Les Origines..., p. 201; AYADI, Mouvement., p. 131

MAHJoubi, Les Origines..., p. 138; AYADI, Mouvement..., p. 242. (426)

"Souscription", Le Courrier de Tunisie, n°= 2658, du 16/2/1912, p. 1 ainsi que les (427) n°= 2660, p. 2, n°= 2663, p. 4.

C.D.N., Le boycottage..., p. 98; de même "le boycottage des tramways", La Tunisie Française; n°= 2378; du 12/3/1912; p. 1. (428)

كما أن وزير القلم قد استدعى الأعيان والشخصيات المرموقة في الحاضرة، وحثهم على التدخل لدى مواطنيهم لفك المقاطعة (429).

فهل كان مشائخ الطرق الصوفية — بالحاضرة — أو بعضهم ضمن الحاضرين، وهل قاموا بما طلب منهم؟

نفيد بعض الإشارات إلى أن السلط الإستعمارية — التي عملت على فك المقاطعة بعدة وسائل — إلتجأت لما أعبتها الحيلة — إلى «شيوخ الأضرحة ليركبوا ويحثوا الناس على الركوب، فلم يفيدوها شيئاً في الموضوع...» (430).

من ذلك أن «الشيخ أحمد جمال الدين الخياري — أحد مدرّسي جامع الزيتونة...، ومن أصحاب الطريقة القادرية، دفع المال من جيبه لتلازمة زاويته ليركبوا، فخرجوا من عنده، واشتروا بما أخذوا منه الخضر...»! (431).

كما أن أحد مشائخ الطريقة الرحمانية بمنطقة بجاية بجهة ماطر قد نوّه بدوره في تلك المقاطعة، واعتبره من الخدمات الجليلة التي قدّمها للإستعمار (432).

وبذلك يبدو — من خلال هذه الإشارات الوجيزة — أن بعض مشائخ الطرق الصوفية قد انحازوا إلى جانب السلطات الإستعمارية.

على أن ما تجدر الإشارة إليه — في هذا المجال — أن العمل على فك المقاطعة قد صدر — على ما يبدو — عن بعض مشائخ الطرق وليس عن الأتباع:

ذلك أن أحد مشائخ الزيتونة — السابق الذكر — والذي كلّفته «الدولة بأن يوصي المدرّسين والتلاميذ بالعمل بما تحبّ في مسألة المقاطعة من الركوب والدعوة إليه، أخذ يبحث على ذلك بإخلاص واجتهاد...، ولكن المقاطعة [ظلت] مستمرة...، فكلفت أكثر الأعوان الإداريين أن يركبوا، فركبوا بضع مرّات، فلم يقتد بهم أحد، فكلفت [الدولة] شيوخ الأضرحة...، فلم يفيدوها شيئاً

C.D.N., Le boycottage... p. 92. (429)

430) المرزوقي والجيلاني، المرجع السابق، ص 186، أنظر كذلك الطاهر الهمامي، «العاصمة تقاطع شركة التّرامواي»، مجلة حقائق، تونس، شركة سنيب، عدد 57، ليوم 1985/2/15، ص 16 - 17، ص 17.

431) ابن الحقيقة، «مقاطعة الراكب الكهربائية وسببها»، مجلة للنار، مصر، مطبعة المنار، ح 5، م 15، عدد 17 ماي 1912، ص 389 - 391، ص 391.

OULED Med, op.cit, p. 98. (432)

في الموضوع...» (433)، و«فشلوا - بدورهم - في جرّ الناس...» (434).
لئن تدين هذه الإشارات بعض مشائخ الطرق الصّوفية، فإنّها توضّح عدم
التّطابق والانسجام في المواقف بينهم وبين أتباعهم.

فهؤلاء - على ما يبدو - قد انسجموا مع الرّأي العام الذي وقف موقفاً
موحّداً يصعب على الفرد خرقه، خاصّة إذا علمنا الحرب النّفسية التي كانت تشنّ
على الذين يركبون، وذلك كلّ عنهم (435) وخاصّة مواصلة طلاء أبوابهم
بالأسود (436) إشارة إليهم، ممّا يلفت إليهم الأنظار، ويظهرهم بمظهر الخارجين
عن المجموعة الوطنية.

إنّ هذا كلّه يحملنا على القول بأنّ نفوذ بعض مشائخ الطرق على أتباعهم
كثيراً ما يقع تجاوزه تحت تأثير الشّعور الوطني - كما كان الشأن في مقاومة قبائل
الوسط والوسط الغربي - أو التأثير المعنوي لما اتّفقت عليه المجموعة كما هو الحال
في قضية مقاطعة التّرامواي.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى جاءت أحداث هذه المقاطعة لتثبت مرّة أخرى
أنّ نفوذ المشائخ على أتباعهم والذي راهنت عليه السّلط الإستعمارية للاستفادة منه
لم يكن دائماً موجوداً، وإنّ أولئك المشائخ كثيراً ما لا يمثّلون إلّا أنفسهم فيما
يصدر عنهم من مواقف وممارسات.

وهذا بدوره يوضّح فشل السّلط الإستعمارية في معرفة وتحديد القوى الضّاغطة
فعلاً في المجتمع التّونسي، والقادرة بالتّالي على التحكّم في أوسع فئاته
وتحريكها.

وهو ما أتضح أكثر في الأحداث التي تلت سنة 1930 كالمؤتمر
الافخارستي وخاصة أحداث التجنيس.

(433) المرزوقي والجيلاني، المرجع السّابق، ص 186.

(434) الهمامي، المرجع السّابق، ص 17.

C.D.N, Le boycottage..., p. 92. (335)

AYADI, Mouvement..., p. 243 et 247 (436)

د - أحداث التجنيس (437):

تعتبر من الأحداث البارزة في تاريخ تونس المعاصر، ويقطع النظر عن العوامل التي دفعت فرنسا إلى الالتجاء إلى التجنيس (438)، أو أهمّ مراحلها (439) ومختلف القوانين المتعلقة به والتي ظهرت بالايالة (440) أو أهم الامتيازات التي ينالها المتجنّس (441)، نشير إلى أنّ مسألة التجنيس كان لها صدى في أغلب جهات الايالة.

فلقد جدّت مظاهرات في توزر (442) والقيروان (443) والمكنين (444)، والمنستير (445)، وحمام الأنف (446)، وسوسة (447)،

437) حول تلك الأحداث أنظر رضا الكزدغلي، أحداث التجنيس من خلال الصحافة في تونس ستي 1923 و 1933، تحليل محتوى الصحف، «الأمة»، «النهضة»، «تونس الفرنسية»، «تونس الاشتراكية»، «العمل التونسي»، رسالة ختم الدروس الجامعية لسنة 1979 - 1980، (مخطوطة) تونس، معهد الصحافة وعلوم الأخبار، وكذلك: C.D.N., Section Mouvement National, Naturalisation en Tunisie; B - 337; A.G.T., E 580 - 4 et E 507 - 2, 6; TAHAR LAKHDAR, Essais sur la Tunisie, Naturalisation Française et Nationalisme Tunisien, thèse de Sciences politiques, Paris, 1932 (au C.D.N., dossier A - 4 - 16); EL MENIF, (M.S.), L'Islam face au colonialisme en Tunisie, le problème des Naturalisations, Mémoire pour le Diplôme d'Etudes Supérieures de Sciences politiques (Dactylographié), université de Paris - I - Panthéon Sorbonne; Février 1974.

438) كزدغلي، المرجع السابق، ص 43 وما بعدها، وكذلك EL MENIF, op.cit., p. 39.

439) EL MENIF, op.cit., p. 48.

440) كزدغلي، المرجع السابق، ص 42.

441) نفس المرجع، ص 45 وكذلك: LAKHDAR, op.cit., p. 47.

442) ح: ص. «توزر ومسألة التجنيس»، لسان الشعب، عدد 522، ليوم 19/4/1933، ص 3.

443) محمد الهادي العامري، «مظاهرة القيروان»، نفس المصدر، عدد 523، ليوم 26/4/1933، ص 2 وكذلك «مظاهرة القيروان»، الزهرة، عدد 7777، ليوم 25/4/1933، ص 1، وكذلك،

«الحكم في قضية المتظاهرين بالقيروان»، نفس المصدر، عدد 7781، ليوم 30/4/1933، ص 3.

444) مكاتب «التظاهر ضدّ التجنيس بالمكنين»، لسان الشعب عدد 525، ليوم 5/10/1933، ص 3.

445) البشير الخنفي، «حوادث التجنيس أيضا: قلاقل المنستير»، نفس المصدر، عدد 538، ليوم 16/8/1933، ص 1، وكذلك البشير الخنفي «انتهاء حوادث المنستير»، نفس المصدر، عدد

540، ليوم 6/9/1933، ص 1، و «حوادث كبرى بالمنستير»، نفس المصدر، عدد 537، ليوم

9/8/1933، ص 2

446) «مظاهرة شعبية بحمام الأنف»، الزهرة، عدد 7772، ليوم 19/4/1933، ص 3.

447) «مظاهرة أهل سوسة الواقعة صباح يوم الثلاثاء ضدّ التجنيس والفتوى الصادرة في شأنه»، نفس المصدر، عدد 7774، ليوم 21/4/1933، ص 2.

وقفصة (448)، بالإضافة إلى العاصمة، وهي حوادث زادت في إذكائها فتوى علماء الشرع من المذهبين المالكي والحنفي (449).

فماذا كان موقف ودور الطرق الصوفية في تلك الأحداث؟

لا شيء في إطار الوثائق والمصادر التي إطلعنا عليها - يمكننا من الإجابة على ذلك، لكن - رغم ذلك - هناك أمران يلفتان الانتباه:

* أولهما أنّ بعض تلك الأحداث جدّت في مراكز عُرِفَتْ بنفوذ الطرق الصوفية فيها كقفصة التي تحتلّ المرتبة الأولى في جهة الجنوب من حيث العدد الجملي لأتباع الطرق بها سنة 1925، وكذلك توزر.

ولكن رغم ذلك لا نجد أثراً لدور الطرق في تلك الأحداث، وهذا يحملنا على القول بأنّ هناك دوافع وقوى أخرى حلّت محلّها في تحريك الجماهير.

* ثانيهما أنّ تلك التحركات وردود الفعل لم تكن بارزة في مناطق الوسط الغربي والشمال الغربي المجال الحيوي للطرق من حيث عدد أتباعها.

وحتى وإن وُجدت (تلك الأحداث والتحركات) فإنّها لم تكن بنفس الحدة التي سُجِّلَتْ بالمناطق الساحلية حيث عدد الأتباع أقلّ حسب إحصائيات 1925.

إنّ هذا الوضع يحملنا على القول بأنّه وإن كانت مناطق الشمال الغربي والوسط الغربي تمثل المجال التقليدي لنفوذ الطرق، فإنّ المناطق الساحلية والأوساط الحضرية بمميّزاتها وخصوصياتها مثلت - على ما يبدو - منبّتاً ونشأة الأحزاب السياسية التي أصبحت قادرة على تحريك أكثر الناس، ليس فقط في المناطق الساحلية، وإنّما أيضا في بقية أنحاء الإيالة، ممّا زاد في توسّع قاعدتها الشعبية على حساب الطرق الصوفية.

لقد استقطبت قوانين التجنيس العديد من التونسيين المسلمين (450) من أوساط إجتماعية مختلفة.

فهل يمكن القول بأنّ العديد أو البعض من مشائخ الطرق أو أتباعها كانوا ضمن المتجنّسين؟

(448) «تأثير فتوى التجنيس بداخل المملكة»، نفس المصدر، عدد 7773، ليوم 1933/4/20، ص 3، وكذلك: "Echos de Gafsa", La Voix du Tunisien, n°= 574, du 1/4/1933, p 2

(449) أنظر ذلك في آخر الفصل.

(450) أنظر الإحصائيات المتعلقة بالمتجنّسين في: EL MENIF, op.cit, pp. 53, 133, 136.

للإجابة على ذلك لابدّ من التعرف على من اتّجهت إليه قوانين التجنيس تبعاً للسياسة الإستعمارية:

لقد أوضح ذلك الفصل الرابع من قانون التجنيس الصادر يوم 20 ديسمبر 1923 (451) والذي نصّ على أنّ الرّاعيين في التجنيس بالجنسية الفرنسية يجب عليهم «أن يثبتوا أنّهم يُحسنون الكتابة والتكلّم بسهولة بالّلغة الفرنسية إن لزم إثباته لذلك...» [كما يشمل] الرّعايا الذين حصلوا على شهادة اللّيسانس في الأدب، أو في العلوم، أو في الحقوق، وشهادة الدكتوراه في الطبّ، أو شهادة في الصيدلة من الرتبة الأولى، أو لقب تلميذ مقيم بالمستشفيات يسمّى بعد مناظرة بمدينة توجد فيها كلية طبية، أو على الشهادة التي تصدر عن المدرسة الجامعة للفنون والمعامل...» (452).

وبهذا يمكننا القول بأنّ التجنيس يتّجه بالدرجة الأولى إلى النّخبة المثقّفة من التّونسيين، ليجلب لفرنسا — عناصر — ممتازة تساعد على إنجاح سياسة الاندماج من جهة، ولتقطع تلك الفئة الواعية عن مجتمعتها لتحول — بالتالي — دون قيامها بالدور التوعوي والتضالي الوطني المرتقب منها من جهة أخرى.

ومما يثبت ما ذهبنا إليه أنّ التّصنيف الاجتماعي للمتجنّسين بالايالة سني 1928 و1929 يبرز أنّ 85٪ منهم من الموظّفين، و12٪ من الفلاحين (453)، وهي فئات متمركزة أساساً في المدن.

كلّ هذه المعطيات — إذا أخذنا بالاعتبار المستوى الثقافي المتدنّي لجلّ أتباع الطرق الصوفيّة وحتى لأغلبية مشائخها — تحملنا على القول بأنّ هؤلاء لا يستجيبون للشروط التي حدّتها قوانين التجنيس، وبالتالي ليسوا الفئة المعنية بذلك بالدرجة الأولى.

وهذا من شأنه أن يجعل عدد المتجنّسين — ضمن مشائخ الطرق الصوفيّة وأتباعها — ضئيلاً وليس منعزلاً تماماً.

إذ يمكننا الإشارة في هذا المجال إلى أنّ «هناك شخص متجنّس من سكّان قصيبة المديوني، ومن أتباع الطريقة المدينية يُدعى عبدالقادر مالك، رفع الى

(451) أنظر فصول ذلك القانون في الكزدغلي، المرجع السابق، ص 138 وكذلك LAKDHAR, op.cit., p. 50 et 51, de même EL MENIF, op.cit., p. 111.

(452) الكزدغلي، المرجع السابق، ص 138، أنظر كذلك العدد 105 من الرائد الرسمي التّونسي، تونس المطبعة الرّسمية للبلاد التّونسية ليوم 22 جمادى الأولى 1342 / الموافق لـ 31 ديسمبر 1923.

LAKDHAR, op.cit., p. 48. (453)

بريفادي [رئيس مركز الشرطة] المستير دعوى ملخصها أن زمرة من السكان أخذوا يحرضون الناس على منعه من الدخول للجامع يوم الجمعة...، وأدلى على ذلك بشهود ثلاثة: شيخ الطريقة المدنية، وإمام الجامع، وشيخ القرية...! (454).

هذا مع العلم بأنّ عبدالقادر المذكور المتجنّس من الأتباع المخلصين لشيخ الطريقة المدنية (455) الذي - على حدّ قول المراسل - أدلى بشهادته في القضية «باطلا... عند العامل...! (456).

وهذا يحملنا على القول بأنّ الشيخ المذكور ليس فقط لم ينكر التجنّس على أحد أتباعه، بل دافع عنه وأدلى بشهادته لصالحه، وهذا في حدّ ذاته يعتبر موقفاً مسانداً للتجنّس والمتجنّسين من طرف شيخ الطريقة المدنية بقصية المديوني.

ومن جهة أخرى، وبعد فرار السّلط الإستعمارية القاضي بإحداث مقابر للمتجنّسين في مختلف أنحاء الايالة (457)، وقع في الجريصة تخصيص قطعة أرض «للمسلمين الفرنسيين...، مساحتها سبعة مائة وثمان وستين متر مربع...، منحت مجاناً للدولة بتاريخ التاسع من أوت سنة 1933 من طرف أحمد بوحجر بن عبدالله الولي المعتبر بالجهة...، والذي كان قد قدم من ففصة...، وأسّس في مشيخة المسكية زاوية فرعية لزاوية سيدي بوحجر (الرحمانية) بففصة (458).

إنّ هذه المبادرة من الشيخ المذكور لا توضّح موقفه من التجنّس فحسب، بل كذلك مساهمته في مساعدة السّلط الإستعمارية على إيجاد حلّ لتلك المعضلة. على أنّ ما تجدر الإشارة إليه في هذا المجال، أنّه في الوقت الذي كانت تحدث فيه مشادات بين الأهالي وقوات الاحتلال للحيلولة دون دفن المتجنّسين

(454) المراسل المتجوّل، «المتجنّسون وجوامع المسلمين»، لسان الشعب، السّنة 14، عدد 539، ليوم 1933/8/23، ص 3.

(455) المكاتب المتحوّل، «شيخ طريقة يتكلّم»، نفس المصدر، عدد 541، ليوم 1933/9/13، ص 3.

(456) «بيان حقيقة»، نفس المصدر، عدد 543، ليوم 1933/9/27، ص 3.

(457) حول ذلك أنظر: MAHJOURI, Les Origines, p 509.

(458) A.G.T., Note sur le Cimetière des Musulmans Français à Djérissa, par le C.C. du Kef au

R G., le 27/12/1933, E 580 - 4.

في مقابر المسلمين كما حدث بينزرت (459)، ومنزلة بورقيبة (460)، وتونس (461)، كان الشيخ أحمد بوحجر - السابق الذكر - يدفن - يوم 29 نوفمبر 1933 - أول مسلم متجنس بالمقبرة التي أوجدها خصيصا لذلك: حيث «صلى عليه بنفسه (شيخ الطريقة) صلاة الجنازة -، ونضح قبره بالماء وزهر البرتقال وبالعطر، وهو الذي - أيضا - غسل جسده حسب الطقوس القرآنية...» (462) على حد قول المصادر الرسمية نفسها.

تلك هي العناية والحضوة التي لقيها موت متجنس بالجريصة من قبل شيخ طريقة، بينما نلاحظ - في المقابل - أن اثنين من غسالي الموتى جلبهما المراقب المدني بتونس - غرة - بعد موت المتجنس موسى، وما ان تفتنا إلى حقيقة الميت حتى لاذا بالفرار، مما حتم جلب اثنين آخرين كلف شيخ باب سوقة بملازمتها لحراستهما حتى يكمل مهمتهما، علما وأنه لم يكن هناك من يصلي عليه، ولا حتى من يحمل جثمانه!

إذ أن أربعة حمالة - جلبوا غرة للغرض - قد لاذا بالفرار، ورغم أن الحمالين كانوا كثيرين في ساحة باب سوقة - قبل الحادثة - فإنهم سرعان ما اختفوا، ولم يعثر على واحد منهم (463).

وبالمقارنة بين ما جد في الجريصة وما حدث في باب سوقة - في نفس التاريخ - نتبين المقاطعة التامة للمتجنسين الأموات في كل كبيرة وصغيرة في باب سوقة، بينما هناك تعامل يبدو عاديا وطبيعيا معهم مع أحد مشائخ الصوفية بالجريصة.

وهو ما يوضح مخالفة بعض مشائخ الطرق لما كانت عليه أغلب فئات المجتمع التونسي آنذاك، ويبرز الوعي بالمقاطعة الذي شمل غسالي الموتى والحمالة في المدن، في حين ظل ذلك الوعي معدوما لدى بعض مشائخ الطرق الصوفية في الآفاق، حيث حالت ممارساتهم تلك دون تجذير القطيعة بين المتجنسين وبقية الأهالي.

Le R.G. au Ministre des Affaires Etrangères à Paris, le 29/4/1933, Revue WATHAIQ .., (459) p. 11.

Ibid., p. 21. (460)

Ibid., pp. 19 - 21. (461)

A.G.T., Note sur le Cimetière des Musulmans..., p. 1. (262)

Ibid., Le Président de la Ligue des Musulmans Français au C.C. de Tunis, Le 26/9/1933, pp (463) 1 - 3, p. 1, E 580 - 4.

وهو ما جعل جنازة المتجنّس بالجريصة — التي أشرف على تجهيزها الشيخ أحمد بوحجر السابق الذكر — «يتبعها عدد كبير من المسلمين غير المتجنّسين والذين لم يغضبهم أن يروا متجنّسا يدفن في أرض مقدّسة، كما شهد الجنازة كلّ الإطار الفرنسي — تقريبا — العامل بمنجم الجريصة أين كان الميت يشغل خطة محاسب وكيميائي...»! (464).

إنّ المواقف التي كانت لبعض مشائخ الطرق الصّوفية من أحداث التّجنّس لا تفسّر محدوديّة وقلة المظاهرات الجسّدية من التّجنّس — بمناطق الشّمال والوسط الغربيّين بالمقارنة مع الجهات الساحلية — فحسب، بل تُبرز مرّة أخرى موقفهم الرّسمي في إتّجاه يصادم التّيّار العام للأحداث، ويخالف ما اتّفقت عليه المجموعة الوطنيّة، وما مات — آنذاك — من أجله العديد من الشّهداء، ممّا جعل أولئك المشائخ لا يستفيدون من تلك الأحداث.

ذلك أنّ أحداث التّجنّس كانت مناسبة وفرصة كان في إمكان الطرق الصّوفية إستغلالها وتوظيفها لصالحها، لكنّها وقفت منها مواقف دعت مواقع خصومها على حسابها.

أما فيما يخصّ المؤتمر الإفخارستي (465) فقد انعقد بقرطاج من يوم 7 إلى يوم 11 ماي 1930.

وقد اعتبره المسلمون — آنذاك — حملة صليبية جديدة بسبب المظاهر والممارسات والتّصريحات التي مثّلت تحديا سافرا للإسلام والمسلمين آنذاك (466).

وهو ما أدّى إلى إضراب تلامذة العديد من المؤسسات التعليمية بالحاضرة عن الدّروس، وتنظيمهم للعديد من المظاهرات والمسيرات، وإرسال رجالات الحزب الحزب الدستوري التونسي رسالة إلى الباي لدعوته إلى التخلّي عن الرئاسة

Ibid., Note sur le Cimetière des Musulmans .., p. 2. (464)

(465) حول المؤتمر الافخارستي، انظر: C.D.N., Section Mouvement National, le 30è Congrès Eucharistique de Carthage (7 au 11/5/1930), A - 4 - 5, de même au C.N.U.D.S.T., Tunisie 1917 - 1940, dossier unique, 1/1930 - 11/1934, du f. 1 au f. 247; ainsi que MAHJOUBI, Les Origines..., p. 466.

(466) حول أهمّ مظاهر التّحدّي، أنظر «تنويه الصحافة الأجنبيّة بتسامح الاسلام»، الزهرة، السّنة 42، عدد 6871، ليوم 1930/5/5، ص 1، و «نشاط الكنيسة الكاثوليكية»، نفس المصدر، عدد 6863، ليوم 1930/4/25، ص 1، وكذلك بمركز التوثيق القومي، الحركة الوطنيّة «مسودّات قضية المؤتمر الافخارستي»، 8، المؤتمر الافخارستي المنعقد في قرطاج يوم 7 الى 11 ماي 1930، أ - 4 - 5، وكذلك: MAHJOUBI, Les Origines..., p. 468.

الشّرفية للمؤتمر (467) وكذلك، العديد من أعضاء حكومته (468).

ولكن رغم تتبّعنا لجرائد تلك الفترة (469)، والاطلاع على العديد من المصادر المتعلقة بتحضيرات وأشغال ذلك المؤتمر وردود فعله، فإنّنا لم نعثر على ما من شأنه أن يوضّح لنا موقف الطّرق الصّوفية أو بعضها من ذلك الحدث البارز في تاريخ تونس المعاصر.

فهل أنّ شيوخ مشائخ بعض الطرق الصّوفية القارّين بالحاضرة، بالإضافة إلى 9.172 العدد الجملي لأتباع مختلف الطرق بالحاضرة حسب احصائيات 1925 لم يكن لهم موقف واضح من ذلك الحدث البارز الذي دارت وقائعه قريبا منهم، وأثار ردود فعل داخلية وخارجية؟

لا شيء — في حدود إطلاعنا — يمكّننا من الإجابة على ذلك.

من خلال كلّ ما سبق يمكّننا القول بأنّ بعض الطرق الصّوفية بوقوفها مواقف مصادمة للرأي العام في أغلب الأحيان ولسار الأحداث في تاريخ الحركة الوطنية — كما كان الشأن بالنسبة لأحداث الزّلاّج أو مقاطعة التّرامواي أو التّجنّيس — ، أو — كذلك — بسكوتها كما كان الحال بالنسبة للمؤتمر الافخارستي، يظهر أنّها أضاعت على نفسها ظروفًا كانت فيها المشاعر الدينية لدى الأهالي في أرجها، وكان أولى بتلك الطرق — لانتسابها للدين — أنّ تلفّ حولها الجماهير، وتوسّع بالتّالي قاعدتها الشّعبية، وتقطع الطريقة على الأحزاب السياسية المنافسة لها، أو تسايرها على الأقل، إلّا أنّ شيئًا من ذلك لم يقع.

467 مركز التوثيق القومي، الحركة الوطنية مسودّات قضية... 4، ص 2 — 5، وكذلك:

MAHJOUBI, *Les Origines...*, p. 470 - 471.

468 نفس المصدر، ص 5 — 6 وكذلك: MAHJOUBI *Les Origines...*, p. 471.

469 من تلك الجرائد بالعربية، الزّهرة، من العدد 6767 ليوم 1930/1/1 إلى العدد 6917 ليوم 1930/6/30، وجريدة الصّواب، من العدد 608 ليوم 1930/1/3 إلى العدد 645 ليوم 1930/12/26، وجريدة النّديم، تونس، المطبعة التّونسية من العدد 432 ليوم 1930/1/4 إلى العدد 476 ليوم 1930/12/27، وجريدة النهضة، تونس، مطبعة النهضة من العدد 2087، ليوم 1930/1/1 إلى العدد 2263 ليوم 1930/7/31 ومن الجرائد الناطقة بالفرنسية: *La Tunisie Française*, du n° 7882 au n° 8263. *Dépêche Tunisienne*, du n° 14065 au n° 14125; *Tunis Socialiste*, Imp. de Tunis; du n° 2508 au n° 2748.

فقد استغلت التشكيلات السياسية وخاصة الحزب الحر الدستوري التونسي جلّ تلك الأحداث وبالأخص أحداث التجنيس التي مثلت بالنسبة إليه أداة عمل وظّفها في تكثيف اتصالاته بالناس بعقد الاجتماعات المتتالية، وتحرير العرائض، وتنظيم المسيرات، والاتصال ببعض الأعيان في الولاية، والتركيز على أنّ التخلّي عن الجنسية هو تخلّ عن الدين، وأنّ «الدفاع عن الإسلام لا ينفصل عن الدفاع عن الأمة، ممّا جعل الشعور الوطني - أثناء انعقاد المؤتمر الإفخارستي يمتزج بالشعور الديني...» (470).

وهذا الأمر ألهب حماس الجماهير، وجعلها تشعر بخطر الاندماج وذوبان هويتها، فخرجت إلى الشوارع - في مختلف جهات البلاد معبرة عن رفضها للتجنيس والمتجنسين، متجاوزة حتى «العلماء الرسميين» الذين لم يصدروا فتوى تُدين التجنيس (471)، وبلغ الأمر حدّ مقاطعة الصلاة وراءهم.

كلّ هذا يبرز تخلف الطرق عن القيام بدورها، وتقدّم الأحزاب السياسية للأخذ بزمام المبادرة، واستقطابها لاهتمام أوسع الفئات الشعبية بما في ذلك أتباع الطرق ممّا سيؤدّي - تدريجيا - إلى ضعف سلطة هذه الأخيرة.

على أنّ ما تجدر الإشارة إليه - في ختام هذه الفقرة - هو أن وقوف بعض مشايخ الطرق - من العديد من الأحداث - مواقف تتناقض مع ما عبّرت عنه الجماهير، أو سكوتهم وسليبتهم ليس تجاه المؤتمر الإفخارستي فحسب، بل إزاء العديد من الأحداث البارزة كتأسيس «جامعة عموم العملة التونسية» (472)، أو

MAHJOUBI, Les Origines.., p. 473. (470)

471) حول موقف علماء الشرع من التجنيس، أنظر، ش، «مثال متجنّس»، لسان الشعب، السّنة 13، عدد 513، ليوم 1933/1/11، ص 3، البشير الحنفي، «مسألة التجنيس والمشاكل النّاتجة عنها»، نفس المصدر، عدد 521 ليوم 1933/4/9 ص 1، البشير الحنفي، «حول فتوى التجنيس والمشاكل النّاتجة عنها»، نفس المصدر عدد 523، ليوم 1933/4/26، ص 1، وكذلك عدد 524 ليوم 1933/5/3، ص 1 والعديد 525 ص 1، و 527، ص 1 -

472) حول جامعة عموم العملة أنظر، الطاهر الحذّاد، العمّال التونسيون وظهور الحركة النقابية، تونس مطبعة العرب، 1927، وكذلك: IERMASSI (A.), *Mouvement Ouvrier en Société coloniale, la Tunisie entre les deux guerres*, Thèse de doctorat de 3^e cycle (non publiée), Ecole Pratique des Hautes Etudes, 6^e Section, Sciences économiques et Sociales, Paris, 1966; de même KRAIEM (M.), *Nationalisme et syndicalisme en Tunisie, 1918 - 1929*, Tunis: Imprimerie U.G.T.T. 1976, ainsi que LOUZON (R.), «De Mohamed Ali à Farhat Hached: l'action ouvrière en Tunisie», *La Révolution Proletarienne*, n° 72 (mai 1953), pp. 129 - 132.

التصدّع الذي حصل داخل الحزب الحر الدستوري التونسي (473)، وخاصة أحداث أبريل 1938 (474)، يعود أساسا إلى طبيعة مهمة مشايخ الطرق، ودورهم - في الغالب - كجهاز رسمي، ونظرا كذلك لطبيعة الفكر الطرقي، والذي بوسائله التربوية المتميزة - كالأذكار، والأوراد والضرب على الدف وغيره، مع ما يصاحب ذلك من حالات الجذب والوجد - أوجد عند أتباعه إنصرافا شبه كلي عن الإنشغال بالدنيا.

ذلك أنّ الفكر الطرقي ركّز في حياة المريدين على جانب العبادات على حساب جانب المعاملات، مساهما بذلك في الإنغلاق الفكري، والحيلولة دون فتح باب الاجتهاد، ممّا أدّى الى الوقوع في التقليد عوضا عن التعامل مع نصوص الشريعة بطريقة منتجة تساعد على دفع الحياة الاجتماعية إلى الأمام في إطار مقاصدها التي جاءت من أجلها.

إنّ هذه الأزمة - وإن كانت ليست أزمة الفكر الطرقي فحسب وإنما أزمة الفكر الإسلامي عامة في عصور الإنحطاط - جعلت الفكر الطرقي غير مهتمّ بواقع المستغلّين عامة، ضحايا تغلغل الراسمال الإستعماري الذي ابتز ثروات البلاد، وفتحها لمشاريعه، وزاد في حدة الفوارق الاجتماعية.

كما عمد الإستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية إلى انتهاج سياسة «الاندماج»، والعمل على ضرب الهوية الإسلامية للأهالي، وهي أمور أدّت إلى عدّة ردود فعل شعبية ضخمة شدّت إليها الإنتباه محليا وخارجيا.

ولكن رغم ذلك فإنّ بعض الطرق الصوفية لم تفوّت على نفسها فرصة استغلال تلك الأحداث فحسب، بل مكّنت منافسيها من التشهير بها وإقصائها تدريجيا خاصة بعد مواقف بعض تلك الطرق من الحركة الوطنية.

(473) حول ذلك الاشفاق والتصدّع وأسبابه أنظر: MAIHOUBI, Les Origines., pp 514 - 535

(474) حول أحداث أبريل 1938 أنظر: CHERIF, "L'Organisation des masses populaires par le Néo-destour en 1937 et au debut de 1938, les Journées d'avril 1938 à Tunis", Mouvements Nationaux d'Indépendance et Classes populaires aux XIX^e et XX^e siècles en Occident et en Orient, Paris, Armand

Colin, 1971, pp 264 - 294

(3) مواقف الطرق الصّوفية من الحركة الوطنية:

لئن كان وجود الطرق الصّوفية — زمنيا — سابقا لانبعاث الحركة الوطنية، فإنّه كان من المقروض على الطرق أن تساندها، أو على الأقلّ أن تلازم الحياض في صراع تلك الحركة مع الاستعمار الفرنسي بالبلاد.

فما هو الموقف الذي اختارته في النهاية؟

إنّ المتنبّع لمواقف الطرق الصوفية من هذه المسألة يتبيّن أمرين:

* أولهما: قلة تلك المواقف — حسب الوثائق التي إطلعنا عليها — حتى فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى باستثناء ما صدر عنها أثناء أحداث الزلاّج أو مقاطعة الترامواي.

* ثانيهما أنّ تلك المواقف — إنطلاقا من نفس الوثائق — كشرت نسبيا، وتوضّحت خاصة منذ سنة 1930.

لقد صدرت تلك المواقف أساسا عن بعض مشايخ زوايا الطريقتين التيجانية والقادرية: فبالنسبة إلى الأولى يمكننا تبين بعض مواقفها مما ذكره شيخ زاويتها ببوعراة، أما الثانية فيمكننا أن نتبّع مواقفها من خلال ما صدر عن شيخ زاويتها بالكاف.

أ — مواقف بعض الطرق من النّضال الوطني بين 1920 و 1933:

في ما يتعلّق بمواقف الطرق الصّوفية من التأسيس الفعلي للحزب الحرّ الدستوري التونسي سنة 1920، فإننا لا نجد من تلك المواقف إلا موقفا واحدا انفرد به شيخ زاوية الطريقة التيجانية ببوعراة الذي ورد قوله: «أثناء التّحرّكات الدستورية المطالبة بإخراج فرنسا، وحكومة مسؤولة وبرلمان...» — حيث كان مع تلك الحركة باي تونس الذي مات، والقاضي الصادق التيفر (ت. 1937) —...، كان والده يصرح بمساعدته لفرنسا حتى النهاية، ويوصي أتباعه بذلك، وأن لا

يشاركوا الدستوريين، الأمر الذي جعل هؤلاء يشتون عليه حرباً... (475).

فواضح من خلال هذا أنه في الوقت الذي توصل فيه الوطنيون إلى تكوين حزب سياسي كوسيلة نضال مكنتهم من إرسال الوفود إلى باريس والاتصال بالباي للتأسيس محلياً وخارجياً بالقضية الوطنية، كان شيخ زاوية التيجانية ببوعرادة يظهر في نشاط وتناقض مع كل ذلك.

كما نستنتج من نفس موقف الشيخ السالف الذكر تجريده للمطالب الوطنية آنذاك بل وتشويهها، حيث استهلها بـ «إخراج فرنسا l'expulsion de la France»، في حين أن المتأمل في تلك المطالب (476) يجدها تتمحور في عدة إصلاحات في إطار نظام الحماية نفسه (477).

وهو ما يوضح التحامل الواضح على الوطنيين آنذاك، وتهويل تلك المطالب بإظهارها بمظهر المهّد للوجود الفرنسي بالبلاد، لا شيء إلا لاستفزاز السلّط الاستعمارية، وتحريضها على ضرب ذلك التجمع السياسي قبل تجذّره.

كما نتبين من نفس الموقف تعمد ذلك الشيخ إلى كشف المتفاعلين والمتعاطفين مع الدستور ومطالبه، أمثال «باي تونس»، ولعله يقصد - بذلك - محمد الناصر باي (ت. 1922) الذي عرف بحبه للإصلاح، وتفاعله مع المطالب الدستورية (478)، الأمر الذي جعل الحزب الحرّ الدستوري التونسي يرسل إليه وفداً (479) لكسبه أكثر، تدعيماً للنضال الوطني حتى يكسب مزيداً من الشرعية، لما للباي من قيمة وأهمية في نظر أهالي الأيالة.

لقد اتّضح تبني الباي المذكور للمطالب الوطنية في سلسلة المطالب التي قدّمها كشرط لتراجعته عن التنازل عن العرش (480)، حيث جاءت تلك الشروط ممثلة ومشمّلة على المطالب التي كان تقدّم بها الحزب الحرّ الدستوري التونسي (481).

C.N.U.D.S.T., Le Chénél Tidjani au Ministre de la guerre à Paris, Le 14/12/1930, (475)

Tunisie, 1917 - 1940, dossier n°= 2., f. 3.

MAHJOUBI, Les Origines.. p. 210 - 211 : أنظر تلك المطالب في:

Ibid., p. 226 - 227. (477)

Ibid., p. 233 - 234. (478)

MAHJOUBI, Les Origines.. pp. 233 - 236 : أنظر المدني، المرجع السابق، ج 1، ص 180 - 183 وكذلك.

(480) حول تنازل الباي عن العرش وما عرف بـ «أزمة أبريل 1922» أنظر المدني، المرجع السابق، ج 1، ص 247 - 261، وكذلك.

MAHJOUBI, Les Origines.. pp. 280 - 300.

MAHJOUBI, Les Origines.. p. 289 (481)

إنّ تعمّد شيخ زاوية التيجانية ببوعرادة كشف ذلك أو الإشارة إليه، يُوحى بإنكاره لذلك، كما يمثّل تهويلا منه للحزب المذكور الذي وصل نفوذه على حدّ قوله إلى كسب «باي البلاد والقاضي الصادق النيفر».

كلّ ذلك إثارة للسلط الإستعمارية وتخويفا لها من الخطر الذي أصبح يتهدّدها، وهو أمر أصبح أكثر وضوحاً منذ مطلع سنة 1930 خاصة.

ذلك أنّ مواقف بعض الطّرق الصّوفية لم تعد تكتفي بالإشارة أو التلميح، بل صار بعض مشائخها يكشفون بوضوح الخطر الذي يمثله الوطنيون عليهم وعلى الإستعمار.

من ذلك أنّ شيخ زاوية التيجانية ببوعرادة وصف «الدستوريين» بأعداء والده، وأعداء الهيمنة الفرنسية على تونس، مُبيناً أن لا همّ لهم إلاّ عرقلة نشاطه، حيث يريدون — على حدّ قوله — إبعاده والقضاء عليه، لأنّهم يخشون نفوذه على أتباعه الذين عمل الدستوريون على جلبهم إليهم (482).

ويزداد موقف الشيخ المذكور خطورة عندما عمد إلى كشف مواقف «الدستوريين»، والمسؤوليات التي يتحمّلها الكثيرون منهم في صلب مؤسسات الدولة.

فلقد جاء في رسالة منه إلى وزير الحرية الفرنسي قوله: «إنّ الدستوريين أصبح منهم الفايده والخليفة، كما صاروا في حاشية البايات، والوزير الأوّل، وفي الدّاخلية... والعذلية، وفي كلّ مكان تبعاً لسياسة المقيم العام...» (483)، مضيفاً أنّ «الدستوريين» — بالسلطات التي صارت لهم — يهدفون إلى تقويض «تونس الفرنسية، وجعل حكومتها في صالح أهدافهم المستقبلية، وضدّ الإسلام الحقيقي الذي يجب أن يكون كلياً لفرنسا ومع فرنسا...» (484) على حدّ قوله.

A.M.A.E.F., Le Cheikh El Manoubi Tidjani au Chef du Secrétariat particulier du Ministre (482 des Affaires Etrangères Française à Paris, le 7/11/1929, Tunisie 1917 - 1940, vol 316., f. 265.

C.N.U.D.S.T., Le Chérif Tidjani au Ministre de la guerre, le 14/12/1930, Tunisie (483 1917 - 1940..., f. 3

Ibid. (484

أما في رسالته إلى المقيم العام الفرنسي فقد أشار إلى أنّ «البلاد خربها الدستور، وأنّ الدستوريين متواجدون في كلّ الإدارات...، في الداخلية، والعدلية، وحتى المالية، والفلاحة، والأمن العمومي، وفي الديوان، وضمن أوسع جماهير المساجد، وفي المحكمة المختلطة...، وكذلك ضمن المحامين، والصيادلة، والصحافيين، والوكلاء...، والمجالس وغرف الفلاحة والتجارة...» (485).

ومن جهة أخرى فإنّ أحمد قُدّور - شيخ زاوية القادرية بالكاف - أشار هو الآخر إلى ما فعله «الدستور» في البلاد، مؤكّداً على تواطؤ بعض المسؤولين مع «الدستوريين».

وهو ما ساهم - على حدّ قوله - في «انتشار الأفكار الدستورية ضمن السكّان المحليين لجهة فعفور، ممّا يمثّل ضرراً على الحكومة...»! (486).

ولمعالجة تلك الظاهرة يرى أحمد قُدّور أنّه «لا يمكن للحكومة أن تحدّ نهائياً من توسّع تحرّكات «الدستوريين» إلّا بإقرارها لعقوبات ضدّ كلّ من يساهم في ذلك»! (487).

وبقطع النظر عن مدى صحّة ما ذهب إليه شيخا الزاويتين المذكورتين، وكذلك عن خلفيات ودوافع كل ذلك، فإنّ مواقفهما عبّرت عن العدواة التي بينهما وبين الحزب الحرّ الدستوري التّونسي، وهي عدواة مدارها الصّراع بين الطرفين على استقطاب المزيد من الأتباع على حساب الآخر.

من ذلك أنّ شيخ زاوية التّيجانية ببوعرادة وصف «الدستوريين» بأعدائه وأعداء والده، مؤكّداً أنّه لا همّ لهم إلّا عرقلة نشاطه والقضاء عليه لخشيتهم - على حدّ قوله - لنفوذه على أتباعه الذين عملوا على جلبهم إليهم.

كما أوضح أنّ «الدستوريين» عملوا على الانتقام من روح والده في قبره بالانتقام من ولده وعائلته (488).

أمّا شيخ زاوية القادرية بالكاف - السّالف الذكر والذي ساءه صدّ إبراهيم بن حسن من فعفور لحوالي مائة وخمسين من أتباعه بالجهة المذكورة عن زيارة زاويته

Ibid , Le Chénf Tidjani à Marcel Peyrouton le R.G., le 1/1/1934, D 156 - 21. (485)

A.G.T , Ahmed Kaddour El Mizoun, au C C. du Kef, le 21/3/1931, D 97 - 2. (486)

C N.U.D.S.T , Le Chénf Tidjani au Ministre de la Guerre ., f 4 (488)

بالكاف — فقد كتب الى المراقب المدني بالكاف يقول: «إنّ المحرك الحقيقي لتلك الحادثة هو المسمّى إبراهيم بن حسن...، الذي ينتمي إلى الدّستور، ولا يخفى عليكم ما فعله الدّستور، والعداوة التي يكنّها لكلّ الطرق بدعوى أنّ مشائخها أعوان للحكومة الفرنسية...، وحسب بعض الأهالي المعنيين بالأمر فإنّ الدستوري إبراهيم بن حسن يطلق على بعض الأتباع اسم الكلب...، كما لا يتردّد في شتمهم وشتم الزّاوية في نفس الوقت...»! (489).

هذا مع العلم أنّ إبراهيم هذا — حسب ما أورده عامل تبرسق — «مشهور بالعجرفة مع أولي الأمر، والتطرّف مع السّلطة، وقد كان استلقت النّظر أثناء الحرب بتصرّياته ضدّ الحكومة، ووقع إيقافه مدّة شهر على ذمّة السّلطة الحربية ولم يرتدع...»! (490).

جاء ذلك تعقيباً من عامل تبرسق على الشكاية التي قدّمها أحمد فدّور ضد إبراهيم المذكور بتاريخ 23 ماي 1931 (491).

وهذا يكشف مدى العلاقات المتوتّرة بينهما، وهو توتر مصدره شعور بعض مشائخ الطرق بالخطر الذي يمثّله استقطاب الحزب الحرّ الدستوري لأتباعهم.

من خلال ما سبق، يمكننا القول بأنّ المتأمل في مواقف بعض مشائخ الطرق الصوفية من الحركة الوطنية لا يتبيّن عداوتهم فلها فحسب، بل يلاحظ تعمّد بعض أولئك المشائخ تضخيم شأن «الدستوريين»، وإبرازهم بمظهر المهيمنين على جلّ المؤسسات بالبلاد، بما في ذلك الحساسة منها جدّاً.

وهو تضخيم يدخل — كما أسلفنا — في إطار الصّراع بين بعض الطرق والأحزاب السياسية على استقطاب الأنصار والأتباع كلّ على حساب الآخر.

وبتلك المواقف عبّر شيخا زاويتي التّيجانية ببوعراة والقادرية بالكاف عن تحالفهما مع الإستعمار، وإعطائهما الأولوية للخيار المصلحي على حساب الخيار الوطني.

A.G.T., Ahmed Kaddour au C.C. du Kef.. (489)

Ibid. (490)

Ibid. (491)

كما أنّهما بتلك المواقف قد أثبتا عجزهما على إدراك حقيقة الأحداث، والاتّجاه الصّحيح لها، وخاصة القوى الفاعلة فيها، والنتائج التي قد تتمخّض عنها.

وبذلك وعوض أن يعمل كل من شيخ زاويتي بوعرادة والكاف على الاستفادة من تلك الأحداث وتوظيفها لصالحهما - كما فعل الحزب الحرّ الدستوري آنذاك - وقفا يشهران «بالدستوريين»، ففوّت كلّ منهما على نفسه فرصة الاستفادة من عدّة أحداث لها صلة وثيقة بالدين، وفوّت للمتسبين إليه وخاصة مشائخ الطرق مجالاً فسيحاً للتحرك.

فمن تلك الأحداث على المستوى المغربي لسنة 1930 طرح مسألة «الظهير البربري» بالمغرب الأقصى (492)، والإحتفال بمائوية الإستعمار الفرنسي بالجزائر (493).

أمّا على مستوى الإيالة فقد انعقد المؤتمر الافخارستي بقرطاج، كما شرع في الإعداد للإحتفال بمرور خمسين سنة على الإحتلال الفرنسي للبلاد التّونسية.

إلى كلّ هذا تضاف إثارة قضية التّجنيس من جديد في أواخر سنة 1932 بعد أن مات أحد المتجنّسين ببنزرت، وأفتى شيخها إدريس الشّريف (494) بالردة،

492) الظهير المغربي: قوانين تملّق بالزّواج والطلاق والموارث بين المسلمين والبربر بالمغرب الأقصى، سنها السلط الاستعمارية هناك يوم 1930/5/16، حول ذلك أنظر: «حول مسألة البربر في المغرب الأقصى، هفوة يجب أن تدارك»، لسان الشعب، السّنة 11، عدد 407، ليوم 1930/9/17، وكذلك:

EL KHLIL, "Le Maroc ne veut pas de l'évangélisation", *La voix du Tunisien*, Tunis, imp de Tunis, 1er Année, n° 23 - 24, du 19/9/1930, p 1 - 2; de même, PELLEGRIN (A.), "Une Loi Française et un Dahir Marocain", *Tunis Socialiste*, n° 2563, du 28/2/1930, p 1

493) حول ذلك الإحتفال، أنظر:

LAUZAN(S), "Le Centenaire de l'Algérie et le Cinquantenaire de la Tunisie", *La Tunisie Française*, 44è Année, n° 7882, du 3/1/1930, p.1; de même T F., "Le Centenaire de la Conquête d'Algérie", *La Tunisie Française*, n° 7913, du 3/2/1930, p. 1.

494) إدريس الشّريف، ولد ببنزرت يوم 1867/12/29 من عائلة أصلها من الجزائر، هاجرت إلى بنزرت حوالي سنة 1846. حصل سنة 1896 على التطويح بجامع الزّيتونة وسنة 1897 كلّف بتصحيح المطبوعات بالمطبعة العربية الرّسمية. ونظرا لكفاءته أسندت إليه النّظارة العلمية خطّة التدريس المالكي بالجامع الكبير ببنزرت، وفي سنة 1924 أسندت له خطّة الإفتاء واستمرّ مع ذلك في القاء =

وبعدم الدفن في مقابر المسلمين، مما حمل السلط على دفنه في مقبرة الصريين(495).

وللسيطرة على الوضع، وسعيها منها إلى الحد من تأثير فتوى الشيخ إدريس المذكور حصلت السلط الاستعمارية على فتوى من شيخ الاسلام المالكي الطاهر بن عاشور (ت. 1973).

لكن رغم ذلك زاد الوضع الديني بالبلاد تأزماً بعد إعلان طلبة جامع الزيتونة الإضراب، واتفاق «الناس على عدم الإقتداء - في الصلاة - بجميع الأئمة الذين شاركوا في تلك الفتوى، وأن لا تقام الصلاة وراءهم...، بالجوامع التي هم أئمتها...» (496).

لقد ساهمت كل تلك الأحداث في شغافية الشعور الديني وإذكائه لدى أغلب سكّان الايالة الذين صاروا يشعرون باعتداء الأجنبي على دينهم ومقومات ذاتيتهم، فزاد ذلك في عداوتهم له.

لقد وقرت تلك الظروف - للعمل السياسي - الأرضية الخصبة للتحرك واستقطاب الجماهير وتجميعها، وبالتالي العمل على تطهيرها وتوظيفها ضد الاستعمار.

ب - تدعيم النشاط الوطني وإجراءات 1934 التعسفية وموقف الطرق من كل ذلك:

لقد زاد التحرك الوطني تدعماً بعد أن انضمت للحزب الحر الدستوري التونسي عناصر جديدة التحقت به بعد انعقاد مؤتمره يومي 12 و 13 ماي 1933، وهو ما وقر إمكانات أكثر للتحرك.

= دروسه اليلية للعامة ودروس العلم لطلابه. ألف تأليف عديدة منها رسالة سمّاها «الورقات الراهرة الغصون»، توفي سنة 1934، أنظر حسن بن صالح ابن الغريبة «ترجمة المقدّس المبرور سيدي إدريس الشريف مفتي بنزرت» الزهرة السنة 47، عدد 8236، ليوم 1934/10/26، ص 3

(495) ش. «مثال متحسّن»، لسان الشعب، السنة 13، عدد 513 ليوم 1933/1/11، ص 3، أنظر كذلك MAHJOUBI, Les Origines ..., p. 486

(496) «الحملة الصليبية على الاسلام في شمال افريقيا»، مجلّة الفتح، السنة 7، عدد 348، ليوم 14 صفر 1932/1352، ص 1 - 3 و 14 - 15، ص 1، أنظر كذلك مركز الوثائق القومي، الحركة الوطنية مسألة التجنيس في مختلف أطوارها 1909-1933، مسودّات قضية التجنيس موضوع 6، ص 3، أ - 4 - 3، وكذلك: MAHJOUBI, Les Origines ..., p. 487.

وبذلك كانت سنة 1933 سنة تملل واضطرابات متوالية شملت الأوساط الطلابية الزيتونية والصادقية، الأمر الذي دفع بالمقيم العام والبهائي - يوم 6 ماي 1933 - إلى الإمضاء على أمرين يقضيان بفرض الرقابة الإدارية، وضرب الصحف التونسية الصادرة باللغة العربية.

وزادت تلك الإجراءات القمعية حدة بتعجير كل الصحف الوطنية يوم 27 ماي 1933، وإقدام المقيم العام على حلّ الحزب الحرّ الدستوري التونسي يوم 31 ماي (497).

فزاد ذلك في تكثف النشاط الوطني، بعقد اجتماعات وقعت فيها الدعوة إلى مقاطعة البضائع الفرنسية كالشاي والقهوة والتبغ، وفي نفس الفترة توقفت الدروس بجامع الزيتونة، ووقع تتبع بعض مشائخه.

ويوم 1 جوان 1933 شنّ عمال الرّصيف إضراباً شلّ حركة ميناء تونس، ممّا دفع بالمقيم العام الفرنسي إلى وضع عدد من الدّستوريين تحت المراقبة.

إلا أنّ الأوساط الإستعمارية في الإيالة - آنذاك - طالبت بسياسة أكثر صلابة، فتمّ لذلك تعيين مارسال بيروطن كمقيم جديد يوم 29 جويلية 1933.

فعمل على إذكاء الخلافات وتفجيرها بين الحزب الدّستوري، و«جماعة العمل التونسي»، ممّا أدّى - إلى جانب أسباب أخرى - إلى انعقاد مؤتمر قصر هلال يوم 2 مارس 1934 الذي انبثق عنه «الحزب الدّستوري الجديد» (498).

فبادر إلى «الاتصال المباشر بالشّعب، وبالشخصيات الفرنسية، والأوساط السياسية، ووصل [في سياسته] إلى حدّ اعتماد الإضرابات، ومقاطعة السّلع الفرنسية، وحتّى دفع الضّرائب...» (499)، الأمر الذي دفع بالمقيم العام - يوم 3 سبتمبر 1934 - إلى إبعاد سبعة من قادة الحزب الجديد إلى الجنوب التونسي، كما صوّدرت جريدة العمل، ومنعت الاجتماعات.

إلا أنّ ذلك زاد الأوضاع توتراً باندلاع الإضرابات في أغلب جهات البلاد،

(497) «بلاغ»، الزهرة، السنة 45، عدد 7810، ليوم 1933/6/2، ص 1.

(498) حول ظروف نشأة الحزب الدّستوري الجديد، أنظر: MAHJOUBI, *Les Origines...*, p. 514.

(499) KASSAB, *op.cit.*, p. 418.

كأحداث المكنين يوم 5 سبتمبر 1934 (500).

لقد كان بإمكان الطرق الصوفية ان تستغل تلك الأحداث وتوظفها ضدّ السّلط الإستعمارية، وتساير - بالتالي - التّيار العام خاصّة وأنّ هيجان المشاعر الدينية قد وصل أوجه.

إلا أنّها ظلّت غير مبالية بالواقع المتحوّل الذي لم تعد هي الطرف الوحيد الفاعل فيه، ممّا ساهم في عزّلتها خاصّة بعدما وقف بعضها مرّة أخرى إلى جانب السّلط الإستعمارية يبارك قوانينها التعسّفية.

ذلك أنّه بعد تكثّف النّشاط الوطني - خاصّة في المساجد - أصدر المقيم العام الفرنسي منشور 10 أكتوبر 1934، يدعو إلى منع الاجتماعات في المساجد والزوايا وإلى تخصيصها للصّلاة فقط، محمّلاً أئمة تلك الأماكن وكامل رجالها مسؤولية ما يجدّ داخلها (501).

فماذا كان ردّ فعل الطرق الصّوفية على تلك الإجراءات الإستعمارية؟

لقد أعرب أتباع التّيجانية بعين دراهم للمقيم العام الفرنسي عن استنكارهم - بالإجماع - لتصرّفات «الدستوريين الجدد» المنافية لأبسط مصالحهم، وإقرارهم لكلّ الإجراءات التي اتخذتها الحكومة و«الكفيلة» - وحدها - بإقرار جوّ عادي من السّلم، والاستقرار اللّازمين لازدهار البلاد! (502) على حدّ قولهم.

أمّا أتباع ومقدّمو - نفس الطريقة - بهنشير سيدي الرّوماني - بسوق الخميس - فقد أعرّبوا - بدورهم - عن ولائهم الدائم لفرنسا، وعن وضعهم لثقتهم المطلقة في المقيم العام الفرنسي وحكومته، مكبرين جهوده الرّامية إلى استتباب الأمن «ضدّ محترفي الإخلال بالنّظام، وذوي الأعمال السيّئة التي تبرأ منها كلّ

(500) حول أحداث المكنين، أنظر، «حوادث دامية بالمكنين»، الزهرة، السنة 47، عدد 8194، ليوم 1934/9/7، ص 2، وكذلك «حول حادثة المكنين»، نفس المصدر، عدد 8195، ليوم 1934/9/9، ص 2

A.G.T., Le Premier Ministre aux Cards, Kahias et Cheikh El Médina, le 10/10/1934, (501)
D 97 - 3.

Ibid., Télégramme des Fidèles de la Confrérie des Tidjania de la région d'Ain - Draham au (502)

C.C. de Tabarka, le 30/10/1934, D 156 - 21

أنظر الملحق رقم 9،

المواطنين...! (503) على حد قولهم.

وهو نفس الموقف الذي صدر عن أتباع نفس الطريقة بمشاور وقصر مزوار — بجهة باجة — ، والذين — نددوا بدورهم — بممارسات «الدستوريين الجدد» ، وتمنّوا الإبقاء على تلك «الإجراءات الأمنية» بشيء من الحزم اللازم لإعادة الطمأنينة والأمن للبلاد، كما استنكروا تصرفات أولئك «الذين يستغلون طيبة السكان لتوظيفهم في أغراضهم الشخصية...»! (504).

تلك هي مواقف بعض مشائخ الطرق الصوفية من قوانين القمع والاضطهاد للوطنيين، وضرب النضال الوطني في وقت عمّت فيه الإحتجاجات والإضرابات أنحاء عديدة من البلاد للتعبير عن رفض تلك الإجراءات نفسها — وخاصة منها إبعاد سبعة من قادة الحزب الجديد إلى الجنوب — والتصدي لها.

فلقد نُظّمت مظاهرة سلمية في القلعة الكبرى (505)، وأخرى بتونس أمام الإقامة العامة شارك فيها ما يقرب عن ثلاثة آلاف شخص (506)، في حين قُدّر عدد المشاركين في مظاهرة توزر بحوالي مائة من الأهالي (507).

هذا بالإضافة إلى مظاهرات أخرى بكلّ من الجَمّ قام بها أربعمئة شخص (508)، والمرسى التي ساهم فيها ألفان وخمسمئة فرد أمام القصر الملكي يوم 4 سبتمبر 1934 (509)، ومنزل تميم حيث عمد أربعمئة شخص إلى منع انتصاب السّوق هناك.

وكذلك صفاقس أين نُظّمت مظاهرة أمام المراقبة المدنية، والقيروان، وطبلبة التي ساهم في مظاهرتها مائتان وخمسون شخصا، في حين بلغ العدد خمسمئة

Ibid., Les Adeptes de la Confrérie des Tidjania à Souk-el-Khemis au R.G., le 1/4/1935, (503

D 156 - 21. أنظر الملحق رقم 10، وكذلك الملحق رقم 11 ،

Ibid., Les Fidèles de la Confrérie des Tidjania de la région de Béja (Munchar et Ksar (504

Mesouar) au C.C. de Béja, Le 7/11/1934, D 156 - 21.

أنظر الملحق رقم 12

(505 «مكاتبات الجهات»، الزهرة، السنة 47، عدد 8195، ليوم 1934/9/9، ص 3

(506 «رجوع الهدوء في داخل الأيالة»، نفس المصدر، عدد 8198، ليوم 1934/9/12، ص 2.

(507 نفس المصدر.

(508 نفس المصدر.

(509 نفس المصدر.

شخص في مظاهرة المهديّة، بينما وصل عدد المتظاهرين في سوسة الى ألفين وكذلك المكين، علماً وأنّ تلك التحركات شملت كذلك غلق الدكاكين في قربالية ومنزل بوزلفة، ومنزل تميم، وطبرقة، والمهديّة، والسّواسي، والقلعة الكبرى ومساكن وسوسة وجمال والمنستير والمكين وقابس واريانة ونابل وخاصّة القيروان أين أغلق ثلاثة أرباع الدكاكين (510).

إنّ هذا يبرز حجم ردود الفعل الشعبيّة على تلك القوانين والإجراءات التعسّفيّة التي انفرد أتباع الطريقة التيجانيّة — السّالفي الذّكر — بتأييدهم لها والمطالبة بالإبقاء عليها، والسّهر على تطبيقها، ممّا يوضح مدى تناقضهم مع ما أجمع عليه أغلب سكّان البلاد.

إلا أنّ تلك المواقف الطّرقية لم تقف عند ذلك الحدّ:

ففي الوقت الذي أبعد فيه بعض زعماء الحركة الوطنيّة، وصدرت فيه الإجراءات التعسّفيّة، وصدّرت فيه الصّحف، وعمّت معظم جهات البلاد المظاهرات والمسيرات، كان بعض «أصحاب الطّرق» يشاركون في «المواكب الرّسميّة» كما حدث أثناء جولة المقيم العام الفرنسي في بعض أنحاء الإيالة، والتي شرع فيها يوم 21 سبتمبر 1934، سعياً منه لامتصاص النّقمة الشعبيّة، وتهذئة الخواطر، حتّى يُنسي الأهالي ما قام به في الثّالث من نفس الشهر تجاه زعمائهم وبلادهم.

لقد كان كلّ ذلك يفرض — آنذاك — على كلّ وطني أن يقاطع «المواكب الرّسميّة» التي تُنظّم لاقبال المقيم العام بالمناطق التي سيحلّ بها، غير أن «بعض أصحاب الطّرق» لم يقاطعوها.

من ذلك أنّه يوم الرّابع والعشرين من سبتمبر سنة 1934 قصد المقيم العام الفرنسي جبنينة، وفي «الطريق...» تقدّم وفد تتقدّمه أعلام أصحاب الطّرق، وأوقفوا الموكب السّفيري، وتلّوا الفاتحة لحفظ فرانساً وممثّلها بالبلاد التّونسيّة [ثمّ] استأنف الموكب طريقه الى جبنينة، ولما وصل الشّابّة اقتبله جماعات الطّرق والأعيان...! (511).

كان ذلك بعد أن صرّح المقيم العام نفسه — قبل تلك الزيارة — بأنّ «بعض المُبعدين فقط سترجع لهم حرّيتهم، وجريدة العمل تبقى معطّلة...، وستكون

(510) كل هذه المعلومات من نفس المصدر.

(511) «تقلّات جنّاب العميد في المنطقة الخامسة»، نفس المصدر، عدد 8210 ليوم 1934/9/26، ص2.

المظاهرات والجولات، وجمع الأموال محجّرة بمقتضى التصوص الجاري بها العمل...، وفي صورة إذا عاد الهيجان، - مهما كان الذي يثيره وفي أي مكان تظهر آثاره - فإن الحكومة تتخذ حالا التدابير الصّارمة...! (512).

وكنتيجة لتلك التصريحات أصبحت «أسواق المدينة العربية بالحاضرة ومحلاتها التجارية، ومصانعها ودكاكينها مغلقة [يوم 22 سبتمبر 1934]، وساد السكون...، فأينما سار الإنسان في الأحياء العربية إلا ووجد الفراغ من حوله كأن المدينة قد خلت من سكانها...» (513).

كما حصل نفس الشيء «ببعض بلدان المملكة [التي] أقفلت محلاتها التجارية أيضا إضرابا عن الإستهاء الحاصل للتونسيين من لهجة البلاغ السّفيري الأخير...» (514).

على أن تلك المشاركة الطرقية في «المواكب الرسمية» نجد لها صدى كذلك فيما بعد أثناء زيارة المقيم العام الفرنسي لبعض جهات البلاد سنة 1936 أيضا.

من ذلك أنه عندما «اجتازت سيارته سوسة بسرعة - يوم 10 ماي 1936 - ، وعند مرورها من مساكن كان أصحاب الطّرق ينتظرون قدوم جناب العميد، ولما وصلت السيارة حيّوا جنابه ومن معه بكلّ حفاوة وتعظيم...» (515).

وكذلك كان شأنهم لما حلّ بصفاقس (516)، وأيضاً عند مبارحته لها قاصداً قابس (517).

أما جربة، فما أن وصلها حتى «ثارت عواصف الهتاف من طرف الخلائق، وكان أصحاب الطرق بأعلامهم الملونة...، في مقدّمة الجميع إحتفاءً بقدوم العميد...» (518).

512 «بلاغ»، نفس المصدر، عدد 8206، ليوم 1934/9/21، ص 2

513 «ماذا كان تأثير البلاغ السّفيري في الأوساط التونسية؟»، نفس المصدر، عدد 8207، ليوم 1934/9/23، ص 1.

514 «بعد صدور البلاغ السّفيري»، نفس المصدر، عدد 8208، ليوم 1934/9/24، ص 3.

515 «الرحلة الأولى الرّسمية لجناب العميد في الجنوب»، نفس المصدر، عدد 8734، ليوم 1936/5/12، ص 2.

516 نفس المصدر.

517 «رحلة جناب العميد الى الجنوب التونسي»، نفس المصدر، عدد 8735، ليوم 1936/5/13، ص 2.

518 «رحلة جناب العميد الى الجنوب التونسي»، نفس المصدر، عدد 8736، ليوم 1936/5/14، ص 2.

كما أنه في نطاق التحضير لزيارة المقيم العام إلى جمال «إستدعى الكاهية بعض أنصار منهم أصحاب الأحزاب العيساوية والسّلامية وغير ذلك من الطرق...، وأعلمهم بذلك، واقترح عليهم أن يشرعوا...، في تحضير أنفسهم...» (519).

وفي المقابل، فإنّ بعض أصحاب الطرق الصّوفية الذين تكرّرت مشاركتهم في «المواكب الرسمية» التي نُظّمت لاقتبال المقيم العام الفرنسي أثناء تنقّلاته لم تجدهم ضمن المشاركين في الاستقبال الذي خصّصت به بعض جهات البلاد بعض زعماء الحركة الوطنية كالحبيب بورقيبة والبحري فيفة أثناء زيارتهما لصفافس يوم التاسع من سبتمبر من سنة 1936 (520).

فهل يعني ذلك إنحياز معظم أصحاب الطرق للإستعمار؟

ذلك ما أمكننا أن نكتشفه إعتقاداً على الوثائق التي إطلعنا عليها، وهو وإن كان خاصاً ببعض الطرق ومشايعها فإننا لا ندرى إلى أي حدّ هو ممثّل لكلّ الطرق الصّوفية ومشايعها على مستوى البلاد التّونسية في الفترة التي ندرسها.

على أنه تجدر بنا - قبل إنهاء الحديث عن هذا العنصر - الإشارة إلى أمرين:

* أولهما أن بعض مشايخ الزّوايا الطّرقية الذين كانوا يركّزون هجوماتهم - قبل سنة 1934 - على الحزب الحرّ الدّستوري التّونسي أصبحوا بعد ذلك التّاريخ يستهدفون في هجوماتهم «الدّستوريين الجدد».

فهل يُمكننا أن نعتبر ذلك تأييداً ضمّنياً - منهم - «اللّجنة التّنفيذية»، أم هو موقف جديد من «الحزب الدّستوري الجديد» الذي قد يكون أصبح يمثّل - في نظرهم - الجناح الأكثر خطراً عليهم في الحركة الوطنية آنذاك؟

إنّ ما نرجّحه هو الإحتمال الثّاني، لأنّ بعض أولئك المشايخ لم يكونوا قبل ظهور «الحزب الدّستوري الجديد» قرييين من الحزب الحرّ الدّستوري التّونسي والذي - كما رأينا - عبّروا عن مواقفهم العدائية من برنامج سنة 1920، وكذلك بمناسبة مواقفه من إصلاحات سنة 1922، وخاصة فيما بين 1929 ومستهلّ سنة 1934.

(519) «حول زيارة جناب العميد إلى بلد جمال»، نفس المصدر، السنة 49، عدد 8795، ليوم 1936/9/21، ص 3.

(520) «يوم الزّعماء بصفافس»، نفس المصدر، عدد 8866 ليوم 1936/9/21، ص 3.

وبذلك يكون تركيز أولئك المشائخ في تهجماتهم على «الدستورين الجدد» يندرج في إطار ظهور هؤلاء — بالنسبة إليهم — بمظهر ذوي الوسائل والأشكال النضالية «الراقية» و«المتجذرة»، البعيدة عن «الجمود وأشكال النضال التقليدية» (521)، والقادرة — بالتالي — (الأشكال) على جمع أوسع الفئات الشعبية حولهم (522).

* ثانيهما: أن السلط الإستعمارية في الايالة — شعوراً منها بتناقض الطرق الصوفية مع نضالات الحركة الوطنية، وتقديراً منها للأهمية التي يمثلها توظيف تلك الطرق واستعمالها في شق صفوف الوطنيين وتشتيتهم، أو على الأقل إضعافهم وتهميشهم بصراعات داخلية تكون الطرق العنصر الفاعل فيها — عملت على توحيد مواقف الطرق من كل ذلك بتنظيم مؤتمر طريقي بالجزائر سنة 1939.

فلقد أفاد المراقب المدني بفقصة أن «مشائخ زوايا مختلف الطرق — بجهته — قد تلقوا استدعاءات واردة من الجزائر لحضور أشغاله»! (523).

هذا مع العلم وأن ذلك المؤتمر الطريقي المذكور — والذي سبق في انعقاده المؤتمر الانفخارستي بالجزائر — كانت الغاية منه — بالإضافة الى ما ذكرناه — مغالطة الرأي العام الجزائري بحمله على الاعتقاد بأن فرنسا — بعد مضي سنة على تحجيرها التعليم القرآني الحرّ بالجزائر بمقتضى أمر الثامن من مارس سنة 1938 — مهتمة بالإسلام والمسلمين (524).

ورغم عدم عشورنا — في حدود إطلاعنا — على ما يثبت حضور مشائخ الطرق الصوفية بجهة ففصة لذلك المؤتمر أو عدمه، فإن انعقاده واستدعاءهم لحضوره ينمّ على إدراك السلط الإستعمارية لعدائهم وتناقضهم مع الوطنيين في تونس والجزائر واستعداد بعض مشائخ الطرق للمساهمة في كل عمل أو تخطيط

(521) حول اختلاف أشكال النضال وطرقه بين الحزبين المذكورين أنظر: MAHJOUBI; Les Origines..., pp. 514 - 535.

(522) حول استقطاب الحزب الدستوري الجديد للجماهير، أنظر: CHERIR, "L'Organisation des masses".

A.G.T., le C.C. de Gafsa au R.G., le 12/4/1939, D 182 - 2. (523)

C.D.N., l'Action Nord Africaine, du 14/5/1939, p. 4, Section Mouvement National, le Congrès Eucharistique International de Carthage (7 au 11/5/1930), A - 4 - 5. (524)

لعرقلة نشاط الوطنيين من جهة، ومراعاة السّلط الاستعمارية — بالتالي — على القرارات التي ستمخّض عن ذلك المؤتمر.

إلا أنّ هذا الأخير لم يفعل شيئاً (525).

وخلاصة القول أنّ مواقف بعض الأطراف الطرقية — وإن كانت لا تعكس بالضرورة وجهة نظر كل الطّرق، ولا كلّ الأتباع من جُلّ الأحداث التي جدّت بالبلاد، أو من الحرب العالمية الأولى، أو من الحركة الوطنية، فإنّها تعبّر بالدرجة الأولى على مواقف بعض مشائخها الذين رغم الأضرار التي ألحقتها بهم السياسة الإستعمارية ظلّوا في انحيازهم لحكومة الإحتلال. وكنّيجة لذلك، ولتطور العقليات من جرّاء التّعليم، أصبحوا عرضة للإنقادات اللاّذعة.

وهو ما مكّن خصومهم من تكثيف نشاطاتهم، وتوسيع قاعدتهم تبعاً لوطينتهم ونقمتهم على الإستعمار مقابل تقلّص نفوذ مشائخ الطرق وعدد أتباعهم لاتّضاح عمالة العديد منهم للإستعمار، وولائهم له وتنسيقهم معه، ممّا ساهم في ضعف الطرق الصوفية.

الفصل الرَّابِع

ضعف الطرق الصّوفية

إن المذموم في تاريخ الطرق الصوفية في البلاد التونسية — إذا ما قارن بين الوضعية الاقتصادية والبشرية التي كانت عليها في نهاية القرن التاسع عشر، وما آلت إليه مع نهاية العقدَيْن الأولَيْن من القرن العشرين — يلمس العديد من الحقائق الدالة على بداية فقدانها — ولو نسبيا وباختلاف الطرق — لأهميتها وقيمتها في الحياة الاجتماعية للبلاد.

فما هي مظاهر ذلك الضعف وما هي أسبابه؟

I — مظاهر ضعف الطرق الصوفية:

تتمحور تلك الحقائق حول معطيات تبيّن تراجعا في النفوذ الذي كانت تتمتع به، مقابل رجحان كفة التنظيمات السياسية خاصة منذ سنة 1930.

(1) تقلص نفوذ الطرق الصوفية:

شمل هذا التقلص عدة جوانب أهمها:

أ - الركيزة الاقتصادية:

لقد أدت السياسة الإستعمارية المتمثلة في مراقبة مشائخ الطرق ومنعهم من التنقل إلا بعد الحصول على ترخيص مسبق، يضاف إلى ذلك إلغاء الزيارات والتفوت في الأحاس العامة والخاصة، في الفترة التي ندرسها، وما نتج عن ذلك من أصرار ماديّة ملموسة أدت كلّها إلى تفقير العديد من الطرق ومشائخها إلى درجة صار بعضهم عاجزا عن توفير حاجياته الحياتية فالتجأ إلى رهن أملاكه.

وفقدانهم لسندهم المادي، فقد بعض مشائخ الطرق مصدر نفوذهم لدى السلط الإستعمارية ولدى أتباعهم الذين لم تعد لهم معهم زيارات دورية، مما أدى — بطول المدة — إلى فتور العلاقات بين القمة والقاعدة، تبع ذلك تسيب الأتباع وتشتتهم بعد ضعف الرابطة الروحية التي كانت تجمعهم.

ب - القاعدة الشعبية :

إنّ حظر السّلط الإستعمارية للإتصالات الدّورية بين المشائخ وأتباعهم لم يؤدّ إلى تفرّقهم فحسب، بل أصبحوا عرضة للإستقطاب من جانب أطراف أخرى كالأحزاب السياسية التي أضحت أخطر منافس للطّرق في كسب الأتباع، سيّما وأنّ بعض الطّرق بمواقفها من النضال الوطني قد ساهمت في تهميش ذاتها، وفسح المجال لخصومها للعمل على حسابها، حتّى أنّ الأمر لم يصل إلى «انفضاض النّاس من الزّوايا ليعمروا الشّعب الدّستورية» (1) فحسب، وإنّما بلغ إلى حدّ استغلال بعض زوايا الطّرق لعقد اجتماع سياسي مثلما وقع لزواوية القادرية بمنزل جميل (2).

كما نستشفّ بداية فقدان الطّرق الصوفية لنفوذها في المجتمع من خلال الانتقادات العلنية اللاّذعة - على صفحات الصّحف - للفكر، والممارسات، والمعتقدات الطرقية عامّة، دون أن يصدم ذلك الرّأي العام. على أنّ مثل تلك المواقف المعادية للطّرق الصوفية كانت - من قبل - تعدّ جريمة نكراء في نظر المجتمع.

من ذلك أنّ عبد العزيز الثعالبي كان قد حكم عليه بالسّجن - مدة شهرين - بتهمة شتم الدّين والأولياء الصّالحين على إثر تأليفه لكتابه «الروح الحرة للقرآن» (3)، حدث هذا عندما كانت للطّرق والزّوايا كلمة تسمع ومكانة تحترم، وهو ما لم يعد موجوداً - على الأقلّ بنفس الحجم - في نهاية العقد الثّاني من القرن العشرين، تاريخ بداية تبلور وعي سياسي بدأ يشدّ إليه أوسع الجماهير الشّعبية التي عرفت زعامات الحركة التحريرية كيف تستقطبها.

(2) تكثّف النّشاط الوطني :

ومن مؤشّرات ضعف الطّرق الصوفية كذلك تكثّف النّشاط الوطني، ممّا يدلّ على أنّ تلك الطرق - التي كانت في وقت ما متّصلة بأوسع الفئات الإجتماعية، والقوّة المستقطبة لها، والمؤثّرة فيها - أصبحت تجد منافسة خطيرة من قبل التّشكيلات السّياسية التي إستفادت من عدّة ظروف، كتغيّر العقليات بالتّعليم،

(1) A.G.T., Note très Confidentielle datée du 3/6/1934, D 116 - 5.

(2) Ibid., Le Caïd de Bizerte à son C.C., le 17/2/1934, D 100 - 5.

(3) المرزوقي والجلاي، المرجع السّابق، ص 176.

وكالتحوّلات الاجتماعية والاقتصادية التي عرفتھا البلاد بسبب التّزوح إلى المدن، وما انجرّ عنه من تضخّم سكاني بها مقابل النّقص الفادح في سكان الأرياف.

كل تلك الطّروف وجدت فيها الأحزاب السياسية المجال المناسب للتحرّك، وتكثيف نشاطها، حتى أنّ الحزب الدّستوري الجديد لم يلبث — في ظرف أقلّ من أربعة سنوات مرّت على تأسيسه — أن أصبحت له أربعمئة شعبة و70.000 منخرط(4). وإن لم تستفد الطرق الصوفية من تلك الأحداث التي عرفتھا البلاد التّونسية منذ سنة 1930، فإنّ بعض الأحزاب السياسية كانت قد أخذت بزمام المبادرة.

فلم تعد تقتصر في مجال تحرّكها على المراكز العمومية كالمقاهي والنّوادي، بل شمل نشاطها — أيضا — مجالا حسّاسا وهو المسجد الذي كان من المفروض أن يبقى بجماهيره أقرب إلى الطرق لتؤثّر في الذين يرتادونه تبعا لصبغتها الدّينية.

لقد شكّل تغلغل النشاط الوطني في الأوساط المسجدية عامّة، والزيّتونية كالطلبة خاصة (5) مؤشّر توسّع وامتداد للعمل السياسي مقابل بداية تقلّص وضمور للعمل الطرقي الذي أضاع معاقل ومجالات ظلّت وقتا طويلا في ولائها التقليدي له.

ذلك أنّ المساجد — بعد إغلاق سلط الاحتلال لمحلّات الدّستور — لم تعد مكانا للصلاة فحسب — كما عهدھا المسلمون عندما ابتعدوا عن الفهم الصحيح لمبادئ دينهم — بل صارت مكانا لعقد الاجتماعات، وتحسيس الرّأي العام بتطوّرات القضية الوطنية، وآخر مستجدّاتها، وجمع التبرّعات، والاتّفاق حول بعض الأشكال النضالية، ممّا جعل للمسجد آنذاك مهمّة مركزية في العمل الوطني، الأمر الذي ساهم في وضع حدّ لمفهوم الفصل بين الدّين والسياسة في ذهنية بعض التّونسيين المسلمين آنذاك.

وبدأ يتغيّر — بذلك — الخطاب المسجدي، فصار يعالج قضايا تمسّ مشاغل أوسع الفئات الاجتماعية، بعد أن كان مقتصرّا على قضايا فقهية في الأغلب.

وهذا التحوّل ساهم فيه أفراد ينتمي بعضهم إلى الوسط الزّيتوني، كانوا سابقا ينعنون بالتحرّج والرّجعية، وعدم الجرأة على الخوض في المسائل السياسية.

CHERIF "L'Organisation des masses...", p. 262. (4)

Ibid., p. 264 - 265 (5)

من ذلك أنه في الاجتماع الذي انعقد يوم 24 سبتمبر 1934 بجامع عقبة بن نافع بالقيروان والذي حضره حوالي 1.500 شخص، أشار أحد المتدخلين، - وهو طالب بجامع الزيتونة كان في العطلة عند أهله بالقيروان - أشار إلى المنزل التي وصل إليها المسلمون عندما كانوا متّحدين، داعياً إلى الاقتداء بهم للوصول إلى ما كانوا قد وصلوا إليه، في حين أكّد محمد عليلو - وهو بدوره طالب زيتوني - على شرعية الحقوق الوطنية، داعياً إلى رصّ الصفوف، بينما قدّم عثمان الددوش - وهو صانع غرابل بالقيروان - قدّم مسحا عن الوضع الاجتماعي المتردّي الذي عليه سكّان البلاد تحت سيطرة المستعمرين الذين لا يجب - على حدّ قوله - أن ترهب أسلحتهم أحداً (6).

أما في الاجتماع المنعقد يوم 22 سبتمبر 1934 - في نفس الجامع - فقد أخذ الكلمة المدعو هذيلي بن محمد، فأوضح أنّ على التونسيين أن يكونوا في حداد بعد إبعاد زعمائهم بدون سبب، ممّا يفرض عليهم أن يواصلوا النضال بإغلاق المغازات، مؤكّداً أنّه على المسلمين الحقيقيين أن لا يدخنوا، أو يشربوا الشاي، إذ أنّ تلك المواد مضرّة بالصحة، والمال، «والقرآن الكريم حجرها» على حدّ قوله!

وبانتهاء الاجتماع، وفي مخرج الجامع وقف المدعو محمد الخراط يجمع التبرّعات «للحزب الدستوري الجديد» (7).

إنّ هذه الأمثلة تكشف التحوّل الذي حدث في دور المسجد، وهو تحوّل ساهم إلى حدّ بعيد في وضع حدّ للزعامة الأحادية التي ظلّ مشائخ الطرق يمارسونها على الجماهير باسم الدين، كما توضّح تلك الأمثلة التحوّل في عقلية مرتادي المساجد، حيث أصبح لا انفصام في أذهان أغلبهم بين المسائل الدينية والمطالب الوطنية، حتّى أنّ الدين قد صار - في إطار مؤسّساته - من أكبر العوامل المعتمدة لتجذير القطيعة بين الجماهير والاستعمار، بالدعوة إلى مقاطعة بعض مواده (الاستعمار) التي «حجّرها القرآن».

وهو ما اعتبرته السّلط الاستعمارية تسييساً للدين، فردّت بإجراءات 10 أكتوبر 1934 (8) للحدّ من توظيف الوطنيين للمساجد في تحريكهم السياسي، خاصة وأنّ

A.G.T., Rapport de police au C.C. de Kairouan, le 24/9/1934, D 97 - 10 (6)

Ibid, Rapport de police au C.C. de Kairouan, Le 22/9/1934, D 97 - 10 (7)

OULED Mohamed, op.cit, p. 93. (8)

الشكل النضالي — هذا — قد انتشر بسرعة في عدة جهات من البلاد كـ «الساحل، وتونس...»، وبنزرت، والوطن القبلي...».

إن الطرق الصوفية التي بدت لنا — في الفصل السابق من هذا البحث — كظاهرة ريفية أكثر منها حضرية باعتبار تمركز أغلب أتباعها حسب إحصائيات 1925 في مناطق الشمال والوسط الغربيين — أصبحت تبعا لمواقف بعض مشائخها من العديد من القضايا والأحداث بالريالة — محل انتقاد لاذع من طرف التشكيلات السياسية التي تبدو في المقابل كظاهرة حضرية باعتبار نشأتها ومركزية نشاطها خاصة في النصف الشرقي من البلاد في بادئ الأمر، وتشهير بممارساتها وتحركاتها (9).

وحملها بالتالي على الانزواء والحياة بعيدا عن التحركات التي يقودها كل من الحزبين السياسيين في البلاد.

بل مكن كل ذلك تلك التشكيلات — التي نمت وقويت في أوساط حضرية للطرق الصوفية فيها نفوذ محدود من الزحف — في مستوى ثان — على المعازل التقليدية للنفوذ الطرقي.

ويمكن إثبات ذلك — مثلا — إنطلاقا من الجهات والمناطق التي عقد بها بعض زعماء الحركة الوطنية لإجتماعات:

من ذلك أن المنجي سليم أشرف على اجتماع — يوم الثاني من أفريل 1937 — حضره حوالي مائتي شخص، في حين حضر لإجتماع يوم 4 أفريل — الذي أشرف عليه سليمان ابن سليمان ويوسف الرؤيسي بسكرة ووادي مليز (سوق الأربعاء) حوالي ألف وخمسمائة شخص.

وأمام استدعاء كاهية غار الدماء للمنظمين للإجتماع للتثبت من هويتهم، تبعهم «ستمائة شخص يطلقون صياحا تحريضيا...»، مما جعل الكاهية يحتمي بالمخفر...» (10).

هذا مع العلم وأن الاجتماع الذي ترأسه — بغار الدماء — رئيس شعبتها الدستورية انتهى بموكب يتألف من ثلاثة آلاف شخص انجهوا إلى مقر الخليفة، والمراقب المدني، حيث سلموا له مذكرة احتجاج (11).

(9) C.N.U.D.S.T., Le R.G. au Ministre des Affaires Etrangères à Paris, le 11/8/1938, Tunisie 1917 - 1940, dossier n°= 3, 8/1938 - 10/1938, f. 83 et 84.

(10) Ibid., Le R.G. au Ministre des Affaires Etrangères à Paris, le 9/4/1938, Tunisie 1917 - 1940, dossier n°= 2 (avril 1938), f. 169

Ibid., f. 170. (11)

كما شملت تلك الاجتماعات مجاز الباب (12)، والكاف أين شارك فيها — يوم 30 مارس 1937 — كل من صالح بن يوسف ومحمود بورقيبة، والهادي نويرة (13)، والقلعة الجرداء، ووادي سراط، والقصور (14)، وكذلك أشرف كل من صالح بن يوسف ومحمود بورقيبة على اجتماعين بسبيبة وحيدرة يوم غرة أفريل.

وفي الثالث منه ألقى صالح بن يوسف - في بعض المئات من الحاضرين في الهواء الطلق - خطابا عنيفا، وكذلك كان الشأن بالنسبة لخطابه بكثير أمام خمسمائة شخص (15).

إن هذه الأرقام والمعلومات، رغم إقرارنا المسبق بتعمد السلط الاستعمارية تضخيمها تهويلاً لخطر تحركات بعض قادة الحركة الوطنية — تعطينا فكرة ولو نسبية — على المجال الحيوي لتحرك هؤلاء والذي لم يعد مقصوراً — كما عهدناه أثناء المظاهرات الجهوية ضد التجنيس، أو المظاهرات وغلق الدكاكين التي جدت في سبتمبر 1934 — على النصف الشرقي من البلاد خاصة، بل أصبح يشمل مناطق ظلت طويلاً بمعزل ومنأى عن أن ينالها نشاطهم فضلاً على نفوذهم.

كل تلك المظاهر توضح تطور العمل السياسي باستخدامه للمؤسسات الدينية، واستقطابه لجماهيرها، ولسكان مناطق جديدة تضاف إلى تلك التي صارت — بالممارسة — حكراً عليه.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن تلك المظاهر تكشف عن انحصار نفوذ الطرق — تدريجياً —، وقصورها عن مسك المشاعر، وتحريك الشارع، حيث أصبح زمام المبادرة العملية بيد قوى لا عهد للطرق بها من قبل.

وبالتالي يمكن القول بأن الطرق الصوفية بعجزها عن الفعل في واقع البلاد المتغير والمتحول باستمرار قد زادت في تقوقعها، وفسحت المجال للتشكيلات السياسية للبروز وملئ الساحة على حسابها.

Ibid. (12)

Ibid. (13)

Ibid. (14)

Ibid. p. 171. (15)

II – أسباب ضعف الطرق الصوفية :

لا يمكن إرجاع أسباب الضعف – البين – للطرق الصوفية منذ 1930 الى التحولات الاجتماعية والسياسية التي عرفت البلاد آنذاك، وهي عوامل خارجية، وإنما ترجع – أيضا – الى خصائص الفكر الطرقي، ومميزاته، وهي عوامل داخلية.

1) الأسباب الخارجية :

ونقصد بها تلك التي تخرج على نطاق الطرق الصوفية، وتعود بالدرجة الأولى الى ما أصبح عليه واقع البلاد في مطلع الثلاثينات من القرن العشرين، خلافا لما كان عليه في نهاية القرن التاسع عشر. ويمكن حصر تلك الأسباب فيما يلي :

أ – التعليم وتبدل العقلية :

تشير عدة دلائل إلى أن الأمية – حتى نهاية القرن التاسع عشر – كانت تسود الأوساط الشعبية، وأن معرفة الدين تكاد تكون مقصورة على المدن والقرى التي بها زوايا.

في حين أن «السواد الأعظم من سكان البوادي لا يعرفون من الدين إلاّ النطق بالشهادتين، كما أن البعض منهم لا يعرف حتى عدد وأوقات الصلوات، وكذلك بقية الفرائض الأخرى...» (16).

وهذا الجهل أوجد حقلًا خصبا للطرق :

ذلك أن مشائخها تمكّنوا من التأثير – بما أضفوه على أنفسهم من الهالة والقدسية، والكرامات – على عقلية العامة وحتى الخاصة، في حين ظلت الفئة المثقفة – بالنسبة للطريقة العيساوية مثلا – غير مبالية بما يأتيها أتباعها من الأعمال التي تشد إليها الأميين من الناس (17).

KRAIEM (M.), La Tunisie précoloniale, Tunis, S.T.D., 2t., t2, 1973, p. 117. (16)

A.G.T, Confrérie des Aissaouia, p 6, D 97 - 3. (17)

إلا أنه بتزايد المؤسسات التعليمية مع نهاية القرن التاسع عشر وخاصة بداية القرن العشرين، وظهور بوادر حركة إصلاحية بالبلاد تحت مؤثرات داخلية وخاصة خارجية شرقية - ظهر تحول فكري واجتماعي ستُضح نتائج مع نهاية العقد الثاني من القرن العشرين.

ذلك أن الحركة الإصلاحية التي بدأت بالمشرق على يد جمال الدين الأفغاني كانت من أهم مبادئها العمل على «معالجة الواقع المادي الذي يعيشه المسلمون...، وتوفير حلول عملية شرعية لكل مُعضلاته...، وإصلاح الفكر الديني...، بتخليصه من كل شوائب البدع والخرافات التي كان يشيعها أصحاب الطرق من المتصوفة...» (18).

وهي نفس المبادئ التي نادى بها محمد عبده وتلميذه رشيد رضا (ت. 1935) الذي «لا يقرّ الطرق البتّة ويعتبرها مضرّة بالعقيدة، ولا يسلم بها إلا جهلة العوام، لأنهم أسرى التقليد الأعمى، وينتهي به الأمر إلى تكفير كل من يسلم بصحة كرامات الأولياء والمتصوفين وحوارهم...» (19).

لقد كان لكلّ هذه الأفكار الإصلاحية رواج كبير - آنذاك - في البلاد التونسية ليس فقط بواسطة مجلة المنار (أسست سنة 1898)، التي بلغ من «تعلق التونسيين بها أن العدد الواحد منها كان يدار على عشرات الناس» (20)، وإنما كذلك بفضل زيارتي محمد عبده نفسه لتونس (21):

مرّة أولى في نوفمبر من سنة 1884، وألقى محاضرات بجامع الزيتونة، ومرّة ثانية في صائفة سنة 1903، وألقى محاضراته في الخلدونية حول «العلم وطرق التعليم»، وبذلك أصبحت علاقة صاحب المنار - منذ ذلك التاريخ - «شديدة الروابط بالزيتونيين المتفتحين على الإصلاح...، وقد ازداد عدد هؤلاء

(18) محمد صالح المراكشي، تفكير محمد رشيد رضا من خلال مجلة المنار 1898 - 1935 تونس، الدار التونسية للنشر، نوفمبر 1985 و ص 61.

(19) نفس المرجع، ص 190.

(20) نفس المرجع، ص 40.

(21) حول رحلتي محمد عبده الى تونس، أنظر المنصف الشنوفي، «مصادر عن رحلتي الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده الى تونس»، حوليات الجامعة التونسية، تونس، المطبعة الرسمية للبلاد التونسية، عدد 3، 1966، ص 71 - 102، وكذلك الشنوفي «علائق رشيد رضا، صاحب مجلة المنار مع التونسيين (1898 - 1935)»، نفس المصدر، عدد 4، 1967، ص 121 - 151.

المتأثرين بعده وتلميذه رضا بمرور الأيام، وأصبح أعضاء النخبة الإصلاحية بتونس يرسلون الشيخ عبده قبل وفاته...» (22).

هذا بالإضافة إلى تأثير الحضارة الأوربية من خلال زيارات العديد من التونسيين إلى أوروبا، والبعثات الطلابية، وكذلك المؤسسات التعليمية الحديثة التي أنشأتها بعض الدول الأوربية بالإيالة منذ مطلع الثلث الثاني من القرن التاسع عشر للميلاد.

يضاف إلى ذلك كله وصول العديد من المؤلفات الإيطالية والفرنسية خاصة إلى البلاد وتكثف حركة الترجمة.

لقد كان لكل تلك التأثيرات الخارجية — إلى جانب الشعور بالحاجة الملحة للإصلاح في الداخل — الفضل الكبير في تغيير مناهج التعليم عامة، والزيتوني خاصة، بالتركيز على العلوم العصرية كالرياضيات، والعلوم الطبيعية، واللغات الأجنبية، بالإضافة إلى إرسال البعثات الطلابية إلى الخارج قصد التخصص واستكمال الدراسة.

كما تمّ بعث مؤسسات تعليمية جديدة بعد المدرسة الصادقية (1875)، كالخلدونية سنة 1896، وهي التي ساهمت في بلورة العديد من المفاهيم والآراء الإصلاحية.

كما ازداد عدد التلاميذ التونسيين المسلمين الذين يتلقون تعليماً عصبياً، حيث وصل عددهم سنة 1897 إلى حوالي 4.656 مقابل 2.683 من الفرنسيين (23)، علماً وأن التعليم قد شمل أيضاً البنات بتأسيس «المدرسة التونسية للفتيات المسلمات»، والتي كانت تضمّ سنة 1909 حوالي مائة تلميذة (24).

لقد ساهمت كل تلك العوامل وغيرها في زرع بذور حركة فكرية وإصلاحية تهدف إلى إيجاد وعي سياسي واجتماعي، قوامه تخليص المجتمع من الاستبداد والركود، والانغلاق على مفاهيم سلطوية متحجرة، بمقاومة البدع والخرافات، والعودة بالمسلمين إلى الأسس التي انبنت عليها حياة أسلافهم، وببذ كل ما ليس له

(22) المراكشي، المرجع السابق، ص 397.

(23) KASSAB, op.cit., p 221.

(24) البشير العربي، الدور الاجتماعي للثقافة المجمع التونسي في فترة الاحتلال الفرنسي حتى سنة 1956، شهادة الكفاءة في البحث، مخطوطة، تونس، كلية الآداب والعلوم الانسانية، سبتمبر 1984، ص 52.

علاقة بالدين كالطرق الصوفية .

وهو أمر «أثار غضب المحافظين...، حتى أن الشيخ الثعالبي...، بمجرد رجوعه إلى تونس حوكم بتهمة التطاول على الأولياء، ومهاجمة الصالحين، وقضي بسجنه مدة شهرين، إلى جانب عزل الشيخ محمد شاكر من التدريس لتطاوله على الزوايا والطرق...» (25).

وهذا الأمر يمكن اعتباره كشمة آجلة لتلك الحركة الإصلاحية السابقة الذكر التي أتت أكلها مع نهاية سنة 1920 تقريباً.

لقد كانت البداية بتأسيس «جمعية مقاومة البدع والاسراف» يوم 21 ديسمبر 1921 (26) والتي لقي تأسيسها صدى كبيراً أشار إليه رئيسها الوقتي في افتتاحه للجلسة التي عقدتها تلك الجمعية لعرض مسودة القانون الأساسي لها (27).

إن المتأمل فيما آلت إليه الأمور - بعد الحرب العالمية الأولى - يلاحظ في الآيالة تحولاً في نمط التفكير، قوامه التركيز على محاربة البدع، والانحرافات بأسلوب فيه شيء من الحدة والسخرية، باعتبارها لا علاقة لها بالدين «الذي اتهم باطلا بأنه يدعو إلى ترك الأعمال الدنيوية، لتعاطي التقاليد الجذبية عوضاً عنها، كالمصارعة بالزوايا، وضرب الطبول، وقرع الدفوف، بدعوى إتباع الطرق، والامثال لتعاليم يتلقاها الناس صغيراً عن كبير، يزعمون أنها من أصول الدين، بينما لم يأت بها الكتاب الكريم، ولا السنة النبوية...» (28) على حد قول أحد المنتقدين على الطرق.

(25) نفس المرجع، ص 47.

(26) «مقاومة البدع والاسراف»، جريدة النديم، عدد 44، ليوم 1921/12/21، ص 2، أنظر كذلك، «جمعية مقاومة البدع والاسراف»، جريدة لسان الشعب، السنة الثانية، عدد 44، ليوم 1921/12/27، ص 2.

(27) «مقاومة البدع والاسراف»، جريدة السويز، تونس، المطبعة الأهلية، السنة الثانية، عدد 85، ليوم 1922/1/23، ص 2.

(28) الطيب ابن عيسى، «البدع والاسراف»، نفس المصدر، ص 1.

وتعدى الاستنكار والتقد إلى مظاهر طرقية أهمها «الزردة» التي قال فيها — بالعامية — أحدهم: «... أصل العوايد هي سبب الفتنة، رأس الفتنة عوايد الزردة، تبغض الزردة لسبب طياب العيش وأمي زيدة...» (29)، أو قوله أيضا: «خير الزردة هكالك ولا لا، إشي لله يا رجال الدالة، قالو زردة، فزعو الكل فدى طویل الرقدة، الشابة والسابة والفردة، وتخلط نسوان مع رجاله... مشاؤ يزوروا، كل حد في نغمتو وطنبوروا، نساء ورجال مخلطين يدوروا... هاذي الزردة هي سبب العلة، تتلاقى سم شابة وهجاله...، ويعود دق الثاب عامل حاله...» (30).

كما شمل التهكم أيضا ما يأتيه أتباع الطرق من الرقص ومن التصفيق، ويظهر ذلك فيما جاء على لسان أحد الذين حضروا حضرة العيساوية بمقام سيدي أبي سعيد في قوله: «إن الواقفين يؤلمون الأرض بأرجلهم أثناء شطحاتهم»، والقاعدين يؤلمون أكفهم تصفيقا، والحضور يموجون خشوعا، وأنا أحلف بألية مغلظة أن الأرض ستحاسبهم حسابا عسيرا يضاف إلى أصل الحساب! (31).

أما المحور الثاني الذي شمله التهكم فهو التركيز على مشائخ بعض الطرق الذين — حسب ما يقال عنهم — فيهم «الكثير من الدجالة والمتحيلين، والمحتالين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، ويستفيدون من الإعانات والتبرعات، والصدقات والإنذارات والتذورات، والأوقاف، والوصايا والهبات، ولا يقومون بعمل صالح ينفع العباد، أو يرقى بالبلاذ، سوى بث فكر الزهد، والقنع والتواكل، والإنقطاع لخدمة أولئك الأولياء الأموات، ومشائخ الزوايا الأحياء بصفتهم أحرار، بل هم عبيد، ديدنهم الإمثال والطاعة...» (32).

كما وقع التشديد على الأعمال «التي يقوم بها الدجاجلة، وأصحاب الزوايا الذين هم أصل كل مفسدة في الديانة الإسلامية...» (33)، فتهكم عليهم أحد الشعراء قائلا (34):

(29) عبدالرحمان الكافي، «ملزومة»، التلخيص، عدد 77، ليوم 1922/9/3، ص 4.

(30) الكافي، «ملزومة الزردة»، نفس المصدر، عدد 79، ليوم 1922/9/16، ص 4.

(31) «اعتداء على الأرض»، نفس المصدر، عدد 74، ليوم 1922/8/16، ص 2.

(32) ابن عيسى، المصدر السابق، ص 1.

(33) صالح كرو الففصي «الدين والبدع»، الوزير، عدد 89، ليوم 1922/2/20، ص 2.

(34) سعيد أبوبكر، «البدع والاسراف»، نفس المصدر، عدد 83، ليوم 1922/1/9، ص 3.

كن مع المولع بالذف ومن
حيّذوا أعماله وهي الشرور
واسمع الحكمة منهم وانظرن
عملا قالوا لنا هو الحبور
نبذوا فرضا، وحادوا عن سنن
وأطاعوا الشيخ من غير فتور
كلّما مرّ اسمه ذرى الخضوع
فوقهم رأيتهم خوف الوعيد

إنّ هذه الأمثلة لا تدلّ على الجرأة والتحدّي الذي أصبح واضحا وشبه عادي
— على ما يبدو — في التهجّم على الطرق ومشائخها دون أن يصدر عنها ردّ فعل
كما كان الشأن في مطلع القرن العشرين مع الثعالبي ومحمد شاكر، بل توحى
كذلك بظهور عقلية جديدة مستنيرة ومتفتحة، وبعبدة عن السيطرة الطرقية، حتى
أصبحت أحيانا تنقّر الناس من الذهاب لزيارة الزوايا والمشائخ مثل ما وقع لأتباع
سيدي قدّور.

كما أنّ شيخ زاوية التيجانية ببوعرادة قد اشتكى من أعمال «الدستوريين»
الرأمية — على حدّ قوله — إلى افتكاك أتباعه، وهي كلّها نتائج كان للتعليم الدّور
الأساسي في إبرازها، ثمّ ساهم — إلى حدّ ما — في تقليص القاعدة الشعبية
للطّرق.

ب - السياسة الإستعمارية:

إنّ تطوّر العقليات بفضل التعليم ومواقف بعض الطرق الصوفية المعادية
للنّضال الوطني لم تكن وحدها كافية لتفسير بداية فقدان الطرق لنفوذها وأهمّيّتها
بالمقارنة مع ما كانت عليه في نهاية القرن الماضي، وبداية القرن الحالي لو لم
تساهم السّلط الإستعمارية بسياستها تجاهها في إضعافها ظلّاً منها أنها موطن الخطر
ومصدره الوحيد.

فسلّطت على مشائخها ضغوطات ومراقبة شديدة، وحالت دونهم وأتباعهم
بتحجيرها للزيارات، وضربها لأهمّ موارد الطرق كالأحباس العامّة والخاصّة، ممّا
أفقدوا مقوماتها المادية وبالتالي نفوذها الاجتماعي.

كما أنّ كثرة استعمال السّلط الإستعمارية للعديد من المشائخ في مهام مختلفة، وتوظيفهم لصالحها قد تسبّب - على الأقلّ بالنسبة للبعض - في فقدانهم - تدريجيا - لأهميتهم وهيّتهم في مجالات نفوذهم.

(2) الأسباب الدّاخلية:

وهي أسباب تعود بالدرجة الأولى إلى الطرق الصوفية نفسها من حيث تركيبها وممارسات بعض مشائخها، ويمكن تلخيص تلك الأسباب فيما يلي:

أ - الصّراعات الدّاخلية:

أدّى التنافس بين مختلف الطّرق - على اكتساح الفضاء الواحد وكسب أكثر ما يمكن من الأتباع، والزيادة في المداخل - إلى صراعات بين الأطراف المتقابلة، كما وترت العلاقات بينها.

ويمكن الإستشهاد - في هذا المجال - بالصّراع الذي حدث بين سعد القاضي - مقدّم التّيجانية -، وعلي بن محمد عريفات - مقدّم القادرية بجهة تطاوين (35)، والعربي ابن سالم مشارك - مقدّم الطريقة التّيجانية بجرجيس - والذي «كان يثير أتباعه ضدّ أتباع طرق أخرى...» (36).

أمّا بعض أتباع الطريقة التّيجانية فكانوا ينكرون صحّة بقية الطرق (37). هذا بالإضافة إلى الخلاف الذي حدث في بني خيار بزواية سيدي مسعود بين السّلامية والقادرية (38)، علما وأنّ هذه الصّراعات لم تكن بين طريقة وأخرى فحسب، بل كانت أيضا داخل الطريقة الواحدة في إطار الصّراع على منصب شيخها وغير ذلك، وهو صراع كان يحدث دائما.

وبالنسبة إلى الفترة التي ندرسها فكثيرا ما يؤول ذلك الصّراع إلى انشقاقات حتى بين الأشقاء في الأسرة الواحدة، مثلما حدث داخل الزاوية القادرية بنقطة

(35) خزانة الوثائق التّونسية، س. د. ، صد. 111، مل. 5.

A.G.T, Le Capitaine Thivetwi, au R.G., le 26/2/1936, D 156 - 21. (36)

(37) خزانة الوثائق التّونسية، محمد بن الحاج الطيّب الخليدي، الى الوزير الأكبر، بتاريخ 18 ربيع الثاني 1334 / 1916/2/23، س. د. ، صد. 153، مل. 3.

(38) نفس المصدر، س. د. ، صد. 153، مل. 11

سنة 1907 حيث تمت إقالة محمد الكبير من مشيختها — بعد اتهامه بتدليس رسوم رهن عند الغير — وتعويضه بأخيه محمد العربي (39).

لقد انتهى الأمر بهذا الشيخ الجديد إلى مراقبة تحركات أخيه، والبعث بها إلى الكتابة العامة للحكومة التونسية.

فمما جاء في إحدى رسائله — هذه — قوله، «إن محمد الكبير (أخوه)...، توجه إلى القصور من عمل تاجرين، ومنها يريد التوجه إلى تبسة... أعلمناكم بأمره خشية من غوائله...!» (40).

لقد وجدت الإدارة الإستعمارية في تلك الأجواء المشحونة والمتوترة أفضل وسيلة لإذكاء التنافس، وتدعيم التناقضات، وضرب الأطراف المتصارعة بعضها ببعض، وهو ما أدى إلى انقسام العديد من الطرق:

من ذلك أن «قسم من أتباع الطريقة الشاذلية بتونس رفض الاعتراف بمشيخة الحاج ابن محمد إبراهيم، ومنذ ذلك الحين انقسم الأتباع بين شيخين متنافسين عمل كل منهما على الإيقاع بالآخر...!» (41).

وكذلك كان الشأن بالنسبة للطريقة الرحمانية بزاوية نفطة، حيث انقسمت «عائلة ابن عزوز — بعد الصراع الذي حدث داخلها — بين مصطفى والتارزي، مما أدى بهذا الأخير إلى مغادرة نفطة والاستقرار بالقسطنطينية أين توفي...» (42).

أما في الحاضرة فإن الطريقة العيساوية قد انقسمت بعد «معركة كبيرة... بين جماعة العيساوية الواردين من سيدي الحاري، والواردين من طبرية اندلعت بصحن زاوية سيدي أبي سعيد، حيث أوسعوا بعضهم بعضا بالضرب...» (43).

كما جذت نفس الحادثة — تقريبا — «بين فقراء العيساوية من جماعة

(39) نفس المصدر، نسخة اعلام للإدارة العلية، بتاريخ 1910/6/20، س. د، صد. 106، مل. .

(40) نفس المصدر، رسالة بلقاسم بن محمد العربي إلى الكاتب العام للحكومة التونسية بتاريخ 1910/3/10، س. د، صد. 106، مل. 4.

(41) A.G.T., Le Gouverneur Général de l'Algérie au R.G. de la France en Tunisie, le 22/4/1904, (41) D 172 - 4

Ibid., Le C.C. de Gafsa au R G , le 6/11/1906, D 172 - 3. (42)

(43) خزانة الوثائق التونسية، رسالة من عامل أحوال الحاضرة إلى الوزير الأكبر، بتاريخ 15 صفر 1891/9/20/1309، س. د، صد، 126، مل. 1.

الصفافيسية، وبين فقراء العيساوية من أهل باجة بزاوية الحواريين بالبلد المذكور...» (44).

إن تلك الصّراعات — بين الطرق وداخل الطريقة الواحدة — لم تؤد إلى تشتت الأتباع، وتوتر العلاقات بينهم فحسب، بل ساهمت إلى — حد ما — في إضعاف نفوذ وهيبة العديد من الطرق الصّوفية التي استنفدت طاقاتها في معارك داخلية ألقتها عن استقطاب العديد من الأتباع، وحدثت من إشعاعها الخارجي. وهذا ما آل إليه — مثلاً — أمر الزاوية القادرية بنقطة (45)، والزاوية الرّحمانية بها (46)، علماً وأن هذه الأخيرة — إبان تأسيسها سنة 1843 — قد نافست — في النفوذ — زاوية الرّحمانية بالكاف، وحدثت نسبياً من نفوذها كما سبق أن أوضحنا في الفصل الأول.

ب - ممارسات بعض مشايخ الطرق:

لئن كان شيخ الطريقة — في المنظور الصّوفي — هو الطبيب العارف بتشخيص علل المريد، وتحديد وسائل علاجها، والقدوة التي ينسج على منوالها أتباع الطريقة، فإن توارث «الولاية والصّلاح» في صلب الطرق — عند موت المشايخ الأوائل المؤسسين للزوايا — مكّن الكثير من الأدعياء والسّخفاء البسطاء من أن يحتلوا في الناس مكان القيادة الرّوحية بانتسابهم للزوايا والطرق، والولاية والصّلاح، فانحرفوا بالزوايا عن وظائفها السّامية، إذ ليس لهم ما يقدّمون للناس من توجيه وإصلاح، وفاقد الشيء لا يعطيه...» (47).

وقد تجسّد إضرارهم بالطرق على مستويين:

* على مستوى سيرتهم الشخصية: حيث حاد بعضهم — على ما يبدو — عن دورهم التربوي الاجتماعي، وأصبحوا لا همّ لهم إلا جمع الأموال، فارتكبوا ممارسات تتنافى ومكانتهم الدّينية والاجتماعية مثل مصطفى بن

(44) نفس المصدر، رسالة من عامل باجة إلى الوزير الأكبر، تاريخ 9 جمادي الأولى 1892/12/9/1310، س. د، صد. 127، مل. 1.

A.G.T., Renseignements Fournis par le C.C. de Gafsa, (sans date), D 106 - 4. (45)

Ibid., Le C.C. de Gafsa au au R.G, Le 6/11/1901, D 172 - 3. (46)

(47) المياوي، المقال السابق، ص 64.

الشيخ أحمد فذور - شيخ زاوية القادرية بالكاف - الذي حوكم عدة مرات،
مما اضطرّ الوزارة الكبرى إلى إقصائه من مهامه الدينية.

* على مستوى تصرفهم في ثروات الزوايا:

لم تكن سياسة التفقير - التي مارستها السلط الاستعمارية ضدّ الطرق
الصوفية - العامل الوحيد الذي أدّى إلى تفقيرها، بل إن إدارة بعض
المشائخ لأملاتها قد أضرت بها - كذلك - اقتصاديا.

وهو ما حدث مثلا للزاوية الرحمانية بالكاف، وزاوية الرحمانية بنقطة بسبب
تصرف شيخها الأزهاري بن مصطفى، و- كذلك - زاوية القادرية بنقطة التي
اضطرّ شيخها إلى رهن حجج أحباسها عند أصحاب ديونه.

إنّ مثل ذلك التبذير قد ساهم - إلى جانب سياسة التفقير - في حرمان
بعض الطرق من موارد مالية هامة، ولعلّ ذلك ما تسبّب - كما أشرنا سابقا - في
اندثار بعض الزوايا التي لم تذكر في إحصائيات سنة 1925.

ج - مواقف مشائخ بعض الطرق من الإستعمار وعلاقتهم به:

إنّ ولاء بعض الطرق للإستعمار - سواء في سلبيتها تجاهه عند دخوله
البلاد، أو تواطؤها معه أثناء ذلك، أو تعاملها فيما بعد - قد أساء إلى سمعتها،
وورط بعض مشائخها الذين وقفوا إلى جانب قواته في الوقت الذي كانت فيه -
هذه الأخيرة - تبعد المقاومين. فخالفوا بذلك التوجّه العام للبلاد، وأفقدوا
أنفسهم صفة الوطنية.

كما أنّ مواقف العديد منهم من مختلف مظاهر صراع الشعب مع الاستعمار
الفرنسي - كأحداث الزلاّج، ومقاطعة الترامواي، والتجنيس وخاصة من الحركة
الوطنية - جعلتهم يبرزون كفئة معادية لطموحات الجماهير الشعبية، وحقّها في
الحرية والكرامة، ورفض الإحتلال الأجنبي.

وهي كلّها أهداف ناضلت من أجلها طويلا، وقدمت - للحصول عليها -
أعدادا كبيرة من الشهداء.

لقد أضفت تلك المواقف على بعض المشائخ صفة «الفئة الرسمية» الواقفة
إلى جانب الإستعمار، ممّا أخرج أتباعها، وفسح المجال للأحزاب السياسية لتنمو
على حسابها بعد أن ملكت زمام المبادرة الميدانية خاصة بعد اقتحامها للأوساط

المسجدية التي ظلت طويلا غير فاعلة في النضال الوطني كما ينبغي.
وبذلك بدأ - تدريجيا - إنحصار آفاق العمل الطرقي بعد أن أصبح عاجزا
على مسك الواقع الذي صار التحكم فيه موكولا في - الأغلب - للأحزاب
السياسية.

وهو ما دفع الطرق الصوفية إلى التحرك وتوحيد المواقف وأشكال التصدي
عساها تتدارك الوضع بالعمل على عقد مؤتمر طرقي بالجزائر دعي له بعض مشائخ
الطرق بالإيالة التونسية لكن المؤتمر الطرقي لسنة 1939 لم يفعل شيئا، مسجلا
بذلك الإقرار الضمني بفوات الأوان، وبداية دورة جديدة في حياة البلاد على
مستوى القوى الفاعلة فيها.

* الخاتمة :

لقد حاولت - على مدى الفصول الأربعة لهذا البحث - أن أتتبع مراحل تطوّر أهمّ الطرق الصوفية في البلاد التونسية منذ نشأتها، وأهمّ أماكن تواجد أتباعها، وأن أركّز على سياسة الإستعمار الفرنسي تجاهها.

هذا بالإضافة إلى مواقف الطرق منه ومن مختلف القضايا التي عرفت بها البلاد طيلة الفترة التي ندرسها، وأنهيت البحث بتوضيح ما آل إليه أمر الطرق الصوفية قبيل الحرب العالمية الثانية.

ومن خلال كل ذلك أمكنتني تسجيل الإستنتاجات التالية :

* ان الطرق الصوفية التي وجدت بالبلاد التونسية في الفترة التي يغطيها هذا البحث ليست - من حيث منشئها الأوّل - نابعة من واقع البلاد، وإنما وردت إليها إمّا من المشرق أو من المغرب (ونعني به الجزائر أو المغرب الأقصى)، بواسطة تونسيين أو غيرهم أدخلوا مبادئها وأورادها الى البلاد.

وبذلك أسسوا طرقا فرعية نسبوها الى أنفسهم، حيث تسمّت بأسمائهم، وعُدّت امتدادا لطرق أصلية.

وهو ما يوضّح تفاعل تونس وتفتحها الحضاري على جلّ التيارات المذهبية التي تبرز في شرق البلاد الاسلامية أو غربها.

* انّ بعض الطرق الصوفية - رغم المبادرة المبكّرة للسياسة الاستعمارية الرأمية الى تحجيمها والقضاء عليها تدريجيا بأضعافها - راهنت على السّلط الاستعمارية، فلم يعمل بعض مشائخها على الانحياز إلى الجماهير وربط مصيرهم بها.

فكانت تلك الطرق - بمواقفها تلك - كمن «سعى إلى حتفه بظلفه»، معبرة بذلك عن طبيعة الفكر الطرقي العديم الوعي السياسي، والعاجز عن قراءة الواقع قراءة صحيحة.

* انّ السّلط الاستعمارية - رغم إحصائياتها المتعدّدة، ودراساتها الميدانية المتنوّعة، والإمكانات التي تملكها لتحديد القوى الفاعلة والخطيرة عليها في البلاد - ظلّت تعتبر الطرق الصوفية مصدر كل خطر متوقّع.

لذلك مارست ضدّ مشائخها سياسة كانت من أهمّ العوامل في إضعافها،

وفقدانها لوزنها على السّاحة وذلك رغم قابلية الطرق للتوظيف من قبل الإستعمار، والخدمات التي قدمها بعض مشائخها له كما مرّ بنا في هذا البحث، والسّلط الإستعمارية بهذا كله قد أضرت - من خلال ذلك - بالعديد من حلفائها من بين المشايخ، وساهمت من حيث لا تشعر في تحطيم الانغلاق الفكري الذي كرّسته بعض الطرق الصّوفية، وفتحت المجال أمام تنامي الوعي الذي كان من أكبر المكاسب التي استفادت منها الحركة التحريرية على حساب الإستعمار الفرنسي في البلاد، والطرق الصوفية فيها.

* إنّ عدم قدرة السّلط الاستعمارية على تشخيص عدوّها الحقيقي والفعلي جعلها تركّز اهتمامها على مراقبة الطرق، والانشغال بالقضاء عليها تدريجياً باعتبارها - في نظرها - مصدر الخطر الحقيقي.

ففسحت بذلك المجال لنشأة الأحزاب وتطوّرها، فما إن حلّ مطلع الثّلاث الثاني من القرن العشرين حتّى أخذت الطرق الصّوفية تضعف بالمقارنة مع ما كانت عليه في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

وفي المقابل كانت الأحزاب السياسية - نسبياً - تتنامى شيئاً فشيئاً حتّى صلب عودها، فعملت السّلط الاستعمارية على تدارك الوضع، لكن يبدو أنّ ما قامت به جاء متأخراً، فلم يُجدها نفعا.

* إنّ الطرق الصوفية كانت حتّى بداية هذا القرن - تشكّل قوّة بشرية واقتصادية لها وزنها وأهميتها في البلاد، وهو ما دفع بالإستعمار للعمل على كسب العديد منها وتوظيفها والاستفادة من قوتها تلك، في حين لم تقم الحركة التحريرية بنفس ذلك العمل، الأمر الذي جعلها تُحرم من قوّة كانت في أمسّ الحاجة إليها، كما لم تتمكّن من انتزاع ذلك السّلاح من الإستعمار الذي كثيراً ما كان يستعمله ضدها.

* إنّ العامل الطرقي إذا انسجم مع طموحات السكّان في التحرك نحو الحرية والانعقاد زاد الأهالي انسجاماً وتوحيداً، والأنفس حماساً وشجاعة كما حدث في معركة كدية الحلفاء، وخاصة في ثورة القرايش سنة 1906.

أمّا إذا جاء متناقضاً مع كلّ ذلك وضدّ الرّغبة العامّة، فإنّه كثيراً ما يتجاوز، ويفقد وزنه أمام «الشعور الوطني الفياض»، كما حدث في مقاومة قبائل الوسط والشمال والوسط الغربيين سنة 1881، وكذلك أثناء حوادث الزلاّج ومقاطعة الترامواي.

* ان مواقف بعض الطرق الصّوفية من العديد من القضايا — التي أثّرتها في هذا البحث — كثيرا ما تعبّر عن مواقف مشائخها أكثر ممّا تعبّر عن وجهة نظر أتباعهم الذين غالبا ما تكون مواقفهم منسجمة مع الرّأي العام، ومناهضة لمواقف العديد من المشائخ المخالفين، وهو أمر يبرز أنّ نفوذ بعض الطّرق الذي راهنت السّلط الاستعمارية على توظيفه كثيرا ما كان غير مجدي.

الملاحق



محمد الشريف بن الشيخ المنوي التيجاني
شيخ زاوية التيجانية ببوعرادة

مخزونة الوثائق التونسية، م. د. صند. 156، مل. 21.

ملحق رقم 2



Tunis, M.T.E.; 1967, p 40 et 91; de même

GANIAGE, op.cit, pp 147-155.

ملحق رقم 3

كشف في ممتلكات محمد الكبير - شيخ القادرية بنفطة -

وفي ديونه ودائنيه

[illegible]

مخزينة الوثائق التونسية ؛ س. د، صند ؛ 102، مل. 4.

ملحق رقم 4

جدول محوصل لمختلف الموارد السنوية للطرق الصوفية في البلاد التونسية سنة 1925

TABLEAU RECAPITULATIF

des

RESSOURCES DES CONFRÈRES RELIGIEUX MUSULMANS DE TUNISIE

- 1-1-1-1-1-1-1-1-1-1-

(Les renseignements officiels fournis en 1925 par les
Contrôles Civils et les Bureaux Militaires des Affaires Indigènes)

NB. Ces renseignements sont incomplets; les données exactes pour certains Sfax font défaut
Sans d'autres régions des données précises n'ont pu être données que sous réserve.

Ce tableau ne peut donc être considéré comme consulté que pour information relative

- 2-2-2-

Colonne 1	Colonne 2	Colonne 3	Colonne 4	Colonne 5	Colonne 6
Désignation des confréries	Biens immobiliers de quelques cheikhs (les plus importants) de la confrérie	Montant annuel des aumônes reçues annuellement (selon les déclarations des confrères)	Total des revenus annuels (selon les déclarations des confrères)	Biens immobiliers de quelques cheikhs (les plus importants) de la confrérie	Montant annuel des aumônes reçues annuellement (selon les déclarations des confrères)
	estimation en francs	estimation en francs	estimation en francs	estimation en francs	estimation en francs
KADRIA	2.000.000.-	44.000.-	120.000.-	164.000.-	2.000.000.-
RAHMANIA	2.875.000.-	92.000.-	97.000.-	190.000.-	2.550.000.-
AYSSAOUIA	840.000.-	16.500.-	86.310.-	72.110.-	1.200.000.-
TIDJANIA	1.191.500.-	21.830.-	24.000.-	47.830.-	1.700.000.-
SOULAMIA	566.400.-	39.628.-	62.445.-	108.071.-
BOU ALIA	380.000.-	7.600.-	24.570.-	32.170.-
MAJRIA	907.000.-	50.450.-	11.835.-	68.305.-
MEY AYED	1.300.000.-	28.000.-	10.000.-	38.000.-
ALAGUIA	20.000.-	20.000.-
AMANIA	70.000.-	2.400.-	6.370.-	12.370.-
CHADLIA	455.000.-	9.100.-	31.270.-	40.370.-
AZZOUZIA	1.000.000.-	50.000.-	6.100.-	56.100.-
TEBAISA	100.000.-	2.000.-	4.830.-	6.830.-
TAIBIA	120.000.-	2.400.-	4.560.-	6.960.-
MADANIA	5.000.-	5.000.-
MASJINIA	13.000.-	260.-	2.710.-	2.970.-
MEJANIA	2.840.-	3.840.-
SEMOUSSIA
MAJMAQUIA
Totaux	12.807.900.-	368.466.-	493.740.-	562.206.-	2.052.000.-

Valeurs approximatives des biens immobiliers des Grands : 12.807.900.- francs

Revenus annuels de ces biens : 368.466.- francs
Montant annuel des aumônes et c. : 493.740.- d'

Sait au total Ressources annuelles : 864.206.- francs

Fortunes des cheikhs les plus importants : 8.982.000.- d'
Revenus annuels de ces biens : 189.060.- d'

خزينة الوثائق التونسية ، س د ، ص د ، 93 ، مل . 3

ملحق رقم 5
حوالة بريدية بمبلغ 800 فرنك موجهة
من روا الى سيدي قُدور

حوالة بريدية بمبلغ 800 فرنك موجهة من روا الى سيدي قُدور
التي كانت موجهة من قبل الى سيدي قُدور
تحت رقم 17 في ربيع الاول و 23 في جويلية 1917
التي كانت موجهة من قبل الى سيدي قُدور
تحت رقم 17 في ربيع الاول و 23 في جويلية 1917

171
وبعد بلانه بنوا على ما كان عليه من الاعتبار لزاوية وروا فيك انهم بالكلية
اصروا ما نرى في جويلية 1917 اعلانا للزاوية متصل جباية في صحة مسرا
لاستخلاص قسطنطين امدوا ما يتعلق بطلب ارجاءه ورايك من التخرج بغير
وفع الا انبساط في ذلك في مسرا العلاج ونؤمن من جباية ان لا تعلموا جبرا
الاجابة احراحي ان انه الامور الخاصة بكم التي تتجسم كمالا نؤمن
البرلاء لنا نجني كمالا مسرا المحمود من شيك الحضانة ودمع بحجف امد وروايتهم
حررنا معكم في ربيع

رسالة الأزهاري بن مصطفى بن عزوز - شيخ الرحمانية -
الى الوزير الأكبر، يعدّد له فيها الخدمات التي قدّمها
الى الاستعمار الفرنسي

سيرة الورى أ طيب بظلمكم في منى الرحمة ففتح ففتح
الطريقه الرحمانية التي أسسها والبر وحسن الطريقه
فقد في دعوى وأتد باله بذلك المودعة ولطوف
الجزاء في وأد الآن في الس في شئ أحد في
الزمان

والثالث
والسابع انظر الى سيرة الوزير في الجهاد النسي
فمت هذا نحو الحكومة عما في السيرة الموجودة
في عاقلتي السيرة واحدة مما لا راي في
ان يداد يوما بيوم او والدي هو الذي انفس
الفقر من انصاف الجماعة العراة وبه ماله ماله
بالتي هي على سيرة في احم السيرة من السيرة
علا الاطاعة في وجه ما في اكر العهد
ووقع نكاحي كما امر من سيرة من طرف الوزير
سيرة من سيرة من سيرة من سيرة من سيرة
المعوم سيرة من سيرة من سيرة من سيرة
يسوع في الان بركة او امر التي من سيرة من سيرة
بقوله التي كلب العراة في الذي في سيرة من سيرة

من سكنة جبل خضين
 وقسم الخراج بينه وبين
 وكلفني من كرب النواير العام
 الاثني عشر وعطى عي وشي
 بعد الحاجة من الخيل ونحو
 الاثني عشر الى الجند وقد
 بنجتم داه وبوظ احسانكم
 الشرف والرضا وقد تم
 احصاء انكم المايه لتحصل
 والبر مفضل بنجتم
 الخ والسلام من
 الشيخ الانوار

ملحق رقم 8

دور شيخ زاوية بوعرادة — التيجانية —

أثناء الحرب العالمية الأولى

(Handwritten signature)

[illegible]

جنات المحتسب السمر المرافى العربي : ففتح له وامن التولاني بالعلم الجبري : ان شاء الله
 يكره عليه صعب : ويعود على التذلل بالحق الجبري : وهذا في شيخ الله بعد التباينة : ففتح
 في التذلل في هذا الجاهل والمحمدين : وكلما في هذا الجاهل من العلم الجبري : ان
 شكرا الله يعود على التذلل صغير والحق الجبري : والبرق الشري : الذي لم يعلج من من يش
 والنقص ان مظالمه ينش ويعد عنهما كل حال سر وسيسر : ويحكم به البرق والسرور : ويعد
 عليه كل حال في سرور : وما كان من التعب : وهو جمع عرو : فسرور : ولا يفتح فيه جلي : والجبر
 شيئا سرورا : التذلل لرئيس الجبر : كما تفتح من التذلل في البري : الجبر : والوان : ففتح
 به كل مكان : وزياره الذي يافتن : والبرق والرعد ليرتد بالهوان : ويبرح هذا العلم
 الجبري يطلب ليرتد الهوان : ان يراه في العلم : والجبر : في العلم : في العلم : في العلم :
 يمد عليه : بالسرور والسرور : وانزل في مكان : ويرتد على كل حال : ويمنع من البرق :
 ما يقبل في سرور : في العلم : حتى يفتح في ذكر من ليرتد : وليرتد : وان شاء الله
 ليعلم يعود على التذلل بالحق الجبري : والتذلل : وان شاء الله : الله دخل
 عليه بالحق : والبرق والسرور : ويحكم به البرق والسرور : التذلل ليرتد : الله الجبري :
 الجبري : رتب احوال البرق : في العلم : ويحكم به البرق : التذلل ليرتد : الله الجبري :
 الا بالسرور : في العلم : في العلم : في العلم : في العلم : في العلم : في العلم :
 والسرور : في العلم : في العلم : في العلم : في العلم : في العلم : في العلم :
 فالحكم منه من العلم : في العلم : في العلم : في العلم : في العلم : في العلم : في العلم :
 في العلم : في العلم : في العلم : في العلم : في العلم : في العلم : في العلم :

الذبح املك نعم الانسان وما ابتغوا : وكنست شتمهم وما جعلا : وانكحح داهمهم ورايها :
 كبرهم راضعوا : واملكت رايمهم بما ابتكرنا : واهجلا ما بهم : الخ فنه الجوسا ونيه : وعساكرهم راجا املكه النود
 الرسميه : واولادهم راضعوا : واملكت رايمهم بما ابتكرنا : واهجلا ما بهم : الخ فنه الجوسا ونيه : وعساكرهم راجا املكه النود

م. الشيخ المنصور
 النجاشي
 راوي بو عداد
 بن عبد الله

ملحق رقم 10
موقف أتباع الطريقة التيجانية بسوق الخميس
من نشاط الوطنيين واجراءات 1934/10/10

TIF. 13

Declarations

Les adeptes de la Confrérie des Tidjanis de la région de Souk-El-Kharic, réunis ce jour à l'hennichir Sidi Romani au domicile du doyen des Mokadems Si El Hadj Ali ben Mohamed ben Salem, sous la présidence de leur chef le Chaik Sidi Jnerif Tidjani de la Zaouya de Souk-El-Kharic, d'un commun accord reprochent les agissements des Négo-cestouriens et de tous les agents de désordre.

Ils approuvent toutes les mesures prises par le Gouvernement en vue de faire cesser les troubles et de permettre aux éléments sains de la population de travailler en sécurité sous la protection tutélaire de la France.

Ils affirment leur loyalisme intégral et leur confiance résolue envers votre personne et envers la France protectrice. Le Doyen Hadj Ali ben Mohamed, le Mokadem Salah ben Hadj Ali

Les Mokadems:

Macmoud ben Larbi	Ali ben Rordane
Ali ben Abdellah	El Abidi ben Attir
Salah ben Mosbad	El Abidi ben Bouraal
Ezzine essmann	Abmad oen Kallal
Ali oen Ahmad	Abdellah ben Mary
Ahmad ben Umar	Kris ben salem
Amor ben Mhamed	Khémis ben Hadj Salah
Abdellah ben Ali essalah	Younès ben Smail
Mohamed ben Youssef	Taib ben Ali ben Mamef
Hamadi ben Larbi	Boudjema ben Iaid
Abid ben Mhamed	Mohamed Salah ben Bacha
Abdellah ben el ameri	Kafsi ben Hadj Mhamed
Enoussi ben Mohamed	Mohamed Salah ben Chabane
Messine ben Boukris	Hassine ben Messoud
Mohamed ben ouss	Bechir ben Mohamed
Slimane ben Hattab	Jaifar ben Hamouda
Mohamed Boughonala	El Abidi oen Hadj Salah
Yousaif ben Larbi	Ali ben Amor essougni
Amor ben Bacha	Amad oen Abdellah el Mourani
Bechir ejemala	Amor oen Ali ben Souair
El Adel ben Abdellah	Salik ben Mosowh erakrouki
Abdellah ben Abdellah	Ottomane ben Amor oen Mnsour
Salah ben Kader Bouzga	Amad oen Rami salfi
Djedici ben Youssef	Ali oen Abdellah Mnsouci
Amor oen Youssef	

خزينة الوثائق التونسية ، س. د. ، صندوق 156 ، مل 21.

موقف أتباع الطريقة التيجانية بسوق الاربعاء
من فضالات الوطنيين

289

ملحق رقم 11 (تابع)

[illegible]

خزينة الوثائق التونسية ، س. د، صند. ، 156، مل 21

ملحق رقم 12

موقف أتباع الطريقة التيجانية بمشار وقصر مزوار - باجة -

من نشاط الوطنيين واجراءات 1934/10/10

cléger 217712.

Ksar Mezouar 47 Noumber 113,

A Monsieur le Contrôleur Civil de Béja
avec prière de le en valoir et Transmettre à son
Excellence Monsieur Marcel Pagnoton, Résident
Général en Tunisie.

Les Fidèles de la Confrérie du Tidjama
de la Zaouia Sidi Salah Tidjani de la région
de Béja (Mouchan et Ksar Mezouar) réunis ce jour
sous la tutélaire et surveillante autorité de leur
Chef Viniri le Cheik Cherif Tidjani approuvent
Naturellement les mesures prises par le Gouvernement
pour rétablir l'ordre en Tunisie malgré les agissements
des Moudjahidines et autres agents de désordre.
Ils souhaitent vivement que ces mesures
soient maintenues avec toute l'énergie nécessaire
pour ramener la Confrance et la Sécurité dans ce
pays peacé sous l'égide de la France.

Ils représentent les Agressements de quelques
meneurs intérois qui abusant de la bonne foi d'une
population frangible et loyale pour la contaminer
et la détourner du droit chemin tout en prétendant
la servir.

Ils saisissent cette occasion pour vous
assurer à nouveau de leur confiance et de leur
respect envers votre personne représentant dignement
la France bien aimée.

W. H. H. H.
pour 40
in de p. H.
d'ordre et de
à St-Houfien
H. H. H.

Si 1. elled & H. - Chahar Ben Salah - Mohamed
Ben Haggam Bati - Mohamed & H. - H. H. H.
Bouat - H. H. H. - H. H. H. - H. H. H.
Je signe pour 25 pour indigènes de Ksar Mezouar
à Bouat pour 70 indigènes au total
à Bouat pour 25 indigènes au total
à Bouat pour 25 indigènes au total

خزينة الوثائق التونسية، م. د، صند. 156، مل. 21

المصادر والمراجع

وصف المصادر والمراجع

I - الوثائق:

1. خزانة الوثائق التونسية:

تمثل بالنسبة لبحثنا أهم مصدر غطت معطياته - تقريبا - كامل الفترة التي شملها البحث، وتوجد جلّ المعلومات تقريبا بالسلسلة - د - التي تشمل كل الطرق الصوفية بالايالة من حيث تنظيمها ومواردها، وخاصة مواقفها من بعض القضايا التي يدور حولها موضوع البحث.

وفي هذا الاطار يعتبر الصندوق 97 - من السلسلة المذكورة - بملفاته العشرة الأولى الى جانب الصندوق 156 من المواضيع التي وقّرت لنا عدّة معلومات هامة، علما وأنّ عملية المسح شملت كامل الصناديق من 97 الى 182. هذا بالإضافة الى بعض المعطيات الضئيلة نسبيا في السلسلة (E) وكذلك (G3).

2. خزانة وزارة الخارجية الفرنسية (الكي دورسي):

مكّنتنا الاطلاع على وثائق هذه الخزانة من إثراء البحث وتوضيح بعض المسائل، وخاصة سلسلة المراسلات السياسية (Correspondances politiques)، وسلسلة: تونس 1917-1940، الى جانب الصندوق 1218 من سلسلة «الاستعمار الفرنسي لتونس» والمتعلّقة بالطرق الصوفية من سنة 1888 الى 1911.

3. خزانة وزارة الحرب الفرنسية (قصر فانسان - باريس):

تحتوي سلسلة (H 2) على معلومات عديدة متعلّقة ببعض الأحداث التي جدّت بالايالة، وتتعلّق - تلك التي لها علاقة بهذا البحث - أساساً بثورة تالة سنة 1906 خاصة.

4. المركز القومي الجامعي للتوثيق العلمي والتقني (تونس):

مثّلت وثائقه - بالنسبة لنا - مصدراً أساسياً للعديد من المعلومات المتعلّقة بعدّة أحداث جدّت بالايالة والتي لم نطلع عليها في خزانة وزارة الخارجية الفرنسية.

هذا بالاضافة الى معلومات مهمة حول بعض الطرق الصوفية كالتيجانية وخاصة فيما يتعلق بمواقف بعض مشايخ زواياها بالبلاد التونسية من أحداث هامة كالحرب العالمية الأولى وتطور النضال الوطني في تونس.

5. مركز التوثيق القومي (تونس):

توجد عدة ملفات في «سلسلة الحركة الوطنية» Section Mouvement "National حول العديد من الأحداث كأحداث الزلاّج ومقاطعة الترامواي والتجنيس وغيرها من التي لها علاقة بهذا البحث. وقد مكّنتنا الاطلاع عليها من توضيح عدة جوانب من الأحداث المذكورة وبالتالي إثراء البحث.

II – كتب ودراسات مطبوعة:

1. المراجع العربية:

وقع الاعتماد على عدة كتب تتعلق أساسا بتاريخ التصوّف في الاسلام، وقد شكّلت أهم مصدر – بالنسبة لنا – في الإلمام بالتصوّف من حيث نشأته وتطوّره وكلّ ما يتعلق بالعنصر الأوّل من الفصل الأوّل من هذا البحث.

2. المراجع باللغة الأجنبية:

توجد عدة مراجع باللغة الفرنسية تتعلق بجلّ الطرق الصوفية من حيث تاريخها، وأهمّ مراحل تطوّرها، ومختلف مواقف العديد منها من الاستعمار الفرنسي بالجزائر، والتي تحتوي – أحيانا – على معلومات تتعلق – كذلك – بالطرق في تونس.

وفي طليعة هذه المراجع كتاب ديبون وكوبولاني حول «الطرق الدينية الاسلامية بالجزائر» "Les Confréries religieuses musulmanes en Algérie"، الى جانب كتب كل من رين Rinn، وسيمان Simian وغيرهما.

هذا بالاضافة الى العديد من الرسائل الجامعية المخطوطة، والأطروحات المطبوعة والمخطوطة أحيانا، والمتعلّقة بمحاوّد مختلفة من تاريخ البلاد التونسية الحديث والمعاصر.

3. المجالات والدوريات:

أمكننا الاطلاع على عدة مقالات في مجالات مختلفة وخاصة المسح الذي قمنا به للعديد من الجرائد بالعربية والفرنسية - في فترات مختلفة لها علاقة بأحداث شديدة الارتباط بموضوع البحث - من الحصول على معلومات كانت أفضل معين لنا على إثراء عدة جوانب من هذا البحث وخاصة في فصله الثالث.

وخلاصة القول أنّ مختلف هذه المصادر بما احتوت عليه من معلومات مكّمت لبعضها البعض مكّنتنا من إخراج هذا البحث في صيغة نأمل أن تكون شاملة ومتكاملة.

ثبت بالمصادر والمراجع

I - الوثائق :

1. خزانة الوثائق التونسية :

سلسلة د : D

اسم الطريقة	السلسلة	الصندوق	رقم الملف
القادرية	-	97	9, 8, 6, 4, 3, 2, 1
	-	100	5, 2
	-	101	6
	-	102	9, 4, 3, 2
	-	106	4, 2
	-	107	2
	-	108	2
	-	109	8
	-	111	11, 5
	-	112	9, 2
الرحمانية	-	116	5
	-	120	2
	-	121	2
	-	126	21, 17, 7, 5
الميساوية	-	127	1
	-	130	4
	-	134	1
	-	140	12, 5
السلامية	-	152	11
	-	153	7, 3
	-	155	7
سيدي بوعلي النفطي	-	156	31, 21, 1
التيجانية	-	163	5, 4, 3, 2, 1
الدركاوية	-	172	4, 3, 1
شخصيات دينية	-	178	5, 4
شخصيات دينية جزائرية	-	179	2
شخصيات دينية طرابلسية	-	179	2
متفرقات	-	182	3, 2

*** سلسلة E.**

SERIE	CARTON	TITRE	DOSSIER
E	507	Missions explorations	2,6
E	509	Associations	180
E	534	Rapports sur la Tunisie	1,2
E	550/30	Panislamisme	1
E	565	Affaire du Djellaz	1
E	580	Questions Générales	4
E	550 - 30/15	Dossier d'El Mekki BEN AZOUZ	894
A	284	Naturalisation	3

*** سلسلة G.**

G3, Circulaires divers, d. 33

2. خزانة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية (الكي دورسي - باريس)

Archives du Ministère des Affaires Etrangères Françaises (A.M.A.E.F.):

SERIE	VOLUME	TITRE	DATE
Protectorat Tunisie 1 er versement.	1218	Ordres religieux Musulmans	1888 - 1911
Tunisie 1917 - 1940	66	Campagne de Télégrammes contre les réformes administratives	11/7/1922 30/9/1923
	316	Particuliers Indigènes	1/1927-12/ 1929

Correspondances Politiques C.P. :	57	Correspondances Télégraphiques entre le consulat général et l'Agent consulaire du Kef	24-25 et 26 avril 1881
	74	Dépêches Télégraphiques	1871-1896 Tunis - Mai - juin 1883
	75	Dépêches Télégraphiques	(1871 - 1896) Juil. - Août 1883
Nouvelle Serie (N.S.)	77	Tunisie Affaires du Sud Affaires Mores I	30/3-27/7/ 1896
	78	Tunisie Affaires du Sud Affaires Mores II	28/7/1896- 23/8/1898
	79	Tunisie Affaires du Sud Affaires Mores III	24/8/1893- 15/9/1902
	127	Cultes Musulmans; Sectes religieuses; Panislamisme	1886 - 1891
	128	Cultes Musulmans; Sectes religieuses; Panislamisme	8/1891-10/ 1897

3) خزانة وزارة الحرب الفرنسية (قصر فانسان - باريس)

Archives du Ministère de la Guerre; Château de Vincennes (A.M.G.):

Série: - 2 H 25 - 4.
- 2 H 29 - 2.
- 2 H 52 - 1.

4. المركز القومي الجامعي للتوثيق العلمي والتقني (تونس)

Centre National Universitaire de Documentation
Scientifique et Technique
(C.N.U.D.S.T.)

SERIE	VOLUME	TITRE	DATE
Tunisie 1917-1940	664	Le 30è Congrès Eucharistique International de Carthage	1/1930-11/ 1934'
	668	La Confrérie Tidjanya	12/1930-7/ 1938
	392	Confréries Religieuses	8/1930-10/ 1938
Tunisie 1885-1916	325	Historique des événements de l'Affaire Kasserine - Thala	4/1906-7/ 1906
Tunisie; Guerre 1914-1918	1651	Propagande Germanique; attitude des confréries face à la détérioration des relations Franco - Turcs.	8/1914 11/1914
Tunisie; Nouvelle Série	33	Affaire du Djellaz Affaire du Tramway	1882 - 1912

5. مركز التوثيق القومي (تونس)
Centre de Documentation Nationale (C.D.N.)

DOSSIER	REFERENCE
L'Affaire du Djellaz (7/11/1911)	B - 3-27
Le boycottage des Tramways (9/2/1912)	B - 1-37
Naturalisation en Tunisie	B - 3-37
Evénements 1911 (Novembre - Décembre 1911)	A - 1-42
Le 30è Congrès Eucharistique International de Carthage (7 au 11/5/1930)	A - 4-5
Dossier	A - 4-16

II - كتب ودراسات أولية مطبوعة :

1 المراجع العربية مرتبة حسب التسلسل الأبجدي لأسماء مؤلفيها :

- ابن أبي الضياف، أحمد، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تحقيق لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار، تونس، المطبعة الرسمية للبلاد التونسية، 8 ج، 1964.
- الشعراي، عبدالوهاب، الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، حققه وقدم له طه عبد الباقي سرور، القاهرة، المكتبة العلمية، ط. 1، 1962.
- الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، (لا ط.)، دار إحياء الكتب العربية، 4 ج، (لات.).
- القشيري، أبو القاسم عبدالكريم هوازن، الرسالة القشيرية في علم التصوف، القاهرة، مطبعة محمد علي صبح، 1972.
- المرزوقي، محمد، صراع مع الحماية، تونس، دار الكتب الشرقية، 1973.

- المرزوقي، محمد، دماء على الحدود، تونس - ليبيا - الدار العربية للكتاب، 1975.
- المرزوقي، محمد والجيلاني بن الحاج يحيى، معركة الزلّاج 1911، تونس، مكتبة المنار، ط. 1، 1961.
- مخلوف، محمد بن محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، القاهرة، المطبعة السلفية، 1929.
- محمود، عبدالحليم، المدرسة الشاذلية الحديثة وإمامها أبو الحسن الشاذلي، القاهرة، دار النصر للطباعة، (لات.).
- النّيال، محمد البهلي، الحقيقة التاريخية للتصوّف الاسلامي، تونس، النجاح، 1965.

2. المراجع الأجنبية مرتبة حسب التسلسل الأبجدي لأسماء مؤلفيها:

- AYADI (T.), *Mouvement réformiste et mouvements populaires à Tunis (1906-1912)*, Tunis, Imp. Officielle de la République Tunisienne, 1986.
- DEPONT (O.), et COPPOLANI (SC.), *Les Confréries religieuses Musulmanes en Algérie*, Alger, Adolphe Jourdan, 1897.
- GOLDSTEIN (D.), *Libération ou annexion: aux chemins croisés de l'histoire Tunisienne, 1914 - 1922*, Tunisie: Maison Tunisienne de l'Edition (M.T.E.), 1978.
- GREEN (AH.), *the Tunisian Ulama 1873-1915, Social structure and response to ideological currents*, E.J. Brill, 1978.
- KASSAB (A.), *Histoire de la Tunisie, l'époque Contemporaine*, Tunis, S.T.D., 1976.
- MAHJOUBI (A.), *Les Origines du Mouvement National en Tunisie, 1904-1934*, Tunis: Publications de la Faculté des Lettres, 1982.
- MAHJOUBI (A.), *l'Etablissement du protectorat Français en Tunisie*, Tunis: Publications de l'Université de Tunis, 1977.
- MARTEL (A.), *Les Confins saharo-Tripolitains de la Tunisie (1881-1911)*, Paris, P.U.F., 2t., 1965
- MERAD (A.), *Le reformisme Musulman en Algérie, 1925-1940, Essai d'histoire religieuse et sociale*, France, Mouton, 1967.
- MHALLA (M. El Moncef), *La Crise de 1929 en Tunisie*, Memoire de maîtrise d'histoire (dactylographié), Université Paris VII, 1974-1975.

- MONCHICOURT (CH.), *La région du Haut-tell en Tunisie, (le Kef, Tebour Souk, Maktar, Thala), essai de monographie géographique*, Paris, Librairie Armand Colin, 1913.
- PONCET (J.), *La Colonisation et l'Agriculture Européennes en Tunisie depuis 1881*, Paris, l'Imp. Herissey, 1961.
- RINN (L.), *Marabouts et Khouans, étude sur l'Islam en Algérie*, Alger, Imp. Adolphe Jourdan. 1899.
- SAMMUT (C.), *l'Impérialisme capitaliste français et le nationalisme tunisien (1881 - 1914)*, Belgique, Les Presses de GEDIT à Tournai, 1983.
- SIMIAN (M.), *Les Confréries Islamiques en Algérie (Rahmanya - Tidjanya)*, Alger, Adolphe Jourdan; 1910.
- TIMOUMI (H.), *Paysannerie Tribale et Capitalisme Colonial, (l'exemple du Centre - Ouest Tunisien, 1881 - 1930)*, Thèse pour le Doctorat de 3ème cycle (dactylographiée), Université de Nice, 1974 - 1975.
- ZACCONE (P.), *Note sur la Régence de Tunis*, Paris, Librairie pour l'Art militaire, Les Sciences et les Arts, 1875.

III — كتب ودراسات ثانوية :

1. الكتب العربية مرتبة حسب التسلسل الأبجدي لأسماء مؤلفيها :

- ابن عاشور، الفاضل، تراجم الاعلام، تونس، الدار التونسية للنشر، 1970.
- ابن التوري، محمد الطيب، الوضع الاقتصادي والاجتماعي في توزر خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، 1856 - 1880، شهادة الكفاءة في البحث، مخطوطة، تونس، كلية الآداب والعلوم الانسانية، سبتمبر 1977.
- جلاب، الهادي، المجلس الكبير للبلاد التونسية، القسم التونسي، 1922 - 1954، شهادة الكفاءة في البحث، مخطوطة، تونس، كلية الآداب والعلوم الانسانية، 1984.
- الجنحاني، الحبيب، محمد باش حانية، تونس، الدار التونسية للنشر 1968.
- الحداد، الطاهر، العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية، تونس، مطبعة العرب، 1927.

- الرياحي، عمر بن علي، تعطير النواحي بترجمة سيدي ابراهيم الرياحي، تونس، مطبعة بكار، 1904.
- السنوسي، محمد، مسامرات الظريف بحسن التعريف، تاريخ فقهاء الدولة الحسينية بتونس المحمية، تونس، (لات.).
- السنوسي، محمد الطاهر، مجلة الاجراءات الجزائية، تونس، المطبعة الرسمية، ط. 1، 1969.
- الشّابي، علي، العارف بالله أحمد بن مخلوف الشّابي وفلسفته الصّوفية، تونس، الدّار التّونسية للنّشر، 1979.
- العجيلي، التليلي، الوهاية والبلاد التّونسية زمن حموده باشا، شهادة الكفاءة في البحث، مخطوطة، تونس، كلية الآداب والعلوم الانسانية، 1983.
- العربي، البشير، الدّور الاجتماعي لمثقفي المجتمع التّونسي في فترة الاحتلال الفرنسي حتى 1956، شهادة الكفاءة في البحث، مخطوطة، تونس، كلية الآداب والعلوم الانسانية، 1984.
- الغزّي محمد الهادي، الأدب التّونسي في العهد الحسيني. 1705-1881، تونس، الدار التّونسية للنّشر، 1972.
- كرو أبو القاسم محمد، اعلامنا، محمد الخضر حسين، تونس، مطبعة الاتحاد العام التّونسي للشّغل، 1973.
- كسراوي، الأزهر بن أحمد بدر الدّين، الطرق الصّوفية بصفاقس، مواردها الاقتصادية ومعالمها الأثرية خلال القرنين الثّاني عشر هجري — الثّامن والتاسع عشر ميلادي، شهادة التعمّق في البحث، مخطوطة، تونس، كلية الآداب والعلوم الانسانية 2ج. 1984.
- الكزدغلي، رضا، أحداث التّجنيس من خلال الصحافة في تونس سنتي 1923 و1933، تحليل محتوى الصحف: «الأمة»، «النهضة»، «تونس الفرنسية»، «تونس الاشتراكية»، «العمل التّونسي»، رسالة ختم

الدروس الجامعية، مخطوطة، تونس، معهد الصحافة وعلوم الأخبار،
1979 - 1980.

— كينيتز، ارنستو، قناة السويس، القاهرة، دار القاهرة للطباعة، 1957
— لياس، محمود، إبراهيم الرياحي مفكراً وأديباً، شهادة الكفاءة في البحث،
مخطوطة، تونس، الجامعة التونسية، 1978.

— المدني، أحمد توفيق، حياة كفاح (مذكرات)، الجزء الأول في
تونس 1905-1925، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1976
— المراكشي، محمد صالح، تفكير محمد رشيد رضا من خلال مجلة
النار 1898/1935، دكتوراه دولة، تونس، الدار التونسية للنشر،
نوفمبر 1985.

— المرزوقي، فتحي، بعض المؤسسات الدينية ومكانتها الاقتصادية بتونس في
القرن الثامن عشر، شهادة الكفاءة في البحث، مخطوطة، تونس، كلية
الآداب والعلوم الانسانية، 1984.

— مراعده، محمد، محمد الخضر حسين، حياته وآثاره 1873 - 1958،
تونس، الدار التونسية للنشر، 1974

2. الكتب الفرنسية مرتبة حسب الترتيب الأبجدي للمؤلفين:

- ANDRE (F.P.J.), *Contribution à l'étude des Confréries Religieuses Musulmanes*, Alger, Maison des livres, 1956.
- BROSSELDARD (CH.), *Les Khouans et la Constitution des ordres religieux Musulmans en Algérie*, Alger, Imp. A. Bourget, 1859.
- DAUDET (E.), *Les Arabes et la guerre*, Paris, Imp. Artistique "Lux", 1915.
- DOUTTE (E.), *Notes sur l'Islam Maghrébin, les Marabouts*, Paris, 1900.
- DUVEYRIER (H.), *La Confrérie Musulmane de Sidi Mohamed Ali Es-senousi et son domaine géographique en l'année 1300 de l'Hégire, 1883 de notre ère*, Paris, Société de Géographie, Imp. Réunies, 1884.
- EL MENIF (M.S.), *l'Islam face au colonialisme en Tunisie, le problème des naturalisations*, Mémoire pour le Diplôme d'Etudes Supérieures de Sciences politiques (Dactylographié), Université de Paris I, Panthéon Sorbonne, février 1974.

- ESTOURNELLES (P.), *les Congrégations religieuses chez les Arabes et la conquête de l'Afrique du Nord*, Paris, Imp. Burdin, 1887.
- GANIAGE (J.), *les Origines du protectorat Français en Tunisie, (1861 - 1881)*, Paris, P.U.F., 1959.
- HANOTEAU (G.), *Histoire des Colonies Françaises et de l'expansion de la France dans le monde*, Paris, Imp. Paris - Vanves, t. 3, 1931.
- HERMASSI (A.), *Mouvement ouvrier en société coloniale: la Tunisie entre les deux guerres*, thèses de Doctorat de 3^e cycle (non publiée), Ecole Pratique des hautes Etudes, 6^e Section, Sciences économiques et sociales, Paris, 1966.
- KRAIEM (M.), *Nationalisme et syndicalisme en Tunisie, 1918 - 1929*, Tunis, Imp. de l'U.G.T.T., 1976.
- KRAIEM (M.), *La Tunisie Précoloniale*, Tunis, S.T.D. 21. , 1973.
- LAKHDAR (t.) *Essaie sur la Tunisie, Naturalisation Française et Nationalisme Tunisien*, Thèse de Sciences politiques, Paris, 1932.
- MAHJOUBI (A.) et KAROUI (H.), *Quand le soleil s'est levé à l'Ouest, TUNISIE 1881, Impérialisme et résistances*, Tunis, Cerés production, 1983.
- MIEGE (J.P.), *Expansion Européenne et décolonisation de 1870 à nos jours*, Paris, P.U.F, 1973.
- SANHOURY, *Le Califat: son évolution vers une société des Nations Orientales*, Paris, Geuthner, 1926.
- SLAMA (B.), *l'Insurrection de 1864 en Tunisie*, Tunis, M.T.E , 1967.
- STODDART (L), *Le nouveau monde de l'Islam*, traduit de l'anglais, Paris, Payot, 1923.
- ZMERLI (S.), *Figures Tunisiennes, Les Successeurs*, Tunis, M.T.E, 1967.
- ZOUARI (A.), *Les relations Commerciales entre Sfax et le Levant aux XXIII^e et XIX^e siècles*, Thèse de Doctorat de 3^e cycle (Dactylographiée), Université de Provence, 1977.

المجلات والدوريات :

1. المجلات والدوريات العربية مرتبة حسب الترتيب الأبجدي لأسماء أصحاب المقالات الواردة فيها، وعند افتقاد الاسم يقع الترتيب حسب أسماء الدوريات نفسها آخذين بالاعتبار في نفس الوقت تاريخ صدورها.

- الامام، هيفاء، «مقارنة بين مؤسسي الطرق الصوفية التالية: التيجانية، السنوسية، والمهدية»، المجلة التاريخية المغربية، تونس، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل، عدد 4، (جويلية 1975)، ص 122 – 123.
- ابن ابراهيم، محمد الهاشمي، «نداء السيد محمد الهاشمي بن ابراهيم — شيخ الطريقة القادرية في زاويتي توغرت وعميش — الى كافة اخوان طريقته»، مجلة العالم الاسلامي (*Revue du Monde Musulman*) باريس، ارنيست لرو، 1، م. 29، ديسمبر 1914، ص 240 – 242.
- ابن الحقيقة، «مقاطعة المراكب الكهربائية وسببها»، مجلة المنار، مصر، مطبعة المنار، ج 5، م. 15، عدد 17 ماي 1912، ص 389 – 391.
- ابن سيدي محمد البشير، محمود، «وصية السيد محمود بن سيدي البشير بن القطب الأكبر سيدي أحمد التيجاني لأحباب الطريقة التيجانية أينما كانوا»، مجلة العالم الاسلامي، (R.M.M.)، ج 1، م. 29، ديسمبر 1914، ص 202 – 204.
- ابن شعبان، محمد، محمد البشير الشّريف، «شواهد الاخلاص»، الزهرة، تونس، المطبعة التونسية، السنة 26، عدد 20399، ليوم 1914/11/17، ص 2.
- ابن شعبان، مصطفى، «المجاعة والبطالة»، جريدة لسان الشعب، تونس، المطبعة التونسية، السنة 14، عدد 559، ليوم 1934/3/7، ص 2.
- ابن الشيخ، عمر، «رسائل الاخلاص»، الزهرة، السنة 27، عدد 2053، ليوم 1914/12/1، ص 2.
- ابن عبدالملك، حسونة، «رسائل الاخلاص»، الزهرة، السنة 27، عدد 2054، ليوم 1914/12/2، ص 2.
- ابن عزّوز، عبدالحميد، «رسائل الاخلاص»، الزهرة، السنة 27، عدد 2056، ليوم 1914/12/4، ص 2.
- ابن علي بن عيسى، حمده، «رسائل الاخلاص»، الزهرة، السنة 27، عدد 2049 ليوم 1914/11/27، ص 2.

- ابن عيسى، الطيّب، «البدع والاسراف»، جريدة الوزير، تونس، المطبعة الأهلية، السنة الثانية، عدد 85، ليوم 1922/1/23، ص 1.
- ابن الغريبة، حسن بن صالح، «ترجمة المقدّس المبرور سيدي ادريس الشّريف مفتي بنزرت»، الزّهرة، السنة 47، عدد 8236، ليوم 1934/10/26 ص 3.
- أبوبكر، سعيد، «البدع والاسراف» الوزير، عدد 83، ليوم 1922/1/9، ص 3.
- بلحسن، محمد، «شواهد الاخلاص»، الزّهرة، السنة 27، عدد 2047، ليوم 1914/11/25، ص 2.
- حسن حسني، عبدالوهاب، «الطبّ العربي في افريقية»، مجلة الفكر، تونس، الشركة التونسية لفنون الرسم، السّنة 3، عدد 1، (جويلية 1958)، ص 7-16.
- ح. ص.، «توزر ومسألة التّجنيس»، لسان الشعب، عدد 522، ليوم 1933/4/19، ص 3.
- الخنفي، البشير، «مسألة التّجنيس والمشاكل النّاجمة عنها»، لسان الشعب، عدد 540، ليوم 1933/9/6، ص 1.
- السّهيلي، يوسف بوحجر، «رسائل الاخلاص»، الزّهرة، السنة 27، عدد 2049، ليوم 1914/11/27، ص 2.
- سيدي عمران، «شكوى وانتقاد»، جريدة المتّظر، تونس، مطبعة العمالة، السنة الثّالثة، عدد 21، ليوم 1893/8/20، ص 3.
- ش.، «مآل متجنّس»، لسان الشعب، السنة 13، عدد 513، ليوم 1933/1/11، ص 3.
- الشّابي، علي «مصادر جديدة لدراسة تاريخ الشّايية»، المجلة التاريخية المغربية، عدد 13-14، (جانفي 1979) ص 55-81.
- الشّريف، محمد العربي، بلقاسم الشريف، «رسائل الاخلاص»، الزّهرة، السنة 27، عدد 2043، ليوم 1914/11/21، ص 2.

- الشَّريف، محمد العربي، بـلقاسـم الشـريف، «رسائل الاخلاص»، الزهرة، السنة 27، عدد 2049، ليوم 1914/11/27، ص 2.
- الشنّوفي، محمد المنصف، «مصادر عن رحلتي الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده الى تونس»، حوليات الجامعة التونسية، تونس، المطبعة الرسمية للبلاد التونسية، عدد 3، 1966، ص 71-102.
- الشنّوفي، محمد المنصف «علائق رشيد رضا صاحب مجلة المنار مع التونسيين - (1898-1935)»، حوليات الجامعة التونسية، عدد 4، 1967، ص 12-151.
- شيخ الطريقة التيجانية، «نداء شيخ الطريقة التيجانية لأحباب طريقته في العالم الاسلامي»، مجلة العالم الاسلامي (R.M.M)، ج 1، م. 29، ديسمبر 1914، ص 190.
- الصّغير، محمد، «نداء السيد محمد الصّغير بن الشّيح المختار شيخ الطريقة الرّحمانية في زاوية أولاد جلال»، مجلة العالم الاسلامي (R.M.M) ج 1، م. 29، ديسمبر 1914، ص 204.
- العامري، محمد الهادي، «مظاهرة القيروان»، لسان الشعب، عدد 523، ليوم 1933/4/26، ص 2.
- العمراني، محمد الصّالح، «رسائل الاخلاص»، الزهرة، السنة 27، عدد 2049، ليوم 1914/11/27، ص 2.
- الففصي، صالح كرّو «الدين والبدع»، الوزير، عدد 89، ليوم 1922/2/20، ص 2.
- فلاتي، حسن، «حول الاصلاحات التونسية»، جريدة البرهان، تونس، المطبعة التونسية، السنة الأولى، عدد 39، ليوم 1922/8/1، ص 1.
- الفيزوني، محمد، «رسائل الاخلاص»، الزهرة، السنة 27، عدد 2049، ليوم 1914/11/27، ص 2.

- الكافي ، عبدالرحمان ، «ملزومة» ، التّديم ، تونس ، المطبعة التونسية ، عدد 77 - ليوم 1922/9/3 ، ص 4 .
- الكافي ، عبدالرحمان ، «ملزومة الزّردة» ، التّديم ، عدد 79 ، ليوم 1922/9/16 ، ص 4 .
- اللّوز ، محمد بن الحاج ، «رسائل الاخلاص» ، الزّهرة ، السّنة 27 ، عذد 2049 ، ليوم 1914/11/27 ، ص 2 .
- المحجوبي ، علي ، «مقاومة السّكان التّونسيين للاحتلال الفرنسي» ، المجلة التّاريخية المغربية ، السّنة 11 ، عدد 34/33 ، (جوان 1984) ص 111-124 .
- مراسل ، «اعترافات خطيرة» ، صاحب السّجّادة الكبرى يلقي بين يديّ فرنسا خطبة الاخلاص» ، مجلّة الفتح ، القاهرة ، المطبعة السّلفية ، عدد 257 ، 1930 ، ص 1-3 ، و 14-15 .
- المراسل المتجوّل ، «المتجنّسون وجوامع المسلمين» ، لسان الشعب ، السّنة 14 ، عدد 539 ، ليوم 1933/8/23 ، ص 3 .
- مكاتب «التّظاهر ضدّ التّجنيس بالمكّنين» ، لسان الشعب ، عدد 525 ، ليوم 1933/5/10 ، ص 3 .
- المكاتب المتجوّل ، «شيخ طريقة يتكلّم» ، لسان الشعب ، عدد 541 ، ليوم 1933/9/13 ، ص 3 .
- الميساوي ، عبدالجليل ، «زوايا الوسط الغربي ودورها الاجتماعي» ، مجلّة الحياة الثقافية ، تونس ، وزارة الشؤون الثقافية والأخبار ، السّنة 7 ، عدد 21 ، (ماي - جوان 1982) ، ص 55 - 69 .
- ميسوم ، عبدالرحمان ، «وصية السيّد ميسوم عبدالرحمان ابن الشيخ الميسوم شيخ الطريقة الشاذلية في زاوية قصر البخاري» ، مجلّة العالم الاسلامي (R.M.M.) ، ج 1 ، م . 29 ، ديسمبر 1914 ، ص 246 - 248 .

- نعمان، محمد، «الصندوق العقاري»، الزهرة، السنة 46، عدد 7960،
ليوم 1933/11/28، ص 1.
- نعمان، محمد، «تأسيس الصندوق العقاري»، الزهرة، السنة 46،
عدد 7964، ليوم 1933/12/3، ص 1.
- الهاني، عبد القادر، «الدور الاجتماعي والثقافي للزوايا بجهة
سليانة»، مجلة الحياة الثقافية، السنة 8، العدد 26 — 27 — (مارس
أفريل — ماي جوان 1983)، ص 115 — 119.
- الهامي، الطاهر، «العاصمة تقاطع شركة الترامواي»، مجلة حقائق،
تونس، شركة سنيب، عدد 57، ليوم 1985/2/15، ص 16 — 17.
- «إعلان حالة الحصار بالملكة التونسية»، الزهرة، السنة 26، عدد 1940،
ليوم 1914/8/5، ص 2.
- «نسخة أمر علي»، الزهرة، السنة 26، عدد 2021، ليوم 1914/10/27،
ص 2.
- «خطاب ملوكي لعامة الرعايا التونسيين»، الزهرة، السنة 27، عدد 2033،
ليوم 1914/11/11، ص 1.
- «نشاط الكنيسة الكاثوليكية»، الزهرة، السنة 42، عدد 6863،
ليوم 1930/4/25، ص 1.
- «تنويه الصحافة الأجنبية بتسامح الاسلام»، الزهرة، السنة 42، عدد 6871،
ليوم 1930/5/5، ص 1.
- «الفلاحة التونسية في خطر، نداء حار من السيناتور برانجي»، الزهرة،
السنة 45، عدد 7657، ليوم 1932/12/1، ص 1.
- «مظاهرة شعبية بحمام الأنف»، الزهرة، عدد 7772،
ليوم 1933/4/19، ص 3.
- «تأثير فتوى التجنيس بداخل المملكة»، الزهرة، عدد 7773،
ليوم 1933/4/20، ص 3.

- «مظاهرة أهل سوسة الواقعة صباح يوم الثلاثاء ضدّ التجنيس والفتوى الصادرة في شأنه»، الزهرة، عدد 7774، ليوم 1933/4/21، ص 2.
- «مظاهرة القيروان»، الزهرة، عدد 7777، ليوم 1933/4/25، ص 1.
- «الحكم في قضية المتظاهرين بالقيروان»، الزهرة، عدد 7781، ليوم 1933/4/30، ص 2.
- «مظاهرة الفلاحين التونسيين»، الزهرة، السنة 46، عدد 7842، ليوم 1933/7/12، ص 2.
- «الأزمة الاقتصادية»، الزهرة، عدد 7962، ليوم 1933/11/30، ص 1.
- «جمعية الاغاثة التونسية»، الزهرة، السنة 46، عدد 8031، ليوم 1934/2/22، ص 2.
- «زيارة جناب العميد لمحلّات الاسعاف الأهلية»، الزهرة، السنة 46، عدد 8036، ليوم 1934/2/28، ص 2.
- «زيارة جناب العميد للمطابخ الشعبية»، الزهرة، عدد 8037، ليوم 1934/2/29، ص 2.
- «رواية العباسية لفائدة جمعية الاغاثة التونسية»، الزهرة، السنة 46، عدد 8039، ليوم 1934/3/4، ص 3.
- «جمعية الاغاثة التونسية»، الزهرة، السنة 46، عدد 8040، ليوم 1934/3/5، ص 2.
- «نداء شاعر القيروان الى الاكتاب الوطني لاعانة البائسين»، الزهرة، عدد 8042، ليوم 1934/3/7، ص 3.
- «قصيدة الشاعر جلال الدين النقّاش»، الزهرة، عدد 8048، ليوم 1934/3/14، ص 3.
- «حفلة خيرية نسائية لإغاثة الجائعين»، الزهرة، عدد 8055، ليوم 1934/3/22، ص 2.

- «جمعية البرّ العربي بصفافس»، الزّهرة، السنة 47، عدد 8130،
ليوم 1934/6/21، ص 3.
- «اشتراء الادارة للحبوب»، الزّهرة، السنة 47، عدد 8178،
ليوم 1934/8/20، ص 2.
- «حوادث دامية بالمكنين»، الزّهرة، السنة 47، عدد 8194،
ليوم 1934/9/7 ص 2.
- «حول حادثة المكنين»، الزّهرة، السنة 47، عدد 8195،
ليوم 1934/9/9، ص 2.
- «مكاتبات الجهات»، الزّهرة، السنة 47، عدد 8195،
ليوم 1934/9/9، ص 3.
- «رجوع الهدوء في داخل الايالة»، الزّهرة، عدد 8198،
ليوم 1934/9/12، ص 2.
- «بوادر الاصلاح الاقتصادي»، الزّهرة، السنة 47، عدد 8202
ليوم 1934/9/17، ص 1.
- «بلاغ»، الزّهرة، عدد 8206، ليوم 1934/9/21، ص 2.
- «ماذا كان تأثير البلاغ السّيفيري في الأوساط التونسية؟» الزّهرة،
عدد 8207، ليوم 1934/9/23، ص 1.
- «بعد صدور البلاغ السّيفيري»، الزّهرة، عدد 8208،
ليوم 1934/9/24، ص 3.
- «تنقّلات جناب العميد في المنطقة الخامسة»، الزّهرة، عدد 8210،
ليوم 1934/9/26، ص 2.
- «إلغاء أداء العشر»، الزّهرة، السنة 48، عدد 8573،
ليوم 1935/11/30، ص 2.
- «مقاومة آفة الرّيا تكتسي شكلا جديداً ناجحاً»، الزّهرة، عدد 8586،
ليوم 1935/12/13، ص 1.

- «الرحلة الأولى الرسمية لجناب العميد في الجنوب» الزهرة، عدد 8734، ليوم 1936/5/12، ص 2.
- «رحلة جناب العميد الى الجنوب التونسي»، الزهرة، عدد 8735، ليوم 1936/5/13، ص 2.
- «رحلة جناب العميد الى الجنوب التونسي»، الزهرة، عدد 8736، ليوم 1936/5/14، ص 2.
- «حول زيارة جناب العميد الى بلد جمال»، الزهرة، عدد 8795، ليوم 1936/7/13، ص 3.
- «أشغال إسعاف البطالين» الزهرة، السنة 49، عدد 8803، ليوم 1936/7/21، ص 2.
- «مظاهرة بتوزر ضدّ الأزمة الحاضرة»، الزهرة السنة 49، عدد 8839، ليوم 1933/8/25، ص 2.
- «مظاهرة البطالين في سوسة، وقوع بعض الحوادث»، الزهرة، السنة 49، عدد 8839، ليوم 1933/8/25، ص 3.
- «يوم الزعماء بصفاقس»، الزهرة، عدد 8866، ليوم 1936/9/21، ص 3.
- «مقاومة البطالة»، الزهرة، عدد 8986، ليوم 1937/7/21، ص 4.
- «في أوساط الجائعين، حوادث مؤلمة بقرب الملائسين بين الجائعين وأعوان الأمن»، الزهرة، السنة 49، عدد 9000، ليوم 1937/2/4، ص 4.
- «في أوساط الجائعين»، الزهرة، عدد 9001، ليوم 1937/2/5، ص 1 و 2.
- «مقاطعة الطليان»، الصّواب، السنة 2، عدد 297، ليوم 1911/10/20، ص 4.
- «الايطاليون بتونس»، الصّواب، عدد 298، ليوم 1911/10/27، ص 1.
- «السنوسي»، الصّواب، السنة 2، عدد 298، ليوم 1911/10/27، ص 3.

- «صدى الكاف»، الصّواب، السنة 17، عدد 361، ليوم 1921/7/29، ص 3.
- «اشتداد الكرب على الفلاحين من جراء تدهور الأسعار»، الصّواب، السنة 30، عدد 775، ليوم 1935/8/9، ص 2.
- «لجنة إغاثة البائسين»، الصّواب، السنة 31، عدد 807، ليوم 1937/1/22، ص 3.
- «لجنة إغاثة الجائعين والعراة»، الصّواب، عدد 808، ليوم 1937/2/12، ص 3.
- «لجنة إغاثة الجاياع والعراة»، الصّواب، عدد 810، ليوم 1937/3/26، ص 3.
- «جمعية مقاومة البدع والاسراف»، لسان الشعب، السنة ، عدد 44، ليوم 1921/12/27، ص 2.
- «حول مسألة البربر في المغرب الأقصى، هفوة يجب ان تتدارك»، لسان الشعب، السنة 11، عدد 407، ليوم 1930/9/17، ص 2.
- «حوادث كبرى بالمنستير»، لسان الشعب، عدد 537، ليوم 1933/8/9، ص 2.
- «بيان حقيقة»، لسان الشعب، عدد 543، ليوم 1933/9/27، ص 3.
- «مقاومة البدع والاسراف»، التّديم، عدد 44، ليوم 1921/12/21، ص 2.
- «اعتداء على الأرض»، التّديم، عدد 74، ليوم 1922/8/16، ص 2.
- «مقاومة البدع والاسراف»، الوزير، السّنة 2، عدد 85، ليوم 1922/1/23، ص 2.
- 2. المجلات والدّوريات الأجنبية مرّبة حسب التسلسل الأبجدي لأسماء أصحاب المقالات فيها، وعند افتقاد الاسم يقع الترتيب حسب أسماء الدّوريات نفسها مع الأخذ بالاعتبار لتاريخ صدورها.

- A.D., "Le rôle des Marabouts en Tunisie", *Le Courrier de Tunisie*; Tunisie, 8^e Année n° 2753, du 24/5/1912; p. 1.
- AYADI (T.), "La résistance Sfaxienne à l'occupation Coloniale en 1881", *Réactions à l'Occupation Française de la Tunisie en 1881, Actes du 1er Séminaire sur l'histoire du Mouvement National (29, 30 et 31 mai 1881)*, Sidi-Bou-Saïd, Tunisie, Imprimerie Officielle de la République Tunisienne pp. 161 - 194.
- BACH HAMBIA (A.), "Les responsabilités", *le Tunisien*, Tunisie, Imp. Rapide, du 16/11/1911, p 1. (au C.D.N. dossier A-1-42).
- BUAZIZ (Y.), "Dawr Tunis fi dam harakat attahrir ald jaza iryati wa mawkifaldjzairiyina min htalaliha ama 1881", *Réactions à l'occupation Française de la Tunisie en 1881*, Actes du 1er séminaire sur l'histoire du Mouvement National Tunisien, pp. 107 - 122.
- CHEBIL (M.), "Les grands Habous de Zaouias", *Bulletin Economique et social de la Tunisie*, n° 92 (Septembre 1954), pp. 36 - 42.
- CHERIF (M.H.), "Les réactions citadines à l'occupation Française de la Tunisie en 1881 et leurs limites", *Réactions à l'occupation Française de la Tunisie en 1881*, Actes du 1er séminaire du Mouvement National Tunisien, pp. 227 - 238.
- CHERIF (M.H.), "L'Organisation des masses populaires par le Néo-destour en 1937 et au début de 1938, Les journées d'avril 1938 à Tunis", *Mouvements Nationaux d'Indépendance et Classes Populaires aux XIX^e et XX^e siècles en Occident et en Orient*, Paris, Armand Colin, 1971, pp. 264 - 294.
- DEMEERSEMAN (A.), "Formulation de l'idée de patrie en Tunisie de 1837 à 1872; interprétation psychologique", *Revue de l'Institut des Belles Lettres Arabes (I.B.L.A)*, Tunisi, I.B.L.A, 29^e Année, n°= 114 - 115, 2^e/3^e Trimestre, 1966, pp. 109 - 142.
- EL KHLIL, "Le Maroc ne veut pas de l'évangélisation", *La voix du Tunisien*, Tunis, Imp. de Tunis, 1^{er} année, n°= 23 - 24, du 19/9/1930, p. 1 - 2.
- FALLOT (E.), "Roy Secrétaire Général du Gouvernement Tunisien", *L'Afrique Française*, 30^e Année, n°= 1 (Janvier 1920), p. 7.
- GREEN (A.H.), "French "Islamic policy" in Tunisia, 1881 - 1918, a preliminary inquiry", *Revue d'Histoire Maghrébine*, Tunis, Imp. de l'U.G.T.T., n° 3 (Janvier 1975), pp. 5 - 17.
- "L'Inspecteur des Services Administratifs au R.G., le 15/2/1937", *Revue WATHA'IQ*, Tunis, les Imprimeries Réunies, n° 4, 1985, pp. 25 - 69.
- JULIEN (CH.A.), "Colons Français et Jeunes Tunisiens, 1882 - 1912", Extrait de *la Revue Française d'Histoire d'Outre-Mer*, t. 4; (1967), du n° 194 au n° 197.

- KRAIEM (M.), "Le Parti - réformiste Tunisien, 1920 - 1926", *Revue d'Histoire Maghrébine*, n° 4, (Juillet 1975), pp. 150 - 162.
- KRAIEM (M.), "La question de l'annexion Italienne de la Libye", *Revue d'Histoire Maghrébine*, n° 6, (Juillet 1976), pp. 157 - 179.
- LAUZANN (S.), "Le Centenaire de l'Algérie et le Cinquantenaire de la Tunisie", *La Tunisie Française*, Imp. de la Tunisie Française, 44^e Année, n° 7882, du 3/1/1930, p. 1.
- LOUZON (R.), "De Mohamed Ali à Ferhat Hached, l'action ouvrière en Tunisie", *La Révolution Prolétarienne*, n° 72 (mai 1953), pp. 129 - 132.
- LOUZON (R.), "Les protégés des protecteurs", *l'Avenir Social*, Tunis, Imp. L. Rombi, 3^e Année, les n° 188 du 2/6/1921, p. 1 - 2, n° 191 du 12/6/1921, p. 1; n° 200 du 31/7/1921, p. 1.
- MAHJOUBI (A.), "Les réformes de 1922 et le Mouvement National Tunisien", *Revue Tunisienne des Sciences Sociales*, Tunis, Imp. de l'U.G.T.T., 13^e Année, n°= 45, (1976), pp. 99 - 139.
- MARTIN (B.G.), "Les tjanis et leurs adversaires, développement récents de l'Islam au Ghana et au Togo", *Les Ordres mystiques dans l'Islam, Cheminements et situation actuelle*, Belgique, l'Imp. Orientaliste Leuven, (Décembre 1985), p. 283.
- MONCHICOURT (CH.), "La Steppe Tunisienne chez les Fréchiches et les Majeurs, (regions de Fériana, Kasserine, Sbeitla, Djilma)", *Bulletin de la Direction de l'Agriculture et du Commerce*, Tunisie, Imp. Rapide Moderne, 10^e Année, n° 38, 1^{er} Trimestre, 1906, pp. 38 - 76.
- OULED MOHAMED (H.), "Notes à propos des enquêtes Coloniales sur la religion populaire en Tunisie de 1896 à 1934"; *Cahiers de la Méditerranée*, publiés par le Centre de la Méditerranée Moderne et Contemporaine, n° 20/21, (Juin - Décembre 1980), pp. 81 - 99.
- PELLEGRIN (A.), "une loi Française et un Dâhir Marocain", *Tunis Socialiste*, n° 2563, du 28/2/1930, p. 1.
- SFAR (B.), "Les Habous en Tunisie envisagés au point de vue de l'opinion publique indigène et de l'intérêt général", *compte-rendu des travaux du Congrès de l'Afrique du Nord*, Paris, t. 2, 1909, pp. 385 - 404.
T.F., "Le Centenaire de la Conquête d'Algérie", *la Tunisie Française*, n° 7913, du 3/2/1930, p. 1.
- TLILI (B.), "Les rapports Arabo-Turcs à la veille de la grande guerre (1907 - 1913)", *Les Cahiers de Tunisie*, Tunis, Les presses de la Société Tunisienne des Arts Graphiques, XXIII, n° 89 - 90, 1^{er} et 2^e trimestre, 1975, pp. 33 - 140.

- "L'Affaire de Kasserine-Thala devant le Tribunal de Sousse", *La dépêche Tunisienne*, Tunisie, Imp. Rapide de Louis Nicolas et Cie, 18è Année, n° 5937, du 22/11/1906, p. 3 - 4.
- "Une grave échauffurée à Tunis, manifestation qui tourne à l'emeute", *La Dépêche Tunisienne*, du 8/11/1911, p. 1.
- "Les troubles de Tunis", *Le Courrier de Tunisie*, n°= 2563, du 17/11/1911, p.2.
- "Souscription", *Le Courrier de Tunisie*, n° 2658, du 16/2/1912, p. 2.
- "Lettre de BACH - HAMB", *Le Courrier de Tunisie*, n° 2715, du 14/4/1912, p. 1.
- Affaire du Djellaz", *Le Courrier de Tunisie*, n° 2764, du 4/6/1912, p. 1 et 4.
- "Affaire du Djellaz", *Le Courrier de Tunisie*, n° du 6/6/1912, p. 1 et 4.
- "Affaire du Djellaz", *Le Courrier de Tunisie*, n° 2771, du 11/6/1912, p. 1 et 4.
- Affaire du Djellaz", *Le Courrier de Tunisie*, n° 2772, du 12/6/1912, p. 1.
- "Les Indigènes se revoltent, une sanglante émeute aux portes de Tunis", *La Tunisie Française*, du 7/11/1911, p. 1.
- "L'Affaire du Djellaz", *La Tunisie Française*, du 3/6/1912, pp. 5 - 7.
- "Le boycottage des Tramways", *La Tunisie Française*, du 12/3/1912, p. 1.
- "Echos de Gafsa", *La Voix du Tunisien*, n°= 574, du 21/4/1933, p. 2.

٧- دوائر المعارف والأطالس والمعاجم:

— ادريس، سهيل وجبور عبدالنور، المنهل الوسيط، قاموس فرنسي — عربي، بيروت، دار العلم للملايين، ط. 4، أبريل 1981.

— جون أفريك، أطالس «جون أفريك»، اطلس تونس، باريس، منشورات «جون افريك 1980».

— وجدي، محمد فريد، دائرة معارف القرن العشرين، بيروت، دار المعرفة، ط. 3، م. 3، (لات).

- HEFFENING, "Wakfou Habs", *l'Encyclopédie de l'Islam*, Pairs, Leyde, E.J. Brill, t. IV - 2, 1934, pp. 1154 - 1162.

- LEVI - PROVENÇAL (E.), "Zawiya", *l'Encyclopédie de l'Islam*, t. IV - 2, p. 1289 - 1290.

- MARGOLIOUTH (D.S), "Tidjaniya", *l'Encyclopédie de l'Islam*, t. IV - 2, p. 784 - 785.
- MASSIGNON (L.), "Tarika", *l'Encyclopédie de l'Islam*, t. IV - 2, pp. 700 - 705.
- RUSTOW (D.A.), "ENWER PASHA", *l'Encyclopédie de l'Islam*, t. 2, 1965, pp. 716 - 720.

الفهارس

فهرس الاعلام

- أ -

- ابن ابراهيم، الخوسين: 37.
ابن ابراهيم، محمد: 101، 102، 110، 111، 151، 262.
ابن أبي طالب، علي: 36.
ابن الحاج الصادق، محمد: 215.
ابن الحاج مبارك، مصطفى: 182.
ابن الحاج ناصر، سعد: 101، 167.
ابن الخوسين، مصطفى: 111.
ابن الخوسين، مكّي: 201.
ابن الخطاب، عمر: 36.
ابن راشد، البهلول: 26.
ابن بارور، حامي (اليهودي): 110.
ابن جدوّ، أحمد: 122، 146، 155.
ابن حسن، ابراهيم: 26، 236، 233.
ابن حسين، محمد الجنيد: 111.
ان حمده، شَمّام: 165.
ابن حملاوي، أحمد: 216.
ابن حميده، يونس: 211.
ابن خليفة، علي: 149.
ابن سالم، العربي: 94.
ابن سليمان، سليمان: 253.
ابن شعبان، صالح: 202.
ابن شعبان، محمد: 122، 180.

- ابن الشيخ، عمر: 182.
- ابن الطاهر، علاقه: 37، 38.
- ابن الطاهر، قاسم: 90.
- ابن المنور، علي: 90.
- ابن عاشور، الطاهر: 237.
- ابن عباس، صالح: 94.
- ابن عبدالحفيظ، الحفناوي: 98، 146، 149، 150، 151.
- ابن عبدالرحمان، محمد: 53.
- ابن عبدالله، الحاج علي: 132.
- ابن عبدالله، محمد: 140، 141، 142، 143.
- ابن عبدالملك، أحمد: 121 ترجمة، 130، 131، 171، 210.
- ابن عبدالملك، حسونة: 54، 159، 182، 210.
- ابن عبدالملك، محمد بن ابراهيم: 125، 131.
- ابن عثمان، عمر: 156 ترجمة، 164، 165، 166.
- ابن عزّوز، أحمد: 95.
- ابن عزّوز، الأزهاري بن مصطفى: 101، 131، 187، 264.
- ابن عزّوز، التّارزي: 262.
- ابن عزّوز، الحفناوي بن مصطفى: 130، 131، 135، 136.
- ابن عزّوز، عبدالحميد: 182.
- ابن عزّوز، مصطفى: 52 ترجمة: 60.
- ابن علي، فرحات: 132.
- ابن عمّار، علي: 137.
- ابن عمر، عبدالله: 95.
- ابن عمر، يحيى: 28.
- ابن عيسى، حمده: 104.
- ابن عيسى، علي: 38، 125، 126، 127، 130، 131.

ابن غداهم، علي: 137.
 ابن لمن، علي: 211.
 ابن مبروك، مصطفى: 150، 151.
 ابن محمد، البشير: 168.
 ابن محمد، هذيلي: 252.
 ابن مخلوف، أحمد: 48.
 ابن مسعود، أحمد: 150.
 ابن المنور، علي: 90.
 ابن ناصر، محمد: 48.
 ابن يحيى، عبدالعزيز: 147.
 ابن يوسف، صالح: 254.
 ابن يونس، محمد: 132.
 أبو الحسن، علي بن صالح: 30.
 أبو الغيث ابن الحوسين (الحلاج): 28.
 أبو الفيض، ثوبان ابن ابراهيم: 28.
 أبو المحاسن، علي المازغني: 30.
 الافغاني، جمال الدين: 173، 256.
 الأنصاري، أبو محمد: 28.

— ب —

باشا، أنور: 181 ترجمة.
 باري (العدل المنقذ): 99.
 باش حانبه، علي: 165 ترجمة. 174، 207، 209، 210، 211، 213،
 215، 218، 219، 220.
 باش حانبه، محمد: 170 ترجمة.
 بالريش، محمد: 92.
 بالطيب، محمد بن ابراهيم: 101، 102.

باي، محمد الناصر: 232.
برامي، سيمون (اليهودي): 109.
بروسلار، شارل: 83.
بسمارك: 118.
البصري، الحسن: 36.
البكّوش، صالح: 176.
بلحسن، محمد: 180.
بلعباس، صالح: 95.
بوحجر، أحمد بن عبدالله: 226، 227، 228.
بوحجر يوسف: 30.
بورقية، الحبيب: 244.
بورقية، محمود: 254.
بيروطن، مارسال (المقيم العام بتونس): 206، 207، 238.
بيشون، ستيفان: 155 ترجمة.

— ت —

تان (المعمر): 157.
التبرسقي، أحمد: 72.
التوزري، ابن عثمان: 60.
التيجاني، أحمد: 43 ترجمة، 159.
التيجاني، محمد الشريف: 184 ترجمة، 189، 140، 199، 204، 208، 216.

— ث —

الثعالي، عبدالعزيز: 215 ترجمة: 250، 258، 260.

— ج —

الجيلاني، عبدالقادر: 39 ترجمة.

— ح —

الحاج، أحمد: 147.

- الحبيب، علي: 147، 148.
 الحرّاث، الحاج: 132.
 الحسن (ابن علي بن أبي طالب): 36.
 حسن، علي: 71.
 الحسين (ابن علي ابن أبي طالب): 36.
 حسين، محمد الخضر: 170 ترجمة.
 الحفناوي، محمد سالم: 53.
 الحمادي، عبدالملك: 30.
 حموده، باشا: 30، 40، 70.

- خ -

- الخراط، محمد: 252.
 الخلصي، محمد العوني: 38.
 الخياري، أحمد جمال الدين: 221.
 الخياري، محمد: 112.
 خير الدين (باشا): 72.

- د -

- الدّوش، عثمان: 252.
 درغوث، الشاذلي: 220.
 دوداي، ارنست: 189.
 دوفيري: 145.
 دولاروك (العقيد): 120 ترجمة.
 ديون، أكتاف: 50، 84، 85، 86.
 دي ليسبس، فرديناند (المهندس الفرنسي): 117.
 ديموريس، المركيز: 97 ترجمة.

- ر -

- رضا، رشيد: 256، 257.

روا، جان برنار: 95 ترجمة، 120، 121، 125، 126، 127، 156، 157.
روسطن، تيوودور: 116 ترجمة.
روقارو: 157.
الرؤيسي، يوسف: 253.
الرياحي، ابراهيم: 43 ترجمة.
ريفوال، أميدي: 80 ترجمة.

— ز —

الزّاير، عبدالحفيظ: 126.
الزّاير، معمر: 125، 135.
زكّون، بول: 130.
الزمرلي، الصادق: 220.

— س —

سان، لوسيان: 204، 208.
سحنون، الامام: 28.
سرفيار (الجنرال): 189.
السّلمي: 28.
سليم، المنجي: 253.
السّهيلي، محمد الأخضر: 111، 112.
السّهيلي، يوسف بوحجر: 30، 55، 182.
السّويسي، محمد: 94.
سيميان، مارسال: 82.
سيون، آبال: 119 ترجمة.

— ش —

الشّابي، سعيد بن عمّار: 101.
الشّابي، علي: 50.
الشّاذلي، أبو الحسن: 29 ترجمة: 48، 212، 217.

الشّافعي، محمد الصّالح بن الحاج: 135، 136، 152.
شاكر، محمد: 258، 260.
شالوم، دانيال (اليهودي): 110.
الشّرفي، محمد: 144.
الشّريف، أحمد: 180.
الشّريف، ادريس: 232 ترجمة.
الشّريف، بلقاسم: 181.
الشّريف، الحاج الطاهر: 181.
الشّريف، صالح: 164 ترجمة، 174.
الشّريف، عبدالرحيم: 109، 110، 111.
الشّريف، محمد: 144، 182.
الشّريف، محمد البشير: 180.
الشّريف، محمد العربي: 110، 181.
شعيب، أبومدين: 29 ترجمة، 40.
الشّلاكي، الحاج عبدالقادر: 172.

— ص —

صاحب الطابع، يوسف: 30.
الصديق، أبوبكر: 36.
الصغير، سيدي محمد: 147.
الصغير، علي: 136.
الصفايحي، اسماعيل: 171 ترجمة.
صفر، البشير: 104 ترجمة.

— ط —

الطوسي، السّراج: 28.

— ظ —

ظافر، حمزة: 143، 148، 149.

—ع—

- عائشة (أخت محمد ظافر المدني): 141، 142، 143.
العبّاسي، حمده: 171.
عبد الحميد (السلطان): 48، 49، 70، 140، 144.
عبد القادر، الأمير: 148.
عبده، محمد: 173، 256، 257.
العدوية، رابعة: 28.
عريفات، علي بن محمد: 261.
العسيلي، الحاج صالح: 135.
عليلو، محمد: 252.
العمراني، محمد الصالح: 182.
العمراني، المتّوبي: 119 ترجمة، 157، 159، 188، 204.

—غ—

- الغزالي، أبوحامد: 28.

—ف—

- فلان دان، اتيان: 108.
فورجمول (القائد الفرنسي): 121 ترجمة، 132، 135، 136، 150.
الفيثوري، عمران: 100، 122.
فيلبار، (القائد الفرنسي): 122، 125، 155.

—ق—

- القاسمي، مصطفى: 85.
القاضي، سعد: 261.
القنّات، عبد الخالق: 26، 27.
قُدّور، (شيخ زاوية القادرية بالكاف): 94 ترجمة، 100، 120، 121، 122،
126، 127، 157، 211.

فدّور، أحمد: 95 ترجمة، 157، 159، 199، 235.
فدّور، مصطفى: 38، 263.
القشيري: 26.
فلّاتي، حسن: 220.
القيزوني، محمد: 181.
فَيْفَه، البحري: 244.
فَيّون، أرمون: 208.

— ك —

كاهية، المختار: 220.
الكبير، ابراهيم بن أحمد: 82، 146، 154.
الكبير، محمد: 38، 94، 98، 99، 110، 146، 149، 262.
الكبير، محمد بن عزّوز: 96.
الكبير، محمد الرّشيد: 94.
الكبير، محمد العربي: 262.
كمبون، بول: 119 ترجمة، 147، 148.
كوبولاني، سكافيي: 50، 87.
الكوكي، الحاج محمد بنعثمان: 38.

— ل —

لاكأنجي، حسن بن خميس: 215، 216.
لاكأنجي، محمد بن خميس: 215، 216.
اللزّام، البشير بن حمّوده: 91، 128، 171.
اللزّام، عبدالرحمان: 91.
اللّوز، محمد بن الحاج: 182.
لوجرو (القائد الفرنسي): 120، 127.

— م —

- مالك، الامام: 26.
مالك، عبدالقادر: 220.
مانشيكور، شارل: 82، 126.
مانصورون، فرانسوا: 230.
المدني، حمزة: 139.
المدني، ظافر: 26 ترجمة.
المدني، محمد ظافر: 26 ترجمة.
مشارك، العربي بن سالم: 130.
معاوية، محمد: 69.
المكّي، أبوطالب: 28.
المكّي، محمد: 78.
المنزلي، أبو الحسن: 66.
المنزلي، محمد الامام: 39.
موسى (المتجنّس):
موري (البنكي): 95.
الميموني، محمد العربي: 205.

— ن —

- ناي، نابليون: 96.
النّابلي، حميد: 78.
نعمان، محمد: 215.
النّغموشي، عثمان: 38.
النّوري، سيدي علي: 88.
النّوري، محمد بن احمد: 88.
نويرة، الهادي: 250.
النّيفر، الصادق: 227.

فهرس القبائل والجماعات والأمم

— أ —

أبناء العاصمة (تونس): 200.

أبناء مقعد: 129.

الأتباع: 20، 30، 32، 33، 34، 39، 40، 41، 45، 46، 49، 53، 54، 57، 58، 63، 65، 66، 67، 69، 70، 72، 73، 74، 75، 76، 84، 88، 89، 91، 92، 93، 103، 104، 128، 130، 135، 136، 139، 143، 145، 146، 150، 152، 154، 155، 167، 171، 172، 185، 186، 187، 188، 202، 204، 210، 214، 217، 220، 221، 222، 224، 225، 226، 231، 233، 234، 235، 236، 241، 246، 249، 250، 253، 255، 260، 261، 262، 263، 264، 266، 268.

أتباع التيجانية: 145، 147، 199، 240.

أتباع سيدي فدور: 260.

أتباع الطرق: 39، 48، 49، 68، 69، 72، 73، 74، 83، 90، 101، 103، 139، 140، 188، 201، 213، 216، 224، 225، 229، 230، 259، 263.

الأتباع السنوسيون: 71، 148.

أتباع الطريقة التيجانية: 76، 207، 218، 242، 261.

أتباع الطريقة الرحمانية: 66، 139.

أتباع الطريقة السّلامية: 58.

أتباع الطريقة الشّائية: 122، 262.

أتباع الطريقة الشاذلية: 214، 215، 218.

أتباع الطريقة العيساوية: 58، 75.

أتباع الطريقة القادرية: 30، 70، 73، 74، 76، 131، 139، 140.

أتباع الطريقة المدنية: 71، 72، 226.

الأتراك: 50، 149، 150، 168، 169، 186.

الإخوان: 150، 187، 188، 190.
الإسرائيليون: 99، 110.
الأسرى: 176.
الأسرى المسلمون: 190.
الأشراف: 66، 188.
أصدقاء فرنسا: 205، 206.
أصحاب الأحزاب العيساوية والسّلامية: 244.
أصحاب الزّوايا: 259.
أصحاب الطرق: 57، 242، 243، 244، 256.
أصحاب الطريقة القادرية: 221.
الأعراب: 119، 129.
أعضاء التّخبة الاصلاحية بتونس: 257.
الأعيان: 30، 66، 121، 128، 140، 150، 213، 220، 230، 242.
الأعوان الدينيون: 148.
الأعوان بالقنصليات الفرنسية: 106.
أعيان أولاد عون: 205.
أعيان البلاد (التّونسية): 169، 178.
أعيان صفاقس: 177.
أعيان القبائل: 132.
أعيان الكاف: 205.
الألمان: 176، 189، 190.
الأمّة: 143، 188، 203، 208، 230.

الأمة التركية: 135.
 الأمراء: 90.
 أمناء الحرف: 205.
 الأندلسيون: 26.
 الأهالي: 71، 101، 125، 126، 127، 132، 133، 138، 139، 149،
 152، 163، 164، 165، 166، 168، 170، 176، 179، 199، 200،
 207، 209، 212، 215، 218، 219، 227، 230، 232، 236، 241،
 242، 262.
 أهالي الأيالة: (التونسية): 233.
 الأهالي التونسيون: 176.
 أهالي فوسانة: 164.
 أهل باجة: 263.
 أهل التصوف: 25.
 أهل الستة: 26.
 أهل مصر: 33.
 الأوروبيون: 128، 138، 144، 147.
 الأوساط الاستعمارية: 107، 214.
 الأوساط الطلابية الزيتونية والصادقية: 239.
 الأوساط العلمية الزيتونية: 173، 174.
 أولاد بوسالم: 129، 130، 131.
 أولاد بوسعيد: 129.
 أولاد بوغانم: 43، 128.
 أولاد عسكري: 61.
 أولاد عمر: 129.
 أولاد عون: 54، 125، 159، 182، 211.
 أولاد عيار: 132، 137، 205.

أولاد عيَّار الظهارة: 134.

أولاد عيَّار القبالة: 134.

أولاد مهنّة: 132، 134.

أولاد مومن: 43.

أولاد ناجي: 136.

— ب —

الباحثون: 21.

البيات: 80.

بنو الأغلب: 30.

— ت —

التابعون: 25.

التجّار: 26، 65، 66، 129، 144، 209، 217.

التلاميذ: 27، 221، 229.

التلاميذ التونسيون المسلمون: 257.

التوارق: 102.

التونسيون: 26، 142، 144، 168، 169، 170، 173، 174، 178،

203، 210، 211، 243، 252، 256، 257، 262.

التونسيون المسلمون: 225، 251.

— ث —

الثائرون: 153، 161، 162.

الثوار الجزائريون: 82.

— ج —

الجزائريون: 26.

جلاص: 132، 134، 182، 190.

جماعة الصفاقسية: 262.

جماعة العمل التّونسي: 239.
جماعة العيساوية: 262.
الجماهير: 20، 152، 204، 205، 208، 214، 215، 224، 230، 231،
238، 250، 252، 262.
الجنود التّونسيون: 190.
الجنود الفرنسيون: 168.

- ح -

حاشية الباي: 20.
الحجيج: 26، 144.
الحرفيون: 217.
الحسينيون: 29، 30.
الحضر: 74، 76، 129.
الحلفاء: 128، 172، 179، 263.
الحمّالة: 217، 227.
الحوامدة: 129.

- خ -

الخُدّام: 61، 65.
خريّجو الزيتونة: 174.
الخمّاسة: 61.
الخمامسة (قبائل): 75.
الخوارج: 77.
الخيّالة: 132، 137.
خيالة الهمّامة: 70.

- د -

الدستوريون: 205، 206، 207، 208، 233، 234، 235، 236، 237، 239، 260.
الدّستوريون الجدد: 240، 241، 244، 245.

الدّعاة السّنوسيون: 72.
الدّعاة العثمانيون: 143، 176، 177.

— ر —

رجال الدّولة العثمانية: 185.
رجال الدّين المسيحيين: 201.
رجال الحزب الحرّ الدستوري التّونسي: 229.
رعايا الايالة (التونسية): 177.
الرّماة: 189.
رواد النّضال الوطني: 207.

— ز —

زعماء الحركة التّحريرية: 244، 250.
زعماء الحركة الوطنية: 242، 253.
الزّغالة: 43، 128، 132، 134، 136.
الزّهّاد: 26، 27.
الزيتونيون: 257.
السكّان: 35، 75، 77، 119، 126، 128، 129، 140، 144، 145،
150، 152، 163، 164، 166، 171، 208، 210، 212، 213، 219،
226، 241، 263.

— س —

سكّان الأرياف: 194، 251.
سكّان الايالة (التونسية): 173، 219، 238.
سكّان البوادي: 255.
سكّان الجنوب (التونسي): 149.
سكّان الحاضرة: 66، 212، 213، 214، 216، 218.
السكّان المحليون لجهة ثعفور: 235.
سكّان المناطق الداخلية: 194.

- سكّان تالة : 136 .
سكّان جبل خمير : 101 ، 118 ، 131 .
سكّان صفاقس : 142 .
سكّان قصبة المديوني : 226 .
سودانيات (نساء) : 38 .

— ش —

- الشّايون : 122 .
شارن : 43 ، 128 .
الشحّاذون : 140 .
الشّعراء : 259 .
الشهداء : 228 ، 264 .
الشيّاحية (قبائل) : 129 .
الشيّوخ : 29 .
شيوخ الأضرحة : 66 .
شيوخ مشائخ : 229 .

— ص —

- الصّالحون : 27 ، 30 ، 34 ، 35 ، 36 ، 171 .
الصّحابة : 25 ، 34 .
الصّحافيون : 120 .
صغار أرياب الحرف : 215 .
صغار الفلاحين : 143 .
الصفاقسيون : 142 ، 143 .
الصّلحاء : 27 ، 213 .
الصنّاعيون : 66 ، 129 .
الصّوفية : 28 ، 29 ، 31 .
الصيّادلة : 235 .

— ض —

الضباط: 188.

— ط —

الطائفة اليهودية: 204.

الطرابلسيون: 209، 211

طرود: 187.

الطلبة. 72، 176، 251.

طلبة جامعة الزيتونة: 238.

طلبة العلم: 26، 34، 144.

— ع —

عائلة ابن عزّوز: 262.

عائلة الباي: 220.

عائلة الجلّولي: 66.

عائلة السلاّمي: 66.

عائلة الشّرفي: 66، 140.

عائلة الشّعّبوني: 66، 140.

عائلة الزّريبي: 66، 140.

عائلة الكرّاي: 66، 140.

عائلة النّوري: 66، 140.

العائلات الكبيرة: 66، 140.

عائلات المهاجرين: 178.

العاطلون: 194، 198.

العاملون بالمقاهي: 217.

العبّاد: 26، 28، 34.

العثمانيون: 176.

العدول: 66.

العريان: 101، 122، 178.
العروش: 138، 187، 199.
العسكريون: 83.
العلماء: 27، 179، 213.
العلماء الرسميون: 230.
علماء الشرع: 224.
عمدون (قبائل): 80.
العمّال الأوربيون: 219.
العمّال التونسيون: 217، 219.
عمّال الرّصيف: 239.

- غ -

الغرابية (قبائل): 131.
الغُرّة: 119، 131.
الغزاة الفرنسيون: 119، 126، 129، 148.
غسّالو الموتى: 227.

- ف -

الفاطميون: 34.
الفتة المثقفة: 255.
الفراشيش: 43، 76، 132، 133، 134، 135، 136، 140، 160، 161،
162، 164، 166، 205، 267.
الفرنسيون: 53، 108، 122، 137، 148، 149، 150، 164، 168، 190، 203، 257.
الفقراء: 29.
فقراء الزّاوية: 98.
فقراء العيساوية: 262، 263.
الفلاحون: 66، 193، 196، 197، 199، 217، 225.
الفلاحون التونسيون: 195، 199.
الفوايد: 132، 134.

— ق —

- قادة الحركة الوطنية: 254.
قادة الحزب الدستوري الجديد: 240، 241.
قبائل: 84، 122، 123، 129، 130، 131، 132، 133، 134، 138، 139، 148، 149، 168، 169، 176.
قبائل خمير: 129، 130، 131، 137.
قبائل عمدون: 129، 130.
قبائل مقعد: 129.
قبائل هذيل: 129.
قبائل الوسط: 132، 133، 222.
قبائل الوسط والوسط الغربي: 133، 134، 137، 138، 139، 222، 267.
قبائل ورغمة: 145.
القبيلة: 134، 138.
قدماء المحاربين المتطوعين في الحرب الكبرى: 190.
قوم متعبدون: 27.
القياد: 84، 132، 136، 139.

— ك —

- كبار الفلاحين: 129.
كبار الملاكين: 60.
الكفّار: 83، 131، 138.

— ل —

- اللاجئون الجزائريون: 131

— م —

- ماجر: 43، 66، 76، 113، 125، 132، 133، 134، 136، 205.
المتجنّسون: 223، 225، 226، 227، 228، 230، 238.
المتصوِّفة: 25، 256.

المتطوّعون: 129، 209، 210.
 المثقّفون: 75، 177.
 المجاهدون: 124، 174.
 المجاهدون الطرابلسيون: 211.
 المجموعة الوطنية: 222، 228.
 المحامون: 235.
 المدرّسون: 221.
 مدرّسو جامع الزيتونة: 221.
 المديرون العامّون: 206.
 المرابطون: 27، 29.
 المرابون: 193، 196.
 المراقبون المدنيون: 84، 85، 86، 90، 94، 114، 152، 177.
 مرتادو المساجد: 252.
 المريدون: 30، 31، 32، 34، 171، 231.
 المستعمرون: 147، 252.
 المسلمون: 25، 34، 39، 74، 77، 81، 87، 88، 138، 144، 147،
 166، 172، 173، 176، 177، 184، 189، 201، 208، 218، 228،
 229، 245، 251، 252، 256، 258.
 المسلمون الفرنسيون: 226.
 المسؤولون العسكريون الفرنسيون: 146.
 المسيحيون: 106.
 المشاة: 132.
 المشايخ: 28، 30، 31، 32، 33، 39، 64، 67، 84، 89، 90، 91، 93،
 94، 95، 96، 97، 100، 103، 104، 105، 106، 110، 114، 127،
 131، 132، 139، 150، 152، 154، 158، 171، 178، 187، 188،
 192، 199، 201، 202، 204، 205، 208، 210، 220، 222، 225.

228، 234، 236، 239، 144، 145، 246، 249، 250، 253، 255،
260، 261، 263، 264، 266، 263، 265.

مشائخ الرّحمانية: 146.

مشائخ الزّوايا: 93، 109، 114، 122، 179، 190، 232، 245، 259

مشائخ الزّوايا الطرقية: 154، 157، 244.

مشائخ الزّيتونة: 221.

مشائخ الصوفية: 170، 171، 227.

مشائخ الطرق الصوفية: 31، 32، 37، 62، 75، 84، 88، 89، 90، 92،
93، 94، 95، 96، 98، 99، 100، 102، 103، 109، 111، 112،
119، 124، 127، 135، 152، 158، 179، 185، 187، 190، 198،
199، 203، 204، 207، 208، 211، 214، 217، 221، 222، 225،
226، 227، 228، 231، 236، 237، 241، 245، 246، 249، 252،
261، 262، 263

مشائخ الطريقة الرحمانية: 131، 221.

مشائخ الطريقة الشاذلية: 214.

المشبه فيهم: 87، 91، 172، 178، 179.

المشركون: 83، 148.

المصطفون: 35.

المعمّرون: 74، 108، 109، 158، 163، 164، 199.

المعمّرون الفرنسيون: 106، 107، 157، 160، 166.

المغاربة: 26، 72، 176.

المقاومون: 130، 132، 135، 136، 143، 147، 149، 152، 264.

المقدّمون: 108.

الملائكون العقاريون: 61.

المنحدرون «من سلالة الرسول ﷺ»: 37، 188

الموظفون: 207، 225.

— ن —

- النَّخبة المثقفة من التّونسيين: 225.
النّصارى: 164.
النّماشة: 43، 187.
النّواب الجهويون: 85.
الهمامة: 101، 102، 134، 137، 138.

— و —

- الوجهاء: 128، 209.
ورتان (قبائل): 123، 132، 134.
ورغمّة: 145.
الوزراء: 208.
الوطنيون: 157، 205، 208، 233، 234، 241، 245.
الوكلاء: 235.
ونيفة (قبائل): 132، 134.

— ي —

- اليهود: 110.

فهرس الوظائف الدّينية والادارية والسياسية وغيرها:

— أ —

الأستاذ: 31، 32.

الأعوان بالقنصليات الفرنسية: 106.

أعضاء حكومة الباي: 229.

إمام الجامع: 122، 126.

امبراطور (ألمانيا): 184.

— ب —

الباش مفتي: 147، 148.

الباشا التركي: 132.

الباي: 20، 71، 107، 118، 121، 122، 130، 143، 150، 154،

205، 211، 212، 229، 233، 239.

باي تونس: 82، 233.

البريفادي: 226.

البنكي (موري): 99.

— ج —

الجنرال: 118، 121، 122، 125، 127، 150، 189.

— ح —

حاكم التحقيق: 98.

الحاكم العام بالجزائر: 84، 85، 93، 96، 119.

— خ —

الخليفة: 144، 173، 176، 205، 207، 234.

خليفة فعفور: 206.

— د —

الدّاعي: 71.

— ر —

رئيس الجمهورية الفرنسية: 203.

رئيس الغرفة الفلاحية الفرنسية: 158.

رئيس المجلس الفرنسي: 204.

رئيس المحكمة: 215.

رئيس نقابة المعمّرين الفرنسيين: 158.

الرسول (صلّى الله عليه وسلم): 35، 36، 37.

— س —

السلطان: 48، 49، 70، 121، 140، 141، 143، 144، 149، 211.

سلطان مكناس: 58.

— ش —

الشيخ: 30، 31، 32، 33، 34، 37، 38، 40، 48، 49، 50، 53، 54،

70، 72، 91، 93، 94، 96، 102، 122، 135، 136، 148، 149،

150، 151، 152، 156، 188، 190، 214، 226، 228، 233، 234،

238، 257، 260.

شيخ الآستانة: 177.

شيخ الاسلام: 72، 179.

شيخ الاسلام المالكي: 238.

شيخ باب سوقّة: 227.

شيخ التّيجانية: 168، 218.

شيخ الرّحمانية: 54، 95، 96، 98، 130، 131، 146، 149، 154،

159، 180، 182، 187، 202، 211

شيخ زاوية بوعرادة: 157، 217.

شيخ زاوية توزر: 94.

- شيخ زاوية التيجانية : 157، 217.
- شيخ زاوية الرحمانية : 94.
- شيخ زاوية سيدي أبي علي النفطي : 157، 158، 167، 188، 189، 205، 207، 233، 234، 235، 260.
- شيخ زاوية العيساوية : 181، 183.
- شيخ زاوية عين المنشية : 135.
- شيخ زاوية الطريقة التيجانية : 122، 199، 232.
- شيخ زاوية القادرية : 61، 90، 98، 99، 146، 149، 151، 157، 171، 181، 199، 205، 206، 207، 211، 235، 236، 264.
- شيخ زاوية المدنية : 141، 142، 143.
- شيخ زاوية نقطة : 94.
- شيخ الشّابية : 122، 146.
- شيخ الطريقة : 39، 89، 101، 135، 187، 227، 263.
- شيخ الطريقة الأمّ : 101.
- شيخ الطريقة التيجانية : 204.
- شيخ الطريقة الرحمانية : 39، 53، 101، 182.
- شيخ الطريقة السلامية : 90.
- شيخ الطريقة العيساوية : 37، 181.
- شيخ الطريقة المدنية : 226.
- شيخ العيساوية : 187.
- شيخ القادرية : 37، 38، 70، 96، 99، 100، 110، 111، 226.
- شيخ القرية : 226.
- شيخ المدينة : 191، 198، 214، 215، 220.
- شيخ مشائخ : 29، 84، 90، 147.
- شيخ مشائخ السلامية : 183.
- شيخ مشائخ الطريقة الرحمانية : 180.

شيخ مشائخ الطريقة الشاذلية : 180 .
شيخ مشائخ الطريقة العيساوية : 180 .
شيخ مشائخ الطريقة القادرية : 91 ، 122 ، 180 ، 203 .

— ص —

صانع غرابيل : 252 .

— ض —

ضابط المركز الفرنسي : 102 .

— ع —

العامل : 90 ، 114 ، 226 ، 236 .

عامل الكاف : 38 .

العدل : 38 ، 95 ، 210 .

العدل المنقذ : 99 .

العقيد : 124 ، 144 .

العون القنصلي : 120 ، 125 .

— ق —

القائد : 32 ، 83 ، 123 ، 132 .

قائد الفيلق الفرنسي : 133 .

قائد القوّات الفرنسية : 120 .

قائد مدفعية صفاقس : 144 .

قائد المقاومة : 137 .

القاضي : 107 ، 147 ، 233 ، 234 .

القايد : 145 ، 150 ، 151 ، 205 ، 234 .

فايد أولاد ناجي : 135 .

فايد باجة : 176 .

فايد بيت الشريعة : 122 ، 146 .

فايد تمغزة : 150 .

- فايد الفراشيش : 135 .
 فايد الكاف : 121 .
 فايد نفطة : 146 .
 قنصل دولة ايطاليا : 210 .

— ك —

- الكاتب العام بالدولة التونسية : 111 .
 الكاتب العام للحكومة التونسية : 101 ، 220 .
 كاتب الفايد : 177 .
 الكاهية : 95 ، 244 ، 253 .
 الكيمياوي : 228 .

— ل —

- اللواء : 120 .

— م —

- المدرس : 572 .
 المحاسب : 228 .
 الم رابط : 35 .
 المراسل : 217 ، 226 .
 المراقب العام للشؤون الأهلية : 206 .
 المراقب المدني : 71 ، 72 ، 84 ، 90 ، 91 ، 92 ، 96 ، 99 ، 123 ، 128 ، 145 ،
 159 ، 172 ، 181 ، 182 ، 199 ، 204 ، 210 ، 227 ، 236 ، 245 ، 253 .
 المقدم : 39 ، 147 ، 168 .
 مقدم زاوية الرحمانية : 95 ، 135 ، 182 .
 مقدم زاوية سوق الاربعاء : 94 .
 مقدم زاوية غار الدماء : 94 .
 مقدم زاوية القادرية : 95 ، 261 .
 مقدم التيجانية : 101 ، 111 ، 167 ، 261 .

مقدم الرّحمانية : 95، 146.
 مقدم سيدي فدّور : 135.
 مقدم الطريقة التّيجانية : 217، 261.
 مقدم الطريقة السّلامية : 100، 122.
 مقدم الطريقة القادرية : 172.
 مقدم الطريقة المدنية : 171.
 المقيم العام : 86، 93، 108، 109، 123، 147، 148، 151، 152،
 160، 180، 181، 182، 183، 204، 205، 206، 207، 235، 239،
 240، 241، 242، 243، 244.
 المقيم العام المساعد : 85.
 الملك : 183.
 المهندس الفرنسي : 117.
 المهندس الفرنسي : 19.

- ن -

نائب رئيس المجلس الكبير بالايالة : 158.
 نائب العيساوية : 182.
 النّبي (صلى الله عليه وسلم) : 28، 31، 37، 57، 73.
 النجّار : 215.

- و -

الوزير : 30.
 الوزير الأكبر : 71، 89، 92.
 الوزير الأول : 205، 234.
 وزير الدّعاية الفرنسي : 189.
 وزير الحربية الفرنسي : 217، 234.
 وزير الخارجية الفرنسي : 123.
 وزير القلم : 220.
 الوزير مصطفى بن اسماعيل : 131.

فهرس المؤسّسات والتنظيمات والجمعيات الدّينية والسيّاسية والاجتماعية وغيرها

— أ —

- الأحزاب السياسية: 19، 20، 76، 114، 220، 236، 250، 251، 260، 261، 263.
إدارة الفلاحة: 107.
إدارة المال: 95.
أرشيف وزارة الحرب الفرنسية: 20.
الإقامة العامة: 109، 142، 208، 241.
أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية: 20.

— ب —

- بلدية الحاضرة: 212.
بلدية مدينة تونس: 214.
بيت الشريعة. 50.

— ث —

- الثكنات: 34.

— ج —

- الجامعة الاسلامية: 49، 70، 144، 147، 173.
جامعة عموم العملة التونسية: 231.
جمعية الأحباس: 109.
جمعية الإغاثة التونسية: 200.
جمعية الأوقاف: 99، 107.
جمعية البرّ العربية (صفاقس): 200.
جمعية التّمثيل العربي: 200.

الجمعية الخيرية الاسلامية: 198، 200.
جمعية العروة الوثقى: 173.
جمعية مقاومة البدع والاسراف: 258.
الجمعيات الدينية: 82.

- ح -

الحزب الاصلاحى: 203، 204.
الحزب الدستورى الجديد: 239، 244، 251، 252.
الحزب الحرّ الدستورى التونسى: 157، 200، 202، 204، 207، 230،
231، 232، 233، 234، 235، 236، 237، 239، 244.
حكومة الباي: 72.
الحكومة التونسية: 195.

- خ -

الخزينة : 99، 105، 197.
خزينة البلاد التونسية: 20.
الخلافة: 92، 138، 141، 143، 144، 169، 172، 173، 177، 179.
الخلدونية: 256، 257.

- د -

دائرة الاتهامات بالجزائر: 161.
دور النّقاهاة: 189.
الدّواوين: 169.
الدّولة الأغلبية: 26، 27.
دولة الألمان: 188.
الدّولة الحسينية: 62.
الدّولة الحفصية: 29.
الدّولة العباسية: 25.
الدّولة العثمانية: 138، 143، 167، 171، 172، 176، 185، 208.

الدولة الفاطمية: 27.
الدولة الفرنسية: 187، 189.
ديوان الحبوب: 197، 199.
ديوان الخمر: 197.
ديوان الزيت: 197.

— ر —

رباط: 27.
رباط المنستير: 27، 29.
الرباطات: 27، 29، 34.

— ز —

الزاوية: 29، 30، 35، 36، 39، 40، 43، 45، 46، 82، 84، 86، 89،
92، 94، 100، 106، 107، 111، 114، 117، 121، 123، 124،
126، 127، 135، 140، 151، 155، 166، 187، 216، 236.
الزاوية الأمّ: 53، 70، 131، 141، 146، 167، 214، 216.
زاوية أبي عبدالله: 48، 140.
زاوية باب منارة: 123.
زاوية البنا القادرية: 91، 128.
زاوية تمغزة: 96، 152.
زاوية التيجانية: 98، 124، 167، 237.
زاوية الحاج العباسي: 113.
زاوية الحواريين: 263.
زاوية الرحمانية: 53، 95، 113، 126، 13، 150، 152، 187، 259، 260.
زاوية السلامة: 113.
زاوية سيدي أبي الحسن الشاذلي: 216.
زاوية سيدي أحمد الزاير: 54، 133.
زاوية سيدي بوحجر: 152، 226.

- زاوية سيدي بومثارة: 37.
- زاوية سيدي الحاج: 113.
- زاوية سيدي الحسنوي: 66.
- زاوية حسن بالحاج: 137.
- زاوية سيدي صالح التيجاني: 46، 53، 61، 199.
- زاوية سيدي عبدالقادر: 191.
- زاوية سيدي عبدالملك: 53، 54، 125.
- زاوية سيدي عمر السمّاتي: 133، 135.
- زاوية سيدي محمد بن إبراهيم: 145.
- زاوية سيدي محمد بن عمّار: 133.
- زاوية سيدي مسعود: 261.
- زاوية الشّاوش صالح: 113.
- زاوية الشيخ مبارك: 54.
- زاوية الطريقة الأمّ: 135.
- زاوية العرب: 145.
- الزّاوية الفرعية: 226.
- زاوية القادرية: 37، 60، 61، 75، 82، 92، 110، 119، 121، 126، 128، 135، 145، 154، 156، 166، 237، 250، 258، 259، 260.
- زاوية الكاف: 53، 100، 236.
- زاوية المدنية: 148.
- زاوية منزل بوزلفة: 30.
- زاوية نفطة: 66، 95، 99، 262.
- الزوايا: 29.
- زوايا ابن عزّوز: 133، 135.
- الزّوايا السّنوسية: 145.
- زوايا الطرق: 35، 48، 53، 111، 112، 126، 133، 152، 190، 220، 250.

زوايا الطريقة التيجانية: 123.
زوايا الطريقة الرحمانية: 53، 113، 126، 152، 158.
الزوايا القادرية: 43، 75، 102، 113.

— ط —

الطرق الصوفية: 19، 20، 21، 25، 29، 35، 36، 37، 39، 40، 46،
49، 50، 53، 55، 57، 59، 62، 63، 64، 65، 67، 70، 73، 74،
75، 76، 77، 81، 82، 83، 84، 86، 87، 88، 89، 97، 101، 103،
104، 105، 106، 110، 113، 117، 119، 121، 124، 127، 128،
131، 133، 134، 137، 139، 140، 142، 145، 152، 153، 154،
155، 156، 159، 167، 169، 171، 172، 178، 179، 185، 186،
187، 191، 192، 193، 195، 198، 199، 201، 203، 204، 210،
211، 213، 220، 224، 229، 230، 232، 234، 240، 244، 245،
246، 249، 250، 251، 253، 254، 255، 258، 260، 261، 263

— غ —

غرف الفلاحة والتجارة: 235.

— ق —

قبضة الأحباس: 107.
القصور «الرباطات»: 27.
القنصلية العامة: 126.
قيادة تاجروين: 55.

— ك —

الكتابة العامة (للحكومة التونسية): 85، 262.
الكلية الطبية: 225.

— م —

المجلس الشوري: 91.
المجلس العدلي: 80.
مجلس الوزراء: 106.

- المحاكم: 38
المحكمة الجنائية بسوسة: 102، 161.
محكمة سوسة: 98.
المحكمة العقارية المختلطة: 235.
المحكمة الفرنسية الجنائية: 216.
المحكمة المدنية بتونس: 99.
المدرسة: 29.
المدرسة التونسية للفتيات المسلمات: 257.
المدرسة الجامعة للفنون والمعامل: 150.
المدرسة الصادقية: 257.
المراقبة المدنية: 41، 54، 128، 188، 241.
مركز التوثيق القومي: 20.
المستشفى: 105، 189.
مكاتب الاستخبارات الفرنسية: 151، 152.
مكاتب الشؤون الأهلية: 177.

— ن —

التّياية العامّة: 161.

— ه —

الهيئات الشرعية الرّسمية: 179.

— و —

- الوزارة الأولى: 20.
وزارة الحرب (الفرنسية): 20.
وزارة الخارجية: (الفرنسية): 20.
الوزارة الكبرى: 264.

فهرس الطرق الصوفية

- الطريقة التيجانية: 36، 44، 45، 46، 63، 64، 65، 67، 68، 69، 74،
75، 81، 94، 104، 123، 124، 134، 146، 147، 167، 218.
- الطريقة الخلواتية: 36، 50، 52، 53.
- الطريقة الدرقاوية: 48.
- الطريقة الرحمانية: 52، 53، 54، 63، 68، 69، 73، 81، 86، 94،
112، 121، 127، 130، 134، 136، 140، 147، 148، 153، 160،
165، 167، 190، 262.
- الطريقة السلامية: 63، 64، 65، 68، 69، 112، 145، 146، 261.
- الطريقة السنوسية: 57، 70، 71، 72، 74، 75، 145، 146، 147، 171.
- طريقة سيدي أبي علي النفطي: 58، 63، 68، 69.
- الطريقة الشاوية: 50، 101، 155.
- الطريقة الشاذلية: 36، 46، 48، 63، 66، 67، 68، 69، 88، 213،
215، 216، 218.
- الطريقة العيساوية: 36، 64، 65، 68، 69، 104، 140، 255، 262.
- الطريقة القادرية: 36، 40، 46، 48، 61، 62، 63، 66، 68، 69، 70،
75، 76، 81، 91، 94، 104، 121، 128، 130، 133، 134، 147،
148، 153، 167، 261.
- الطريقة المدنية: 48، 49، 63، 68، 69، 70، 140، 141، 142، 143،
146، 148.
- الطريقة الناصرية: 50.

فهرس الأماكن

- أ -

- أرض الاسلام: 71، 82، 138
الأرياف: 76، 201.
أريانة: 242.
أحواز العاصمة (تونس): 198، 213.
الأحياء العربية (بالخاضرة): 213، 243.
الآستانة: 48، 175.
الاسكندرية: 50.
أسواق المدينة العربية بالخاضرة: 243.
أفريقيا: 176، 188.
أفريقيا الغربية: 186.
أفريقية: 27، 28.
الأقاليم: 26.
الأقاليم الإسلامية: 26.
الألزاس: 118.
ألمانيا: 167، 168، 172، 177، 179، 183، 184، 185، 186، 187،
191، 192.
الامبراطورية العثمانية: 117.
الأندلس: 26.
أوروبا: 257.
الايالة: 21، 36، 37، 40، 48، 49، 50، 63، 70، 72، 73، 75، 81،
82، 83، 86، 88، 89، 94، 104، 106، 107، 109، 118، 131،
138، 139، 140، 147، 149، 151، 152، 155، 158، 159، 160،
164، 166، 167، 169، 171، 173، 176، 177، 178، 179، 183.

190، 191، 192، 193، 194، 195، 198، 199، 202، 205، 206،
208، 209، 210، 211، 212، 213، 217، 219، 223، 225، 226،
230، 239، 242، 253، 257، 258، 260
الايالة التونسية: 20، 53، 119، 154، 156، 180، 208.
إيطاليا: 118، 208، 210.

— ب —

باب سوقة: 198، 227.
الباب العالي: 71، 148.
باجة: 41، 45، 54، 69، 113، 197.
باردو: 118، 120، 122، 128.
باريس: 20، 123، 189، 233.
بجاوة: 221.
بجاية: 40.
البحر الأحمر: 117.
برج الشعاني: 160.
برلين: 117، 176.
بريطانيا: 117، 118.
بسكرة: 53، 150.
بشيمة: 50.
البلاد التونسية: 19، 20، 25، 27، 28، 39، 40، 43، 45، 46، 49،
61، 63، 64، 67، 68، 69، 70، 72، 73، 77، 81، 82، 83، 84،
86، 87، 89، 97، 100، 103، 119، 121، 122، 127، 129، 130،
143، 148، 153، 154، 156، 172، 173، 186، 187، 191، 200،
217، 218، 232، 237، 242، 244، 249، 251، 256، 262
البلدان الإسلامية: 144، 178.
بلدان العالم الإسلامي: 39.

بنزرت . 41 ، 43 ، 45 ، 49 ، 54 ، 68 ، 91 ، 127 ، 128 ، 171 ، 188 ،
197 ، 227 ، 238 ، 253 .
بني خيار : 261 .
البوادي : 34 .
بوشبكة : 162 .
بوعرادة : 46 ، 61 ، 123 ، 157 ، 158 ، 188 ، 189 ، 197 ، 199 ، 204 ،
205 ، 207 ، 218 ، 232 ، 233 ، 234 ، 235 ، 237 .
بولعابة : 162 .
بئر الغرب : 106 .

— ت —

تاجروين : 205 ، 262 .
تالة : 41 ، 45 ، 54 ، 55 ، 64 ، 69 ، 74 ، 76 ، 86 ، 133 ، 135 ، 136 ،
161 ، 163 ، 169 ، 182 .
تبرسق : 41 ، 54 ، 64 ، 90 ، 111 ، 210 ، 236 .
تبسة : 96 ، 145 ، 150 ، 262 .
التراب التونسي : 118 .
التراب الجزائري : 118 .
التراب العسكري : 170 .
تركيا : 128 ، 171 ، 172 ، 174 ، 177 ، 179 ، 183 ، 184 ، 185 ،
186 ، 187 ، 191 ، 192 ، 210 ، 211 .
تستور : 137 .
تطاوين : 41 ، 45 ، 68 ، 71 ، 113 ، 167 .
تماسين : 98 ، 146 ، 168 .
تمغزة : 98 ، 146 ، 148 ، 149 ، 150 ، 151 ، 152 .

توزر: 41، 43، 45، 55، 60، 61، 68، 96، 99، 113، 122، 145،
146، 155، 195، 223، 224، 241.

تونس: 20، 21، 26، 28، 29، 30، 38، 40، 41، 45، 48، 49، 50،
54، 68، 70، 71، 82، 83، 85، 88، 93، 94، 99، 110، 118، 122،
124، 125، 138، 141، 142، 146، 147، 149، 151، 153، 154،
156، 157، 173، 175، 177، 179، 184، 193، 202، 204، 207،
208، 209، 223، 227، 229، 234، 241، 245، 253، 256، 257،
258، 260.

- ج -

الجامع: 226، 238، 252.
جامع الزيتونة: 72، 176، 221، 239، 252، 256.
جامع عقبة ابن نافع: 252.
جامع القيروان: 132.
جبل آدار: 27.
جبل التوبة: 213.
جبل السرج: 125.
جبل سمّامة: 133، 135، 136، 162.
جبل سيدي أبي الحسن: 213، 215،
جبل الشعاني: 162.
جبل مغيلة: 66، 135، 166.
جبنانة: 242.
جدّة: 70.
جربة: 41، 43، 68، 77، 243.
جرجيس: 68، 94، 261.
الجريد: 43، 50، 53، 59، 61، 111، 122، 133، 145، 146،
154، 155.
الجريصة: 226، 227، 228.

الجزائر: 30، 53، 81، 82، 83، 84، 93، 94، 96، 101، 124، 127،
129، 146، 147، 148، 150، 153، 154، 175، 186، 187، 209،
210، 218، 237، 245، 260، 264.

جغوب: 146.

الجم: 137، 241.

جمال: 242، 244.

الجنوب: 46، 60، 68، 71، 73، 101، 102، 144، 145، 146، 147،
148، 151، 152، 159، 167، 168، 169، 170، 177، 178، 194، 218، 241.

جنوب البحر الأبيض المتوسط: 168.

الجنوب التونسي: 43، 74، 98، 145، 148، 149، 167، 202، 220.

الجهات الساحلية: 140، 228.

جهة باجة: 241.

جهة تطاوين: 168، 261.

جهة جرجيس: 55. جهة جندوبة: 129.

جهة الجنوب: 224.

جهة زغوان: 137.

جهة قبلي: 55.

جهة قسنطينة: 148.

جهة الفصرين: 86.

جهة قفصة: 245.

جهة ماطر: 60.

جهة نابل: 27.

جهة نفزة: 199.

- ح -

الحاضرة: 43، 45، 123، 213، 216، 220، 221، 229، 262.
حاضرة تونس: 45.

- الحامّة: 61.
الحدّ التّونسي الطرابلسي: 176.
حدود البلاد: 27.
الحدود التّونسية الجزائرية: 82، 118، 131.
الحدود الجنوبية: 147، 148.
الحدود الطرابلسية: 43.
حفرة الاثنى عشر (تالة): 161.
الحفصية: 198.
حقّوز: 200.
حمّام الأنف: 223.
حوانيت عاشور: 45.
حومة السّوق: 17.
حيدرة: 132، 135، 136، 254.

- خ -

- خنقة الجبّاس: 162.
خنقة الظّريف: 155.

- د -

- دائرة تبسة: 66.
دار الخلافة: 174، 176، 177.
دار المراقبة: 161.
الدّبابة: 92.
دور الحسبة (توزر): 110.
دوز: 72.
الدّويرات: 145.
الدّير (الجزائر): 96.

- ذ -

- ذهبية: 102.

— ر —

راس سرات: 129.

الرّوحية: 132.

— ز —

زغوان: 41، 49، 54، 90.

الزّلاّج: 174، 212، 213، 214، 215، 216، 217، 218، 219، 230،

232، 240، 263

زليتّن: 146.

— س —

ساحة باب سويقة: 227.

السّاحل: 59، 253.

السّاحل التّونسي: 151.

سان مرجوريت: 151.

سبيبة: 133، 135، 254.

سبيطلة: 132، 166.

سجن قصر باردو: 220.

سدّ وادي بوزافة (سليانة): 159.

سراط: 30.

السّرس: 126.

سُكرة: 253.

سليانة: 39، 53، 54، 130، 171، 210.

سهل بوسالم: 129.

سهل سليانة: 159، 211.

سهل فوسانة: 166.

السّواحل: 68، 72، 73، 83.

السّواحل الاسلامية: 27.

السّواحل الافريقية : 27.
السّواحل الشّرقية : 64، 75.
السّواسي : 205، 242.
السّودان : 65.
سوريا : 171، 210.
سوسة : 41، 45، 55، 68، 76، 102، 195، 223، 242، 243.
سوف (الجزائر) : 145.
سوق الاربعاء : 41، 43، 45، 54، 69، 95، 105، 127، 131، 253.
سوق الخميس : 197، 240.
سيدي الصّورْدُو : 37.

— ش —

الشّابة : 50، 242.
الشّرق : 177.
الشّمال : 43، 59، 61، 64، 127، 128.
شمال افريقيا : 29، 105.
شمال شرق الايالة : 60، 118.
الشّمال الشّرقى : 43، 64.
الشّمال الغربى : 43، 53، 61، 64، 69، 70، 72، 73، 76، 129، 130، 153، 224.
شمال فرنسا : 189.

— ص —

صالونيك : 176.
الصّحراء : 44، 102، 155.
صحن زاوية سيدي أبى سعيد : 262.
صفاقس : 41، 43، 48، 49، 55، 66، 68، 72، 76، 88، 92، 137، 140، 141، 142، 143، 144، 153، 171، 200، 241، 243، 244.

— ط —

طبرية: 187، 262.

طبرقة: 41، 43، 54، 69، 101، 118، 131، 242.

طبلبة: 241.

طرابلس: 72، 125، 132، 144، 146، 148، 173، 176، 208، 210،

211، 217، 219.

طرابلس الغرب: 48، 70، 101، 122، 125، 138، 141، 143، 146،

148، 149، 168، 169، 208، 209، 217.

طولقة (الجزائر): 187.

— ع —

العاصمة: 210، 213، 224.

العالم الاسلامي: 26، 34، 70، 87، 173، 177، 208، 209.

عبدة. 38.

عين جلولاء: 200.

عين خمودة: 161.

عين دراهم: 127، 240.

عين الصّابون: 53، 182.

عين صالح: 43.

عين الكدية: 200.

عين المنشية: 135، 152.

عين مهدي: 146.

— غ —

غابة دايخة (نفطة): 110.

غار الدماء: 95، 118، 253.

غدامس: 43، 145.

الغرب: 48، 128، 144.

— ف —

فاس : 44 ، 212 .

الفحص : 125 .

فرنسا : 71 ، 81 ، 82 ، 83 ، 91 ، 101 ، 105 ، 113 ، 117 ، 118 ، 122 ،
141 ، 142 ، 143 ، 147 ، 150 ، 151 ، 167 ، 168 ، 169 ، 171 ، 172 ،
176 ، 177 ، 178 ، 179 ، 183 ، 184 ، 185 ، 187 ، 188 ، 189 ، 190 ،
191 ، 192 ، 203 ، 206 ، 207 ، 208 ، 223 ، 225 ، 232 ، 233 ، 235

240 ، 242 ، 245

قرآن : 71 .

فريانة : 136 .

فوسانة : 162 ، 164 ، 165 .

— ق —

قابس : 41 ، 43 ، 45 ، 49 ، 55 ، 68 ، 71 ، 72 ، 144 ، 147 ، 149 ، 153 ،

172 ، 177 ، 242 ، 243

القارة الأوربية : 118 .

القاهرة : 45 .

قبرص : 117 .

قبلي : 41 ، 68 .

قرطاج : 237 .

قربالية : 41 ، 45 ، 68 ، 242 .

القرى : 34 ، 255 .

القرية : 34 ، 255 .

قسنطينة : 75 ، 110 .

القسنطينية : 142 ، 143 ، 144 ، 262 .

قصر الباي : 118 .

قصر فانسان : 20 .

قصر مدين : 149 .

قصر مزوار (باجة): 241.
القصر الملكي: 241.
قصر هلال: 120.
الفصريين: 61، 96، 133، 162، 166.
الفصور: 37، 110، 254، 262.
قصية المديوني: 226.
ثعفور: 236.
ففصة: 37، 41، 45، 55، 68، 98، 150، 151، 155، 166، 181،
182، 223، 224، 226، 245.
القلعة الجرداء: 254.
القلعة الكبرى: 241، 242.
قناة السويس: 117.
قيادة تاجروين: 75.
قيادة جلاص: 76.
القيروان: 26، 27، 28، 41، 45، 49، 55، 66، 69، 76، 138، 153،
182، 190، 200، 223، 241، 242، 252.

— ك —

الكاف: 30، 37، 38، 39، 41، 43، 45، 53، 55، 61، 64، 69، 70،
72، 95، 98، 99، 105، 113، 119، 121، 123، 125، 126، 127،
128، 130، 135، 152، 153، 155، 156، 157، 158، 163، 181،
199، 205، 206، 211، 232، 235، 236، 237، 259، 263، 260.
كدية الحلفاء: 54، 125، 131، 133، 135، 137، 152، 263.
كرسيكا: 151.
كوكة: 90.

— ل —

اللوران: 118.
ليبيا: 175، 210، 212.

- مجاز الباب: 45، 54، 204، 254
المدن: 34، 118، 128، 129، 152، 194، 201، 225، 227، 251،
255.
المدن الساحلية: 75، 128، 144.
مدن الشمال: 144.
المدينة: 34، 58، 75، 76، 92، 119، 121، 125، 126، 129، 141،
142، 143، 216، 220، 243.
مدينة تونس: 66، 75، 213، 217.
مدينة الكاف: 120، 122، 127، 131.
مدنين: 41، 45، 68، 102، 145، 146.
مراقبة تالة: 72، 73، 74، 139، 140، 160، 161.
مراقبة القيروان: 72، 113.
المرسى: 241.
مرسيليا: 220.
المساجد: 34، 220، 240، 251، 252.
مساكن: 242، 243.
المستشفى الصادقي: 215.
مسجد الدمنة: 28.
مسجد السبت: 28، 29.
مسجد قبا: 28.
مسرطة: 146، 148.
المشرق: 26، 28، 46، 128، 144، 173، 174، 176، 256، 262.
المشرق الاسلامي: 26، 144.
مشيخة المسكية: 226.
مصر: 53، 117، 209.

- مضيق صقلية : 118 .
 مطماطة : 41 .
 المطوية : 60 .
 المغارة الشاذلية : 213 .
 المغرب : 26 ، 28 ، 29 ، 173 ، 176 ، 262 .
 المغرب الأقصى : 44 ، 237 ، 262 .
 المغرب العربي : 28 ، 175 .
 مقابر المسلمين : 227 ، 238 .
 مقاطعة الجزائر : 43 .
 مقاطعة قسنطينة : 43 .
 مقام أبي الحسن الشاذلي : 218 .
 مقام سيدي أبي سعيد : 259 .
 مقبرة الزلاج : 212 .
 مقبرة الصّريين : 238 .
 مقرّ الخليفة : 168 ، 253 .
 مفرن : 150 .
 مفرين : 197 .
 مكّة : 60 .
 مكشر : 41 ، 49 ، 55 ، 64 ، 69 ، 159 ، 163 ، 210 ، 254 .
 مكناس : 66 .
 المكنين : 223 ، 240 ، 242 .
 الملائسين : 113 ، 194 ، 195 ، 198 .
 المملكة التّونسية : 178 .
 المناطق الحدودية : 149 .
 المناطق السّاحلية : 73 ، 224 .
 مناطق الشمال الغربي والوسط الغربي : 224 ، 228 ، 253 .

منجم الجريصة: 228.
منزل بورقية: 226.
منزل بوزلفة: 30، 43، 70، 75، 242.
منزل تميم: 241، 242.
منزل جميل: 250.
المنستير: 205، 223، 226، 242.
منشار (باجة): 241.
منطقة الجنوب: 67، 110.
المقاهي: 213، 251.
المهدية: 242.
منوبة: 197.
ميناء بنزرت: 118، 129.
ميناء تونس: 239.
ميناء طبرقة: 129.

— ن —

نابل: 27، 242.
نفزاوة: 65.
نقطة: 38، 53، 61، 82، 95، 110، 113، 130، 131، 135، 145،
146، 149، 151، 154، 181، 187، 262، 259، 260.
النمامشة: 96.
النوادي: 251.
نهج النحاس: (تونس): 110.

— ه —

هضبة بودرياس: 162.
هضبة زلفان: 162.

الهند: 26، 117، 209.

هنشير سليانة: 30.

هنشير سيدي الروماني: 240.

هنشير الشط: 54.

هنشير الفصرين: 163.

— و —

وادي الحطب: 61، 162.

وادي سراط: 254.

وادي غريب: 95.

وادي مليز: 253.

الوديان: 145.

ورقلة: 101.

الوسط: 46، 53، 54، 64، 69، 70، 72، 73، 75، 76، 132، 133،

137، 194.

وسط افريقيا: 74.

الوسط الغربي: 53، 64، 69، 70، 72، 73، 75، 76، 132، 133،

137، 139، 152، 160، 224.

الوسلاتية: 125، 200.

الوطن القبلي: 66، 253.

ولاية القيروان: 125.

— ي —

اليونان: 26.

فهرس الجداول والخرائط

1. فهرس الخرائط:

- خريطة مواضع زوايا الطريقة القادرية بالبلاد التونسية 41
- خريطة مواضع زوايا الطريقة الرحمانية بالبلاد التونسية 54
- خريطة مواقع بعض الأماكن — بالبلاد التونسية — التي ورد ذكرها في البحث 269
- خريطة مواطن بعض العروش والقبائل بالبلاد التونسية التي ورد ذكرها في البحث 271
- رسم للطرق المتفرعة عن الطريقة القادرية 46
- رسم للطرق المتفرعة عن الطريقة الخلواتية 50

2. فهرس الجداول

- جدول أتباع الطريقة القادرية بالبلاد التونسية سنة 1925 40
- جدول أتباع الطريقة التيجانية بالبلاد التونسية سنة 1925 44
- جدول أتباع الطريقة المدنية بالبلاد التونسية سنة 1925 47
- جدول أتباع الطريقة الرحمانية بالبلاد التونسية سنة 1925 53
- جدول توزع أتباع بعض الطرق — التي لها علاقة بالبحث — بأهم جهات البلاد التونسية سنة 1925 65 و 66
- جدول في قيمة ممتلكات ومداخيل بعض الطرق الصوفية بالبلاد التونسية سنة 1925 60
- جدول الانتماءات الطرقية لبعض قبائل الوسط والشمال الغربيين التي ساهمت في التصدي لدخول الاستعمار الفرنسي للبلاد التونسية سنة 1881 130
- جدول الأطراف الطرقية التي عبرت عن مواقفها من دخول تركيا الحرب العالمية الأولى الى جانب ألمانيا 176 - 178

... إن صعوبة تناول مثل هذه
المواضيع تنبع من صيغتها الدينية الحساسة
وذلك لما تستوجبه مثل هذه المواضيع من جرأة ليس على
مستوى الطرح فقط، وإنما خاصة لما تتطلبه من سعة اطلاع وقدرة
على فهم مختلف جوانبها، إذ الأمر يتعلق بممارسات ومواقف أشخاص
نافذين لما تمتعوا به من صيغة دينية، وما يحضون به من تقدير واحترام
في الذاكرة الجماعية لمجتمعاتنا.

لذلك فإنه لا تخفى على أحد صعوبة التصدي لكتابة تاريخ مثل هذه الفئات
الدينية وخاصة فيما يتعلق بعلاقاتها بالاستعمار الفرنسي...

غير أننا لا نريد عن الصواب، إذا قررنا أن الأستاذ التليبي العجيلي تناول
الموضوع من موقع العارف المتبصر، المتجرد من الأفكار المسبقة والأحكام
الجاهزة... فلقد أمكنه، بفضل الموضوعية التي التزم بها، والمنهجية التي
توخاها... أن يقي هذه الدراسة حقها في مختلف قصورها ومحاورها.

إن صندوق مثل هذا العمل عن مختص في التاريخ بالذات أمر يستحق التنويه
خاصة وأنه فتح مجالات اهتمام متميزة تجاوزت إطار التاريخ السياسي
والاقتصادي اللذين تمحورت حولهما أغلب البحوث التاريخية في السابق.

الأستاذ
رشاد الإمام (تقديم)